الميزان في تفسير القرآن

للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد الخامس عشر

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان

الميزان

في

تفسير القرآن

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

الميزان في تفسير القرآن

كتاب علمي ، فني ، فلسفي ، أدبي ،
تاريخي ، روائي ، اجتماعي ، حديث
يفسر القرآن بالقرآن

تاليف

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي

المجلد الخامس عشر

الطبعة الثانية
حقوق الطبع والتقليد محفوظة ومسجلة للناشر
١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م

تمتاز هذه الطبعة عن غيرها بالتحقيق والتصحيح الكامل
وإضافات وتغييرات هامة من قبل المؤلف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

(سورة المؤمنون مكية ، وهي مائة وثماني عشرة آية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ـ ١ . أَلَّذِينَ
هُمْ فِي صَلاٰتِهِمْ خٰاشِعُونَ ـ ٢ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ـ ٣ .
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكٰوةِ فٰاعِلُونَ ـ ٤ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ ـ ٥ .
إِلاَّ عَلىٰ أَزْوٰاجِهِمْ أَوْ مٰا مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ـ ٦ .
فَمَنِ ٱبْتَغىٰ وَرٰاءَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْعٰادُونَ ـ ٧ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمٰانٰاتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رٰاعُونَ ـ ٨ . وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلىٰ صَلَوٰاتِهِمْ يُحٰافِظُونَ ـ ٩ .
أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْوٰارِثُونَ ـ ١٠ . ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهٰا
خٰالِدُونَ ـ ١١ .

(بيان)

في السورة دعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وتمييز المؤمنين من الكفار بذكر ما لهؤلاء من جميل صفات العبودية وما لاولئك من رذائل الأخلاق ومفاسف الأعمال ، وتعقيب ذلك بالتبشير والإنذار ، وقد تضمّن الإنذار ذكر عذاب الآخرة وما غشي

الامم المكذبين للدعوة الحقة من عذاب الاستئصال في مسير الدعوة آخذاً من زمن نوح إلى زمن المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام .

والسورة مكية ، وسياق آياتها يشهد بذلك .

قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون » قال الراغب : الفلح - بالفتح فالسكون - الشق ، وقيل : الحديد بالحديد يفلح أي يشق ، والفلاح الظفر وإدراك بغية وذلك ضربان : دنيوي وأخروي ، فالدنيوي الظفر بالسعادات التي تطيب بها الحياة الدنيا وهو البقاء والغنى والعز ، والاخروي أربعة أشياء : بقاء بلا فناء ، وغنى بلا فقر ، وعز بلا ذل ، وعلم بلا جهل ، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة. انتهى ملخصاً. فتسمية الظفر بالسعادة فلاحاً بعناية أن فيه شقاً للمانع وكشفاً عن وجه المطلوب .

والإيمان هو الإذعان والتصديق بشيء بالالتزام بلوازمه ، فالإيمان بالله في عرف القرآن التصديق بوحدانيته ورسله واليوم الآخر وبما جاءت به رسله مع الاتباع في الجملة ، ولذا نجد القرآن كلما ذكر المؤمنين بوصف جميل أو أجر جزيل شفّع الإيمان بالعمل الصالح كقوله : « مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة » النحل:٩٧ ، وقوله : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب » الرعد : ٢٩ ، إلى غير ذلك من الآيات وهي كثيرة جداً .

وليس مجرد الاعتقاد بشيء إيماناً به حتى مع عدم الالتزام بلوازمه وآثاره فإن الإيمان علم بالشيء مع السكون والاطمئنان اليه ولا ينفكّ السكون إلى الشيء من الالتزام بلوازمه لكن العلم ربما ينفكّ من السكون والالتزام ككثير من المعتادين بالأعمال الشنيعة أو المضرّة فإنهم يعترفون بشناعة عملهم أو ضرره لكنهم لا يتركونها معتذرين بالاعتياد وقد قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » النمل : ١٤ .

والإيمان وإن جاز أن يجتمع مع العصيان عن بعض لوازمه في الجملة لصارف من الصوارف النفسانية يصرف عنه لكنه لا يتخلف عن لوازمه بالجملة .

قوله تعالى : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » الخشوع تأثر خاص من المقهور قبال القاهر بحيث ينقطع عن غيره بالتوجه اليه والظاهر أنه من صفات القلب ثم ينسب إلى الجوارح أو غيرها بنوع من العناية كقوله ﷺ - على ما روي - فيمن يعبث بلحيته

في الصلاة : أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه ، وقوله تعالى: « وخشعت الأصوات للرحمان » طه : ١٠٨ .

والخشوع بهذا المعنى جامع لجميع المعاني التي فسّر بها الخشوع في الآية ، كقول بعضهم : هو الخوف وسكون الجوارح ، وقول آخرين : غضّ البصر وخفض الجناح ، أو تنكيس الرأس ، أو عدم الالتفات يميناً وشمالاً ، أو إعظام المقام وجمع الاهتمام ، أو التذلّل إلى غير ذلك .

وهذه الآية إلى تمام ثماني آيات تذكر من أوصاف المؤمنين ما يلازم كون وصف الإيمان حيّاً فعّالاً يترتب عليه آثاره المطلوبة منه ليترتب عليه الغرض المطلوب منه وهو الفلاح فإن الصلاة توجه ممن ليس له إلا الفقر والذلّة إلى ساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والبهاء، ولازمه أن يتأثر الإنسان الشاعر بالمقام فيستغرق في الذلّة والهوان وينتزع قلبه عن كل ما يلهوه ويشغله عما يهمّه ويواجهه، فلو كان إيمانه إيماناً صادقاً جعل همّه حين التوجه إلى ربه همّاً واحداً وشغله الاشتغال به عن الالتفات إلى غيره فماذا يفعل الفقير المحض إذا لقي غنى لا يقدّر بقدر؟ والذليل إذا واجه عزة مطلقة لا يشوبها ذلّة وهوان ؟

وهذا معنى قوله ﷺ في حديث الحارثة بن النعمان المروي في الكافي وغيره : إن لكل حق حقيقة ولكل صواب نوراً . الحديث .

(كلام في معنى تأثير الإيمان)

الدين ــ كما تقدّم مراراً ــ السنّة الاجتماعية التي يسير بها الانسان في حياته الدنيوية الاجتماعية ، والسنن الاجتماعية متعلقة بالعمل مبنياً على أساس الاعتقاد في حقيقة الكون والانسان الذي هو جزء من أجزائه ، ومن هنا ما نرى أن السنن الاجتماعية تختلف باختلاف الاعتقادات فيما ذكر .

فمن يثبت للكون ربّاً يبتديء منه وسيعود اليه وللانسان حياة باقية لا تبطل بموت ولا فناء يسير في الحياة سيرة يراعي في الأعمال الجارية فيها سعادة الحياة الباقية والتنعّم في الدار الآخرة الخالدة .

ومن يثبت له إلهاً أو آلهة تدبّر الأمر بالرضا والسخط من غير معاد اليه يعيش عيشة نظمها على أساس التقرّب من الآلهة وإرضائها للفوز بأمتعة الحياة والظفر بما يشتهيه من نعم الدنيا .

ومن لا يهتمّ بأمر الربوبية ولا يرى للانسان حياة خالدة كالماديين ومن يحذو حذوهم يبني سنّة الحياة والقوانين الموضوعة الجارية في مجتمعه على أساس التمتع من الحياة الدنيا المحدودة بالموت .

فالدين سنّة عملية مبنية على الاعتقاد في أمر الكون والانسان بما أنه جزء من أجزائه ، وليس هذا الاعتقاد هو العلم النظري المتعلق بالكون والانسان فإن العلم النظري لا يستتبع بنفسه عملاً وإن توقف عليه العمل بل هو العلم بوجوب الجري على ما يقتضيه هذا النظر وإن شئت فقل : الحكم بوجوب اتباع المعلوم النظري والالتزام به ، وهو العلم العملي كقولنا : يجب أن يعبد الانسان الإله تعالى ويراعي في أعماله ما يسعد به في الدنيا والآخرة معاً .

ومعلوم أن الدعوة الدينية متعلقة بالدين الذي هو السنّة العملية المبنية على الاعتقاد ، فالإيمان الذي يتعلق به الدعوة هو الالتزام بما يقتضيه الاعتقاد الحق في الله سبحانه ورسله واليوم الآخر وما جاءت به رسله وهو علم عملي .

والعلوم العملية تشتد وتضعف حسب قوة الدواعي وضعفها فإنا لسنا نعمل عملاً قط إلا طمعاً في خير أو نفع أو خوفاً من شر أو ضرر ، وربما رأينا وجوب فعل لداع يدعو اليه ثم صرفنا عنه داع آخر أقوى منه وآثر ، كمن يرى وجوب أكل الغذاء لرفع ما به من جوع فيصرفه عن ذلك علمه بأنه مضرّ له مناف لصحته ، فبالحقيقة يقيّد الداعي المانع بما معه من العلم إطلاق العلم الذي مع الداعي الممنوع كأنه يقول مثلاً : إن التغذي لرفع الجوع ليس يجب مطلقاً بل إنما يجب إذا لم يكن مضرّاً بالبدن مضادّاً لصحته .

ومن هنا يظهر أن الإيمان بالله إنما يؤثر أثره من الأعمال الصالحة والصفات الجميلة النفسانية كالخشية والخشوع والإخلاص ونحوها إذا لم يغلبه الدواعي الباطلة والتسويلات الشيطانية ، وبعبارة أخرى إذا لم يكن إيماناً مقيّداً بحال دون حال كما قال تعالى : « ومن الناس مَن يعبد الله على حرف » الحج : ٦١ .

فالمؤمن إنما يكون مؤمناً على الإطلاق إذا جرت أعماله على حاق ما يقتضيه إيمانه من الخشوع في عبادته والإعراض عن اللغو ونحوه .

قوله تعالى : « والذين هم عن اللغو معرضون » اللغو من الفعل هو ما لا فائدة فيه ويختلف باختلاف الامور التي تعود عليها الفائدة فرُبَّ فعل هو لغو بالنسبة إلى أمر وهو بعينه مفيد مُجدٍ بالنسبة إلى أمر آخر .

فاللغو من الأفعال في نظر الدين الأعمال المباحة التي لا ينتفع بها في الآخرة أو في الدنيا بحيث ينتهي أيضاً إلى الآخرة كالأكل والشرب بداعي شهوة التغذي اللذين يتفرع عليهما التقوّي على طاعة الله وعبادته ، فإذا كان الفعل لا ينتفع به في آخرة ولا في دنيا تنتهي بنحو إلى آخرة فهو اللغو وبنظر أدق هو ما عدا الواجبات والمستحبات من الأفعال .

ولم يصف سبحانه المؤمنين بترك اللغو مطلقاً فإن الانسان في معرض العثرة ومزلة الخطيئة وقد عفا عن السيئات إذا اجتنبت الكبائر كما قال : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نُكفّرْ عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً » النساء : ٣١ .

بل وصفهم بالإعراض عن اللغو دون مطلق تركه والإعراض يقتضي أمراً بالفعل يدعو إلى الاشتغال به فيتركه الانسان صارفاً وجهه عنه إلى غيره لعدم اعتداده به واعتنائه بشأنه ، ولازمه ترفّع النفس عن الأعمال الخسيسة واعتلاؤها عن الاشتغال بما ينافي الشرف والكرامة وتعلّقها بعظائم الامور وجلائل المقاصد .

ومن حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن فيه تعلّقاً بساحة العظمة والكبرياء ومنبع العزة والمجد والبهاء والمتصف به لا يهتمّ إلا بحياة سعيدة أبدية خالدة فلا يشتغل إلا بما يستعظمه الحق ولا يستعظم ما يهتمّ به سفلة الناس وجهلتهم ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً .

ومن هنا يظهر أن وصفهم بالإعراض عن اللغو كناية عن علوّ همّتهم وكرامة نفوسهم .

قوله تعالى : « والذين هم للزكاة فاعلون » ذكر الزكاة مع الصلاة قرينة على كون المراد بها الإنفاق المالي دون الزكاة بمعنى تطهير النفس بإزالة رذائل الأخلاق عنها ولعل المراد بالزكاة المعنى المصدري وهو تطهير المال بالإنفاق منه دون المقدار المخرج من المال

فإن السورة مكية وتشريع الزكاة المعهودة في الإسلام إنما كان بالمدينة ثم صار لفظ الزكاة علماً بالغلبة للمقدار المعين المخرج من المال .

وبهذا يستصحّ تعلّق « للزكاة » بقوله : « فاعلون » والمعنى : الذين هم فاعلون للإنفاق المالي ، وأما لو كان المراد بالزكاة نفس المال المخرج لم يصحّ تعلقه به إذ المال المخرج ليس فعلاً متعلقاً بفاعل ، ولذا قدّر بعض من حمل الزكاة على هذا المعنى لفظ التأدية فكان التقدير عنده والذين هم لتأدية الزكاة فاعلون ، ولذا أيضاً فسّر بعضهم الزكاة بتطهير النفس عن الأخلاق الرذيلة فراراً من تعلق « للزكاة » بقوله : «فاعلون».

وفي التعبير بقوله : « للزكاة فاعلون » دون أن يقول : للزكاة مؤدّون أو ما يؤدي معناه دلالة على عنايتهم بها كقول القائل : إني شارب لمن أمره بشرب الماء فإذا أراد أن يفيد عنايته به قال : إني فاعل .

ومن حق الإيمان بالله أن يدعو إلى هذا الإنفاق المالي فإن الانسان لا ينال كمال سعادته إلا في مجتمع سعيد ينال فيه كل ذي حق حقه ولا سعادة لمجتمع إلا مع تقارب الطبقات في التمتع من مزايا الحياة وأمتعة العيش ، والإنفاق المالي على الفقراء والمساكين من أقوى ما يدرك به هذه البغية .

قوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون » إلى آخر الآيات الثلاث ، الفروج جمع فرج وهو – على ما قيل – ما يسوء ذكره من الرجال والنساء ، وحفظ الفروج كناية عن الاجتناب عن المواقعة سواء كانت زنا أو لواطاً أو بإتيان البهائم وغير ذلك.

وقوله : « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين » استثناء من حفظ الفروج ، والأزواج الحلائل من النساء ، وما ملكت أيمانهم الجواري المملوكة فإنهم غير ملومين في مسّ الأزواج الحلائل والجواري المملوكة .

وقوله : « فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون » تفريع على ما تقدم من الاستثناء والمستثنى منه أي إذا كان مقتضى الإيمان حفظ الفروج مطلقاً إلا عن طائفتين من النساء هما الأزواج وما ملكت أيمانهم ، فمن طلب وراء ذلك أي مسّ غير الطائفتين فاولئك هم المتجاوزون عن الحد الذي حدّه الله تعالى لهم .

وقد تقدم كلام ما فيما يستعقبه الزنا من فساد النوع في ذيل قوله : « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً » أسرى : ٣٢ في الجزء الثالث عشر من الكتاب .

قوله تعالى : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » الأمانة مصدر في الأصل وربما أريد به ما ائتمن عليه من مال ونحوه ، وهو المراد في الآية ، ولعل جمعه للدلالة على أقسام الأمانات الدائرة بين الناس ، وربما قيل بعموم الأمانات لكل تكليف إلهي اؤتمن عليه الانسان وما اؤتمن عليه من أعضائه وجوارحه وقواه أن يستعملها فيما فيه رضى الله وما ائتمنه عليه الناس من الأموال وغيرها ، ولا يخلو من بُعد بالنظر إلى ظاهر اللفظ وإن كان صحيحاً من جهة تحليل المعنى وتعميمه .

والعهد بحسب عرف الشرع ما التزم به بصيغة العهد شقيق النذر واليمين، ويمكن أن يراد به مطلق التكليف المتوجه إلى المؤمن فإن الله سبحانه سمّى إيمان المؤمن به عهداً وميثاقاً منه على ما توجه اليه من تكاليفه تعالى بقوله : « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم » البقرة ١٠٠ ، وقوله : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار » الأحزاب : ١٥ ، ولعل إرادة هذا المعنى هو السبب في إفراد العهد لأن جميع التكاليف يجمعها عهد واحد بإيمان واحد .

والرعاية الحفظ ، وقد قيل : إن أصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذبّ العدو عنه ثم استعمل في الحفظ مطلقاً . انتهى . ولعل العكس أقرب إلى الاعتبار .

وبالجملة الآية تصف المؤمنين بحفظ الأمانات من أن تخان والعهد من أن ينقض ، ومن حق الإيمان أن يدعو إلى ذلك فإن في إيمانه معنى السكون والاستقرار والاطمئنان فإذا آمن أحد في أمانة أودعها عنده أو عهد عاهده وقطع على ذلك استقرّ عليه ولم يتزلزل بخيانة أو نقض .

قوله تعالى : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » جمع الصلاة وتعليق المحافظة عليه دليل على أن المراد المحافظة على العدد فهم يحافظون على أن لا يفوتهم شيء من الصلوات المفروضة ويراقبونها دائماً ومن حق إيمانهم أن يدعوهم إلى ذلك .

ولذلك جمعت الصلاة هنا وأفردت في قوله : « في صلاتهم خاشعون » لأن الخشوع في جنس الصلاة على حدّ سواء فلا موجب لجمعها .

قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون »

الفردوس أعلى الجنان ، وقد تقدم معناها وشيء من وصفها في ذيل قوله تعالى : «كانت لهم جنات الفردوس نزلا » الكهف : ١٠٧ .

وقوله : « الذين يرثون » الخ ، بيان لقوله: « الوارثون » ووراثتهم الفردوس هو بقاؤها لهم بعد ما كانت في معرض أن يشاركهم فيها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت اليهم ، وقد ورد في الروايات أن لكل إنسان منزلاً في الجنة ومنزلاً في النار فإذا مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله ، وستوافيك إن شاء الله في بحث روائي .

(بحث روائي)

في تفسير القمي وقوله : « الذين هم في صلاتهم خاشعون » قال : غضك بصرك في صلاتك وإقبالك عليها .

أقول : وقد تقدم أنه من لوازم الخشوع فهو تعريف بلازم المعنى ، ونظيره ما رواه في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن علي عليه‌السلام : أن لا تلتفت في صلاتك.

وفي الكافي بإسناده عن مسمع بن عبد الملك عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق .

أقول : وروى في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن أبي الدرداء عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ما في معناه ولفظه : استعيذوا بالله من خشوع النفاق. قيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع .

وفي المجمع في الآية روي أن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته فقال: أما إنه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه .

وفيه روي أن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كان يرفع بصره إلى السماء في صلاته فلما نزلت الآية طأطأ رأسه ورمى ببصره إلى الأرض .

أقول : ورواهما في الدر المنثور عن جمع من أصحاب الكتب عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم . وفي معنى الخشوع روايات أخر كثيرة .

وفي إرشاد المفيد في كلام لأمير المؤمنين عليه‌السلام : كل قول ليس فيه لله ذكر فهو لغو .

وفي المجمع في قوله : « والذين هم عن اللغو معرضون » روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أن يتقوّل الرجل عليك بالباطل أو يأتيك بما ليس فيك فتعرض عنه لله وفي رواية اخرى أنه الغناء والملاهي .

أقول : ما في روايتي المجمع من قبيل ذكر بعض المصاديق وما في رواية الإرشاد من التعميم بالتحليل .

وفي الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : تحلّ الفروج بثلاثة وجوه : نكاح بميراث ونكاح بلا ميراث ونكاح بملك يمين .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن أبي سارة قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عنها يعني المتعة فقال لي : حلال فلا تتزوج إلا عفيفة إن الله عز وجل يقول : « والذين هم لفروجهم حافظون » فلا تضع فرجك حيث لا تأمن على درهمك .

أقول : وفيه تعميم لمعنى حفظ الفروج بحيث يشمل ترك نكاح غير العفيفة .

والروايتان كما ترى تعدّان المتعة نكاحاً وازدواجاً والأمر على ذلك فيما لا يحصى من روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وعلى ذلك مبني فقههم .

والأمر على ذلك في عرف القرآن وفي عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذلك أنه ليس وراء ملك اليمين إلا نوعان : نكاح على الزوجية وزنا وقد حرم الله الزنا وأكد في تحريمه في آيات كثيرة في السور المكية والمدنية كسورتي الفرقان والإسراء وهما مكيتان وسورتي النور والممتحنة وهما مدنيتان .

ثم سماه سفاحاً وحرّمه في سورتي النساء والمائدة ثم سماه فحشاء ومنع عنه وذمه في سور الأعراف والعنكبوت ويوسف وهي مكية وفي سور النحل والبقرة والنور وهي أو الأخيرتان مدنيتان .

ثم سماه فاحشة ونهي عنها في سور الأعراف والأنعام والإسراء والنمل والعنكبوت والشورى والنجم وهي مكية وفي سور النساء والنور والأحزاب والطلاق وهي مدنية .

ونهى عنه أيضاً بالتكنية في آية المؤمنون : « فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون » ونظيره في سورة المعارج وكان من المعروف في أول البعثة من أمر الإسلام

أنه يحرم الخمر والزنا [١] .

فلو لم يكن التمتع ازدواجاً والمتمتع بها زوجاً مشمولة لقوله: «إلا على أزواجهم» لكان زنا ومن المعلوم بالضرورة أن التمتع كان معمولا به في مكة قبل الهجرة في الجملة وكذا في المدينة بعد الهجرة في الجملة ولازم ذلك أن يكون زنا أباحه النبي ﷺ لضرورة اقتضته لو أغمضنا عن قوله تعالى: « فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن» النساء: ٢٤ ولازم ذلك أن تكون آية سورة المؤمنون« إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم – إلى قوله – العادون » ، ناسخة لإباحة التمتع السابقة ثم يكون تحليل النبي ﷺ أو تحليل آية سورة النساء ذلك ناسخاً لجميع الآيات المكية الناهية عن الزنا وبعض المدنيات مما نزلت قبل التحليل ، وخاصة على قول من يقول: إن النبي ﷺ حلله ثم حرمه مرة [٢] بعد مرة فإن لازمه نسخ الآيات الناهية عن الزنا ثم إحكامها ثم نسخها ثم إحكامها مرات ولم يقل أحد من المسلمين بكونها منسوخة فضلاً عن النسخ بعد النسخ وهل هذا إلا لعب بكلام الله تجل عنه ساحة النبي ﷺ ؟

على أن الآيات الناهية عن الزنا آبية بسياقها وما فيه من التعليل آب عن النسخ وكيف يعقل أن يسمي الله سبحانه فعلاً من الأفعال فاحشة فحشاء وسبيل سوء ويخبر أن من يفعله يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ثم يجيز ارتكابه ثم يمنع ثم يجيز .

على أن أصل نسخ القرآن بالحديث لا معنى له [٣] .

على أن عدة من المرتكبين لنكاح المتعة في عهد النبي ﷺ كانوا من معاريف الصحابة وهم على ما هم عليه من حفظ ظواهر الأحكام فكيف استجازوا النبي ﷺ في الفحشاء ؟ وكيف لم يستخبثوه ؟ وكيف رضوا بالعار والشنار وقد تمتع زبير من

---

(١) على ما رواه ابن هشام في السيرة وقد أوردنا الرواية في بحث روائي في ذيل قوله تعالى: « انما الخمر والميسر » الآية من سورة المائدة ج ٦ ص ١٤٦ من الكتاب .

(٢) وقد أوردنا الروايات الدالة على ذلك في البحث الروائي الموضوع في ذيل قوله تعالى: « فما استمتعتم به منهن فآتوهن اجورهن » الآية النساء: ٢٤ ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٣) وقد بين ذلك في علم الأصول بما لا مزيد عليه .

أسماء بنت أبي بكر فولدت له عبد الله بن زبير وأخاه عروة بن زبير وورثاه بعد قتله وهم جميعاً من الصحابة .

على أن الروايات الدالة على نهي النبي ﷺ عن المتعة متهافتة ، وما تسلموا عليه من قول عمر بن الخطاب حينما نهى أيام خلافته عن المتعة ومـا ورد عنه حول القصة يكذب هذه الروايات ويدفع حديث النسخ . وقد مر شطر من الكلام في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى : « وأحل لكم مـا وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » النساء : ٢٤ .

ومن لطيف الدلالة على كون المتعة نكاحاً غير سفاح اقتران جملة « فما استمتعتم » الخ بقوله قبله متصلاً به « محصنين غير مسافحين » .

فقد تبين بما ذكرنا أن المتعة في الشرع وفي عرف القرآن نكاح وزوجية لا زنا وسفاح سواء قلنا بكونها منسوخة بعد بكتاب أو سنة كما عليه معظم أهل السنة أو لم نقل كما عليه الشيعة تبعاً لأئمة أهل البيت عليهم السلام .

فالنكاح ينقسم إلى نوعين : نكاح دائم له أحكامه من العدد والإرث والإحصان والنفقة والفراش والعدة وغير ذلك . ونكاح موقت مبني على التسهيل له من أحكام النكاح الدائم اختصاص المرأة بالرجل ولحقوق الأولاد والعدة .

وبذلك يظهر فساد ما ذكره جمع منهم أن المتعة ليست بزوجية ولو كانت زوجية لجرت فيها أحكامها من العدد والميراث والنفقة والإحصان وغير ذلك وذلك أن الزوجية تنقسم إلى دائمة لها أحكامها وموقتة مبنية على التسهيل يجري فيها بعض تلك الأحكام كما تقدم .

والإشكال بأن تشريع الازدواج إنما هو للتناسل بدوام الزوجية والغرض من المتعة مجرد دفع الشهوة بصب الماء وسفحه فهي سفاح وليست بنكاح .

فيه أن التوسل إلى النسل حكمة لا علة يدور مدارها التشريع وإلا لم يجز نكاح العاقر واليائسة والصبي والصبية .

على أن المتعة لا تنافي الاستيلاد ومن الشاهد على ذلك عبد الله وعروة ابنا زبير أولدا له من أسماء بنت أبي بكر من المتعة .

وكذا الإشكال بأن المتعة تجعل المرأة ملعبة يلعب بها الرجال كالكرة الدائرة بين الصوالج ذكره صاحب المنار وغيره .

فيه أن هذا يرد أول ما يرد على الشارع فإن من الضروري أن المتعة كانت دائرة في صدر الإسلام برهة من الزمان فما أجاب به الشارع كان هو جوابنا .

وثانياً أن جميع ما يقصد بالمتعة من لذة أو دفع شهوة أو استيلاد أو استئناس أو غير ذلك مشتركة بين الرجل والمرأة فلا معنى لجعلها ملعبة له دون العكس إلا أن يكابر مكابر .

وللكلام تتمة ستوافيك في بحث مستقل إن شاء الله تعالى .

وفي الدر المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن أبي مليكة قال : سألت عائشة عن متعة النساء قالت : بيني وبينكم كتاب الله وقرأت « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » فمن ابتغى وراء ما زوجه الله أو ملكه فقد عدا .

أقول : وروى نظيره عن القاسم بن محمد ، وقد تبين بما قدمنا أن المتمتع بها زوج وأن الآية تجيزها على خلاف ما في الرواية .

وفي تفسير القمي : « فمن ابتغى وراء ذلك فاولئك هم العادون » قال : من جاوز ذلك .

وفيه : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » قال : على أوقاتها وحدودها .

وفي الكافي بإسناده عن الفضيل بن يسار قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » قال : هي الفريضة قلت : « والذين هم على صلاتهم دائمون » قال : هي النافلة .

وفي المجمع روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : ما منكم من أحد إلا له منزلان : منزل في الجنة ومنزل في النار فإن مات ودخل النار ورث أهل الجنة منزله .

أقول : وروى مثله القمي في تفسيره بإسناده عن ابي بصير عن ابي عبد الله عليه السلام في حديث مفصل وتقدم نظيره في قوله تعالى : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر » مريم : ٣٩ في الجزء السابق من الكتاب .

(بحث حقوقي اجتماعي)

لا ريب ان الذي يدعو الإنسان ويبعثه نحو الاستنان بالسنن الاجتماعية او وضع القوانين الجارية في المجتمع البشري ، تنبهه لحوائج الحيـــاة وتوسله بوضعها والعمل بها إلى رفعها .

وكلما كانت الحاجة أبسط وإلى الطبيعة الساذجة أقرب كان التوسل إلى رفعها اوجب والإهمال في دفعها ادهى وأضر فما الحاجة إلى أصل التغذي والحياة تدور معه كالحاجة إلى التنعم بألوان الطعام وأنواع الفواكه وهكذا .

ومن الحوائج الأوليـــة الإنسانية حاجة كل من صنفيه : الذكور والإناث إلى الآخرين بالنكاح والمباشرة ، ولا ريب أن المطلوب بالنظر إلى الصنع والإيجاد بذلك بقاء النسل وقد جهز الإنسان بغريزة شهوة النكاح للتوسل به إلى ذلك .

ولذلك نجد المجتمعات الإنسانية التي نشاهدها أو نسمع بأخبارها مستنّة بسنة الازدواج وتكوين البيت ، وعلى ذلك كانت منذ أقدم عهودها فلم يضمن بقاء النسل إلا الإزدواج .

ولا يدفع هذا الذي ذكرنا أن المدنية الحديثة وضعت سنة الازدواج على أصل الاشتراك في الحياة دون أصل التناسل أو إرضاء الغريزة فإن هذا البناء على كونه بناء محدثاً غير طبيعي لم يبعث حتى الآن شيئاً من المجتمعات المستنة بها على شيوع هـــذه الشركة الحيوية بين الرجال أنفسهم أو النساء أنفسهنّ وليس إلا لمباينته ما تبعث اليه الطبيعة الإنسانية .

وبالجملة الازدواج سنة طبيعية لم تزل ولا تزال دائرة في المجتمعات البشرية ولا يزاحم هذه السنة الطبيعية في مسيرها إلا عمل الزنا الذي هو أقوى مانع من تكوُّن البيوت وتحمل كلفة الازدواج وحمل أثقاله بانصراف غريزة الشهوة اليه المستلزم لانهدام البيت وانقطاع النسل .

ولذا كانت المجتمعات الدينيــة أو الطبيعية الساذجة تستشنعها وتعدها فاحشة منكرة وتتوسل إلى المنع عنه بأي وسيلة ممكنة ، والمجتمعات المتمدنة الحديثة وإن لم

تسد سبيله بالجملة ولم تمنع عنه ذلك المنع لكنها مع ذلك لا تستحسنه لما ترى من مضادته العميقة لتكون البيوت وازدياد النفوس وبقاء النسل، وتحتال إلى تقليله بلطائف الحيل وتروّج سنة الازدواج وتدعو إلى تكثير الأولاد بجعل الجوائز وترفيع الدرجات وغير ذلك من المشوّقات .

غير أنه على الرغم من كون سنة الازدواج الدائم سنة قانونية متبعة في جميع المجتمعات الإنسانية في العالم وتحريض الدول عليها واحتيالها لتضعيف أمر الزنا وصرف الناس لا سيما الشبان والفتيات عنه لا يزال يوجد في جميع البلاد صغيرتها وكبيرتهـــا معاهد لهذا العمل الهادم لبنية المجتمع علنية أو سرية على اختلاف السنن الجارية فيها .

وهذا أوضح حجة على أن سنة الازدواج الدائم لا تفي برفع هذه الحاجة الحيوية للنوع ، وأن الإنسانية بعد في حاجة إلى تتميم نقيصتها هذه ، وأن من الواجب على من بيده زمام التقنين أن يتوسع في أمر الازدواج .

ولذلك شفع شارع الإسلام سنة الإزدواج الدائم بسنة الازدواج الموقت تسهيلاً للأمر وشرط فيه شروطاً ترتفع بها محاذير الزنا من اختلاط المياه واختلال الأنساب والمواريث وانهدام البيوت وانقطاع النسل وعدم لحوق الأولاد وهي اختصاص المرأة بالرجل والعدة إذا افترقا ولحوق الأولاد ثم لها ما اشترطت على زوجها وليس فيه على الرجل شيء من كلفة الازدواج الدائم ومشقته .

ولعمر الحق إنها لمن مفاخر الإسلام في شريعته السهلة السمحة نظير الطلاق وتعدد الزوجات وكثير من قوانينه ولكن ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يسمعون يقول القائل : لأن أزني أحب إليّ من أن أتمتع أو أمتع .

* * *

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ــ ١٢ . ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ــ ١٣ . ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا

آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ـ ١٤ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ـ ١٥ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ـ ١٦ . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ـ ١٧ . وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ـ ١٨ . فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ـ ١٩ . وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ـ ٢٠ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ـ ٢١ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ـ ٢٢ .

(بيان)

لما ذكر سبحانه فلاح المؤمنين بما عندهم من الأوصاف الجميلة عقبه بشرح خلقهم وخلق ما أنعم عليهم من النعم مقروناً بتدبير أمرهم تدبيراً مخلوطاً بالخلق لينكشف به أنه هو رب للإنسان ولكل شيء الواجب أن يعبد وحده لا شريك له .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » قال في المجمع : السلالة اسم لما يسلّ من الشيء كالكساحة اسم لما يكسح انتهى . وظاهر السياق أن المراد بالإنسان هو النوع فيشمل آدم ومن دونه ويكون المراد بالخلق الخلق الإبتدائي الذي خلق به آدم من الطين ثم جعل النسل من النطفة ، وتكون الآية وما بعدها في معنى قوله : « وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » ألم السجدة : ٨ .

ويؤيده قوله بعد : «ثم جعلناه نطفة» إذ لو كان المراد بالإنسان ابن آدم فحسب وكان المراد بخلقه من طين انتهاء النطفة إلى الطين لكان الظاهر أن يقال : ثم خلقناه نطفة كما قيل : ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الخ .

وبذلك يظهر أن قول بعضهم : إن المراد بالإنسان جنس بني آدم، وكذا القول بأن المراد به آدم عليه‌السلام غير سديد .

وأصل الخلق - كما قيل - التقدير يقال : خلقت الثوب إذا قسته لتقطع منه شيئاً من اللباس فالمعنى ولقد قدرنا الإنسان أولاً من سلالة من أجزاء الأرض المخلوطة بالماء.

قوله تعالى : «ثم جعلناه نطفة في قرار مكين» النطفة القليل من الماء وربما يطلق على مطلق الماء، والقرار مصدر أريد به المقر مبالغة والمراد به الرحم التي تستقر فيها النطفة، والمكين المتمكن وصفت به الرحم لتمكنها في حفظ النطفة من الضيعة والفساد أو لكون النطفة مستقرة متمكنة فيها .

والمعنى ثم جعلنا الإنسان نطفة في مستقر متمكن هي الرحم كما خلقناه أولاً من سلالة من طين أي بدلنا طريق خلقه من هذا إلى ذاك .

قوله تعالى : «ثم خلقنا النطفة علقة - إلى قوله - فكسونا العظام لحماً» تقدم بيان مفردات الآية في الآية ٥ من سورة الحج في الجزء السابق من الكتاب وفي قوله : «فكسونا العظام لحماً» استعارة بالكناية لطيفة .

قوله تعالى : «ثم أنشأناه خلقاً آخر» الإنشاء - كما ذكره الراغب - إيجاد الشيء وتربيته كما أن النشء والنشأة إحداثه وتربيته كما يقال للشاب الحديث السن ناشىء.

وقد غير السياق من الخلق إلى الإنشاء فقال : «ثم أنشأناه خلقاً آخر» دون أن يقال : ثم خلقناه الخ، للدلالة على حدوث أمر حديث ما كان يتضمنه ولا يقارنه ما تقدمه من مادة فإن العلقة مثلاً وإن خالفت النطفة في أوصافها وخواصها من لون وطعم وغير ذلك إلا أن في النطفة مكان كل من هذه الأوصاف والخواص ما يجانسه وإن لم يماثله كالبياض مكان الحمرة وهما جميعاً لون بخلاف ما أنشأه الله أخيراً وهو الإنسان الذي له حياة وعلم وقدرة فإن ما له من جوهر الذات وهو الذي نحكي عنه بأنا لم يسبق من سنخه في المراحل السابقة أعني النطفة والعلقة والمضغة والعظام المكسوة لحماً شيء،

ولا سبق فيها شيء يناظر ما له من الخواص والأوصاف كالحياة والقدرة والعلم فهو منشأ حادث مسبوق بالعدم .

والضمير في « أنشأناه » – على ما يعطيه السياق – للإنسان المخلوق عظاماً مكسوة باللحم فهو الذي أنشيء وأحدث خلقاً آخر أي بدّل وهو مادة ميتة جاهلة عاجزة موجوداً ذا حياة وعلم وقدرة ، فقد كان مادة لها صفاتها وخواصها ثم برز وهو يغاير سابقته في الذات والصفات والخواص ، فهو تلك المادة السابقة فإنها التي صارت إنساناً ، وليس بها إذ لا يشاركها في ذات ولا صفات ، وإنما له نوع اتحاد معها وتعلّق بها يستعملها في سبيل مقاصدها استعمال ذي الآلة للآلة كالكاتب للقلم .

وهـذا هو الذي يستفاد من مثل قوله : « وقالوا أئذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقـاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » ألم السجدة : ١١ ، فالمتوفى والمأخوذ عند الموت هو الإنسان،والمتلاشي الضال في الأرض هو البدن وليس به .

وقد اختلف العطف في مفردات الآية بالفاء وثم ، وقد قيل في وجهه أن ما عطف بثم له بينونة كاملة مع ما عطف عليه كما في قوله : «ثم جعلناه نطفة» «ثم خلقنا النطفة علقة » ، « ثم أنشأناه خلقاً آخر » ، وما لم يكن بتلك البينونة والبعد عطف بالفاء كقوله : « فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً » .

قوله تعالى : « فتبارك الله أحسن الخالقين » قال الراغب : أصل البرك – بالفتح فالسكون – صدر البعير . قال : وبرك البعير ألقى ركبه واعتبر منه معنى اللزوم . قال : وسمي محبس الماء بركة – بالكسر فالسكون – والبركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء قال تعالى : « لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وسمي بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة ، والمبارك ما فيه ذلك الخير .

قال : ولما كان الخير الإلهي يصدر من حيث لا يحس وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة . انتهى .

فالتبارك منه تعالى اختصاصه بالخير الكثير الذي يجود به ويفيضه على خلقه وقد تقدم أن الخلق في أصله بمعنى التقدير فهذا الخير الكثير كله في تقديره وهو إيجاد

الأشياء وتركيب أجزائها بحيث تتناسب فيما بين أنفسها وتناسب ما وراءها ومن ذلك ينتشر الخير الكثير .

ووصفه تعالى بأحسن الخالقين يدل على عدم اختصاص الخلق به وهو كذلك لما تقدم أن معناه التقدير وقياس الشيء من الشيء لا يختص به تعالى ، وفي كلامه تعالى من الخلق المنسوب إلى غيره قوله : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير » المائدة: ١١٠ وقوله : « وتخلقون إفكاً » العنكبوت : ١٧ .

قوله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون » بيان لتمام التدبير الإلهي وأن الموت من المراحل التي من الواجب أن يقطعها الإنسان في مسير التقدير ، وأنه حق كما تقدم في قوله تعالى : « كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة » الأنبياء : ٣٥ .

قوله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » وهذا تمام التدبير وهو أعني البعث آخر مرحلة في مسير الإنسان إذا حل بها لزمها ولا يزال قاطناً بها .

قوله تعالى : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين » ، المراد بالطرائق السبع بقرينة قوله : « فوقكم » السماوات السبع وقد سماها طرائق – جمع طريقة – وهي السبيل المطروقة لأنها ممر الأمر النازل من عنده تعالى إلى الأرض ، قال تعالى : « يتنزل الأمر بينهن » الطلاق : ١٢ ، وقال : « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه » الم السجدة:٥ . والسبل التي تسلكها الأعمال في صعودها إلى الله والملائكة في هبوطهم وعروجهم كما قال : « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » فاطر : ١٠ ، وقال : « وما نتنزل إلا بأمر ربك » مريم : ٦٤ .

وبذلك يتضح اتصال ذيل الآية « وما كنا عن الخلق غافلين » بصدرها أي لستم بمنقطعين عنا ولا بمعزل عن مراقبتنا بل هـــذه الطرائق السبع منصوبة بيننا وبينكم يتطرقها رسل الملائكة بالنزول والصعود وينزل منها أمرنا اليكم وتصعد منها أعمالكم الينا.

وبذلك كله يظهر ما في قول بعضهم : إن الطرائق بمعنى الطباق المنضودة بعضها فوق بعض من طرق النعل إذا وضع طاقاتها بعضها فوق بعض ، وقول آخرين : إنها بمعنى المبسوطات من طرق الحديد إذا بسطه بالمطرقة .

على أن اتصال ذيل الآية بصدرها على القولين غير بيّن .

قوله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون » المراد بالسماء جهة العلو فإن ما علاك وأظلّك فهو سماء ، والمراد بالماء النازل منها ماء المطر .

وفي قوله : «بقدر» دلالة على أن الذي نزل إنما نزل على حسب ما يقتضيه التدبير التام الإلهي الذي يقدّره بقدر لا يزيد قطرة على ما قدّر ولا ينقص ، وفيه تلميح أيضاً إلى قوله: « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

والمعنى : وأنزلنا من جهة العلو ماء بقدر وهو ماء المطر فأسكناه في الأرض وهو الذخائر المدّخرة من الماء في الجبال والسهول تتفجر عنه العيون والأنهار وتكشف عنه الآبار ، وإنا لقادرون على أن نذهب بهذا الماء الذي أسكناه في الأرض نوعاً من الذهاب لا تهتدون إلى علمه .

قوله تعالى : « فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب » إلى آخر الآية ، إنشاء الجنات إحداثها وتربيتها ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين » معطوف على « جنات » أي وأنشأنا لكم به شجرة في طور سيناء ، والمراد بها شجرة الزيتون التي تكثر في طور سيناء ، وقوله : « تنبت بالدهن » أي تثمر ثمرة فيها الدهن وهو الزيت فهي تنبت بالدهن، وقوله: « وصبغ للآكلين » أي وتنبت بصبغ للآكلين، والصبغ بالكسر فالسكون الإدام الذي يؤتدم به ، وإنما خصّ شجرة الزيتون بالذكر لعجيب أمرها ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها » الخ ، العبرة الدلالة يستدلّ بها على أنه تعالى مدبّر لأمر خلقه حنين بهم رؤف رحيم ، والمراد بسقيه تعالى مما في بطونها أنه رزقهم من ألبانها ، والمراد بالمنافع الكثيرة ما ينتفعون من صوفها وشعرها ووبرها وجلودها وغير ذلك ، ومنها يأكلون .

قوله تعالى : « وعليها وعلى الفلك تحملون » ضمير « عليها » للأنعام والحمل على الأنعام هو الحمل على الإبل،وهو حمل في البر ويقابله الحمل في البحر وهو الحمل على الفلك، فالآية في معنى قوله : « وحملناهم في البر والبحر » أسرى : ٧٠ ، والفلك جمع فلكة وهي السفينة .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن علي قال : إذا تمّت النطفة أربعة أشهر بعث اليها ملك فنفخ فيها الروح في الظلمات الثلاث ، فذلك قوله : « ثم أنشأناه خلقاً آخر » يعني نفخ الروح فيه .

وفي الكافي بإسناده عن ابن فضّال عن الحسن بن الجهم قال : سمعت أبا الحسن الرضا عليه‌السلام يقول : قال أبو جعفر عليه‌السلام : إن النطفة تكون في الرحم أربعين يوماً ، ثم تصير علقة أربعين يوماً ، ثم تصير مضغة أربعين يوماً ، فإذا كمل أربعة أشهر بعث الله ملكين خلاّقين فيقولان : يا رب ما نخلق ذكراً أو أنثى ؟ فيؤمران فيقولان : يا رب شقي أو سعيد ؟ فيؤمران فيقولان: يا رب ما أجله وما رزقه وكل شيء من حاله؟ وعدّد من ذلك أشياء ، ويكتبان الميثاق بين عينيه .

فإذا كمل الأجل بعث الله اليه ملكاً فزجره زجرة فيخرج وقد نسي الميثاق ، فقال الحسن بن الجهم : أفيجوز أن يدعو الله فيحوّل الانثى ذكراً أو الذكر أنثى ؟ فقال : إن الله يفعل ما يشاء .

أقول : والرواية مروية عن أبي جعفر عليه‌السلام بطرق أخرى وألفاظ متقاربة .

وفي تفسير القمي قوله عز وجل : « وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين» قال: شجرة الزيتون» وهو مثل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ومثل أمير المؤمنين عليه‌السلام فالطور الجبل وسيناء الشجرة .

وفي المجمع «تنبت بالدهن وصبغ للآكلين» وقد روي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال: الزيت شجرة مباركة فائتدموا منه وادّهنوا .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ــ ٢٣ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

مَا هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلاٰئِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ــ ٢٤ . إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ــ ٢٥ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ــ ٢٦ . فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ــ ٢٧ . فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ــ ٢٨ . وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ــ ٢٩ . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ــ ٣٠. ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ ــ ٣١ . فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ــ ٣٢ . وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا مَا هٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ــ ٣٣ . وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ــ ٣٤ . أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ ــ ٣٥ . هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ــ ٣٦ . إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ــ ٣٧ . إِنْ هُوَ

إلاّ رَجُلٌ ٱفْتَرىٰ عَلىَ اللهِ كَذِباً وَمٰا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ٣٨ . قٰالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمٰا كَذَّبُونِ ــ ٣٩ . قٰالَ عَمّٰا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نٰادِمِينَ ــ ٤٠ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنٰاهُمْ غُثٰاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظّٰالِمِينَ ــ ٤١ . ثُمَّ أَنْشَأْنٰا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِينَ ــ ٤٢ . مٰا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهٰا وَمٰا يَسْتَأْخِرُونَ ــ ٤٣ . ثُمَّ أَرْسَلْنٰا رُسُلَنٰا تَتْرٰا كُلَّمٰا جٰاءَ أُمَّةً رَسُولُهٰا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنٰا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ ــ ٤٤ . ثُمَّ أَرْسَلْنٰا مُوسىٰ وَأَخٰاهُ هٰرُونَ بِآيٰاتِنٰا وَسُلْطٰانٍ مُبِينٍ ــ ٤٥ . إلىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلاَئِهِ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكٰانُوا قَوْماً عٰالِينَ ــ ٤٦ . فَقٰالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنٰا وَقَوْمُهُمٰا لَنٰا عٰابِدُونَ ــ ٤٧ . فَكَذَّبُوهُمٰا فَكٰانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ــ ٤٨ . وَلَقَدْ آتَيْنٰا مُوسَى ٱلْكِتٰابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ــ ٤٩ . وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنٰاهُمٰا إلىٰ رَبْوَةٍ ذٰاتِ قَرٰارٍ وَمَعِينٍ ــ ٥٠ . يٰا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبٰاتِ وَٱعْمَلُوا صٰالِحاً إنِّي بِمٰا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ــ ٥١ . وَإنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وٰاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ــ ٥٢ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمٰا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ــ ٥٣ . فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتىٰ حِينٍ ــ ٥٤ .

(بيان)

بعد ما عدّ نعمه العظام على الناس عقّبه في هذه الآيات بذكر دعوتهم إلى توحيد

عبادته من طريق الرسالة وقصّ إجمال دعوة الرسل من لدن نوح إلى عيسى بن مريم عليهما السلام ، ولم يصرّح من أسمائهم إلا باسم نوح وهو أول الناهضين لدعوة التوحيد واسم موسى وعيسى عليهما السلام وهما في آخرهم ، وأبهم أسماء الباقين غير أنه صرّح باتصال الدعوة وتواتر الرسل ، وأن النـــاس لم يستجيبوا إلا بالكفر بآيات الله والكفران لنعمه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مـا لكم من إله غيره أفلا تتقون » قد تقدم في قصص نوح عليه السلام من سورة هود أنه أول أولي العزم من الرسل أصحاب الكتب والشرائع المبعوثين إلى عـــامة البشر والناهضين للتوحيد ونفي الشرك ، فالمراد بقومه أمته وأهل عصره عامة .

وقوله : « اعبدوا الله مـا لكم من إله غيره » دعوة إلى عبادة الله ورفض عبادة الآلهة من دونه فإن الوثنيين إنما يعبدون غيره من الملائكة والجنّ والقدّيسين بدعوى ألوهيتهم أي كونهم معبودين من دونه .

قال بعض المفسرين : إن معنى « اعبدوا الله » اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله في سورة هود : « ألاّ تعبدوا إلا الله » وترك التقييد به للإيذان بأنها هي العبادة فقط وأما العبادة مع الإشراك فليست من العبادة في شيء رأساً . انتهى .

وفيه غفلة أو ذهول عن أن الوثنيين لا يعبدون الله سبحانه أصلاً بنـاءً على أن العبادة توجّه من العابد إلى المعبود، والله سبحانه أجلُّ من أن يحيط به توجّه متوجّه أو علم عالم ، فالوجه أن يتقرب إلى خاصة خلقه من الملائكة وغيره ليشفعوا عنـــده ويقرّبوا منه ، والعبادة بإزاء التدبير وأمر التدبير مفوض اليهم منه تعـالى فهم الآلهة المعبودون والأرباب من دونه .

ومن هنا يظهر أنه لو جازت عبادته تعـالى عندهم لم يجز إلا عبادته وحده لأنهم لا يرتابون في أنه تعالى رب الأرباب موجد الكل ولو صحّت عبادته لم تجز إلا عبادته وحده ولم تصح عبادة غيره لكنهم لا يرون صحتها بناء على ما زعموه من الوجه المتقدم.

فقوله عليه السلام لقومه الوثنيين : « اعبدوا الله » في معنى أن يقال : اعبدوا الله وحده كما ورد في سورة هود « أن لا تعبدوا إلا الله » ، وقوله : « ما لكم من إله غيره» في معنى أن يقال : ما لكم من معبود سواه لأنه لا رب غيره يدبر أمركم حتى تعبدوه

رجاء لرحمته أو خوفاً من سخطه ، وقوله بالتفريع على ذلك : « أفلا تتقون » أي إذا لم يكن لكم رب يدبر أموركم دونه أفلا تتقون عذابه حيث لا تعبدونه وتكفرون به ؟

قوله تعالى : « قال الملأ الذين كفروا من قومه ما هـذا إلا بشر مثلكم – إلى قوله – حتى حين » ملأ القوم أشرافهم ، ووصفهم بقوله : « الذين كفروا من قومه » وصف توضيحي لا احترازي إذ لم يؤمن به من ملأ قومه أحد بدليل قولهم على ما حكاه الله : « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » هود : ٢٧ .

والسياق يدل على أن الملأ كانوا يخاطبون بمضمون الآيتين عامـة الناس لصرف وجوههم عنه وإغرائهم عليه وتحريضهم على إيذائه وإسكاته ، وما حكاه تعالى من أقاويلهم في الآيتين وجوه أربعة أو خمسة من فرية أو مغالطة لفّقوها واحتجوا بها على بطلان دعوته .

الأول قولهم :« ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » ومحصّله أنه بشر مثلكم فلو كان صادقاً فيما يدّعيه من الوحي الإلهي والاتصال بالغيب كان نظير ما يدعيه متحققاً فيكم إذ لا تنقصون منه في شيء من البشرية ولوازمها ، ولم يتحقق فهو كاذب وكيف يمكن أن يكون كمال في وسع البشر أن يناله ثم لا يناله إلا واحد منهم فقط ثم يدعيه من غير شاهد يشهد عليه ؟ فلم يبقَ إلا أنه يريد بهذه الدعوة أن يتفضل عليكم ويترأس فيكم ويؤيده أنه يدعوكم إلى اتباعه وطاعته وهذه الحجة تنحل في الحقيقة إلى حجتين مختلفتين .

والثاني قولهم : « ولو شاء الله لأنزل ملائكة » ومحصّله أن الله سبحانه لو شاء أن يدعونا بدعوة غيبية لاختار لذلك الملائكة الذين هم المقربون عنده والشفعاء الروابط بيننا وبينه فأرسلهم الينا لا بشراً ممن لا نسبة بينه وبينه. على أن في نزولهم واعترافهم بوجوب العبادة له تعالى وحده وعدم جواز اتخاذهم أرباباً وآلهة معبودين آية بيّنة على صحة الدعوة وصدقها .

والتعبير عن إرسال الملائكة بإنزالهم إنما هو لكون إرسالهم يتحقق بالإنزال والتعبير بلفظ الجمع دون الإفراد لعله لكون المراد بهم الآلهة المتخذة منهم وهم كثيرون.

والثالث قولهم : « ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين » ومحصله أنه لو كانت دعوته حقة لاتفق لها نظير فيما سلف من تاريخ الإنسانية ، وآباؤنا كانوا أفضل منا وأعقل ولم

يتفق لهم وفي أعصارهم ما يناظر هذه الدعوة فليست إلا بدعة وأحدوثة كاذبة .

والرابع قولهم : « إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين » الجنة إما مصدر أي به جنون أو مفرد الجن أي حل به من الجن من يتكلم على لسانه لأنه يدعي ما لا يقبله العقل السليم ويقول ما لا يقوله إلا مصاب في عقله فتربصوا وانتظروا به إلى حين ما لعله يفيق من حالة جنونه أو يموت فنستريح منه .

وهذه حجج مختلفة ألقاها ملأ قومه إلى عامتهم أو ذكر كلاً منها بعضهم وهي وإن كانت حججاً جدلية مدخولة لكنهم كانوا ينتفعون بها حينما يلقونها إلى الناس فيصرفون وجوههم عنه ويغرونهم عليه ويمدون في ضلالهم .

قوله تعالى : « قال رب انصرني بما كذبون » سؤال منه للنصر والباء في قوله : « بما كذبون » للبدلية والمعنى انصرني بدل تكذيبهم لي أو للآلة وعليه فالمعنى انصرني بالذي كذبوني فيه وهو العذاب فإنهم قالوا : « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » هود : ٣٢ ، ويؤيده قول نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً » نوح ٢٦ ، وفصل الآية لكونها في معنى جواب السؤال .

قوله تعالى : « فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا » إلى آخر الآية . متفرع على سؤال النصر ، ومعنى صنع الفلك بأعينه صنعه بمرئى منه وهو كناية عن كونه تحت مراقبته تعالى ومحافظته ، ومعنى كون الصنع بوحيه كونه بتعليمه الغيبي حالاً بعد حال .

وقوله : « فإذا جاء أمرنا وفار التنّور » المراد بالأمر — كما قيل — حكمه الفصل بينه وبين قومه وقضاؤه فيهم بالغرق ، والسياق يشهد على كون فوران التنّور بالماء أمارة نزول العذاب عليهم وهو أعني فوران الماء من التنور وهو محل النار من عجيب الأمر في نفسه .

وقوله : « فاسلك فيها من كل زوجين اثنين » القراءة الدائرة « من كل » بالتنوين والقطع عن الإضافة ، والتقدير من كل نوع من الحيوان ، والسلوك فيها الإدخال في الفلك والظاهر أن « من » لابتداء الغاية والمعنى فأدخل في الفلك زوجين اثنين : ذكر وأنثى من كل نوع من الحيوان .

وقوله : « وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم » معطوف على قوله : « زوجين »

وما قيل : إن عطف « أهلك » على « زوجين » يفسد المعنى المراد لرجوع التقدير حينئذ إلى قولنا : واسلك فيها من كل نوع أهلك فالأولى تقدير « أسلك » ثانياً قبل « أهلك » وعطفه على « فاسلك ». يدفعه أن « من كل » في موضع الحال من « زوجين » فهو متأخر عنه رتبة كما قدمنا تقديره فلا يعود ثانياً على المعطوف .

والمراد بالأهل خاصته ، والظاهر أنهم أهل بيته والمؤمنون به فقد ذكرهم في سورة هود مع الأهل ولم يذكر ههنا إلا الأهل فقط .

والمراد بمن سبق عليه القول منهم امرأته الكافرة على ما فهم نوح عليه‌السلام وهي وابنه الذي أبى ركوب السفينة وغرق حينما أوى إلى جبل في الحقيقة ، وسبق القول هو القضاء المحتوم بالغرق .

وقوله : « ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون » النهي عن مخاطبته تعالى كناية عن النهي الشديد عن الشفاعة لهم ، بدليل تعليق المخاطبة بالذين ظلموا وتعليل النهي بقوله : « إنهم مغرقون » فكأنه قيل : أنهاك عن أصل تكليمي فيهم فضلاً أن تشفع لهم فقد شملهم غضبي شمولاً لا يدفعه دافع .

قوله تعالى : « فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل » إلى آخر الآيتين علمه أن يحمد الله بعد الاستواء على الفلك على تنجيته تعالى من القوم الظالمين وهذا بيان بعد بيان لكونهم هالكين مغرقين حتماً ، وأن يسأله أن ينجيه من الطوفان وينزله على الأرض إنزالاً مباركاً ذا خير كثير ثابت فإنه خير المنزلين .

وفي أمره عليه‌السلام أن يحمده ويصفه بالجميل دليل على أنه من عباده المخلصين فإنه تعالى منزّه عما يصفه غيرهم كما قال : « سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصون » الصافات : ١٦٠ .

وقد اكتفى سبحانه في القصة بإخباره عن حكمه بغرقهم وأنهم مغرقون حتماً ولم يذكر خبر غرقهم إيماء إلى أنهم آل بهم الأمر إلى أن لا خبر عنهم بعد ذلك ، وإعظاماً للقدرة وتهويلاً للسخطة وتحقيراً لهم واستهانة بأمرهم ، فالسكوت في هذه القصة عن هلاكهم أبلغ من قوله في القصة الآتية : « فجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون » من وجوه .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين » خطاب في آخر القصة للنبي

ﷺ وبيان أن هذه الدعوة مع ما جرى معها كانت ابتلاء أي امتحاناً واختباراً اليها.

قوله تعالى : « ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين » إلى آخر الآية الثانية . القرن أهل عصر واحد ، وقوله : « أن اعبدوا الله » تفسير لإرسال الرسول من قبيل تفسير الفعل بنتيجته كقوله تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا » حم السجدة : ٣٠ .

قوله تعالى : « قال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا » هؤلاء أشرافهم المتوغلون في الدنيا المخلدون إلى الأرض يغرون بقولهم هذا عامتهم على رسولهم .

وقد وصفهم الله بصفات ثلاث وهي: الكفر بالله بعبادة غيره ، والتكذيب بلقاء الآخرة – أي بلقاء الحياة الآخرة بقرينة مقابلتها لقوله : « في الحياة الدنيا » – ، ولكفرهم بالمبدأ والمعاد انقطعوا عما وراء الدنيا فانكبّوا عليها ثم لما أترفوا في الحياة الدنيا وتمكنوا من زخارفها وزيناتها الملذّة اجتذبتهم الدنيا إلى نفسها فاتّبعوا الهوى ونسوا كل حق وحقيقة ، ولذلك تفوّهوا تارة بنفي التوحيد والرسالة وتارة بإنكار المعاد وتارة ردّوا الدعوة بإضرارها دنياهم وحريتهم في اتباع هواهم .

فتارة قالوا لعوامهم مشيرين إلى رسولهم إشارة المستحقر المستهين بأمره : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » يريدون به تكذيبه في دعوته ودعواه الرسالة على ما مرّ من تقرير حجتهم في قصة نوح السابقة .

وفي استدلالهم على بشريته ومساواته سائر الناس بأكله وشربه مثل الناس وذلك من خاصة مطلق الحيوان دليل على أنهم ما كانوا يرون للانسان إلا كمال الحيوان ولا فضيلة إلا في الأكل والشرب ولا سعادة إلا في التمكن من التوسع والاسترسال من اللذائذ الحيوانية كما قال تعالى: « أولئك كالأنعام » الأعراف : ١٧٩ ، وقال : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » سورة محمد : ١٢ .

وتارة قالوا : « ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون » وهو في معنى قولهم في القصة السابقة : « يريد أن يتفضل عليكم » يريدون به أن في اتباعه وإطاعته فيما يأمركم به مع كونه بشراً مثلكم من غير فضل له عليكم خسرانكم وبطلان سعادتكم في

الحياة إذ لا حياة إلا الحياة الدنيا ولا سعادة فيها إلا الحرية في التمتع من لذائذها ، وفي طاعة من لا فضل له عليكم رقيتكم وزوال حريتكم وهو الخسران .

وتارة قالوا : « أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون » أي مبعوثون من قبوركم للحساب والجزاء « هيهات هيهات لما توعدون » وهيهات كلمة استبعاد وفي تكراره مبالغة في الاستبعاد « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا » أي يموت قوم منا في الدنيا ويحيا آخرون فيها لا نزال كذلك « وما نحن بمبعوثين » للحياة في دار أخرى وراء الدنيا .

ويمكن أن يحمل قولهم : « نموت ونحيا » على التناسخ وهو خروج الروح بالموت من بدن وتعلقها ببدن آخر إنساني او غير إنساني فإن التناسخ مذهب شائع عند الوثنيين وربما عبّروا عنه بالولادة بعد الولادة لكنه لا يلائم سياق الآيات كثير ملاءمة .

وتارة قالوا : « إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين » يريدون به تكذيب دعواه الرسالة مع ما احتوت عليه دعوته وقد أنكروا التوحيد والمعاد قبل ذلك .

ومرادهم بقولهم : «نحن» أنفسهم وعامتهم أشركوا أنفسهم عامتهم لئلا يتهمهم العامة فيما يأمرونهم به من الكفر بالرسول، ويمكن ان يكون المراد به أنفسهم خاصة دون العامة وإنما أخبروا بعدم إيمانهم ليقتدوا بهم فيه .

وقد نشأت هذه الأقاويل من اجتماع الصفات التي وصفهم الله به في أول الآيات وهي إنكار التوحيد والنبوة والمعاد والإتراف في الحياة الدنيا .

واعلم أن في قوله في صدر الآيات : « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم » قدّم قوله : « من قومه » على « الذين كفروا » بخلاف ما في القصة السابقة من قوله : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه » لأنه لو وقع بعد « الذين كفروا » اختلّ به ترتيب الجمل المتوالية « كفروا » « وكذبوا » « وأترفناهم » ولو وقع بعد الجميع طال الفصل .

قوله تعالى : « قال رب انصرني بما كذّبون » تقدم تفسيره في القصة السابقة

قوله تعالى : « قال عما قليل ليصبحنّ نادمين » استجابة لدعوة الرسول وصيرورتهم نادمين كناية عن حلول عذاب الاستئصال بهم ، وقوله : « عما قليل » عن

بمعنى بعد و« ما » لتأكيد القلة وضمير الجمع للقوم ، والكلام مؤكد بلام القسم ونون التأكيد، والمعنى: أقسم لتأخذنهم الندامة بعد قليل من الزمان بمشاهدة حلول العذاب.

قوله تعالى: « فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين »، الباء في « بالحق » للمصاحبة وهو متعلق بقوله : « فأخذتهم » أي أخذتهم الصيحة أخذاً مصاحباً للحق ، أو للسببية ، والحق وصف أقيم مقـــام موصوفه المحذوف والتقدير فأخذتهم الصيحة بسبب الأمر الحق أو القضاء الحق كما قال : « فإذا جاء أمر الله قضي بالحق » ، المؤمن : ٧٨ .

والغثاء بضم الغين وربما شددت الثاء : ما يحمله السيل من يابس النبات والورق والعيدان البالية ، وقوله : « فبعداً للقوم الظالمين » إبعاد ولعن لهم أو دعاء عليهم .

والمعنى : فأنجزنا للرسول مـــا وعدناه من عذابهم فأخذتهم الصيحة السماوية وهي العذاب فأهلكناهم وجعلناهم كغثاء السيل فليبعد القوم الظالمون بعداً .

ولم يصرح باسم هؤلاء القوم الذين أنشأهم بعـــد قوم نوح ثم أهلكهم ولا باسم رسولهم ، وليس من البعيد أن يكونوا هم ثمود قوم صالح عليه السلام فقد ذكر الله سبحانه في قصتهم في مواضع من كلامه أنهم كانوا بعد قوم نوح وقد أهلكوا بالصيحة .

قوله تعالى : « ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » تقدم توضيح مضمون الآيتين كراراً .

قوله تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه » ، إلى آخر الآية يقال : جاؤا تترى أي فرادى يتبع بعضهم بعضاً ، ومنه التواتر وهو تتابع الشيء وتراً وفرادى ، وعن الأصمعي : واترت الخبر أتبعت بعضــه بعضاً وبين الخبرين هنيهة انتهى .

والكلام من تتمة قوله : « ثم أنشأنا من بعدهم قروناً » و « ثم » للتراخي بحسب الذكر دون الزمان ، والقصة إجمال منتزع من قصص الرسل وأممهم بين أمة نوح والامة الناشئة بعدها وبين أمة موسى .

يقول تعالى: ثم أنشأنا بعد تلك الامة الهالكة بالصيحة بعد أمة نوح قروناً وأمماً آخرين وأرسلنا اليهم رسلنا متتابعين يتبع بعضهم بعضاً كلما جاء أمة رسولها المبعوث

منها اليها كذبوه فأتبعنا بعضهم أي بعض هذه الامم بعضاً أي بالعذاب وجعلناهم أحاديث أي صيرناهم قصصاً وأخباراً بعد ما كانوا أعياناً ذوات آثار فليبعد قوم لا يؤمنون .

والآيات تدل على أنه كان من سنة الله إنشاء قرن بعد قرن وهدايتهم إلى الحق بإرسال رسول بعد رسول وهي سنة الابتلاء والامتحان ، ومن سنة القرون تكذيب الرسول بعد الرسول ثم من سنة الله ثانياً – وهي سنة المجازاة – تعذيب المكذبين واتباع بعضهم بعضاً .

وقوله : « وجعلناهم أحاديث » أبلغ كلمة تفصح عن القهر الإلهي الذي يغشى أعداء الحق والمكذبين لدعوته حيث يمحو العين ويعفو الأثر ولا يبقى إلا الخبر .

قوله تعالى : « ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين » الآيات هي العصا واليد البيضاء وسائر الآيات التي أراها موسى فرعون وقومه ، والسلطان المبين الحجة الواضحة ، وتفسير بعضهم السلطان بالعصا غير سديد .

قوله تعالى : « إلى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين » قيل : إنما ذكر ملأ فرعون واكتفى بهم عن ذكر قومه لأنهم الأشراف المتبوعون وسائر القوم أتباع يتبعونهم .

والمراد بكونهم عالين أنهم كانوا يعلون على غيرهم فيستعبدونهم كما علوا على بني إسرائيل واستعبدوهم فالعلوّ في الأرض كناية عن التطاول على أهلها وقهرهم على الطاعة .

قوله تعالى : « فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » المراد بكونهما بشرين مثلهم نفي أن يكون لهما فضل عليهم ، وبكون قومهما لهم عابدين فضلهم عليهما كما فضلوا على قومهما فإذا كان الفضل لهم عليهما كان من الواجب أن يعبداهم كما عبدهم قومهما لا أن يؤمنوا بهما كما قال فرعون لموسى : « لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » ثم ختم تعالى القصة بذكر هلاكهم فقال : « فكذّبوهما فكانوا من المهلكين » ثم قال : « ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون » والمراد بهم بنو إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون وملائه .

قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين »

تقدم أن الآية هي ولادة عيسى عليه السلام الخارقة للعادة وإذ كانت أمراً قائماً به وبامه معاً عدّا جميعاً آية واحدة .

والإيواء من الاويْ وأصله الرجوع ثم استعمل في رجوع الإنسان إلى مسكنه ومقره ، وآواه إلى مكان كذا أي جعله مسكناً له والربوة المكان المرتفع المستوى الواسع ، والمعين الماء الجاري .

والمعنى: وجعلنا عيسى بن مريم وأمه مريم آية دالّة على ربوبيتنا وأسكنّاهما في مكان مرتفع مستو وسيع فيه قرار وماء جار .

قوله تعالى : « يا أيها الرسل كلوا من الطيّبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » خطاب لعامة الرسل بأكل الطيبات وكأن المراد بالأكل منها الإرتزاق بها بالتصرف فيها سواء كان بأكل أو غيره وهو استعمال شائع .

والسياق يشهد بأن في قوله : « كلوا من الطيبات » امتناناً منه تعالى عليهم ، ففي قوله عقيبه : « واعملوا صالحاً » أمر بمقابلة المنّة بصالح العمل وهو شكر للنعمة وفي تعليله بقوله : « إني بما تعملون عليم » تحذير لهم من مخالفة أمره وبعث إلى ملازمة التقوى .

قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » تقدم تفسير نظيرة الآية في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : « فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون » في المجمع أن التقطع والتقطيع بمعنى واحد ، والزبر بضمتين جمع زبور وهو الكتاب ، والكلام متفرع على ما تقدمه ، والمعنى أن الله أرسل اليهم رسله تترى والجميع أمة واحدة لهم رب واحد دعاهم إلى تقواه لكنهم لم يأتمروا بأمره وقطّعوا أمرهم بينهم قطعاً وجعلوه كتباً اختص بكل كتاب حزب وكل حزب بما لديهم فرحون .

وفي قراءة ابن عامر « زبراً » بفتح الباء وهو جمع زبرة وهي الفرقة ، والمعنى وتفرقوا في أمرهم جماعات وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، وهي أرجح .

قوله تعالى : « فذرهم في غمرتهم حتى حين » قال في المفردات : الغمرة معظم الماء الساترة لمقرها وجعل مثلاً للجهالة التي يغمر صاحبها ، انتهى . وفي الآية تهديد

بالعذاب ، وقد تقدمت إشارة إلى أن من سنته تعالى المجازاة بالعذاب بعد تكذيب الرسالة ، وفي تنكير « حين » إشارة إلى إتيان العذاب الموعود بغتة .

(بحث روائي)

في نهج البلاغة : يا أيها الناس إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم ولم يعذكم من أن يبتليكم وقد قال جل من قائل : « إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين » .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله: «فجعلناهم غثاء » الغثاء اليابس الهامد من نبات الأرض .

وفيه في قوله تعالى : « إلى ربوة ذات قرار ومعين » قال : الربوة الحيرة وذات قرار ومعين الكوفة .

وفي المجمع : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » قيل : حيرة الكوفة وسوادها ، والقرار مسجد الكوفة ، والمعين الفرات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : وروى في الدر المنثور عن ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن الربوة هي دمشق الشام ، وروى أيضاً عن ابن عساكر وغيره عن مرّة البهزي عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنها الرملة ، والروايات جميعاً لا تخلو من الضعف .

وفي المجمع : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » روي عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم عن أبي هريرة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « أمة واحدة » قال : على مذهب واحد .

وفيه في قوله : « كل حزب بما لديهم فرحون » قال : كل من اختار لنفسه ديناً فهو فرح به .

* * *

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ــ ٥٥ . نُسَارِعُ لَهُمْ
فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لاَ يَشْعُرُونَ ــ ٥٦ . إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ
مُشْفِقُونَ ــ ٥٧ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ــ ٥٨ . وَالَّذِينَ
هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ ــ ٥٩ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ
أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ــ ٦٠ . أُولٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ
لَهَا سَابِقُونَ ــ ٦١ . وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ
يَنْطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ــ ٦٢ . بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هٰذَا
وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ــ ٦٣ . حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا
مُتْرَفِيهِمْ بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ــ ٦٤ . لاَ تَجْأَرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا
لاَ تُنْصَرُونَ ــ ٦٥ . قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ
تَنْكِصُونَ ــ ٦٦ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ ــ ٦٧ . أَفَلَمْ
يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ٦٨ . أَمْ لَمْ
يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ــ ٦٩ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ
جَاءَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ــ ٧٠ . وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ
أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمٰوَاتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ــ ٧١ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ

خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ـ ٧٢ . وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ـ ٧٣ . وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ـ ٧٤ . وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ـ ٧٥ . وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ـ ٧٦ . حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٧ .

(بيان)

الآيات متصلة بقوله السابق: « فذرهم في غمرتهم حتى حين » فإنه لما عقّب قصص الرسل باختلاف الناس في أمر الدين وتحزّبهم أحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون أوعدهم بعذاب مؤجل لا مناص لهم عنه ولا مخلص منه فليلتهوا في غمرتهم ما شاؤا فسيغشاهم العذاب ولا محالة .

فنبّههم في هذه الآيات أن توهمهم أن ما مدّهم الله به من مال وبنين مسارعة لهم في الخيرات خطأ منهم وجهل بحقيقة الحال ، ولو كان ذلك من الخير لم يأخذ العذاب مترفيهم بل المسارعة في الخيرات هو ما وفّق الله المؤمنين له من الأعمال الصالحة وما يترتب عليها من جزيل الأجر وعظيم الثواب في الدنيا والآخرة فهم يسارعون اليها فيسارع لهم فيها .

فالعذاب مدركهم لا محالة والحجة تامة عليهم ولا عذر لهم يعتذرون به كعدم تدبّر القول أو كون الدعوة بدعاً لا سابقة له أو عدم معرفة الرسول أو كونه مجنوناً مختلّ القول أو سؤاله منهم خرجاً بل هم أهل عناد ولجاج لا يؤمنون بالحق حتى يأتيهم عذاب لا مردّ له .

قوله تعالى : « أيحسبون أن ما نمدّهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات

بل لا يشعرون » « نمدُّهم » – بضمّ النون – من الإمداد والمد والإمداد بمعنى واحد وهو تتميم نقص الشيء وحفظه من أن ينقطع أو ينفد، قال الراغب: وأكثر ما يستعمل الإمداد في المحبوب والمد في المكروه ، فقوله : « نمـدُّهم » من الإمداد المستعمل في المكروه والمسارعة لهم في الخيرات إفاضة الخيرات بسرعة لكرامتهم عليه فيكون الخيرات على ظنهم هي المال والبنون سورع لهم فيها .

والمعنى : أيظن هؤلاء أن ما نعطيهم في مدة المهلة من مال وبنين خيرات نسارع لهم فيها لرضانا عنهم أو حبنا لأعمالهم أو كرامتهم علينا ؟

لا ، بل لا يشعرون أي إن الأمر على خلاف مـا يظنون وهم في جهل بحقيقة الأمر وهو أن ذلك إملاء منا واستدراج وإنما نمدّهم في طغيانهم يعمهون كما قال تعالى: « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين » الأعراف : ١٨٣ .

قوله تعالى : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون » إلى آخر الآيات الخمس ، يبين تعالى في هذه الآيات الخمس بمعونة ما تقـدم أن الذي يظن هؤلاء الكفار أن المال والبنين خيرات نسارع لهم فيها خطأ منهم فليست هي من الخيرات في شيء بل استدراج وإملاء وإنما الخيرات التي يسارع فيها هي ما عنـد المؤمنين بالله ورسله واليوم الآخر الصالحين في أعمالهم .

فأفصح تعالى عن وصفهم فقال : « إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون »، قال الراغب: الإشفاق عناية مختلطة بخوف لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، قال تعـالى : « وهم من الساعة مشفقون » فإذا عدّي بمن فمعنى الخوف فيه أظهر ، وإذا عدّي بفي فمعنى العناية فيه أظهر ،قال: «إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين» «مشفقون منها » . انتهى .

والآية تصفهم بأنهم اتخذوا الله سبحانه رباً يملكهم ويدبّر أمرهم ، ولازم ذلك أن يكون النجـاة والهلاك دائرين مدار رضاه وسخطه يخشونه في أمر يحبونه وهو نجاتهم وسعادتهم فهم مشفقون من خشيته وهـذا هو الذي يبعثهم إلى الإيمان بآياته وعبادته ، وقـد ظهر بما مرّ من المعنى أن الجمع في الآية بين الخشية والإشفاق ليس تكراراً مستدركاً .

ثم قـال : « والذين هم بآيات ربهم يؤمنون » وهي كل ما يدل عليه تعالى بوجه

ومن ذلك رسله الحاملون لرسالته وما أيدوا بـه من كتاب وغيره وما جاوا به من شريعة لأن إشفاقهم من خشية الله يبعثهم إلى تحصيل رضاه ويحملهم على إجابته إلى ما يدعوهم اليه وائتمارهم لما يأمرهم به من طريق الوحي والرسالة .

ثم قال: «والذينهم بربهم لا يشركون» والإيمان بآياته هو الذي دعاهم إلى نفي الشركاء في العبادة فإن الإيمان بها إيمان بالشريعة التي شرعت عبادته تعالى والحجج التي دلت على توحده في ربوبيته وألوهيته .

على أن جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام إنما جاؤا من قبله وإرسال الرسل لهداية النـاس إلى الحق الذي فيه سعادتهم من شؤون الربوبية ، ولو كان له شريك لأرسل رسولاً ، ومن لطيف كلام عليّ عليه أفضل السلام قوله : لو كان لربك شريك لأتتك رسله .

ثم قال : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون » الوجل الخوف ، وقوله : « يؤتون ما آتوا » أي يعطون ما أعطوا من المـال بالإنفاق في سبيل الله وقيل : المراد بإيتاء ما آتوا إتيانهم بكل عمل صالح ، وقوله : « وقلوبهم وجلة » حال من فاعل « يؤتون » .

والمعنى والذين ينفقون ما أنفقوا أو يأتون بالأعمال الصالحة والحـال أن قلوبهم خائفة من أنهم سيرجعون إلى ربهم أي إن الباعث لهم على الإنفاق في سبيل الله أو على صالح العمل ذكرهم رجوعهم المحتوم إلى ربهم على وجل منه .

وفي الآية دلالة على إيمانهم باليوم الآخر وإتيانهم بصالح العمل وعند ذلك تعينت صفاتهم أنهم الذين يؤمنون بالله وحـده لا شريك له وبرسله وباليوم الآخر ويعملون الصالحات .

ثم قال : « أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » الظاهر أن اللام في « لها » بمعنى « إلى » و « لها » متعلق بسابقون ، والمعنى اولئك الذين وصفناهم هم يسارعون في الخيرات من الأعمال وهم سابقون اليها أي يتسابقون فيها لأن ذلك لازم كون كل منهم مريداً للسبق اليها .

فقد بيّن في الآيات أن الخيرات هي الأعمال الصالحة المبتنية على الاعتقـاد الحق الذي عند هؤلاء المؤمنين وهم يسارعون فيها وليست الخيرات ما عند لوائك الكفار

وهم يعدّونها بحسبانهم مسارعة من الله سبحانه لهم في الخيرات .

قال في التفسير الكبير : وفيه يعني قوله : « اولئك يسارعون في الخيرات » وجهان :

أحدهما : أن المراد يرغبون في الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاحترام .

والثاني: أنهم يتعجلون في الدنيا أنواع النفع ووجوه الإكرام كما قال: « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » « وآتيناه في الدنيا أجره وإنه في الآخرة لمن الصالحين » لأنهم إذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طباقاً للآية المتقدمة لأن فيه إثبات ما نفي عن الكفار للمؤمنين . انتهى .

أقول : إن الذي نفي عن الكفار في الآية المتقدمة هو مسارعة الله للكفار في الخيرات والذي أثبت للمؤمنين في هذه الآية هو مسارعة المؤمنين في الخيرات ، والذي وجّه في هذا الوجه أن مسارعتهم في الخيرات مسارعة من الله سبحانه بوجه فيبقى عليه أن يبيّن الوجه في وضع مسارعتهم في الآية موضع مسارعته تعالى وتبديلها منها، ووجّه بعضهم بأن تغيير الاسلوب للإيماء إلى كمال استحقاقهم لنيل الخيرات بمحاسن أعمالهم ، وهو كما ترى .

والظاهر أن هــذا التبديل إنما هو في قوله في الآية المتقدمة : « نسارع لهم في الخيرات» والمراد بيان أنهم يحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين خيرات يتسارعون إليها لكرامتهم وهم كافرون لكن لما كان ذلك بإعطاء من الله تعالى لا بقدرتهم عليها من أنفسهم نسبت المسارعة إليه تعالى ثم نفيت بالاستفهام الإنكاري ، وأثبت ما يقابله على الأصل للمؤمنين .

فمحصل هذا النفي والإثبات أن المال والبنين ليست خيرات يتسارعون اليها ولا هم مسارعون إلى الخيرات بل الأعمال الصالحة وآثارها الحسنة هي الخيرات والمؤمنون هم المسارعون إلى الخيرات .

قوله تعالى : « ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » الذي يعطيه السياق أن في الآية ترغيباً وتحضيضاً على ما ذكره من صفات المؤمنين ودفعاً لما ربما ينصرف الناس بتوهمه عن التلبس بكرامتها من وجهين أحدهما

أن التلبّس بها أمر سهل في وسع النفوس وليس بذاك الصعب الشاق الذي يستوعره المترفون ، والثاني أن الله لا يضيع عملهم الصالح ولا ينسى أجرهم الجزيل .

فقوله : « ولا نكلف نفساً إلا وسعها » نفي للتكليف الحرجي الخارج عن وسع النفوس أما في الاعتقاد فإنه تعالى نصب حججاً ظاهرة وآيات باهرة تدل على ما يريد الإيمان به من حقائق المعارف وجهز الإنسان بما من شأنه أن يدركها ويصدق بها وهو العقل ثم راعى حال العقول في اختلافها من جهة قوة الإدراك وضعفه فأراد من كل ما يناسب مقدار تحمله وطوقه فلم يرد من العامة ما يريده من الخاصة ولم يسأل الأبرار عما سأل عنه المقربين ولا ساق المستضعفين بما ساق به المخلصين .

وأما في العمل فإنما ندب الإنسان منه إلى ما فيه خيره في حياته الفردية والاجتماعية الدنيوية وسعادته في حياته الاخروية ، ومن المعلوم أن خير كل نوع من الأنواع ومنها الإنسان إنما يكون فيما يتم به حياته وينتفع به في عيشته وهو مجهز بما يقوى على إتيانه وعمله ، وما هذا شأنه لا يكون حرجياً خارجاً عن الوسع والطاقة .

فلا تكليف حرجياً في دين الله بمعنى الحكم الحرجي في تشريعه مبنياً على مصلحة حرجية ، وبذلك امتن الله سبحانه على عباده، وطيّب نفوسهم ورغّبهم الى ما وصفه من حال المؤمنين .

والآية « ولا نكلف نفساً إلا وسعها » تدل على ذلك وزيادة فإنها تدل على نفي التكليف المبني على الحرج في أصل تشريعه كتشريع الرهبانية والتقرب بذبح الأولاد مثلاً ،ونفي التكليف الذي هو في نفسه غير حرجي لكن اتفق أن صار بعض مصاديقه حرجياً لخصوصية في المورد كالقيام في الصلاة للمريض الذي لا يستطيعه فالجميع منفي بالآية وإن كان الامتنان والترغيب المذكوران يتمان بنفي القسم الأول .

والدليل عليه في الآية تعلق نفي التكليف بقوله :« نفساً » وهو نكرة في سياق النفي يفيد العموم ، وعليه فأي نفس مفروضة في أي حادثة لا تكلف إلا وسعها ولا يتعلق بها حكم حرجي سواء كان حرجياً من أصله أو صار حرجياً في خصوص المورد.

وقد ظهر أن في الآية إمضاء لدرجات الاعتقاد بحسب مراتب العقول ورفعا للحرج سواء كان في أصل الحكم أو طارئاً عليه .

وقوله : « وعندنا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » ترغيب لهم بتطييب

نفوسهم بأن عملهم لا يضيع وأجرهم لا يتخلف والمراد بنطق الكتاب إعرابه عما أثبت فيه إعراباً لا لبس فيه وذلك لأن أعمالهم مثبتة في كتاب لا ينطق إلا بما هو حق فهو مصون عن الزيادة والنقيصة والتحريف ، والحساب مبني على ما أثبت فيه كما يشير اليه قوله : « ينطق » والجزاء مبني على ما يستنتج من الحساب كما يشير اليه قوله : « وهم لا يظلمون » فهم في أمن من الظلم بنسيان أجرهم أو بترك إعطائه أو بنقصه أو تغييره كما أنهم في أمن من أن لا يحفظ أعمالهم أو تنسى بعد الحفظ أو تتغير بوجه من وجوه التغير .

قال الرازي في التفسير الكبير فإن قيل: هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب إما أن يكونوا محيلين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه فإن أحالوه عليه فإنهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أو لم يوجد ، وإن جوّزه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم أنه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب .

قلنا : يفعل الله ما يشاء ، وعلى أنه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة . انتهى .

أقول : والذي أجاب به مبني على مسلكه من نفي الغرض عن فعله تعالى وتجويز الإرادة الجزافية تعالى عن ذلك، والإشكال مطّرد في سائر شؤن يوم القيامة التي أخبر الله سبحانه بها كالحشر والجمع وإشهاد الشهود ونشر الكتب والدواوين والصراط والميزان والحساب .

والجواب عن ذلك كله : أنه تعالى مثّل لنا ما يجري على الإنسان يوم القيامة في صورة القضاء والحكم الفصل ، ولا غنى للقضاء بما أنه قضاء عن الاستناد إلى الحجج والبيّنات كالكتب والشهود والأمارات والجمع بين المتخاصمين ولا يتم دون ذلك البتة .

نعم لو أغمضنا النظر عن ذلك كان ظهور أعمال الإنسان له في مراحل رجوعه إلى الله سبحانه بإذنه ، فافهمه .

قوله تعالى : « بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون » المناسب لسياق الآيات أن يكون «هذا» إشارة إلى ما وصفته الآيات السابقة من حال المؤمنين ومسارعتهم في الخيرات،ويمكن أن يكون إشارة إلى القرآن كما يؤيده

قوله بعد : « قد كانت آياتي تتلى عليكم » والغمرة الغفلة الشديدة أو الجهل الشديد الذي غمرهم ، وقوله : « ولهم أعمال من دون ذلك » الخ ، أي من غير ما وصفناه من حال المؤمنين وهو كناية عن أن لهم شاغلاً يشغلهم عن هذه الخيرات والأعمال الصالحة وهو الأعمال الرديئة الخبيثة التي هم لها عاملون .

والمعنى : بل الكفار في غفلة شديدة أو جهل شديد عن هـــذا الذي وصفنا به المؤمنين ولهم أعمال رديئة خبيثة من دون ذلك هم لها عاملون في شاغلتهم ومانعتهم .

قوله تعالى : «حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون» الجؤار – بضم الجيم – صوت الوحش كالظباء ونحوها عند الفزع كنّي به عن رفعهم الصوت بالاستغاثة والتضرُّع ، وقيل : المراد به ضجّتهم وجزعهم والآيات التالية تؤيد المعنى الأول .

وإنما جعل مترفيهم متعلق العذاب لأن الكلام فيمن ذكره قبلاً بقوله : «أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين » وهم الرؤساء المتنعمون منهم وغيرهم تابعون لهم .

قوله تعالى : « لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون » العدول عن سياق الغيبة إلى الخطاب لتشديد التوبيخ والتقريع ولقطع طمعهم في النجاة بسبب الاستغاثة وأي رجاء وأمل لهم فيهـا فإن إخبار الوسائط أنهم لا ينصرون لدعاء أو شفاعة لا يقطع طمعهم في النصر كما يقطعه إخبار من اليه النصر نفسه .

قوله تعالى : « قد كانت آياتي تتلى عليكم – إلى قوله – تهجرون » النكوص : الرجوع القهقرى ، والسامر من السمر وهو التحديث بالليل ، قيل : السامر كالحاضر يطلق على المفرد والجمـع ، وقرىء « سمّرا » – بضمّ السين وتشديد الميم – جمع سامر وهو أرجح ، وقرىء أيضاً « سُمّارا » – بالضم والتشديد – ، والهجر : الهذيان .

والفصل في قوله : « قد كانت آياتي » الخ ، لكونه في مقام التعليل ، والمعنى : إنكم منا لا تنصرون لأنه قد كانت آياتي تُتلى وتُقرأ عليكم فكنتم تعرضون عنها وترجعون إلى أعقابكم القهقرى مستكبرين بنكوصكم تحدّثون في أمره في الليل تهجرون وتهذون ، وقيل : ضمير « به » عائد إلى البيت أو الحرم وهو كما ترى .

قوله تعالى : « أفلم يدّبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » شروع في قطع أعذارهم في الإعراض عن القرآن النـــازل لهدايتهم وعدم استجابتهم للدعوة الحقة التي قام بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

فقوله : « أفلم يدّبروا القول » الاستفهام فيه للإنكار واللام في « القول » للعهد والمراد به القرآن المتلو عليهم ، والكلام متفرع على ما تقدمه من كونهم في غفلة منه وشغل يشغلهم عنه ، والمعنى : هل إذا كانوا على تلك الحال لم يدّبروا هذا القول المتلو عليهم حتى يعلموا أنه حق من عند الله فيؤمنوا به .

وقوله: « أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين » « أم » فيه وفيما بعده منقطعة في معنى الإضراب ، والمعنى : بل أجاءهم شيء لم يأت آباءهم الأولين فيكون بدعاً ينكر ويحترز منه .

وكون الشيء بدعاً محدثاً لا يعرفه السابقون وإن لم يستلزم كونه باطلاً غير حق على نحو الكلية لكن الرسالة الإلهية لما كانت لغرض الهداية لو صحّت وجبت في حق الجميع فلو لم يأت الأولين كان ذلك حجة قاطعة على بطلانها .

قوله تعالى : « أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » المراد بمعرفة الرسول معرفته بنسبه وحسبه وبالجملة بسجاياه الروحية وملكاته النفسية من اكتسابية وموروثة حتى يتبين به أنه صادق فيما يقول مؤمن بما يدعو إليه مؤيد من عندالله وقد عرفوا من النبي ﷺ سوابق حاله قبل البعثة ، وقد كان يتيماً فاقداً للأبوين لم يقرأ ولم يكتب ولم يأخذ أدباً من مؤدب ولا تربية من مربّ ثم لم يجدوا عنده ما يستقبحه عقل أو يستنكره طبع أو يستهجنه رأي ولا طمعاً في ملك أو حرصاً على مال أو ولعاً بجاه ، وهو على ما هو سنين من عمره فإذا هو ينادي للفلاح والسعادة ويندب إلى حقائق معارف تبهر العقول ويدعو إلى شريعة تحيّر الألباب ويتلو كتاباً .

فهم قد عرفوا رسولهم ﷺ بنعوته الخاصة المعجزة لغيره ، ولو لم يكونوا يعرفونه لكان لهم عذراً في إعراضهم عن دينه واستنكافهم عن الإيمان به لأن معنى عدم معرفته كذلك وجدانه على غير بعض هذه النعوت أو عدم إحرازه فيه ، ومن المعلوم أن إلقاء الزمام إلى من هذا شأنه مما لا يجوزه العقل .

قوله تعالى : « أم يقولون به جنة بل جاء بالحق وأكثرهم للحق كارهون » وهذا عذر آخر لهم تشبّثوا به إذ قالوا: « يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون » الحجر : ٦ ذكره ورده بلازم قوله : « بل جاء بالحق » .

فمدلول قوله : « بل جاء بالحق وأكثرهم للحق كارهون » إضراب عن جملة

محذوفة والتقدير إنهم كاذبون في قولهم . « به جنة » واعتذارهم عن عدم إيمانهم به بذلك بل إنما كرهوا الإيمان به لأنه جاء بالحق وأكثرهم للحق كارهون .

ولازمه رد قولهم بحجة يلوّح اليها هذا الاضراب ، وهي أن قولهم : «به جنة» لو كان حقاً كان كلامه مختلّ النظم غير مستقيم المعنى مدخولاً فيه كما هو مدخول في عقله ، غير رام إلى مرمى صحيح ، لكن كلامه ليس كذلك فلا يدعو إلا إلى حق ، ولا يأتي إلا بحق ، وأين ذلك من كلام مجنون لا يدري ما يريد ولا يشعر بما يقول .

وإنما نسب الكراهة إلى أكثرهم لأن فيهم مستضعفين لا يعبؤ بهم أرادوا أو كرهوا .

قوله تعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » لما ذكر أن أكثرهم للحق كارهون وإنما يكرهون الحق لمخالفته هواهم فهم يريدون من الحق أي الدعوة الحقة أن يتبع أهواءهم وهذا مما لا يكون البتة .

إذ لو اتبع الحق أهواءهم فتركوا وما يهوونه من الاعتقاد والعمل فعبدوا الأصنام واتخذوا الأرباب ونفوا الرسالة والمعاد واقترفوا ما أرادوه من الفحشاء والمنكر والفساد جاز أن يتّبعهم الحق في غير ذلك من الخليقة والنظام الذي يجري فيها بالحق إذ ليس بين الحق والحق فرق فاعطي كل منهم ما يشتهيه من جريان النظام وفيه فساد السماوات والأرض ومن فيهن واختلال النظام وانتفاض القوانين الكلية الجارية في الكون فمن البيّن أن الهوى لا يقف على حد ولا يستقر على قرار .

وبتقرير آخر أدق وأوفق لما يعطيه القرآن من حقيقة الدين القيم أن الإنسان حقيقة كونية مرتبطة في وجودها بالكون العام وله في نوعيته غاية هي سعادته وقد خط له طريق إلى سعادته وكماله ينالها بطي الطريق المنصوب اليها نظير غيره من الأنواع الموجودة ، وقد جهّزه الكون العام وخلقته الخاصة به من القوى والآلات بما يناسب سعادته والطريق المنصوب اليها وهي الاعتقاد والعمل اللذان ينتهيان به إلى سعادته .

فالطريق التي تنتهي بالإنسان إلى سعادته أعني الاعتقادات والأعمال الخاصة المتوسطة بينه وبين سعادته وهي التي تسمى الدين وسنة الحياة متعينة حسب

اقتضاء النظام العام الكوني والنظام الخاص الإنساني الذي نسميه الفطرة وتابعة لذلك .
وهـذا هو الذي يشير تعالى اليه بقوله : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » سورة الروم : ٣٠ .

فسنة الحياة التي تنتهي بسالكها إلى السعادة الإنسانية طريقة متعينة يقتضيها النظام بالحق وتكشف عنها تجهيزات وجوده بالحق ، وهذا الحق هو القوانين الثابتة غير المتغيرة التي تحكم في النظام الكوني الذي أحد أجزائه النظـام الإنساني وتدبره وتسوقه إلى غاياته وهو الذي قضى به الله سبحانه فكان حتماً مقضياً .

فلو اتبع الحق أهواءهم فاقتضى لهم من الشرع ما تجازف به أهواؤهم لم يكن ذلك إلا بتغير أجزاء الكون عما هي عليه وتبدل العلل والأسباب غيرها وتغير الروابط المنتظمة إلى روابط جزافية مختلة متدافعة توافق مقتضياتها مجازفات أهوائهم ، وفي ذلك فساد السماوات والأرض ومن فيهن في أنفسها والتدبير الجاري فيها لأن كينونتها وتدبيرها مختلطان غير متمايزين ، والخلق والأمر متصلان غير منفصلين .

وهذا هو الذي يشير اليه قوله : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن .

وقوله : « بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » لا ريب أن المراد بالذكر هو القرآن كما قال : « وهـذا ذكر مبارك » الأنبياء : ٥٠ ، وقال : « وإنه لذكر لك ولقومك » ، الزخرف : ٤٤ إلى غير ذلك من الآيات ، ولعل التعبير عنه بالذكر بعد قوله : « أم يقولون به جنة » نوع مقابلة لقولهم : « يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » الحجر : ٦ .

وكيف كان فقد سمي ذكراً لأنه يذكرهم بالله أو يذكر لهم دين الله من الاعتقاد الحق والعمل الصالح ، والثاني أوفق لصدر الآية بما تقدم من معناه ، وإنما أضيف اليهم لأن الدين أعني الدعوة الحقة مختلفة بالنسبة إلى الناس بالإجمال والتفصيل والذي يذكره القرآن آخر مراحل التفصيل لكون شريعته آخر الشرائع .

والمعنى : لم يتبع الحق أهواءهم بل جئناهم بكتاب يذكرهم ـ أو يذكرون به ـ دينهم الذي يختص بهم ويتفرع عليه أنهم عن دينهم الخاص بهم معرضون .

وقال كثير منهم إن إضافة الذكر اليهم للتشريف نظير قوله : « وإنه لذكر

لك ولقومك وسوف تسألون » الزخرف: ٤٤ ، والمعنى: بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذي كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل إقبـــال فهم بما فعلوه من النكوص عن فخرهم وشرفهم أنفسهم معرضون .

وفيه أنه لا ريب في أن القرآن الكريم شرف للنبي ﷺ إذ أنزل عليه ولأهل بيته إذ نزل في بيتهم ، وللعرب إذ نزل بلغتهم وللامة إذ نزل لهدايتهم غير أن الإضافة في الآية ليست لهذه العناية بل لعناية اختصاص هذا الدين بهذه الامة وهو الأوفق لصدر الآية بالمعنى الذي تقدمت الإشارة اليه .

قوله تعالى : « أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين » ، قال في مجمع البيان : أصل الخراج والخرج واحد وهو الغلة التي يخرج على سبيل الوظيفة انتهى.

وهذا رابع الأعذار التي ذكرت في هذه الآيات وردت ووبخوا عليها وقد ذكره الله بقوله : « أم تسألهم خرجا » أي مالاً يدفعونه اليك على سبيل الرسم والوظيفة ثم ذكر غنى النبي ﷺ بقوله : « فخراج ربك خير وهو خير الرازقين » أي إن الله هو رازقك ولا حاجة لك إلى خرجهم ، وقد تكرر الأمر بإعلامهم ذلك في الآيات « قل لا أسألكم عليه أجرا » الأنعام : ٩٠ الشورى : ٢٣ .

وقد تمت بما ذكر في الآية أربعة من الأعذار المردودة اليهم وهي مختلفة فأولها « أفلم يدبروا القول » راجع إلى القرآن والثاني « أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين» إلى الدين الذي اليه الدعوة ، والثالث « أم يقولون به جنة » إلى نفس النبي ﷺ ، والرابع « أم تسألهم خرجا » إلى سيرته .

قوله تعالى : «وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » النكب والنكوب العدول عن الطريق والميل عن الشيء .

قد تقدم في تفسير سورة الفاتحة أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا يختلف ولا يتخلف في حكمه وهو إيصاله سالكيه إلى الغاية المقصودة ، وهـــذه صفة الحق فإن الحق واحد لا يختلف أجزاؤه بالتناقض والتدافع ولا يتخلف في مطلوبه الذي يهدي اليه فالحق صراط مستقيم ، وإذ ذكر أن النبي ﷺ يهدي إلى الحق كان لازمه هذا الذي ذكره أنه يهدي إلى صراط مستقيم .

ثم إن الذين كفروا لما كانوا كارهين للحق كما ذكره فهم عادلون عن الصراط أي الصراط المستقيم مائلون إلى غيره .

وإنما أورد من أوصافهم عدم إيمانهم بالآخرة واقتصر عليه لأن دين الحق مبني على أساس أن للإنسان حياة خالدة لا تبطل بالموت وله فيها سعادة يجب أن تقتني بالإعتقاد الحق والعمل الصالح وشقاوة يجب أن تجتنب ، وهؤلاء لنفيهم الحياة الآخرة يعدلون عن الحق والصراط المستقيم .

وبتقرير آخر : دين الحق مجموع تكاليف اعتقادية وعملية والتكليف لا يتم إلا بحساب وجزاء ، وقد عين لذلك يوم القيامة ، وإذ لا يؤمن هؤلاء بالآخرة لغى الدين عندهم فلا يرون من الحياة إلا الحياة الدنيا المادية ولا يبقى من السعادة عندهم إلا نيل اللذائذ المادية وهو التمتع بالبطن فما دونه ، ولازم ذلك أن يكون المتبع عندهم الهوى وافق الحق أو خالفه .

فمحصل الآيتين أنهم ليسوا بمؤمنين بك لأنك تدعو إلى صراط مستقيم وهم لا همّ لهم إلا العدول والميل عنه .

قوله تعالى : « ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر » إلى قوله « وما يتضرعون » اللجاج التمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه ، والعمه التردد في الأمر من التحير ، ذكرهما الراغب ، وفي المجمع : الاستكانة الخضوع وهو استفعل من الكون ، والمعنى ما طلبوا الكون على صفة الخضوع . انتهى .

وقوله : « ولو رحمناهم » بيان وتأييد لنكوبهم عن الصراط بأنا لو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر لم يرجعوا بمقابلة ذلك الشكر بل أصروا على تمردهم عن الحق وتمادوا يترددون في طغيانهم فلا ينفعهم رحمة بكشف الضر كما لا ينفعهم تخويف بعذاب ونقمة فإنا قد أخذناهم بالعذاب فما خضعوا لربهم وما يتضرعون اليه فهؤلاء لا ينفعهم ولا يركبهم صراط الحق لا رحمة بكشف الضر ولا نقمة وتخويف بالأخذ بالعذاب .

والمراد بالعذاب العذاب الخفيف الذي لا ينقطع به الإنسان عن عامة الأسباب بقرينة ما في الآية التالية فلا يرد أن الرجوع إلى الله تعالى عند الاضطرار والانقطاع

عن الأسباب من غريزيات الإنسان كما تكرر ذكره في القرآن الكريم فكيف يمكن أن يأخذهم العذاب ثم لا يستكينوا ولا يتضرعوا ؟

وقوله في الآية الاولى: « ما بهم من ضر » وفي الثانية : « ولقد أخذناهم بالعذاب» يدل على أن الكلام ناظر إلى عذاب قد وقع ولما يرتفع حين نزول الآيات ، ومن المحتمل أنه الجدب الذي ابتلي به أهل مكة وقد ورد ذكر منه في الروايات .

قوله تعالى : « حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون» أي هم على حالهم هذه لا ينفع فيهم رحمة ولا عذاب حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد وهو الموت بما يستتبعه من عذاب الآخرة – على ما يعطيه سياق الآيات وخاصة الآيات الآتية – فيفاجئوهم الإبلاس واليأس من كل خير .

وقد ختم هذا الفصل من الكلام أعني قوله : « أفلم يدبروا القول » الخ بنظير ما ختم به الفصل السابق أعني قوله : « أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين » إلى آخر الآيات وهو ذكر عذاب الآخرة ، وسيعود اليه ثانياً .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: « والذين هم من خشية ربهم مشفقون – إلى قوله – يؤتون ما آتوا » قال : من العبادة والطاعة .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وابن ماجة وابن أبي الدنيا في نعت الخائفين وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصحّحه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت : قلت : يا رسول الله قول الله : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله ؟ قال : لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف الله أن لا يتقبل منه .

وفي المجمع في قوله : « وقلوبهم وجلة » قال أبو عبد الله عليه‌السلام : معناه خائفة أن لا يقبل منهم ، وفي رواية اخرى : أتى وهو خائف راج .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة

« حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب » قال ذكر لنا أنها نزلت في الذين قتل الله يوم بدر.

أقول: وروى مثله عن النسائي عن ابن عباس ولفظه قال: هم أهل بدر، وسياق الآيات لا ينطبق على مضمون الروايتين.

وفيه أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز يعني الوبر بالدم فأنزل الله: « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ».

أقول: والروايات في هذا المعنى مختلفة وما أوردناه أعدلها وهي تشير إلى جدب وقع بمكة وحواليها بدعوة النبي ﷺ، وظاهر أكثرها أنه كان بعد الهجرة، ولا يوافق ذلك الاعتبار.

وفي تفسير القمي في قوله تعالى: « ولو اتبع الحق أهواءهم » قال: الحق رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام.

أقول: هو من البطن بالمعنى الذي تقدم في بحث المحكم والمتشابه ونظيره ما أورده في قوله: « وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم » قال: إلى ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وكذا ما أورده في قوله: «عن الصراط لناكبون» قال: عن الإمام لحادون.

وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: « أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خير وهو خير الرازقين » يقول: أم تسألهم أجراً فأجر ربك خير.

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: « فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » فقال: الإستكانة هي الخضوع، والتضرع رفع اليدين والتضرع بهما.

وفي المجمع وروي عن مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: قال النبي ﷺ: رفع الأيدي من الإستكانة. قلت: وما الإستكانة؟ قال: أما تقرأ هذه الآية: « فما استكانوا لربهم وما يتضرعون »؟ أورده الثعلبي والواحدي في تفسيرهما.

وفيه قال أبو عبدالله عليه السلام: الإستكانة الدعاء، والتضرع رفع اليدين في الصلاة.

وفي الدر المنثور أخرج العسكري في المواعظ عن علي بن أبي طالب في قوله:

«وما استكانوا لربهم وما يتضرعون» أي لم يتواضعوا في الدعاء ولم يخضعوا لو خضعوا لله لاستجاب لهم .

وفي المجمع في قوله تعالى : « حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد » قال أبو جعفر عليه السلام هو في الرجعة .

* * *

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ــ ٧٨. وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ــ ٧٩. وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ــ ٨٠. بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ــ ٨١ . قَالُوا ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ــ ٨٢ . لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ــ ٨٣ . قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ــ ٨٤. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ــ ٨٥ . قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ــ ٨٦. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ــ ٨٧ . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ــ ٨٨. سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ــ ٨٩. بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ــ ٩٠. مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ــ ٩١ . عَالِمِ الْغَيْبِ

وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ـــ ٩٢. قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ـــ ٩٣. رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ـــ ٩٤ . وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ـــ ٩٥ . إِدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ـــ ٩٦ . وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ـــ ٩٧ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ـــ ٩٨ .

(بيان)

لما أوعدهم بعذاب شديد لا مردّ له ولا مخلص منه ، وردّ عليهم كل عذر يمكنهم أن يعتذروا به ، وبيّن أن السبب الوحيد لكفرهم بالله واليوم الآخر هو اتباع الهوى وكراهة اتباع الحق ، تمّم البيان بإقامة الحجة على توحّده في الربوبية وعلى رجوع الخلق اليه بذكر آيات بيّنة لا سبيل للإنكار اليها .

وعقّب ذلك بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ به من أن يشمله العذاب الذي أوعدوا به ، وأن يعوذ به من همزات الشيطان وأن يحضروه كما فعلوا بهم .

قوله تعالى : «وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون» افتتح سبحانه من نعمه التي أنعمها عليهم بذكر إنشاء السمع والبصر وهما نعمتان خصّ بهما جنس الحيوان خلقتا فيه إنشاء وإبداعاً لا عن مثال سابق إذ لا توجدان في الأنواع البسيطة التي قبل الحيوان كالنبات والجماد والعناصر .

وبحصول هذين الحسّين يقف الوجود المجهز بهما موقفاً جديداً ويتسع مجال فعاليته بالنسبة إلى ما هو محروم منهما اتساعاً لا يتقدر بقدر فيدرك خيره وشره ونافعه وضارّه ويعطي معهما الحركة الإرادية إلى ما يريده وعما يكرهه ، ويستقر في عالم حديث طري فيه مجالي الجمال واللذة والعزة والغلبة والمحبة مما لا خبر عنه فيما قبله .

وإنما اقتصر من الحواس بالسمع والبصر – قيل – لأن الاستدلال يتوقف عليهما ويتمّ بهما .

ثم ذكر سبحانه الفؤاد والمراد به المبدأ الذي يعقل من الإنسان وهو نعمة خاصة بالإنسان من بين سائر الحيوان ومرحلة حصول الفؤاد مرحلة وجودية جديدة هي أرفع درجة وأعلى منزلة وأوسع مجالاً من عـالم الحيوان الذي هو عالم الحواس فيتسع به أولاً شعاع عمل الحواس مما كان عليه في عامة الحيوان بما لا يتقدر بقدر فإذا الإنسان يدرك بها ما غاب وما حضر وما مضى وما غبر من أخبار الأشياء وآثارها وأوصافها بعلاج وغير علاج .

ثم يرقى بفؤاده أي بتعقله إلى ما فوق المحسوسات والجزئيات فيتعقل الكليات فيحصل القوانين الكلية ، ويغور متفكراً في العلوم النظرية والمعارف الحقيقية ، وينفذ بسلطان التدبر في أقطار السماوات والأرض .

ففي ذلك كله من عجيب التدبير الإلهي بإنشاء السمع والأبصار والأفئدة ما لا يسع الإنسان أن يستوفي شكره .

وقوله : « قليلاً ما تشكرون » فيه بعض العتاب ومعناه تشكرون شكراً قليلاً فقوله : « قليلاً » وصف للمفعول المطلق قائم مقامه .

قوله تعالى : « وهو الذي ذرأكم في الأرض واليه تحشرون » قال الراغب : الذرأ إظهار الله تعالى ما أبداه يقال : ذرأ الله الخلق أي أوجد أشخاصهم . وقال : الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها . انتهى .

فالمعنى : أنه لما جعلكم ذوي حس وعقل أظهر وجودكم في الأرض متعلقين بها ثم يجمعكم ويرجعكم إلى لقائه .

قوله تعالى : « وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون » معنى الآية ظاهر ، وقوله : « وهو الذي يحيي ويميت » مترتب بحسب المعنى على الجملة التي قبله أي لما جعلكم ذوي علم وأظهر وجودكم في الأرض إلى حين حتى تحشروا اليه لزمت ذلك سنة الإحياء والإماتة إذ العلم متوقف على الحياة والحشر متوقف على الموت.

وقوله : « وله اختلاف الليل والنهار » مترتب على ما قبله فإن الحياة ثم الموت لا تتم إلا بمرور الزمان وورود الليل بعد النهار والنهار بعد الليل حتى ينقضي العمر ويحل الأجل المكتوب ، هذا لو أريد باختلاف الليل والنهار وورود الواحد منها بعد الواحد ، ولو أريد به اختلافهما في الطول والقصر كانت فيـه إشارة إلى إيجاد فصول

السنة الأربعة المتفرعة على طول الليل والنهار وقصرهما وبذلك يتم أمر أرزاق الحيوان وتدبير معاشها كما قال : « وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » ، حم السجدة : ١٠ .

فمضامين الآيات الثلاث مترتبة مستتبعة بعضها بعضاً فإنشاء السمع والبصر والفؤاد وهو الحس والعقل للانسان يستتبع حياة متعلقة بالمادة وسكوناً في الأرض إلى حين ، ثم الرجوع إلى الله ، وهو يستتبع حياة وموتاً ، وذلك يستتبع عمراً متقضياً بانقضاء الزمان ورزقاً يرتزق به .

فالآيات الثلاث تتضمن الإشارة إلى دور كامل من تدبير أمر الإنسان من حين يخلق إلى أن يرجع إلى ربه ، والله سبحانه هو مالك خلقه فهو مالك تدبير أمره لأن هذا التدبير تدبير تكويني لا يفارق الخلق والإيجاد ولا ينحاز عنه ، وهو نظام الفعل والإنفعال الجاري بين الأشياء بما بينها من الروابط المختلفة المجعولة بالتكوين فالله سبحانه هو ربهم المدبر لأمرهم واليه يحشرون ،وقوله :« أفلا تعقلون» توبيخ لهم وحث على التنبه فالإيمان .

قوله تعالى : « بل قالوا مثل ما قالوا الأولون » إضراب عن نفي سابق يدلّ عليه الاستفهام المتقدم أي لم يعقلوا بل قالوا كذا وكذا .

وفي تشبيه قولهم بقول الأولين إشارة إلى أن تقليد الآباء منعهم عن اتباع الحق وأوقعهم فيما لا يبقى معه للدين جدوى وهو نفي المعاد ،والإخلاص إلى الأرض والانهار في الماديات سنة جارية فيهم في آخرهم وأوليهم .

قوله تعالى : « قالوا ءإذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ءإنا لمبعوثون » بيان لقوله : « قالوا » في الآية السابقة والكلام مبني على الاستبعاد .

قوله تعالى : « لقد وعدنا نحن آباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » الأساطير الأباطيل والأحاديث الخرافية وهي جمع أسطورة كأكاذيب جمع أكذوبة وأعاجيب جمع أعجوبة وإطلاق الأساطير وهو جمع على البعث وهو مفرد بعناية أنه مجموع عدات كل واحد منها أسطورة كالإحياء والجمع والحشر والحساب والجنة والنار وغيرها ، والإشارة بهذا إلى حديث البعث وقوله : من قبل ، متعلق بقوله :«وعدنا» على ما يعطيه سياق الجملة .

والمعنى: أن وعد البعث وعد قديم ليس بحديث نقسم لقد وعدناه من قبل نحن وآباؤنا ليس البعث الموعود إلا أحاديث خرافية وضعها ونظمها الأناسي الأولون في صورة إحياء الأموات وحساب الأعمال والجنة والنار والثواب والعقاب .

والدليل على كونها أساطير أن الأنبياء من قديم الدهر لا يزالون يعدوننا ويخوّفوننا بقيام الساعة ولو كان حقاً غير خرافي لوقع .

ومن هنا يظهر أولاً أن قولهم : « من قبل » لتمهيد الحجة على قولهم بعده « إن هذا إلا أساطير الأولين » .

وثانياً : أن الكلام مسوق للترقّي فالآية السابقة : « ءإذا كنا تراباً وعظاماً ءإنا لمبعوثون » مبنية على الإستبعاد وهذه الآية متضمنة للإنكار مبنياً على حجة واهية .

قوله تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون » لما ذكر استبعادهم للبعث ثم إنكارهم له شرع في الاحتجاج على إمكانه من طريق الملك والربوبية والسلطنة ، ووجه الكلام إلى الوثنيين المنكرين للبعث وهم معترفون به تعالى بمعنى أنه الموجد للعالم ورب الأرباب والآلهة المعبودون دونه من خلقه ، ولذا أخذ وجوده تعالى مسلّماً في ضمن الحجة .

فقوله : « قل لمن الأرض ومن فيها » أمر للنبي ﷺ أن يسألهم عن مالك الأرض ومن فيها من أولي العقل من هو ؟ ومعلوم أن السؤال إنما هو عن الملك الحقيقي الذي هو قيام وجود شيء بشيء بحيث لا يستقل الشيء المملوك عن مالكه بأي وجه فرض دون الملك الاعتباري الذي وضعناه معاشر المجتمعين لمصلحة الاجتماع وهو يقبل الصحة والفساد ويقع مورداً للبيع والشرى ، وذلك لأن الكلام مسوق لإثبات صحة جميع التصرفات التكوينية وملاكها الملك التكويني الحقيقي دون التشريعي الاعتباري.

قوله تعالى : « سيقولون لله قل أفلا تذكّرون » إخبار عن جوابهم وهو أن الأرض ومن فيها مملوكة لله ، ولا مناص لهم عن الاعتراف بكونها لله سبحانه فإن هذا النوع من الملك لا يقوم إلا بالعلة الموجدة لمعلولها حيث يقوم وجود المعلول بها قياماً لا يستقلّ عنها بوجه من الوجوه، والعلة الموجدة للأرض ومن فيها هو الله سبحانه وحده لا شريك له حتى باعتراف الوثنيين .

وقوله : « قل أفلا تذكّرون » أمر بعد تسجيل الجواب أن يوبخهم على عدم

تذكرهم بالحجة الدالة على إمكان البعث ، والمعنى قل لهم فإذا كان الله سبحانه مالك الأرض ومن فيها لم لا تتذكرون أن له – لمكان مالكيّته – أن يتصرف في أهلها بالإحياء بعد الإماتة .

قوله تعالى : « قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم » أمره ثانياً أن يسألهم عن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم من هو ؟

والمراد بالعرش هو المقام الذي يجتمع فيه ازمّة الامور ويصدر عنه كل تدبير ، وتكرار لفظ الرب في قوله : « ورب العرش العظيم » للإشارة إلى أهمية أمره ورفعة محله كما وصفه الله بالعظمة ، وقد تقدم البحث عنه في تفسير سورة الأعراف في الجزء الثامن من الكتاب .

ذكروا أن قولنا : لمن السماوات السبع وقولنا : من رب السماوات السبع بمعنى واحد كما يقال : لمن الدار ومن رب الدار فقوله تعالى : « من رب السماوات السبع ؟ سؤال عن مالكها ، ولذا حكى الجواب عنهم بقوله : « سيقولون لله » على المعنى ولو أنه أجيب عنه فقيل : « الله » كما في القراءة الاخرى كان جواباً على اللفظ .

وفيه أن الذي ثبت في اللغة أن رب الشيء هو مالكه المدبّر لأمره بالتصرف فيه فيكون الربوبية أخصّ من الملك ، ولو كان الرب مرادفاً للمالك لم يستقم ترتب الجواب على السؤال في الآيتين السابقتين « قل لمن الأرض ومن فيها – إلى قوله – سيقولون لله » إذ كان معنى السؤال : من رب الأرض ومن فيها ، ومن المعلوم أنهم كانوا قائلين بربوبية آلهتهم من دون الله للأرض ومن فيها فكان جوابهم إثبات الربوبية لآلهتهم من غير أن يكونوا ملزمين بتصديق ذلك لله سبحانه وهذا بخلاف السؤال عن مالك الأرض ومن فيها فإن الجواب عنه تصديقه لله لأنهم كانوا يرون الإيجاد لله والملك لازم الإيجاد فكانوا ملزمين بالاعتراف به .

ثم على تقدير كون الرب أخص من المالك يمكن أن يتوهم توجّه الاشكال إلى ترتب الجواب على السؤال في الآية المبحوث عنها « قل من رب السماوات السبع – إلى قوله – سيقولون لله » فإن جلّ الوثنيين من الصابئين وغيرهم يرون للسماوات وما فيها من الشمس والقمر وغيرهما آلهة دون الله فلو أجابوا عن السؤال عن رب السماوات

أجابوا بإثبات الربوبية لآلهتهم دون الله فلا يستقيم قوله : « سيقولون لله » إذ لا ملزم يلزمهم على الاعتراف به .

والذي يحسم أصل الإشكال أن البحث العميق عن معتقدات القوم يعطي أنهم لم يكونوا يبنون آراءهم في أمر الآلهة على أصل أو أصول منظمة مسلمة عند الجميع فأمثال الصابئين والبرهمائيين والبوذيين كانوا يقسمون أمور العالم إلى أنواع وأقسام كأمر السماء والأرض وأنواع الحيوان والنبات والبر والبحر وغير ذلك ويثبتون لكل منها إلهاً دون الله يعبدونه من دون الله ويعدّونه شفيعاً مقرّباً ثم يتخذون له صنماً يمثله .

وأما عامتهم من الهمجيين كأعراب الجاهلية والقاطنين في أطراف المعمورة فلم يكن معتقداتهم في ذلك مبنية على قواعد مضبوطة وربما كانوا يرون للمعمورة من الأرض وسكانها آلهة دون الله لها أصنام وربما رأوا نفس الأصنام المصنوعة آلهة ، وأما السماوات والسماويات وكذا البحار فكانوا يرونها مربوبة لله سبحانه والله ربها كما يلوّح اليه قوله تعالى حكاية عن فرعون : « يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطّلع إلى إله موسى » المؤمن : ٣٧ ، فإن ظاهره أنه كان يرى أن الذي يدعو اليه موسى ـ وهو الله تعالى ـ إله السماء وبالجملة السماوات وما فيهن ومن فيهن من الملائكة عندهم مربوبون لله سبحانه ثم الملائكة أرباب لما دون السماوات .

وأما الصابئون ومن يحذو حذوهم فإنهم – كما سمعت – يرون للسماوات وما فيهن من النجوم والكواكب آلهة وأرباباً من دون الله وهم الملائكة والجن وهم يرون الملائكة والجن موجودات مجرّدة عن المادة طاهرة عن لوث الطبيعة ، وحينما يعدّونهم ساكنين في السماوات فإنما يريدون باطن هذا العالم وهو العالم السماوي العلوي الذي فيه تتقدر الامور ومنه ينزل القضاء وبه تستمد الأسباب الطبيعية ، وهو بما فيه من الملائكة وغيرهم مربوب لله سبحانه وإن كان من فيه آلهة للعالم الحسّي وأرباباً لمن فيه والله رب الأرباب .

إذا تمهدت هذه المقدمة فنقول : إن كان وجه الكلام في الآية الكريمة إلى مشركي العرب كما هو الظاهر ، كان السؤال عن رب السماوات السبع والجواب عنه باعترافهم أنه الله في محله كما عرفت .

وإن كان وجه الكلام إلى غيرهم ممن يرى للسماء إلهاً دون الله كان المراد بالسماء العــالم السماوي بسكنته من الملائكة والجن دون السماوات المادية ، ويؤيده مقارنته بالسؤال عن رب العرش العظيم فإن العرش مقــام صدور الأحكام المتعلقة بمطلق الخلق الذي منهم أربابهم وآلهتهم ، ومن المعلوم أن لا رب لمقام هذا شأنه إلا الله إذ لا يفوقه شيء دونه .

وهذا العــالم العلوي هو عندهم عالم الأرباب والآلهة لا رب له إلا الله سبحانه فالسؤال عن ربه والجواب عنه باعترافهم أنه الله في محله كما أشير اليه .

فمعنى الآية – والله أعلم – قل : من رب السماوات السبع التي منها تنزل أقدار الامور وأقضيتها ورب العرش العظيم الذي منه يصدر الأحكام لعامة ما في العــالم من الملائكة فمن دونهم ؟ فإنهم ومــا يملكونهم باعتقادكم مملوكة لله وهو الذي ملكهم ما ملكوه .

قوله تعالى : « سيقولون لله قل أفلا تتقون » حــكاية لجوابهم بالاعتراف بأن السماوات السبع والعرش العظيم لله سبحانه .

والمعنى: سيجيبونك بأنها لله قل لهم تبكيتاً وتوبيخاً : فإذا كان السماوات السبع منها ينزل الأمر والعرش العظيم منه يصدر الأمر لله سبحانه فلم لا تتقون سخطه إذ تنكرون البعث وتعدونه من أساطير الأولين وتسخرون من أنبيائه الذين وعدوكم به؟ فإن له تعــالى أن يصدر الأمر ببعث الأموات وإنشاء النشأة الآخرة للانسان وينزل الأمر به من السماء .

ومن لطيف تعبير الآية التعبير بقوله : « لله » فإن الحجــة تتم بالملك وإن لم يعترفوا بالربوبية .

قوله تعالى : « قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون » الملكوت هو الملك بمعنى السلطنة والحكم ، ويفيد مبالغة في معناه والفرق بين الملك بالفتح والكسر وبين المالك أن المالك هو الذي يملك المال والملك يملك المالك وماله ، فله ملك في طول ملك وله التصرف بالحكم في المال ومالكه .

وقد فسر تعالى ملكوته بقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول لــه كن

فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء » يس : ٨٣ ، فملكوت كل شيء هو كونه عن أمره تعالى بكلمة كن وبعبارة اخرى وجوده عن إيجاده تعالى .

فكون ملكوت كل شيء بيده كناية استعارية عن اختصاص إيجاد كل ما يصدق عليه الشيء به تعالى كما قال : « الله خالق كل شيء » الزمر : ٦٢ ، فملكه تعالى محيط بكل شيء ونفوذ أمره ومضي حكمه ثابت على كل شيء .

ولما كان من الممكن أن يتوهم أن عموم الملك ونفوذ الأمر لا ينافي إخلال بعض ما أوجده من الأسباب والعلل بأمره فيفعل ببعض خلقه ما لا يريده أو يمنعه عما يريده تمم قوله : « بيده ملكوت كل شيء » بقوله : « وهو يجير ولا يجار عليه » وهو في الحقيقة توضيح لاختصاص الملك بأنه بتمام معنى الكلمة فليس لشيء شيء من الملك في عرض ملكه ولو بالمنع والإخلال والاعتراض فله الملك وله الحكم .

وقوله : « وهو يجير ولا يجار عليه » من الجوار ، وهو في أصله قرب المسكن ثم جعلوا للجوار حقاً وهو حماية الجار لجاره عمن يقصده بسوء لكرامة الجار على الجار بقرب الدار واشتق منه الأفعال يقال : استجاره فأجاره أي سأله الحماية فحماه أي منع عنه من يقصده بسوء .

وهذا جار في جميع أفعاله تعالى فما من شيء يخصه الله بعطية حدوثاً أو بقاء إلا وهو يحفظه على ما يريد وبمقدار ما يريد من غير أن يمنعه مانع إذ منع المانع – لو فرض – إنما هو بإذن منه ومشية فليس منعاً له تعالى بل منعاً منه وتحديداً لفعل منه بفعل آخر ، وما من سبب من الأسباب يفعل فعلاً إلا وله تعالى أن يتصرف فيه بما لا يريده لأنه تعالى هو الذي ملكه الفعل بمشيته فله أن يمنعه منه أو من بعضه .

فالمراد بقوله : « وهو يجير ولا يجار عليه » أنه يمنع السوء عمن قصد به ولا يمنعه شيء إذا أراد شيئاً بسوء عما أراد .

ومعنى الآية قل لهؤلاء المنكرين للبعث : من الذي يختص به إيجاد كل شيء بما له من الخواص والآثار وهو يحمي من استجار به ولا يحمي عنه شيء إذا أراد شيئاً بسوء ؟ إن كنتم تعلمون .

قوله تعالى: « سيقولون لله قل فأنى تسحرون » قيل : إن المراد بالسحر أن يخيل الشيء للانسان على خلاف ما هو عليه فهو من الاستعارة أو الكناية .

والمعنى : سيجيبونك أن الملكوت لله قل لهم تبكيتاً وتوبيخاً : فإلى متى يخيل لكم الحق باطلاً فإذا كان الملك المطلق لله سبحانه فله أن يوجد النشأة الآخرة ويعيد الأموات للحساب والجزاء بأمر يأمره وهو قوله : « كن » .

واعلم أن الاحتجاجات الثلاثة كما تثبت إمكان البعث كذلك تثبت توحده تعالى في الربوبية فإن الملك الحقيقي لا يتخلف عن جواز التصرفات ، والمالك المتصرف هو الربّ .

قوله تعالى : « بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون » إضراب عن النفي المفهوم من الحجج التي أقيمت في الآيات السابقة ، والمعنى فإذا كانت الحجج المبنية تدل على البعث وهم معترفون بصحتها فليس ما وعدهم رسلنا باطلاً بل جئناهم بلسان الرسل بالحق وإنهم لكاذبون في دعواهم كذبهم ونفيهم للبعث .

قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » الخ ، القول بالولد كان شائعاً بين الوثنيين يعدّون الملائكة او بعضهم وبعض الجن وبعض القديسين من البشر أولاداً لله سبحانه وتبعهم النصارى في قولهم : المسيح ابن الله ، وهذا النوع من الولادة والبنوّة مبني على اشتمال الابن على شيء من حقيقة اللاهوت وجوهره وانفصاله منه بنوع من الاشتقاق فيكون المسمى بالابن إلهاً مولوداً من إله .

وأما البنوّة الإدّعائية بالتبني وهو أخذ ولد الغير ابناً لتشريف أو لغرض آخر فلا يوجب اشتمال الابن على شيء من حقيقة الأبُ كقول اليهود نحن أبناء الله وأحباؤه ، وليس الولد بهذا المعنى مراداً لأن الكلام مسوق لنفي تعدّد الآلهة ، ولا يستلزم هذا النوع من البنوة ألوهية وإن كان التسمي والتسمية بها ممنوعاً .

فالمراد باتخاذ الولد إيجاد شيء بنحو التبعّض والاشتقاق يكون مشتملاً بنحو على شيء من حقيقة الموجد لا تسمية شيء موجوداً بنا وولداً لغرض من الأغراض كما ذكره بعضهم .

والولد – كما عرفت – أخصّ مصداقاً عندهم من الإله فإن بعض آلهتهم ليس بولد عندهم فقوله : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله » ترقّ من نفي الأخص إلى نفي الأعمّ ولفظة « من » في الجملتين زائدة للتأكيد .

وقوله : « إذاً لذهب كل إله بما خلق » حجة على نفي التعدد ببيان محذوره إذ لا يتصور تعدد الآلهة إلا ببينونتها بوجه من الوجوه بحيث لا تتحد في معنى ألوهيتها وربوبيتها ، ومعنى ربوبية الإله في شطر من الكون ونوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير نفسه حتى إلى من فوّض إليه الأمر ، ومن البيّن أيضاً أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان .

ولازم ذلك أن يستقل كل من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير وتنقطع رابطة الاتحاد والإتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم كالنظام الجاري في العالم الإنساني عن الأنظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبر والبحر والسهل والجبل والأرض والسماء وغيرها وكل منها عن كل منها ، وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهنّ ، ووحدة النظام الكوني والتئام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذّبه .

وهذا هو المراد بقوله : « إذاً لذهب كل إله بما خلق » أي انفصل بعض الآلهة عن بعض بما يترشح منه من التدبير .

وقوله : « ولعلا بعضهم على بعض » محذور آخر لازم لتعدد الآلهة تتألف منه حجة اخرى على النفي ، بيانه أن التدابير الجارية في الكون مختلفة منها التدابير العرضية كالتدبيرين الجاريين في البر والبحر والتدبيرين الجاريين في الماء والنار ، ومنها التدابير الطولية التي تنقسم إلى تدبير عام كلي حاكم وتدبير خاص جزئي محكوم كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه ،و كتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء ، وكتدبير العالم المادي برمّته وتدبير نوع من الأنواع المادية .

فبعض التدبير وهو التدبير العام الكلي يعلو بعضاً بمعنى أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه لتقوّمه بما فوقه ، كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضي أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم لم يكن عالم إنساني ولا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص .

ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عال من التدبير عالياً بالنسبة إلى الإله الذي فوّض إليه من التدبير ما هو دونه وأخصّ منه وأخسّ واستعلاء الإله على الإله محال .

لا لأن الإستعلاء المذكور يستلزم كون الإله مغلوباً لغيره أو ناقصاً في قدرته

محتاجاً في تمامه إلى غيره أو محدوداً والمحدودية تفضي إلى التركيب ، وكل ذلك من لوازم الإمكان المنافي لوجوب وجود الإله فيلزم الخلف ـ كما قرّره المفسرون ـ فإن الوثنيين لا يرون لآلهتهم من دون الله وجوب الوجود بل هي عندهم موجودات ممكنة عالية فوّض إليهم تدبير أمر ما دونها ، وهي مربوبة لله سبحانه وأرباب لما دونها والله سبحانه رب الأرباب وإله الآلهة وهو الواجب الوجود بالذات وحده .

بل استحالة الاستعلاء إنما هو لاستلزامه بطلان استقلال المستعلى عليه في تدبيره وتأثيره إذ لا يجامع توقف التدبير على الغير والحاجة اليه الاستقلال فيكون السافل منها مستمداً في تأثيره محتاجاً فيه إلى العالي فيكون سبباً من الأسباب التي يتوسل بها إلى تدبير ما دونه لا إلهاً مستقلاً بالتأثير دونه فيكون ما فرض إلهاً غير إله بل سبباً يدبّر به الأمر هذا خلف .

هـذا ما يعطيه التدبُر في الآية ، وللمفسرين في تقرير حجة الآية مسالك مختلفة يبتني جميعها على استلزام تعدد الآلهة أموراً تستلزم إمكانها وتنافي كونها واجبة الوجود فيلزم الخلف ، والقوم لا يقولون في شيء من آلهتهم من دون الله بوجوب الوجود ، وقد أفرط بعضهم فقرر الآية بوجوده مؤلفة من مقدمات لا إشارة في الآية إلى جلّها ولا إيهام ، وفرّط آخرون فصرّحوا بأن الملازمة المذكورة في الآية عادية لا عقلية ، والدليل إقناعي لا قطعي .

ثم لا يشتبهنّ عليك أمر قوله : « لذهب كل إله بما خلق » حيث نسب الخلقة اليها وقد تقدم أنهم قائلون بإله التدبير دون الإيجاد وذلك لأن بعض الخلق من التدبير فإن خلق جزئي من الجزئيات مما يتمّ بوجوده النظام الكلي من التدبير بالنسبة إلى النظام الجاري فالخلق بمعنى الفعل والتدبير مختلطان وقد نسب الخلق إلى أعمالنا كما في قوله : « والله خلقكم وما تعملون » الصافات : ٩٦ ، وقوله : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » الزخرف : ١٢ .

فالقوم يرون أن كلاً من الآلهة خالق لما دونه أي فاعل له كما يفعل الواحد منا أفعاله ، وأما إعطاء الوجود للأشياء فمما يختص بالله سبحانه وحده لا يرتاب فيه موحّد ولا وثني إلا بعض من لم يفرق بين الفعل والإيجاد من المتكلمين .

وقد ختم الآية بالتنزيه بقوله : « سبحان الله عما يصفون » .

قوله تعالى : « عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون » صفة لاسم الجلالة في قوله : « سبحان الله عما يصفون » وتأخيرهـا للدلالة على علمه بتنزهه عن وصفهم إياه بالشركة – على ما يعطيه السياق – فيكون في معنى قوله : « قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون » يونس : ١٨ .

ويرجع في الحقيقة إلى الاحتجاج على نفي الشركاء بشهادته تعالى أنه لا يعلم لنفسه شريكاً كما أن قوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو » آل عمران : ١٨ احتجاج بالشهادة على نفي أصل الوجود .

وقيل : إنه برهـان آخر راجع إلى إثبات العلوّ أو لزوم الجهل الذي هو نقص وضد العلوّ لأن المتعددين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كل واحد حقيقـة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل وقصور . انتهى .

وفيه أن ذلك كسائر ما قرروه من البراهين ينفي تعدُّد الإله الواجب الوجود بالذات ، والوثنيون لا يلتزمون في آلهتهم من دون الله بذلك . على أن بعض مقدمات ما قرر من الدليل ممنوع .

وقوله : « فتعالى عما يشركون » تفريع على جميع مـا تقدم من الحجج على نفي الشركاء .

قوله تعالى : « قل رب إما تريَنّي ما توعدون رب فلا تجعلني في القوم الظالمين » لما فرغ من نقل ما تفوّهوا به من الشرك بالله وإنكار البعث والاستهزاء بالرسل وأقام الحجج على إثبات حقّيتها رجع إلى مـا تقدم من تهديدهم بالعذاب فأمر نبيه ﷺ أن يسأله أن ينجيه من العذاب الذي أوعدهم به إن أراه ذلك العذاب .

فقوله : « قل رب إما تريَنّي ما يوعدون » أمر بالدعاء والاستغاثة ، وتكرار « رب » لتأكيد التضرع ومـا في قوله : « إما تريَنّي » زائدة وهي المصححة لدخول نون التأكيد على الشرط وأصله : إن ترني . وفي قوله : « ما يوعدون » دلالة على أن بعض ما تقدم في السورة من الإيعاد بالعذاب إيعاد بعذاب دنيوي . وما في قوله : « رب فلا تجعلني في القوم الظالمين » من الكون فيهم كناية عن شمول عذابهم له .

قوله تعالى : « وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون » تطييب لنفس النبي ﷺ

بقدرة ربه على أن يكشف عنه بإراءته مـــا يعدهم من العذاب ، ولعل المراد به ما عذبهم الله به يوم بدر وقد أراه الله ذلك وأراه المؤمنين وشفى به غليل صدورهم .

قوله تعالى : «إدفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون» أي ادفع السيئة التي تتوجه اليك منهم بالحسنة واختر للدفع من الحسنات أحسنها ، وهو دفع السيئة بالحسنة التي هي أحسن مثل أنه لو أساؤا اليك بالإيذاء أحسن اليهم بغاية ما استطعت من الإحسان ثم ببعض الإحسان في الجملة ولو لم يسعك ذلك فبالصفح عنهم .

وقوله : « نحن أعلم بما يصفون » نوع تسلية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يسوءنه ما يلقاه ولا يحزنه ما يشاهد من تجرّيهم على ربهم فإنه أعلم بما يصفون .

قوله تعالى : « وقل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك ربّ أن يحضرون »، قال في مجمع البيان : الهمزة شدة الدفع ، ومنه الهمزة للحرف الذي يخرج من أقصى الحلق باعتماد شديد ودفع ، وهمزة الشيطان دفعه بالإغواء إلى المعاصي انتهى .

وفي تفسير القمي عنه عليه السلام : أنه ما يقع في قلبك من وسوسة الشياطين .

وفي الآيتين أمره صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيذ بربه من إغواء الشياطين ومن أن يحضروه ، وفيه إيهام إلى أن ما ابتلي به المشركون من الشرك والتكذيب من همزات الشياطين وإحاطتهم بهم بالحضور .

* * *

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ـ ٩٩ . لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ـ ١٠٠ . فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ـ ١٠١ . فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ـ ١٠٢ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا

أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ــ ١٠٣ . تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا
كَالِحُونَ ــ ١٠٤. أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ــ ١٠٥.
قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ ــ ١٠٦ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ــ ١٠٧. قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ــ ١٠٨.
إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا
وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ــ ١٠٩ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ
ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ــ ١١٠ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا
أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ــ ١١١ . قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ــ ١١٢.
قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ــ ١١٣ . قَالَ إِنْ
لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ــ ١١٤ . أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ
عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ــ ١١٥ . فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ــ ١١٦ . وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ
لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ــ ١١٧.
وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ــ ١١٨ .

(بيان)

الآيات تفصّل القول في عذاب الآخرة التي أوعدهم الله بها في طي الآيات السابقة وهو من يوم الموت إلى يوم البعث ثم إلى الأبد ، وتذكر أن الحياة الدنيا التي غرّتهم

وصرفتهم عن الآخرة قليلة لو كانوا يعلمون . ثم تختم السورة بأمره ﷺ أن تسأله ما حكاه عن عباده المؤمنين الفائزين في الآخرة « ربّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » وقد افتتحت السورة بأنهم مفلحون وارثون للجنة .

قوله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربّ ارجعون » « حتى » متعلق بما تقدم من وصفهم له تعالى بما هو منزّه منه وشركهم به ، والآيات المتخللة اعتراض في الكلام أي لا يزالون يشركون به ويصفونه بما هو منزّه منه وهم مغترّون بما نمدهم به من مال وبنين حتى إذا جاء أحدهم الموت .

وقوله : « قال ربّ ارجعون » الظاهر أن الخطاب للملائكة المتصدّين لقبض روحه و « ربّ » استغاثة معترضة بحذف حرف النداء والمعنى قال – وهو يستغيث بربه – ارجعون .

وقيل : إن الخطاب للرب تعالى والجمع للتعظيم كقول امرأة فرعون له على ما حكاه الله : « قرّة عين لي ولك لا تقتلوه » .

وقيل : هو من جمع الفعل ويفيد تعدد الخطاب ، والمعنى ربّ ارجعني ارجعني ارجعني كما قيل في قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

أي قف قف نبك .

وفي الوجهين أن الجمع للتعظيم إن صحّ ثبوته في اللغة العربية فهو شاذ لا يحمل عليه كلامه تعالى ، وأشذّ منه جمع الفعل بالمعنى الذي ذكر .

قوله تعالى : « لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها » « لعلّ » للترجّي وهو رجاء تعلقوا به بمعاينة العذاب المشرف عليهم كما ربما ذكروا الرجوع بوعد العمل الصالح كقولهم : « فارجعنا نعمل صالحاً » السجدة : ١٢ ، وربما ذكروه بلفظ التمني كقولهم : « يا ليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا » الأنعام : ٢٧ .

وقوله : « أعمل صالحاً فيما تركت » أي أعمل عملاً صالحاً فيما تركت من المال بإنفاقه في البرّ والإحسان وكل ما فيه رضى الله سبحانه .

وقيل : المراد بما تركت الدنيا التي تركها بالموت والعمل الصالح أعمّ من العبادات المالية وغيرها من صلاة وصوم وحج ونحوها ، وهو حسن غير أن الأول هو الأظهر .

وقوله : « كلا إنها كلمة هو قائلها » أي لا يرجع إلى الدنيا إن هـــذه الكلمة « ارجعوني لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت » كلمة هو قائلها أي لا أثر لها إلا أنها كلمة هو قائلها ، فهو كناية عن عدم إجابة مسألته .

قوله تعالى : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » البرزخ هو الحـــاجز بين الشيئين كما في قوله : « بينهما برزخ لا يبغيان » الرحمان : ٢٠ ، والمراد بكونه وراءهم كونه أمامهم محيطاً بهم وسمّي وراءهم بعناية أنه يطلبهم كما أن مستقبل الزمان أمام الإنسان ويقال: وراءك يوم كذا بعناية أن الزمان يطلب الإنسان ليمرّ عليه وهذا معنى قول بعضهم : إن في « وراء » معنى الإحاطة ، قال تعالى : « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً » الكهف : ٧٩ .

والمراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة على ما يعطيه السياق وتدل عليه آيات أخر وتكاثرت فيه الروايات من طرق الشيعة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام وكذا من طرق أهل السنة ، وقد تقدم البحث عنه في الجزء الأول من الكتاب .

وقيل : المراد بالآية أن بينهم وبين الدنيا حاجزاً يمنعهم من الرجوع إليها إلى يوم القيامة ومعلوم أن لا رجوع بعد القيامة ففيه تأكيد لعدم رجوعهم وإيآس لهم من الرجوع إليها من أصله .

وفيه أن ظاهر السياق الدلالة على استقرار الحاجز بين الدنيا وبين يوم يبعثون لا بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ، ولو كان المراد أن الموت حاجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا لغى التقييد بقوله : « إلى يوم يبعثون » لا لدلالته من طريق المفهوم على رجوعهم بعد البعث إلى الدنيا ولا رجوع بعد البعث بل للغوية أصل التقييد وإن فرض أنهم كانوا يعلمون من الخارج أو من آيات سابقة أن لا رجوع بعد القيامة .

على أن قولهم : إنه تأكيد لعدم الرجوع بإيآسهم من الرجوع مطلقاً مع قولهم بأن عدم الرجوع بعد القيامة معلوم من خارج كالمتهافتين بل يرجع المعنى إلى تأكيد نفي الرجوع مطلقاً المفهوم من « كلا » بنفي الرجوع الموقت المحدود بقوله : « إلى يوم يبعثون » فافهمه .

قوله تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون » المراد به

النفخة الثانية التي تحيا فيها الأموات دون النفخة الاولى التي تموت فيها الأحياء كما قاله بعضهم لكون ما يترتب عليها من انتفاء الأنساب والتساؤل وثقل الميزان وخفته إلى غير ذلك من آثار النفخة الثانية .

وقوله : « فلا أنساب بينهم » نفي لآثار الأنساب بنفي أصلها فإن الذي يستوجب حفظ الأنساب واعتبارها هي الحوائج الدنيوية التي تدعو الإنسان إلى الحياة الإجتماعية التي تبتني على تكون البيت ، والمجتمع المنزلي يستعقب التعارف والتعاطف وأقسام التعاون والتعاضد وسائر الأسباب التي تدوم بها العيشة الدنيوية ويوم القيامة ظرف جزاء الأعمال وسقوط الأسباب التي منها الأعمال فلا موطن فيه للأسباب الدنيوية التي منها الأنساب بلوازمها وخواصها وآثارها .

وقوله : « ولا يتساءلون » ذكر لأظهر آثار الأنساب ، وهو التساؤل بين المنتسبين بسؤال بعضهم عن حال بعض ، للاعانة والإستعانة في الحوائج لجلب المنافع ودفع المضارّ .

ولا ينافي الآية ما وقع في مواضع أخر من قوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » الصافات : ٢٧ ، فإنه حكاية تساؤل أهل الجنة بعد دخولها وتساؤل أهل النار بعد دخولها وهذه الآية تنفي التساؤل في ظرف الحساب والقضاء .

قوله تعالى : « فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون » إلى آخر الآيتين . الموازين جمع الميزان أو جمع الموزون وهو العمل الذي يوزن يومئذ ، وقد تقدم الكلام في معنى الميزان وثقله وخفته في تفسير سورة الأعراف .

قوله تعالى : « تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » قال في المجمع : اللفح والنفح بمعنى إلا أن اللفح أشد تأثيراً وأعظم من النفح ، وهو ضرب من السموم للوجه والنفح ضرب الريح الوجه ، والكلوح تقلص الشفتين عن الأسنان حتى تبدو الأسنان . انتهى .

والمعنى: يصيب وجوههم لهب النار حتى تتقلص شفاههم وتنكشف عن أسنانهم كالرؤس المشوية .

قوله تعالى : « ألم تكن آياتي تتلى عليكم » الخ أي يقال لهم : ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون .

قوله تعالى : «قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين» الشقوة والشقاوة والشقاء خلاف السعادة ، وسعادة الشيء ما يختص به من الخير ، وشقاوته فقد ذلك وإن شئت فقل : ما يختص به من الشر .

وقوله : «غلبت علينا شقوتنا» أي قهرنا واستولت علينا شقوتنا ، وفي إضافة الشقوة إلى أنفسهم تلويح إلى أن لهم صنعاً في شقوتهم من جهة اكتسابهم ذلك بسوء اختيارهم ، والدليل عليه قولهم بعد : «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» إذ هو وعد منهم بالحسنات ولو لم يكن لها ارتباط باكتسابهم الاختياري لم يكن للوعد معنى لكون حالهم بعد الخروج مساوية لما قبل الخروج .

وقد عدوا أنفسهم مغلوبة للشقوة فقد أخذوها ساذجة في ذواتها صالحة للحقوق السعادة والشقاوة غير أن الشقوة غلبت فأشغلت المحل وكانت الشقوة شقوة أنفسهم أي شقوة لازمة لسوء اختيارهم وسيآت أعمالهم لأنهم فرضوا أنفسهم خالية عن السعادة والشقوة لذاتها فانتساب الشقوة إلى أنفسهم وارتباطها بها إنما هي من جهة سوء اختيارهم وسيئات أعمالهم .

وبالجملة هو اعتراف منهم بتمام الحجة ولحوق الشقوة على ما يشهد به وقوع الآية بعد قوله : «ألم تكن آياتي تتلى عليكم» الخ .

ثم عقّبوا قولهم : «غلبت علينا شقوتنا» بقولهم : «وكنا قوماً ضالّين» تأكيداً لاعترافهم ، وإنما اعترفوا بالذنب ليتوسلوا به إلى التخلص من العذاب والرجوع إلى الدنيا لكسب السعادة فقد شاهدوا في الدنيا أن اعتراف العاصي المتمرد بذنبه وظلمه توبة منه مطهّرة له تنجيه من تبعة الذنب وهم يعلمون أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل والتوبة والاعتراف بالذنب من الأعمال لكن ذلك من قبيل ظهور الملكات كما أنهم يكذبون يومئذ وينكرون أشياء مع ظهور الحق ومعاينته لاستقرار ملكة الكذب والإنكار في نفوسهم ، قال تعالى : «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم» المجادلة : ١٨ . وقال : «ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلّوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» المؤمن : ٧٤ .

قوله تعالى : «ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون» سؤال منهم للرجوع إلى الدنيا على ما تدل عليه آيات أخر فهو من قبيل طلب المسبّب بطلب سببه ،

ومرادهم أن يعملوا صالحاً بعد ما تابوا بالاعتراف المذكور فيكونوا بذلك ممن تاب وعمل صالحاً .

قوله تعالى : « قالوا اخسئوا فيها ولا تكلّمون » قال الراغب: خسأت الكلب فخسأ أي زجرته مستهيناً به فانزجر وذلك إذا قلت له : اخسأ انتهى . ففي الكلام استعارة بالكناية ، والمراد زجرهم بالتباعد وقطع الكلام .

قوله تعالى : « إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين » هؤلاء هم المؤمنون في الدنيا وكان إيمانهم توبة ورجوعاً إلى الله كما سماه الله في كلامه توبة ، وكان سؤالهم شمول الرحمة – وهي الرحمة الخاصة بالمؤمنين البتة – سؤالاً منهم أن يوفقهم للسعادة فيعملوا صالحاً فيدخلوا الجنة ، وقد توسلوا إليه بإسمه خير الراحمين .

فكان ما قاله المؤمنون في الدنيا معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وذلك عين ما قاله هؤلاء مما معناه التوبة وسؤال الفوز بالسعادة وإنما الفرق بينهما من حيث الموقف.

قوله تعالى : « فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون » ضمائر الخطاب للكفار وضمائر الغيبة للمؤمنين ، والسياق يشهد أن المراد من «ذكري» قول المؤمنين : « ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا » الخ ، وهو معنى قول الكفار في النار.

وقوله: « حتى أنسوكم ذكري » أي أنسى اشتغالكم بسخرية المؤمنين والضحك منهم ذكري ، ففي نسبة الإنساء إلى المؤمنين دون سخريتهم إشارة إلى أنه لم يكن للمؤمنين عندهم شأن من الشؤون إلا أن يتخذوهم سخرياً .

قوله تعالى : « إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون » المراد باليوم يوم الجزاء ، ومتعلق الصبر معلوم من السياق محذوف للإيجاز أي صبروا على ذكري مع سخريتكم منهم لأجله ، وقوله : « أنهم هم الفائزون » مسوق للحصر أي هم الفائزون دونكم .

وهذه الآيات الأربع « قال اخسئوا -- إلى قوله – هم الفائزون » إيآس قطعي للكفار من الفوز بسبب ما تعلقوا به من الاعتراف بالذنب وسؤال الرجوع إلى الدنيا ومحصّلها أن اقنطوا مما تطلبونه بهذا القول وهو الاعتراف والسؤال فإنه عمل إنما كان ينفع في دار العمل وهي الدنيا ، وقد كان المؤمنون من عبادي يتخذونه وسيلة إلى

الفوز و كنتم تسخرون وتضحكون منهم حتى تركتموه وبدّلتموه من سخريتهم حتى إذا كان اليوم وهو يوم جزاء لا يوم عمل فازوا بجزاء ما عملوا يوم العمل وبقيتم صفر الأكف تريدون أن تتوسلوا بالعمل اليوم وهو يوم الجزاء دون العمل .

قوله تعالى : « قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين » مما يسأل الله النـــاس عنه يوم القيامة مدة لبثهم في الأرض وقد ذكر في مواضع من كلامه والمراد به السؤال عن مدة لبثهم في القبور كما يدل عليه قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مـا لبثوا غير ساعة » الروم : ٥٥ ، وقوله : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » الأحقاف : ٣٥ وغيرهما من الآيات ، فلا محل لقول بعضهم : إن المراد به المكث في الدنيا ، واحتمال بعضهم أنه مجموع اللبث في الدنيا والبرزخ .

قوله تعالى : « قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين » ظاهر السياق أن المرادباليوم هو الواحد من أيام الدنيا وقد استقلوا اللبث في الأرض حينما قايسوه بالبقاء الابدي الذي يلوح لهم يوم القيامة ويعاينونه .

ويؤيده ما وقع في موضع آخر من تقديرهم ذلك بالساعة ، وفي موضع آخر بعشية أو ضحاها .

وقوله : « فاسأل العادّين » أي نحن لا نحسن إحصاءها فاسأل الذين يعدّونه وفسر بالملائكة العادين للأيام وليس ببعيد .

قوله تعالى : « قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون » القـــائل هو الله سبحانه ، وفي الكلام تصديق لهم في استقلالهم المكث في القبور وفيه توطئة لما يلحق به من قوله : « لو أنكم كنتم تعلمون » بما فيه من التمني .

والمعنى : قال الله : الأمر كما قلتم فما مكثتم إلا قليلاً فليتكم كنتم تعلمون في الدنيا أنكم لا تلبثون في قبوركم إلا قليلاً ثم تبعثون حتى لا تنكروا البعث ولم تبتلوا بهــذا العذاب الخالد ، والتمني في كلامه تعالى كالترجي راجع إلى المخاطب أو المقام .

وجعل بعضهم « لو » في الآية شرطية والجملة شرطاً محذوف الجزاء وتكلف في تصحيح الكلام بما لا يرتضيه الذوق السليم وهو بعيد عن السياق كما هو ظاهر وأبعد منه جعل « لو » وصلية مع أن « لو » الوصلية لا تجيء بغير واو العطف .

قوله تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً – إلى قوله – رب العرش الكريم –

بعد ما بين ما سيستقبلهم من أحوال الموت ثم اللبث في البرزخ ثم البعث بما فيه من الحساب والجزاء وبخهم على حسبانهم أنهم لا يبعثون فإن فيه جرأة على الله بنسبة العبث اليه ثم أشار إلى برهان العبث .

فقوله: « أفحسبتم » الخ، معناه فإذا كان الأمر على ما أخبرناكم من تحسركم عند معاينة الموت ثم اللبث في القبور ثم البعث فالحساب والجزاء فهل تظنون إنما خلقناكم عبثاً تحيون وتموتون من غير غاية باقية في خلقكم وأنكم الينا لا ترجعون ؟

وقوله : « فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » إشارة إلى برهان يثبت البعث ويدفع قولهم بالنفي، في صورة التنزيه، فإنه تعالى وصف نفسه في كلمة التنزيه بالأوصاف الأربعة : أنه ملك وأنه حق وأنه لا إله إلا هو وأنه رب العرش الكريم .

فله أن يحكم بما شاء من بدء وعود وحياة وموت ورزق نافذاً حكمه ماضياً أمره لملكه، وما يصدر عنه من حكم فإنه لا يكون إلا حقاً فإنه حق ولا يصدر عن الحق بما هو حق إلا حق دون أن يكون عبثاً باطلاً ثم لما أمكن أن يتصور أن معه مصدر حكم آخر يحكم بما يبطل به حكمه وصفه بأنه لا إله – أي لا معبود – إلا هو ، والإله معبود لربوبيته فإذاً لا إله غيره فهو رب العرش الكريم – عرش العالم – الذي هو مجتمع أزمة الامور ومنه يصدر الأحكام والأوامر الجارية فيه .

فتلخص أنه هو الذي يصدر عنه كل حكم ويوجد منه كل شيء ولا يحكم إلا بحق ولا يفعل إلا حقاً فللأشياء رجوع اليه وبقـاء به وإلا لكانت عبثاً باطلة ولا عبث في الخلق ولا باطل في الصنع .

والدليل على اتصـــافه بالأوصاف الأربعة كونه تعالى هو الله الموجود لذاته الموجد لغيره .

قوله تعالى : « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون » ، المراد من دعاء إله آخر مع الله دعاؤه مع وجوده تعالى لا دعاؤه تعالى ودعـاء إله آخر معاً فإن المشركين جلّهم أو كلهم لا يدعون الله تعالى وإنما يدعون ما أثبتوه من الشركاء ، ويمكن أن يكون المراد بالدعاء الإثبات فإن إثبات إله آخر لا ينفك عن دعائه .

وقوله : « لا برهان له به » قيد توضيحي لإله آخر إذ لا إله آخر يكون به برهان بل البرهان قائم على نفي الإله الآخر مطلقاً .

وقوله : « فإنما حسابه عند ربه » كلمة تهديد وفيه قصر حسابه بكونه عند ربه لا يداخله أحـد فيما اقتضاه حسابه من جزاء – وهو النار كما صرّحت به الآيات السابقة – فإنه يصيبه لا محالة ، ومرجعه إلى نفي الشفعاء والإيآس من أسباب النجاة وتمّمه بقوله : « إنه لا يفلح الكافرون » .

قوله تعالى : « وقل ربّ اغفر وارحم وأنت خير الراحمين » خاتمة السورة وقد أمر فيها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يقول ما حكاه عن عباده المؤمنين أنهم يقولونه في الدنيا وأن جزاء ذلك هو الفوز يوم القيامة : « إنه كان فريق من عبادي يقولون » الخ ، الآيتان ١٠٩ و ١١١ من السورة .

وبذلك يختتم الكلام بما افتتح به في أول السورة : « قد أفلح المؤمنون » وقـد تقدم الكلام في معنى الآية .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام : من منع قيراطاً من الزكاة فليس بمؤمن ولا مسلم ، وهو قوله تعالى : « رب ارجعون لعلي أعمـــل صالحاً فيما تركت » .

أقول : وروي هــــذا المعنى بطرق أخر غيرها عنه عليه السلام وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمراد به انطباق الآية على مانع الزكاة لا نزولها فيه .

وفي تفسير القمي : قوله عز وجل : « ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » قال: البرزخ هو أمر بين أمرين وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة ، وهو قول الصادق عليه السلام : والله ما أخاف عليكم إلا البرزخ وأما إذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم .

أقول : وروى الذيل في الكافي بإسناده عن عمر بن يزيد عنه عليه السلام .

وفيه قال علي بن الحسين عليه السلام : إن القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار .

وفي الكافي بإسناده عن أبي ولاّد الحنّاط عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قلت له : جعلت فداك يروون أن أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش . فقال : لا . المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير لكن في أبدان كأبدانهم .

وفيه بإسناده عن أبي بصير قال أبو عبد الله عليه السلام : إن أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون : ربنا أقم الساعة لنا ، وأنجز لنا ما وعدتنا ، وألحق آخرنا بأولنا .

وفيه بإسناده أيضاً عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تتعارف وتتساءل فإذا قدمت الروح على الأرواح تقول : دعوها فإنها قد أقبلت من هول عظيم ثم يسألونها ما فعل فلان ؟ وما فعل فلان ؟ فإن قالت لهم : تركته حياً ارتجوه ، وإن قالت لهم : قد هلك ، قالوا : قد هوى قد هوى .

أقول : أخبار البرزخ وتفاصيل ما يجري على المؤمنين وغيرهم فيه كثيرة متواترة ، وقد مرّ شطر منها في أبحاث متفرقة مما تقدم .

في مجمع البيان وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي .

أقول : كأن الرواية من طريق الجماعة ، وقد رواها في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن المسوّر بن مخرمة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولفظها : أن الأنساب تنقطع يوم القيامة غير نسبي وسببي وصهري ، وعن عدة منهم عن عمر بن الخطاب عنه صلى الله عليه وآله وسلم ولفظها : كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وعن ابن عساكر عن ابن عمر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ولفظها : كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهري .

وفي المناقب في حديث طاوس عن زين العابدين عليه السلام : خلق الله الجنة لمن أطاع وأحسن ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ولو كان ولداً قرشياً أما سمعت قول الله تعالى : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم ولا يتساءلون » والله لا ينفعك غداً إلا تقدمة تقدمها من عمل صالح .

أقول : سياق الآية كالآبي عن التخصيص ولعل من آثار نسبه ﷺ أن يوفق ذريته من صالح العمل بما ينتفع به يوم القيامة .

وفي تفسير القمي وقوله عز وجل : « تلفح وجوههم النار » قال : تلهب عليهم فتحرقهم « وهم فيها كالحون » أي مفتوحي الفم متربدي الوجوه .

وفي التوحيد بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: « ربنا غلبت علينا شقوتنا » قال : بأعمالهم شقوا .

وفي العلل بإسناده عن مسعدة بن زياد قال : قال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : يا ابا عبد الله إنا خلقنا للعجب . قال : وما ذلك لله أنت ؟ قال : خلقنا للفناء .قال: مه يا ابن أخ خلقنا للبقاء وكيف تفنى جنة لا تبيد ونار لا تخمد ؟ ولكن إنما نتحول من دار الى دار .

وفي تفسير القمي قولـه تعالى : « قال كم لبثتم – الى قوله – فاسأل العادين » قال : سل الملائكة الذين يعدّون علينـــا الأيام ، ويكتبون ساعاتنا وأعمالنا التي اكتسبنا فيها .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أيفع بن عبد الكلاعي قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قال لأهل الجنة كم لبثتم في الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم . قال : لنعم ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم رحمتي ورضواني وجنتي اسكنوا فيها خالدين مخلدين .

ثم يقول : يا أهل النار كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم فيقول : بئس ما اتجرتم في يوم أو بعض يوم ناري وسخطي امكثوا فيها خالدين .

أقول : وفي انطباق معنى الحديث على الآية بما لها من السياق وبما يشهد به الآيات النظائر خفاء ، وقد تقدم البحث عن مدلول الآية مستمداً من الشواهد .

(سورة النور مدنية ، وهي أربع وستون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ــ ١ . ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ــ ٢. ٱلزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ــ ٣ . وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ــ ٤ . إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ــ ٥ . وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ــ ٦ . وَٱلْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ــ ٧ . وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ــ ٨ . وَٱلْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ــ ٩ . وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ــ ١٠ .

(بيان)

غرض السورة ما ينبىء عنه مفتتحها « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكّرون » فهي تذكرة نبذة من الأحكام المفروضة المشرّعة ثم جملة من المعارف الإلهية تناسبها ويتذكر بها المؤمنون .

وهي سورة مدنيــة بلا خلاف وسياق آياتها يشهد بذلك ومن غرر الآيات فيها آية النور .

قوله تعالى : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنـات لعلكم تذكّرون » السورة طائفـة من الكلام يجمعها غرض واحد سيقت لأجله ولذا اعتبرت تارة نفس الآيات بما لها من المعاني فقيل : «فرضناها» وتارة ظرفاً لبعض الآيات ظرفية المجموع للبعض فقيل : « أنزلنا فيها آيات بينات » وهي ممـا وضعه القرآن وسمّى به طائفة خاصة من آياته وتكرر استعمالها في كلامه تعـالى ، وكأنه مأخوذ من سور البلد وهو الحائط الذي يحيط به سمّيت به سورة القرآن لإحاطتها بمـا فيها من الآيات أو بالغرض الذي سيقت له .

وقال الراغب : الفرض قطع الشيء الصلب والتأثير فيه كفرض الحديد وفرض الزند والقوس . قال : والفرض كالإيجاب لكن الإيجاب يقال اعتباراً بوقوعه وثباته ، والفرض بقطع الحكم فيه ، قال تعالى: « سورة أنزلناها وفرضناها » أي أوجبنا العمل بها عليك . قـال : وكل موضع ورد « فرض الله عليه » ففي الإيجاب الذي أدخله الله فيه ، وما ورد « فرض الله له » فهو في أن لا يحظره على نفسه نحو « ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له » . انتهى .

فقوله : « سورة أنزلناها وفرضناها » أي هـذه سورة أنزلناها وأوجبنا العمل بما فيها من الأحكام فالعمل بالحكم الإيجابي هو الإتيان به وبالحكم التحريمي الانتهاء عنه .

وقوله : « وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكّرون » المراد بهـا ـ بشهادة السياق ـ آية النور ومـا يتلوها من الآيات المبينة لحقيقة الإيمان والكفر والتوحيد والشرك المذكّرة لهذه المعارف الإلهية .

قوله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » الآية ، الزنا

المواقعة من غير عقـد أو شبهة عقد أو ملك يمين ، والجلد هو الضرب بالسوط والرأفة التحنن والتعطف وقيل : هي رحمة في توجّع ، والطائفة في الأصل هي الجمـاعة كانوا يطوفون بالارتحال من مكان إلى مكان قيل : وربما تطلق على الاثنين وعلى الواحد .

وقوله : « الزانيـــة والزاني » الخ ، أي المرأة والرجل اللذان تحقق منهما الزنا فاضربوا كل واحد منهما مائة سوط ، وهو حدّ الزنا بنص الآية غير أنها مخصصة بصور : منها أن يكونا محصنين ذوي زوج أو يكون أحدهما محصناً فالرجم ومنهـا أن يكونا غير حرّين أو أحدهما رقاً فنصف الحد .

قيل : وقدمت الزانية في الذكر على الزاني لأن الزنا منهن أشنع ولكون الشهوة فيهن أقوى وأكثر ، والخطاب في الأمر بالجلد متوجه إلى عامة المسلمين فيقوم بمن قـام بأمرهم من ذوي الولاية من النبي والإمام ومن ينوب منابه .

وقوله : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » الخ، النهي عن الرأفة من قبيل النهي عن المسبب بالنهي عن سببه إذ الرأفة بمن يستحق نوعاً من العذاب توجب التساهل في إذاقته ما يستحقه من العذاب بالتخفيف فيه وربما أدّى إلى تركه ، ولذا قيّده بقوله : « في دين الله » أي حال كون الرأفة أي المساهلة من جهتها في دين الله وشريعته .

وقيل : المراد بدين الله حكم الله كما في قوله تعالى : « ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك» يوسف: ٧٦ أي في حكمه أي لا تأخذكم بهما رأفة في إنفاذ حكم الله وإقامة حدّه.

وقوله : « إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » أي إن كنتم كذا وكذا فلا تأخذكم بهما رأفة ولا تساهلوا في أمرهما وفيه تأكيد للنهي .

وقوله : « وليشهد عذابهما طائفـة من المؤمنين » أي وليحضر ولينظر إلى ذلك جماعة منهم ليعتبروا بذلك فلا يقربوا الفاحشة .

قوله تعالى : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحُرّم ذلك على المؤمنين » ظاهر الآية وخـــاصة بالنظر إلى سياق ذيلها المرتبط بصدرها أن الذي تشمل عليه حكم تشريعي تحريمي وإن كان صدرها وارداً في صورة الخبر فإن المراد النهي تأكيداً للطلب وهو شائع .

والمحصّل من معناها بتفسير من السنة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن

الزاني إذا اشتهر منه الزنا وأقيم عليه الحد ولم تتبيّن منه التوبة يحرم عليه نكاح غير الزانية والمشركة ، والزانية إذا اشتهر منها الزنا وأقيم عليه الحد ولم تتبين منه التوبة يحرم أن ينكحها إلا زان أو مشرك .

فالآية محكمة باقية على إحكامها من غير نسخ ولا تأويل ، وتقييدها بإقامة الحد وتبيّن التوبة مما يمكن أن يستفاد من السياق فإن وقوع الحكم بتحريم النكاح بعد الأمر بإقامة الحد يلوّح إلى أن المراد به الزاني والزانية المجلودان، وكذا إطلاق الزاني والزانية على من ابتلي بذلك ثم تاب توبة نصوحاً وتبيّن منه ذلك، بعيد من دأب القرآن وأدبه.

وللمفسرين في معنى الآية تشاجرات طويلة وأقوال شتى :

منها: أن الكلام مسوق للإخبار عما من شأن مرتكبي هذه الفاحشة أن يقصدوه وذلك أن من خبثت فطرته لا يميل إلا إلى من يشابهه في الخباثة ويجانسه في الفساد والزاني لا يميل إلا إلى الزانية المشاركة لها في الفحشاء ومن هو أفسد منها وهي المشركة ، والزانية كذلك لا تميل إلا إلى مثلها وهو الزاني ومن هو أفسد منه وهو المشرك فالحكم وارد مورد الأعمّ الأغلب كما قيل في قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات » الآية ٢٦ من السورة .

ومنها : أن المراد بالآية التقبيح ، والمعنى : أن اللائق بحال الزاني أن لا ينكح إلا زانية أو من هي دونها وهي المشركة واللائق بحال الزانية أن لا ينكحها إلا زان أو من هو دونه وهو المشرك ، والمراد بالنكاح العقد ، وقوله : « وحُرّم ذلك على المؤمنين » معطوف على أول الآية ، والمراد وحُرّم الزنا على المؤمنين .

وفيه وفي سابقه مخالفتها لسياق الآية وخاصة اتصال ذيلها بصدرها كما تقدمت الإشارة اليه .

ومنها : أن الآية منسوخة بقوله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » .

وفيه أن النسبة بين الآيتين نسبة العموم والخصوص والعام الوارد بعد الخاص لا ينسخه خلافاً لمن قال به نعم ربما أمكن أن يستفاد النسخ من قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك

يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه» البقرة : ٢٢١ ، بدعوى أن الآية وإن كانت من العموم بعد الخصوص لكن لسانها آب عن التخصيص فتكون ناسخة بالنسبة إلى جواز النكاح بين المؤمن والمؤمنة والمشرك والمشركة ، وقد ادّعى بعضهم أن نكاح الكافر للمسلمة كان جائزاً إلى سنة ست من الهجرة ثم نزل التحريم فلعلّ الآية التي نحن فيها نزلت قبل ذلك ، ونزلت آية التحريم بعدها وفي الآية أقوال أخر تركنا إيرادها لظهور فسادها .

قوله تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة » الخ الرمي معروف ثم استعير لنسبة أمر غير مرضي إلى الإنسان كالزنا والسرقة وهو القذف ، والسياق يشهد أن المراد به نسبة الزنا إلى المرأة المحصنة العفيفة ، والمراد بالإتيان بأربعة شهداء وهم شهود الزنا إقامة الشهادة لاثبات ما قذف به ، وقد أمر الله تعالى بإقامة الحدّ عليهم إن لم يقيموا الشهادة ، وحكم بفسقهم وعدم قبول شهادتهم أبداً .

والمعنى : والذين يقذفون المحصنات من النساء بالزنا ثم لم يقيموا أربعة من الشهود على صدقهم في قذفهم فاجلدوهم ثمانين جلدة على قذفهم وهم فاسقون لا تقبلوا شهادتهم على شيء أبداً .

والآية كما ترى مطلقة تشمل من القاذف الذكر والانثى والحر والعبد ، وبذلك تفسرها روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام .

قوله تعالى : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة وهي قوله : « وأولئك هم الفاسقون » لكنها لما كانت تفيد معنى التعليل بالنسبة إلى قوله : « ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » – على ما يعطيه السياق – كان لازم ما تفيده من ارتفاع الحكم بالفسق ارتفاع الحكم بعدم قبول الشهادة أبداً ، ولازم ذلك رجوع الاستثناء بحسب المعنى إلى الجملتين معاً .

والمعنى : إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا أعمالهم فإن الله غفور رحيم يغفر ذنبهم ويرحمهم فيرتفع عنهم الحكم بالفسق والحكم بعدم قبول شهادتهم أبداً .

وذكر بعضهم : أن الاستثناء راجع إلى الجملة الأخيرة فحسب فلو تاب القاذف

وأصلح بعد إقامة الحد عليه غفر له ذنبه لكن لا تقبل شهادته أبداً خلافاً لمن قال برجوع الاستثناء إلى الجملتين معاً .

والظاهر أن خلافهم هذا مبني على المسألة الاصولية المعنونة بأن الاستثناء الواقع بعد الجمل المتعددة هل يتعلق بالجميع أو بالجملة الأخيرة والحق في المسألة أن الاستثناء في نفسه صالح للأمرين جميعاً وتعين أحدهما منوط بما تقتضيه قرائن الكلام ، والذي يعطيه السياق في الآية التي نحن فيها تعلق الاستثناء بالجملة الأخيرة غير أن إفادتها للتعليل تستلزم تقيد الجملة السابقة أيضاً بمعناه كالأخيرة على ما تقدم .

قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم – إلى قوله – من الكاذبين » أي لم يكن لهم شهداء يشهدون ما شهدوا فيتحملوا الشهادة ثم يؤدوها إلا أنفسهم ، وقوله : « فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله » أي شهادة أحدهم يعني القاذف وهو واحد أربع شهادات متعلقة بالله إنه لمن الصادقين فيما يخبر به من القذف .

ومعنى الآيتين : والذين يقذفون أزواجهم ولم يكن لهم أربعة من الشهداء يشهدون ما شهدوا – ومن طبع الأمر ذلك على تقدير صدقهم إذ لو ذهبوا يطلبون الشهداء ليحضروهم على الواقعة فيشهدوهم عليها فات الغرض بتفرقهما – فالشهادة التي يجب على أحدهم أن يقيمها هي أن يشهد أربع شهادات أي يقول مرة بعد مرة : « أشهد الله على صدقي فيما أقذفه به » أربع مرات وخامستها أن يشهد ويقول : لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين .

قوله تعالى : « ويدرأ عنها العذاب أن تشهد » إلى آخر الآيتين ، الدرء الدفع والمراد بالعذاب حد الزنا ، والمعنى أن المرأة إن شهدت خمس شهادات بإزاء شهادات الرجل دفع ذلك عنه حد الزنا ، وشهاداتها أن تشهد أربع مرات تقول فيها : أشهد بالله إنه لمن الكاذبين ثم تشهد خامسة فتقول : لعنة الله عليّ إن كان من الصادقين ، وهذا هو اللعان الذي ينفصل به الزوجان .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله توّاب رحيم » جواب لولا محذوف يدل عليه ما أخذ في شرطه من القيود إذ معناه لولا فضل الله ورحمته وتوبته

وحكمته لحلّ بكم ما دفعته عنكم هــذه الصفات والأفعال فالتقدير على ما يعطيه ما في الشرط من القيود لولا ما أنعم الله عليكم من نعمة الدين وتوبته لمذنبيكم وتشريعه الشرائع لنظم أمور حياتكم لزمتكم الشقوة ، وأهلكتكم المعصية والخطيئة ، واختلّ نظام حياتكم بالجهالة . والله أعلم .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وسورة النور أنزلت بعــد سورة النساء ، وتصديق ذلك أن الله عز وجل أنزل عليه في سورة النساء « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفّاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » والسبيل الذي قال الله عز وجل «سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بيّنات لعلكم تذكّرون الزانية والزاني فاجلدوا كل واحــد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم آمنتم بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » .

وفي تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: «وليشهد عذابهما » يقول : ضربهما « طائفة من المؤمنين » يجمع لهما الناس إذا جلدوا .

وفي التهذيب بإسناده عن غياث بن إبراهيم عن جعفر عن أبيه عن أمير المؤمنين عليهم السلام في قول الله عز وجل : « ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » قال: في إقامة الحدود ، وفي قوله تعالى : « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » قال : الطائفة واحد.

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قــال : وأنزل بالمدينة « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرّم ذلك على المؤمنين » فلم يسمّ الله الزاني مؤمناً ولا الزانية مؤمنة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله ليس يمتري فيه أهل العلم أنه قال لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن فإنه إذا فعل ذلك خلع عنه الإيمان كخلع القميص .

وفيه بإسناده عن زرارة قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عز وجل:

«الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة» قال : هن نساء مشهورات ورجال مشهورون بالزنا شهروا به وعرفوا به ، والناس اليوم بذلك المنزل فمن أقيم عليه حدّ الزنا أو متّهم بالزنا لم ينبغ لأحد أن يناكحه حتى يعرف منه التوبة .

أقول : ورواه أيضاً بإسناده عن أبي الصباح عنه عليه السلام مثله ، وبإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه : هم رجال ونساء كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مشهورين بالزنا فنهى الله عن اولئك الرجال والنساء ، والناس اليوم على تلك المنزلة من شهر شيئاً من ذلك أقيم عليه الحد فلا تزوّجوه حتى تعرفوا توبته .

وفيه بإسناده عن حكم بن حكيم عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : إنما ذلك في الجهر ثم قال : لو أن إنساناً زنا ثم تاب تزوج حيث شاء .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وعبد بن حميد والنسائي والحاكم وصحّحه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه وأبو داود في ناسخه عن عبد الله بن عمر قال : كانت امرأة يقال لها : أم مهزول ، وكانت تسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه فأراد رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يزوجها فأنزل الله : « الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » .

أقول : وروى ما يقرب منه عن عدة من أصحاب الجوامع عن مجاهد .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال : لما قدم المهاجرون المدينة قدموها وهم بجهد إلا قليل منهم ، والمدينة غالية السعر شديدة الجهد ، وفي السوق زوان متعالنات من أهل الكتاب ، وأما الأنصار منهن أمية وليدة عبد الله بن أبيّ ونسيكة بنت أمية لرجل من الأنصار في بغايا من ولائد الأنصار قد رفعت كل امرأة منهن علامة على بابها ليعرف أنها زانية وكن من أخصب أهل المدينة وأكثره خيراً .

فرغب أناس من مهاجري المسلمين فيما يكتسبن للذي هم فيه من الجهد فأشار بعضهم على بعض لو تزوجنا بعض هؤلاء الزواني فنصيب من بعض أطعماتهن فقال بعضهم : نستأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأتوه فقالوا : يا رسول الله قد شق علينا الجهد ولا نجد ما نأكل ، وفي السوق بغايا نساء أهل الكتاب وولائدهن وولائد الأنصار يكتسبن لأنفسهن فيصلح لنا أن نتزوج منهن فنصيب من فضول ما يكتسبن ؟ فإذا وجدنا عنهن

غنى تركناهن فأنزل الله : « الزاني لا ينكح » الآية « فحرم على المؤمنين أن يتزوجوا الزواني المسافحات العالنات زناهن .

أقول : والروايتان إنما تذكران سبب نزول قوله : « الزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك » دون قوله : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » .

وفي الجمع في قوله تعالى : « إلا الذين تابوا » اختلف في هذه الاستثناء إلى ماذا يرجع على قولين : أحدهما أنه يرجع إلى الفسق خاصة دون قوله : « ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً » – إلى أن قال – والآخر أن الاستثناء يرجع إلى الأمرين فإذا تاب قبلت شهادته حدّ أم لم يحد عن ابن عباس – إلى أن قال – وقول أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن المسيب قال : شهد على المغيرة بن شعبة ثلاثة بالزنا ونكل زياد فحدّ عمر الثلاثة ، وقال لهم : توبوا تقبل شهادتكم فتاب رجلان ولم يتب أبو بكرة فكان لا تقبل شهـــادته ، وكان أبو بكرة أخا زياد لامه فلما كان من أمر زياد ما كان حلف أبو بكرة أن لا يكلمه أبداً فلم يكلمه حتى مات .

وفي التهذيب بإسناده عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : إذا قذف العبد الحر جلد ثمانين . وقال : هذا من حقوق الناس .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم – إلى قوله – إن كان من الصادقين» فإنها نزلت في اللعان فكان سبب ذلك أنه لما رجع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم من غزوة تبوك جاء اليه عويمر بن ساعدة العجلاني وكان من الأنصار وقال : يا رسول الله إن امرأتي زنى بهـا شريك بن السمحاء وهي منه حامل فأعرض عنه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فأعاد عليه القول فأعرض عنه حتى فعل ذلك اربع مرات .

فدخل رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم منزله فنزلت عليه آية اللعان فخرج رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وصلى بالناس العصر ، وقال لعويمر : أئتني بأهلك فقد أنزل الله عز وجل فيكما قرآناً فجاء اليها وقال لها : رسول الله يدعوك وكانت في شرف من قومها فجاء معها جماعة فلما دخلت المسجد قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لعويمر : تقدم إلى المنبر والتعنا فقال : كيف

أصنع ؟ فقال : تقدم وقل : أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به فتقدم وقالها ، فقال رسول الله ﷺ : أعدها فأعادها حتى فعل ذلك اربع مرات فقال له في الخامسة : عليك لعنة الله إن كنت من الكاذبين فيما رميتها به فقال في الخامسة إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين فيما رماها به . ثم قال رسول الله ﷺ : إن اللعنة موجبة إن كنت كاذباً .

ثم قال له : تنحّ فتنحى ثم قال لزوجته : تشهدين كما شهد ، وإلا أقمت عليك حدّ الله فنظرت في وجوه قومها فقالت :لا أسوّد هذه الوجوه في هذه العشية فتقدمت إلى المنبر وقالت : أشهد بالله إن عويمر بن ساعدة من الكاذبين فيما رماني ، فقال لها رسول الله ﷺ : أعيديها فأعادتها حتى أعادتها أربع مرات ، فقال لها رسول الله ﷺ : العني نفسك في الخامسة إن كان من الصادقين فيما رماك به ، فقالت في الخامسة إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فيما رماها به ، فقال رسول الله ﷺ : ويلك إنها موجبة إن كنت كاذبة .

ثم قال رسول الله ﷺ لزوجها : اذهب فلا تحلّ لك أبداً. قال : يا رسول الله فمالي الذي أعطيتها . قال : إن كنت كاذباً فهو أبعد لك منه ، وإن كنت صادقاً فهو لها بما استحللت من فرجها . الحديث .

وفي المجمع في رواية عكرمة عن ابن عباس : قال سعد بن عبادة لو أتيت لكاع وقد يفخّذها رجل لم يكن لي أن أهيجه حتى آتي بأربعة شهداء فوالله ما كنت لآتي بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب ، وإن قلت ما رأيت إن في ظهري لثمانين جلدة .

فقال النبي ﷺ : يا معشر الأنصار ما تسمعون إلى ما قال سيدكم ؟ فقالوا : لا تلمه فإنه رجل غيور ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، ولا طلّق امرأة له فاجترى رجل منا أن يتزوجها ، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله بأبي أنت وأمي والله إني لأعرف أنها من الله وأنها حق ولكن عجبت من ذلك لما أخبرتك ، فقال : فإن الله يأبى إلا ذلك ، فقال : صدق الله ورسوله .

فلم يلبثوا إلا يسيراً حتى جاء ابن عم له يقال له : هلال بن أمية من حديقة له قد رأى رجلاً مع امرأته فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال : إني جئت أهلي

عشاء فوجدت معها رجلاً رأيته بعيني وسمعته باذني،فكره رسول الله ﷺ حتى رئي الكراهة في وجهه فقال هلال : إني لأرى الكراهة في وجهك والله يعلم إني لصادق ، وإني لأرجو أن يجعل الله فرجاً فهمّ رسول الله ﷺ بضربه .

قال : واجتمعت الأنصار وقالوا : ابتلينا بما قال سعد أيجلد هلال ويبطل شهادته ؟ فنزل الوحي وأمسكوا عن الكلام حين عرفوا أن الوحي قد نزل فأنزل الله تعالى : « والذين يرمون أزواجهم » الآيات .

فقال ﷺ : أبشر يا هلال فإن الله تعالى قد جعل فرجاً فقال: قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى ، فقال ﷺ : أرسلوا إليها فجاءت فلاعن بينهما فلما انقضى اللعان فرّق بينهما وقضى أن الولد لها ولا يدعى لأب ولا يرمى ولدها .

ثم قال رسول الله ﷺ : إن جاءت به كذا وكذا فهو لزوجها وإن جاءت به كذا وكذا فهو للذي قيل فيه .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس .

* * *

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ – ١١ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ – ١٢ . لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ – ١٣ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ – ١٤ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ

بِأَلسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ ــ ١٥ . وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ــ ١٦ . يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ١٧ . وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ ٱلآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ــ ١٨ . إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ــ ١٩ . وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ــ ٢٠ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلٰكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ــ ٢١ . وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا ٱلْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱلْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ــ ٢٢ . إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ٱلْغَافِلاَتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ــ ٢٣ . يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ــ ٢٤ . يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ــ ٢٥ . أَلْخَبِيثَاتُ

لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَـٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ — ٢٦ .

(بيان)

الآيات تشير إلى حديث الإفك ، وقد روى أهل السنة أن المقذوفة في قصة الإفك هي أم المؤمنين عائشة ، وروت الشيعة أنها مارية القبطية أم إبراهيم التي أهداها مقوقس ملك مصر إلى النبي ﷺ ، وكل من الحديثين لا يخلو عن شيء على ما سيجيء في البحث الروائي الآتي .

فالأحرى أن نبحث عن متن الآيات في معزل من الروايتين جميعاً غير أن من المسلم أن الإفك المذكور فيها كان راجعاً إلى بعض أهل النبي ﷺ إما زوجه وإما أم ولده وربما لوّح اليه قوله تعالى : « وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم » ، وكذا ما يستفاد من الآيات أن الحديث كان قد شاع بينهم وأفاضوا فيه وسائر ما يومي اليه من الآيات .

والمستفاد من الآيات أنهم رموا بعض أهل النبي ﷺ بالفحشاء، وكان الرامون عصبة من القوم فشاع الحديث بين الناس يتلقاه هذا من ذاك ، وكان بعض المنافقين أو الذين في قلوبهم مرض يساعدون على إذاعة الحديث حباً منهم أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا فأنزل الله الآيات ودافع عن نبيه ﷺ .

قوله تعالى : « إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم » الخ ، الإفك على ما ذكره الراغب الكذب مطلقاً والأصل في معناه أنه كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه كالاعتقاد المصروف عن الحق إلى الباطل – والفعل المصروف عن الجميل إلى القبيح ، والقول المصروف عن الصدق إلى الكذب، وقد استعمل في كلامه تعالى في جميع هذه المعاني .

وذكر أيضاً أن العصبة جماعة متعصبة متعاضدة، وقيل: إنها عشرة إلى أربعين.

والخطاب في الآية وما يتلوها من الآيات لعامة المؤمنين ممن ظاهره الإيمان أعم من المؤمن بحقيقة الإيمان والمنافق ومن في قلبه مرض ، وأما قول بعضهم : إن المخاطب

بالخطابات الأربعة الاوّل أو الثاني والثالث والرابع النبي ﷺ والمقذوفة والمقذوف ففيه تفكيك بين الخطابات الواقعة في الآيات العشر الاوّل وهي نيف وعشرون خطاباً أكثرها لعامة المؤمنين بلا ريب .

وأسوأ حالا منه قول بعض آخر إن الخطابات الأربعة أو الثلاثة المذكورة لمن ساءه ذلك من المؤمنين فإنه مضافاً إلى استلزامه التفكيك بين الخطابات المتوالية مجازفة ظاهرة .

والمعنى : إن الذين أتوا بهذا الكذب – واللام في الإفك للعهد – جماعة معدودة منكم مرتبط بعضهم ببعض ، وفي ذلك إشارة إلى أن هناك تواطؤاً منهم على إذاعة هذا الخبر ليطعنوا به في نزاهة بيت النبي ﷺ ويفضحوه بين الناس .

وهذا هو فائدة الخبر في قوله : « إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم » لا تسلية النبي ﷺ أو تسليته وتسلية من ساءه هذا الإفك كما ذكره بعضهم فإن السياق لا يساعد عليه .

وقوله : « لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم » مقتضى كون الخطاب لعامة المؤمنين أن يكون المراد بنفي كونه شراً لهم وإثبات كونه خيراً أن المجتمع الصالح من سعادته أن يتميز فيه أهل الزيغ والفساد ليكونوا على بصيرة من أمرهم وينهضوا لإصلاح ما فسد من أعضائهم، وخاصة في مجتمع ديني متصل بالوحي ينزل عليهم الوحي عند وقوع أمثال هذه الوقائع فيعظهم ويذكّرهم بما هم في غفلة منه أو مساهلة حتى يحتاطوا لدينهم ويتفطنوا لما يهمّهم .

والدليل على ما ذكرنا قوله بعد : « لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم » فإن الإثم هو الأثر السيىء الذي يبقى للانسان عن اقتراف المعصية فظاهر الجملة أن أهل الإفك الجائين به يعرفون بإثمه ويتميزون به عندكم فيفتضحون به بدل ما أرادوا أن يفضحوا النبي ﷺ .

وأما قول من قال : إن المراد بكونه خيراً لهم أنهم يثابون بما اتهموهم بالإفك كما أن أهل الإفك يتأثمون به فمبني على كون الخطاب للمتهمين خاصة وقد عرفت فساده.
وقوله : « والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » فسّروا كبره بمعنى معظمه

والضمير للإفك ، والمعنى : والذي تولى معظم الإفك وأصرّ على إذاعته بين الناس من هؤلاء الآفكين له عذاب عظيم .

قوله تعالى : « لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين» توبيخ لهم إذ لم يردّوا الحديث حينما سمعوه ولم يظنوا بمن رمي به خيراً.

وقوله : « ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم » من وضع الظاهر موضع المضمر، والأصل « ظننتم بأنفسكم » والوجه في تبديل الضمير وصفاً الدلالة على علة الحكم فإن صفة الإيمان رادعة بالطبع تردع المتلبس بها عن الفحشاء والمنكر في القول والفعل فعلى المتلبس بها ان يظن على المتلبسين بها خيراً، وأن يجتنب القول فيهم بغير علم فإنهم جميعاً كنفس واحدة في التلبّس بالإيمان ولوازمه وآثاره .

فالمعنى : ولولا إذ سمعتم الإفك ظننتم بمن رمي به خيراً فإنكم جميعاً مؤمنون بعضكم من بعض والمرميّ بـه من أنفسكم وعلى المؤمن أن يظن بالمؤمن خيراً ولا يصفه بما لا علم له به .

وقوله : « قالوا هذا إفك مبين » أي قـال المؤمنون والمؤمنات وهم السامعون – أي قلتم – هـذا إفك مبين لأن الخبر الذي لا علم لمخبره به والدعوى التي لا بيّنة لمدّعيها عليها محكوم شرعاً بالكذب سواء كان بحسب الواقع صدقاً أو كذباً، والدليل عليه قوله في الآية التالية : « فإذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون » .

قوله تعالى : « لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون» أي لو كانوا صادقين فيما يقولون ويرمون لأقاموا عليه الشهادة وهي في الزنا بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فهم محكومون شرعاً بالكذب لأن الدعوى من غير بيّنة كذب وإفك .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسّكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم » إفاضة القوم في الحديث خوضهم فيه .

وقوله : « ولولا فضل الله » الخ ، عطف على قوله : « لولا إذ سمعتموه » الخ ، وفيه كرّة ثانية على المؤمنين ، وفي تقييد الفضل والرحمة بقوله : « في الدنيا والآخرة » دلالة على كون العذاب المذكور ذيلاً هو عذاب الدنيا والآخرة .

والمعنى : ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لوصل إليكم بسبب ما خضتم فيه من الإفك عذاب عظيم في الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : « إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » الخ ، الظرف متعلق بقوله : « أفضتم » وتلقّي الإنسان القول أخذه القول الذي ألقاه اليه غيره ، وتقييد التلقي بالألسنة للدلالة على أنه كان مجرد انتقال القول من لسان إلى لسان من غير تثبت وتدبّر فيه .

وعلى هذا فقوله : « وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » من قبيل عطف التفسير ، وتقييده أيضاً بقوله : « بأفواهكم » للإشارة إلى أن القول لم يكن عن تثبت وتبيّن قلبيّ ولم يكن له موطن إلا الأفواه لا يتعداها .

والمعنى : أفضتم وخضتم فيه إذ تأخذونه وتنقلونه لساناً عن لسان وتتلفظون بما لا علم لكم به .

وقوله : « وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم » أي تظنون التلقي بألسنتكم والقول بأفواهكم من غير علم سهلاً وهو عند الله عظيم لأنه بهتان وافتراء ، على أن الأمر مرتبط بالنبي ﷺ وشيوع إفك هذا شأنه بين الناس يفضحه عندهم ويفسد أمر الدعوة الدينية .

قوله تعالى : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم » عطف بعد عطف على قوله : « لولا إذ سمعتموه » الخ ، وفيه كرّة ثالثة على المؤمنين بالتوبيخ ، وقوله : « سبحانك » اعتراض بالتنزيه لله سبحانه وهو من أدب القرآن أن ينزّه الله بالتسبيح عند تنزيه كل منزّه .

والبهتان الإفتراء سمي به لأنه يبهت الإنسان المفترى عليه وكونه بهتاناً عظيماً لأنه افتراء في عرض وخاصة إذ كان متعلقاً بالنبي ﷺ وإنما كان بهتاناً لكونه إخباراً من غير علم ودعوى من غير بيّنة كما تقدم في قوله : « فإذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون » ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : «يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً» إلى آخر الآيتين موعظة بالنهي عن العود لمثله ، ومعنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا » إلى آخر الآية إن كانت الآية نازلة في جملة آيات الإفك ومتصلة بما تقدمها وموردها الرمي بالزنا بغير بيّنة كان مضمونها تهديد الرامين المفيضين في الإفك لكونه فاحشة وإشاعته في المؤمنين حباً منهم لشيوع الفاحشة .

فالمراد بالفاحشة مطلق الفحشاء كالزنا والقذف وغير ذلك ، وحب شيوعها ومنها القذف في المؤمنين يستوجب عذاباً أليماً لمحبيه في الدنيا والآخرة .

وعلى هـذا فلا موجب لحمل العذاب في الدنيا على الحد إذ حب شيوع الفحشاء ليس مما يوجب الحد ، نعم لو كان اللام في « الفاحشة » للعهد والمراد بها القذف وكان حب الشيوع كناية عن قصد الشيوع بالإفاضة والتلقي بالألسن والنقل أمكن حمل العذاب على الحد لكن السياق لا يساعد عليه .

على أن الرمي بمجرد تحققه مرة موجب للحد ولا موجب لتقييده بقصد الشيوع ولا نكتة تستدعي ذلك .

وقوله : «والله يعلم وأنتم لا تعلمون » تأكيد وإعظام لما فيه من سخط الله وغضبه وإن جهله الناس .

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته » تكراراً للامتنان ومعناه ظاهر.

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر » تقدم تفسير الآية في الآية ٢٠٨ من سورة البقرة في الجزء الثاني من الكتاب.

قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً » إلى آخر الآية . رجوع بعد رجوع إلى الإمتنان بالفضل والرحمة ، لا يخلو هذا الإهتمام من تأييد لكون الإفك متعلقاً بالنبي ﷺ وليس إلا لكرامته على الله سبحانه .

وقد صرح في هذه المرة الثالثة بجواب لولا وهو قوله : « ما زكى منكم من أحد أبداً » وهذا مما يدل عليه العقل فإن مفيض الخير والسعادة هو الله سبحانه ، والتعليم القرآني أيضاً يعطيه كما قال تعالى : « بيدك الخير » آل عمران : ٢٦ ، وقال : « ما أصابك من حسنة فمن الله » النساء : ٧٩ .

وقوله: « ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم» اضراب عما تقدمه فهو تعالى يزكي من يشاء فالأمر الى مشيئته ، ولا يشاء إلا تزكية من استعد لها وسأله بلسان استعداده

ذلك ، وإليه يشير قوله : « والله سميع عليم » أي سميع لسؤال من سأله التزكية عليم بحال من استعد لها .

قوله تعالى : «ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله » الخ ، الايتلاء التقصير والترك والحلف ، وكل من المعاني الثلاثة لا يخلو من مناسبة ، والمعنى لا يقصر أولو الفضل منكم والسعة يعني الأغنياء في إيتاء اولي القرابة والمساكين والمهاجرين في سبيل الله من مالهم أو لا يترك إيتاءهم أو لا يحلف أن لا يؤتيهم – وليعفوا عنهم وليصفحوا – ثم حرضهم بقوله : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

وفي الآية – على تقدير نزولها في جملة الآيات واتصالها بها – دلالة على أن بعض المؤمنين عزم على أن يقطع ما كان يؤتيه بعض أهل الإفك فنهاه الله عن ذلك وحثه على إدامة الإيتاء كما سيجيء .

قوله تعالى : « إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإن كلاً من الاحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلماً والرامي ظالماً والمرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم ، وجزاؤه اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم ، والآية عامة وإن كان سبب نزولها لو نزلت في جملة آيات الإفك خاصاً .

قوله تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » الظرف متعلق بقوله في الآية السابقة : « ولهم عذاب عظيم » .

والمراد بقوله : « بما كانوا يعملون » كما يقتضيه إطلاقه مطلق الأعمال السيئة –كما قيل – لا خصوص الرمي بأن تشهد ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم على رميهم فالمراد بالشهادة شهادة الأعضاء على السيآت والمعاصي بحسب ما يناسبها فما كان منها من قبيل الأقوال كالقذف والكذب والغيبة ونحوها شهدت عليه الألسنة ، وما كان منها من قبيل الأفعال كالسرقة والمشي للنميمة والسعاية وغيرهما شهدت عليه بقية الأعضاء،وإذ كان معظم المعاصي من الأفعال للأيدي والأرجل اختصتا بالذكر .

وبالحقيقة الشاهد على كل فعل هو العضو الذي صدر منه كما يشير اليه قوله تعالى:

« شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » حم السجدة : ٢٠ ، وقوله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا » أسرى : ٣٦ ، وقوله : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » يس : ٦٥ ، وسيأتي الكلام على شهادة الأعضاء يوم القيامة في بحث مستقل في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » المراد بالدين الجزاء كما في قوله : « مالك يوم الدين » الحمد : ٤ ، وتوفية الشيء بذله تاماً كاملاً ، والمعنى : يوم القيامة يؤتيهم الله جزاءهم الحق إيتاء تاماً كاملاً ويعلمون أن الله هو الحق المبين .

هذا بالنظر إلى اتصال الآية بما قبلها ووقوعها في سياق ما تقدمها ، وأما بالنظر إلى استقلالها في نفسها فمن الممكن ان يراد بالدين ما يرادف الملة وهو سنة الحياة ، وهو معنى عال يرجع إلى ظهور الحقائق يوم القيامة للانسان ، ويكون أكثر مناسبة لقوله: « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » .

والآية من غرر الآيات القرآنية تفسر معنى معرفة الله فإن قوله: « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » ينبىء أنه تعالى هو الحق لا سترة عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو من أبده البديهيات التي لا يتعلق بها جهل لكن البديهي ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذي ربما يعبر عنه بالعلم ، وهذا هو الذي يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أن الله هو الحق المبين .

وإلى مثله يشير قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ .

قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » الخ ذيل الآية « اولئك مبرّؤن مما يقولون » دليل على أن المراد بالخبيثات والخبيثين والطيبات والطيبين نساء ورجال متلبسون بالخباثة والطيب فالآية من تمام آيات الإفك متصلة بها مشاركة لها في سياقها ، وهي عامة لا مخصص لها من جهة اللفظ البتة .

فالمراد بالطيب الذي يوجب كونهم مبرّئين مما يقولون على ما تدلّ عليه الآيات

السابقة هو المعنى الذي يقتضيه تلبّسهم بالإيمان والإحصان فالمؤمنون والمؤمنات مع الإحصان طيبون وطيبات يختص كل من الفريقين بصاحبه ، وهم بحكم الإيمان والإحصان مصونون مبرّؤن شرعاً من الرمي بغير بيّنة ، محكومون من جهة إيمانهم بأن لهم مغفرة كما قال تعالى : « وآمِنوا به يغفر لكم من ذنوبكم » الأحقاف : ٣١ ولهم رزق كريم، وهو الحياة الطيبة في الدنيا والأجر الحسن في الآخرة كما قال : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » النحل : ٩٧ .

والمراد بالخبث في الخبيثين والخبيثات وهم غير المؤمنين هو الحال المستقذرة التي يوجبها لهم تلبُّسهم بالكفر وقد خصّت خبيثاتهم بخبيثهم وخبيثوهم بخبيثاتهم بمقتضى المجانسة والمسانخة وليسوا بمبرّئين عن التلبُّس بالفحشاء – نعم هذا ليس حكماً بالتلبُّس – .

فظهر بما تقدم :

أولا : أن الآية عامة بحسب اللفظ تصف المؤمنين والمؤمنات بالطيب ولا ينافي ذلك اختصاص سبب نزولها وانطباقها عليه .

وثانياً : أنها تدل على كونهم جميعاً محكومين شرعاً بالبراءة عما يرمون به مما لم تقم عليه بينة .

وثالثاً : أنهم محكومون بالمغفرة والرزق الكريم كل ذلك حكم ظاهري لكرامتهم على الله بإيمانهم ، والكفار على خلاف ذلك .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وأحمد والبخاري وعبد بن حميد ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج إلى سفر أقرع بين أزواجه فأيّتهنّ خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة : فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما نزل الحجاب وأنا أُحمل في هودجي وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل .

فدنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار(١) قـد انقطع فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب ، وهم يحسبون أني فيه ، وكانت النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما تأكل المرأة العلقة (٢) من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل فساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فيممت منزلي الذي كنت به فظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليّ فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت .

وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكراني من وراء الجيش فأدلج (٣) فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني فخمرت وجهي بجلبابي والله ما كلمني كلمة واحدة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا موغرين في نحر الظهيرة فهلك فيّ من هلك .

وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبيّ بن سلول فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك ، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين اشتكى إنما يدخل عليّ فيسلم ثم يقول: كيف تيكم ؟ ثم ينصرف فذاك الذي يريبني

---

(١) ظفار كقطام بلد باليمن قرب صنعاء ، وجزع ظفاري منسوب اليها والجزع الخرز وهو الذي فيه سواد وبياض .

(٢) العلقة من الطعام ما يمسك به الرمق .

(٣) أدلج القوم : ساروا الليل كله أو في آخره .

ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعد ما نقهت وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع [١] وهي متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التبرّز قبل الغائط فكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا .

فانطلقت أنا وأم مسطح فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتي قد أشرعنا [٢] من ثيابنا فعثرت أم مسطح في مرطها [٣] فقالت : تعس مسطح فقلت لها : بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً ؟ قالت : إي هنتاه [٤] أولم تسمعي ما قال ؟ قلت: وما قال: فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي .

فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ فسلم ثم قال : كيف تيكم ؟ فقلت : أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ – قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما – قالت : فأذن لي رسول الله ﷺ فجئت لأبوي فقلت لأمي : يا أمتاه ما يتحدث الناس ؟ قالت يا بنية هوني عليك فوالله لقلّما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها فقلت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت أبكي .

ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستأمرهما في فراق أهله ، فأما اسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم لهم في نفسه من الودّ فقال : يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً ، وأما علي بن أبي طالب فقال : يا رسول الله لم يضيّق الله عليك ، والنساء سواها كثيرة وإن تسأل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : أي بريرة هل رأيت شيئاً يريبك ؟ قالت بريرة : لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فيأتي الداجن فيأكله .

---

(١) المناصع : المواضع يتخلى فيها لبول أو حاجة .

(٢) أي رفعنا ثيابنا .

(٣) المرط – بالكسر – كساء واسع يؤتزر به وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفع به .

(٤) خطاب للمرأة يقال للرجل يا هناه .

فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله بن أبيّ فقال وهو على المنبر : يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهل بيتي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال : يا رسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه وإن كان من إخواننا من بني الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحميّة فقال لسعد : كذبت لعمر الله ما تقتله ولا تقدر على قتله ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاورا الحيّان : الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت .

فبكيت يومي ذلك فلا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي .

فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت عليّ امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس ولم يجلس عندي منذ قيل فيّ ما قيل قبلها وقد لبث شهراً لا يوحى اليه في شأني بشيء ، فتشهّد حين جلس ثم قال : أما بعد يا عائشة إنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرؤك الله ، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص(١) دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبي : أجب عني رسول الله ﷺ . قال : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لامي : أجيبي عني رسول الله ﷺ ، قالت : والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

---

(١) قلص : اجتمع وانقبض .

فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن : إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدّقتم به فلئن قلت لكم : إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدّقوني ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدّقنّي ، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا قول أبي يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

ثم تحوّلت فاضطجعت على فراشي وأنا حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله مبرّئي ببراءتي ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا يبرّئني الله بها .

قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى أنه ليتحدّر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شات من ثقل القول الذي أنزل عليه فلما سري عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشري يا عائشة أما الله فقد برّأك ، فقالت أمي : قومي اليه ، فقلت : والله لا أقوم اليه ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي ، وأنزل الله : « إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم » العشر الآيات كلها .

فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال فأنزل الله : « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين – إلى قوله – رحيم » قال أبو بكر : والله إني احب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً .

قالت عائشة : فكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري فقال: يا زينب ماذا علمت او رأيت ؟ فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً ، قالت : وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع ، وطفقت اختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك .

أقول : والرواية مروية بطرق اخرى عن عائشة أيضاً وعن عمر وابن عباس وأبي هريرة وأبي اليسر الأنصاري وأم رومان أم عائشة وغيرهم وفيها بعض الاختلاف .

وفيهـــا أن الذين جاؤا بالإفك عبد الله بن أبيّ بن سلول ومسطح بن أثاثة وكان بدرياً من السابقين الأولين من المهاجرين ، وحسان بن ثابت ، وحمنـة اخت زينب زوج النبي ﷺ .

وفيها أن النبي ﷺ دعاهم بعد ما نزلت آيات الإفك فحدّهم جميعاً غير أنه حدّ عبدالله بن أبي حدّين وإنما حدّه حدّين لأنه من قذف زوج النبي ﷺ كان عليه حدّان.

وفي الروايات على تقاربها في سرد القصة إشكال من وجوه :

أحدها : أن المسلم من سياقها أن النبي ﷺ كان في ريب من أمر عائشة بعـد تحقق الإفك كما يدل عليه تغير حاله بالنسبة اليها في المعاملة باللطف أيام اشتكائها وبعدها حتى نزلت الآيات ، ويدل عليه قولهـا له حين نزلت الآيات وبشّرها به : بحمد الله لا بحمدك ، وفي بعض الروايات أنها قالت لأبيها وقـد أرسله النبي ﷺ ليبشرها بنزول العذر : بحمد الله لا بحمـد صاحبك الذي أرسلك ، تريد به النبي ﷺ ، وفي الرواية الاخرى عنها : أن النبي ﷺ لما وعظها أن تتوب إلى الله إن كان منها شيء وفي الباب امرأة جالسة قالت له عائشة : أما تستحي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ، ومن المعلوم أن هذا النوع من الخطاب المبني على الإهانة والإزراء ما كان يصدر عنها لولا أنها وجدت النبي في ريب من أمرها . كل ذلك مضافاً إلى التصريح به في رواية عمر ففيها : « فكان في قلب النبي ﷺ مما قالوا » .

وبالجملة دلالة عامة الروايات على كون النبي ﷺ في ريب من أمرها إلى نزول العذر مما لا ريب فيه ، وهذا مما يجلّ عنه مقامه ﷺ كيف ؟ وهو سبحانه يقول : « لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هـــذا إفك مبين » فيوبّخ المؤمنين والمؤمنات على إساءتهم الظن وعدم ردّهم ما سمعوه من الإفك فمن لوازم الإيمان حسن الظن بالمؤمنين ، والنبي ﷺ أحق من يتصف بذلك ويتحرّز من سوء الظن الذي من الإثم وله مقام النبوة والعصمة الإلهية .

على أنه تعالى ينص في كلامه على اتصافه ﷺ بذلك إذ يقول : « ومنهم الذين

يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » التوبة : ٦١ .

على أنّا نقول: إن تسرُّب الفحشاء إلى أهل النبي ينفّر القلوب عنه فمن الواجب أن يطهر الله سبحانه ساحة أزواج الأنبياء عن لوث الزنا والفحشاء وإلا لغت الدعوة وتثبت بهذه الحجة العقلية عفّتهن واقعاً لا ظاهراً فحسب، والنبي ﷺ أعرف بهذه الحجة منا فكيف جاز له أن يرتاب في أمر أهله برمي من رامٍ أو شيوع من إفك .

وثانيها : أن الذي تدل عليه الروايات أن حديث الإفك كان جارياً بين الناس منذ بدأ به أصحاب الإفك إلى أن ختم بحدّهم أكثر من شهر وقد كان حكم القذف مع عدم قيام الشهادة معلوماً وهو جلد القاذف وتبرئة المقذوف شرعاً فما معنى توقف النبي ﷺ عن حدّ أصحاب الإفك هذه المدة الطويلة وانتظاره الوحي في أمرها حتى يشيع بين الناس وتتلقاه الألسن وتسير به الركبان ويتسع الخرق على الراتق ؟ وما أتى به الوحي من العذر لا يزيد على ما تعيّنه آية القذف من براءة المقذوف حكماً شرعياً ظاهرياً .

فإن قيل : الذي نزل من العذر براءتها واقعاً وطهارة ذيلها في نفس الأمر وهذا أمر لا تكفي له آية حد القاذف ، ولعل صبره ﷺ هذه المدة الطويلة إنما كان لأجله.

قلت : لا دلالة في شيء من هذه الآيات الست عشرة على ذلك ، وإنما تثبت بالحجة العقلية السابقة الدالة على طهارة بيوت الأنبياء من لوثة الفحشاء .

أما الآيات العشر الاول التي فيها شائبة الاختصاص فأظهرها في الدلالة على براءتها قوله تعالى : « لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون » وقد استدل فيها على كذبهم بعدم إتيانهم بالشهداء ، ومن الواضح أن عدم إقامة الشهادة إنما هو دليل البراءة الظاهرية أعني الحكم الشرعي بالبراءة دون البراءة الواقعية لوضوح عدم الملازمة .

وأما الآيات الست الأخيرة فقوله : « الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » الخ عام من غير مخصص من جهة اللفظ فالذي تثبته من البراءة مشترك فيه بين جميع المقذوفين

من غير قيام بينة من المؤمنين والمؤمنات ، ومن الواضح أن البراءة المناسبة لهذا المعنى هي البراءة الشرعية .

والحق أن لا مناص عن هذا الإشكال إلا بالقول بأن آية القذف لم تكن نازلة قبل حديث الإفك وإنما نزلت بعده ، وإنما كان سبب توقفه ﷺ خلو الواقعة عن حكم الله بعد فكان ينتظر في أمر الإفك الحكم السماوي .

ومن أوضح الدليل عليه ما في الرواية من استعذار النبي ﷺ من القاذف في المسجد وقول سعد بن معاذ ما قال ومجادلة سعد بن عبادة إياه واختلاف الأوس والخزرج بمحضر من النبي ﷺ وفي رواية عمر بعد ما ذكر اختلاف ابن معاذ وابن عبادة : فقال هذا : يا للأوس وقال هذا : يا للخزرج فاضطربوا بالنعال والحجارة فتلاطموا ، الحديث فلو كانت آية القذف نازلة قبل ذلك وحكم الحد معلوماً لم يجب سعد بن معاذ النبي ﷺ بأنه يعذره منه بالقتل ولقال هو وسائر الناس: يا رسول الله حكم القذف معلوم ويدك مبسوطة .

وثالثها: أنها تصرح بكون أصحاب الإفك هم عبدالله بن أبي ومسطحاً وحساناً وحمنة ثم تذكر أنه ﷺ حد عبد الله بن أبيّ حدين وكلا من مسطح وحسان وحمنة حداً واحداً ، ثم تعلل حدي عبد الله بن ابيّ بأن من قذف أزواج النبي ﷺ فعليه حدان ، وهذا تناقض صريح فإنهم جميعاً كانوا قاذفين بلا فرق بينهم .

نعم تذكر الروايات أن عبد الله بن ابيّ كان هو الذي تولى كبره منهم لكن لم يقل أحد من الامة أن هذا الوصف يوجب حدين . ولا أن المراد بالعذاب العظيم في قوله : « الذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم » هو ثبوت حدين .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم » الآية فإن العامة روت أنها نزلت في عائشة وما رميت به في غزوة بني المصطلق من خزاعة وأما الخاصة فإنهم رووا أنها نزلت في مارية القبطية وما رمتها به عائشة .

حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا محمد بن عيسى عن الحسن بن علي بن فضّال قال : حدثني عبد الله بن بكير عن زرارة قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : لما هلك إبراهيم بن رسول الله ﷺ حزن عليه حزناً شديداً فقالت عائشة : ما الذي

يحزنك عليه ؟ما هو إلا ابن جريح ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام وأمره بقتله.

فذهب علي عليه السلام ومعه السيف وكان جريح القبطي في حائط فضرب علي عليه السلام باب البستان فأقبل جريح له ليفتح الباب فلما رأى علياً عليه السلام عرف في وجهه الغضب فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان فوثب علي عليه السلام على الحائط ونزل إلى البستان واتبعه وولى جريح مدبراً فلما خشي أن يرهقه [١] صعد في نخلة وصعد علي عليه السلام في أثره فلما دنا منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته فإذا ليس له ما للرجال ولا له ما للنساء .

فانصرف علي عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له : يا رسول الله إذا بعثتني في الأمر أكون كالمسمار المحمي في الوبر أم أثبت ؟ قال : لا بل تثبت . قال : والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال وما له ما للنساء ، فقال : الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت .

وفيه في رواية عبيد الله بن موسى عن أحمد بن راشد عن مروان بن مسلم عن عبد الله بن بكير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل القبطي وقد علم أنها كذبت عليه أو لم يعلم ؟ وقد دفع الله عن القبطي القتل بتثبيت علي عليه السلام فقال : بل كان والله علم ، ولو كان عزيمة من رسول الله صلى الله عليه وآله ما انصرف علي عليه السلام حتى يقتله ، ولكن إنما فعل رسول الله صلى الله عليه وآله لترجع عن ذنبها فما رجعت ولا اشتد عليها قتل رجل مسلم .

أقول : وهناك روايات أخر تدل على مشاركة غيرها معها في هذا الرمي ، وجريح هذا كان خادماً خصياً لمارية أهداه معها مقوقس عظيم مصر لرسول الله صلى الله عليه وآله وأرسله معها ليخدمها .

وهذه الروايات لا تخلو من نظر :

أما أولاً: فلأن ما فيها من القصة لا يقبل الانطباق على الآيات ولا سيما قوله: « إن

---

(١) أرهقه : أدركه .

الذين جاؤا بالإفك » الآية وقوله : « لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً » الآية، وقوله : « تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم » الآية ، فمحصّل الآيات أنـه كان هناك جماعة مرتبط بعضهم ببعض يذيعون الحديث ليفضحوا النبي ﷺ ، وكان النـــاس يتداولونه لساناً عن لسان حتى شاع بينهم ومكثوا على ذلك زماناً وهم لا يراعون حرمة النبي ﷺ وكرامته من الله ، وأين مضمون هذه الروايات من ذلك .

اللهم إلا أن تكون الروايات قاصرة في شرحها للقصة .

وأما ثانياً : فقـد كان مقتضى القصة وظهور براءتها إجراء الحدّ ولم يجر ، ولا مناص عن هذه الإشكال إلا بالقول بنزول آية القذف بعد قصة الإفك بزمان .

والذي ينبغي أن يقال بالنظر إلى إشكال الحد الوارد على الصنفين من الروايات جميعاً – كما عرفت – أن آيات الإفك نزلت قبل آية حد القذف،ولم يشرع بنزول آيات الإفك إلا براءة المقذوف مع عدم قيام الشهادة وتحريم القذف .

ولو كان حد القاذف مشروعاً قبل حديث الإفك لم يكن هناك مجوّز لتأخيره مدة معتدّاً بها وانتظار الوحي ، ولا نجا منه قاذف منهم ، ولو كان مشروعاً مع نزول آيات الإفك لاشير فيها اليه ، ولا أقلّ باتصال الآيات بآية القذف ، والعارف بأساليب الكلام لا يرتاب في أن قوله : « إن الذين جاؤا بالإفك » الآيات منقطعة عما قبلها .

ولو كان على من قذف أزواج النبي ﷺ حدّان لاشير إلى ذلك في خلال آيات الإفك بما فيها من التشديد واللعن والتهديد بالعذاب على القاذفين .

ويتأكد الإشكال على تقدير نزول آية القذف مع نزول آيات الإفك فإن لازمه أن يقع الإبتلاء بحكم الحدين فينزل حكم الحد الواحد .

وفي الكافي عن علي بن ابراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : من قال في مؤمن ما رأته عيناه وسمعته أذناه فهو من الذين قال الله عز وجل : « إن الذين يحبون – إلى قوله – والآخرة » .

أقول : ورواه القمي في تفسيره عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام عنه عليه السلام

والصدوق في الأمالي بإسناده عن ابن أبي عمير عن محمد بن حمران عنه عليه السلام ، والمفيد في الاختصاص عنه عليه السلام مرسلا .

وفيه بإسناده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من أذاع فاحشة كان كمبتدئها .

وفي المجمع قيل : إن قوله : « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة » الآية ، نزلت في أبي بكر ومسطح بن أثاثة وكان ابن خالة أبي بكر ، وكان من المهاجرين ومن جملة البدريين وكان فقيراً ، وكان أبو بكر يجري عليه ويقوم بنفقته فلما خاض في الإفك قطعها وحلف أن لا ينفعه بنفع أبداً فلما نزلت الآية عاد أبو بكر إلى ما كان ، وقال : والله إني لاحب أن يغفر الله لي ، والله لا أنزعها عنه أبداً . عن ابن عباس وعائشة وابن زيد .

وفيه وقيل : نزلت في جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوهم . عن ابن عباس وغيره .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس .

وفي تفسير القمي وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : «ولا يأتل اولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اولي القربى» وهم قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا» يقول: يعفو بعضكم عن بعض، ويصفح بعضكم بعضاً فإذا فعلتم كانت رحمة الله لكم ، يقول الله عز وجل : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » .

في الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : ونزل بالمدينة « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم » .

فبرّأه الله ما كان مقيماً على الفرية من أن يسمى بالإيمان ، قال الله عز وجل : « أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » وجعله من أولياء إبليس قال : « إلا

إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » وجعله ملعوناً فقـــال : « إن الذين يرمون المحصنات الغـافلات المؤمنات لعنوا في الدنيـا والآخرة ولهم عذاب أليم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » .

وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه بيمينه ، قال الله عز وجل : « فأما من أوتي كتابه بيمينه فاولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا » .

وفي المجمع في قوله تعالى : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » الآية ، قيل في معناه أقوال – إلى أن قال – الثـــالث الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء = عن أبي مسلم والجبائي وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام . قالا : هي مثل قوله : « الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة » إلا أن اناساً همّوا أن يتزوجوا منهن فنهاهم الله عن ذلك وكره ذلك لهم .

وفي الخصال عن عبد الله بن عمر وأبي هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : إذا طاب قلب المرء طاب جسده ، وإذا خبث القلب خبث الجسد .

وفي الاحتجاج عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث له مع معاوية وأصحابه وقد نالوا من علي عليه السلام : « الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات » هم والله يا معاوية أنت وأصحابك هؤلاء وشيعتك « والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات » إلى آخر الآية ، هم علي بن أبي طالب وأصحابه وشيعته .

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ – ٢٧ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلاَ تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ

أرجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم — ٢٨ .
ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم
والله يعلم ما تبدون وما تكتمون — ٢٩ . قل للمؤمنين يغضوا
من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما
يصنعون — ٣٠ . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن
فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على
جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن
أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني
أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي
الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء
ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله
جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون — ٣١ . وأنكحوا الأيامى
منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله
من فضله والله واسع عليم — ٣٢ . وليستعفف الذين لا يجدون
نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما
ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله
الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا

عَرَضَ ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ – ٣٣ . وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ آياتٍ مُبَيِّناتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ – ٣٤ .

(بيان)

أحكام وشرائع متناسبة ومناسبة لما تقدّم .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلّموا على أهلها» الخ، الانس بالشيء وإليه الالفة وسكون القلب اليه، والاستيناس طلب ذلك بفعل يؤدّي اليه كالاستيناس لدخول بيت بذكر الله والتنحنح ونحو ذلك ليتنبّه صاحب البيت أن هناك من يريد الدخول عليه فيستعدّ لذلك فربما كان في حال لا يحب أن يراه عليها أحد أو يطّلع عليها مطّلع .

ومنه يظهر أن مصلحة هذا الحكم هو الستر على عورات الناس والتحفظ على كرامة الإيمان فإذا استأنس الداخل عند إرادة الدخول على بيت غير بيته فأخبر باستيناسه صاحب البيت بدخوله ثم دخل فسلّم عليه فقد أعانه على ستر عورته ، وأعطاه الأمن من نفسه .

ويؤدّي الاستمرار على هذه السيرة الجميلة إلى استحكام الاخوّة والالفة والتعاون العام على إظهار الجميل والستر على القبيح وإليه الإشارة بقوله : « ذلكم خير لكم لعلكم تذكّرون » أي لعلكم بالاستمرار على هذه السيرة تتذكرون ما يجب عليكم رعايته وإحياؤه من سنّة الاخوّة وتألّف القلوب التي تحتها كل سعادة اجتماعية.

وقيل : إن قوله : « لعلكم تذكّرون » تعليل لمحذوف والتقدير قيل لكم كذا لعلكم تتذكرون مواعظ الله فتعملوا بموجبها ، ولا بأس به .

وقيل : إن في قوله : « حتى تستأنسوا وتسلّموا » تقديماً وتأخيراً والأصل حتى تسلّموا وتستأنسوا . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » .. الخ، أي إن علمتم بعدم وجود أحد فيها - وهو الذي يملك الإذن - فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم من قبل من يملك الإذن ، وليس المراد به أن يتطلع على البيت وينظر فيه فإن لم يرَ فيه أحداً كفَّ عن الدخول فإن السياق يشهد على أن المنع في الحقيقه عن النظر والإطّلاع على عورات الناس .

وهذه الآية تبين حكم دخول بيت الغير وليس فيه من يملك الإذن ، والآية السابقة تبين حكم الدخول وفيه من يملك الإذن ولا يمنع ، وأما دخوله وفيه من يملك الإذن ويمنع ولا يأذن فيه فيبين حكمه قوله تعالى : « وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم » .

قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم » الخ ، ظاهر السياق كون قوله : « فيها متاع لكم » صفة بعد صفة لقوله : « بيوتاً » لا جملة مستأنفة معلّلة لقوله : « ليس عليكم جناح » ، والظاهر أن المتاع بمعنى الاستمتاع .

ففيه تجويز الدخول في بيوت معدّة لأنواع الاستمتاع وهي غير مسكونة بالطبع كالخانات والحمامات والأرحية ونحوها فإن كونها موضوعة للاستمتاع إذن عام في دخولها .

وربما قيل : إن المراد بالمتاع المعنى الاسمي وهو الأثاث والأشياء الموضوعة للبيع والشرى كما في بيوت التجارة والحوانيت فإنها مأذونة في دخولها إذناً عاماً ولا يخلو من بعد لقصور اللفظ .

قوله تعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » الغضّ إطباق الجفن على الجفن ، والأبصار جمع بصر وهو العضو الناظر ، ومن هنا يظهر أن « من » في « من أبصارهم » لابتداء الغاية لا مزيدة ولا للجنس ولا للتبعيض كما قال بكل قائل ، والمعنى يأتوا بالغض آخذاً من أبصارهم .

فقوله : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم » لما كان « يغضّوا » مترتباً على

قوله : «قل» ترتّب جواب الشرط عليه دلّ ذلك على كون القول بمعنى الأمر والمعنى مرهم يغضّوا من أبصارهم والتقدير مرهم بالغض إنك إن تأمرهم به يغضوا، والآية أمر بغض الأبصار وإن شئت فقل : نهي عن النظر إلى ما لا يحل النظر اليه من الأجنبي والأجنبية لمكان الإطلاق .

وقوله : « ويحفظوا فروجهم » أي ومرهم يحفظوا فروجهم ، والفرجة والفرج الشق بين الشيئين ، وكنّى بـــه عن السوأة ، وعلى ذلك جرى استعمال القرآن المليء أدباً وخلقاً ثم كثر استعماله فيها حتى صار كالنص كما ذكره الراغب .

والمقابلة بين قوله : « يغضوا من أبصارهم » و « يحفظوا فروجهم » يعطي أن المراد بحفظ الفروج سترها عن النظر لا حفظها عن الزنا واللواطة كما قيل ، وقـد ورد في الرواية عن الصادق عليه‌السلام أن كل آية في القرآن في حفظ الفروج فهي من الزنا إلا هذه الآية فهي من النظر .

وعلى هـذا يمكن أن تتقيد أولى الجملتين بثانيتها ويكون مدلول الآية هو النهي عن النظر الى الفروج والأمر بسترها .

ثم أشار إلى وجه المصلحة في الحكم وحثّهم على المراقبة في جنبه بقوله : «ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » .

قوله تعالى : «وقل للمؤمنات يغضضن» الخ ، الكلام في قوله : «وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » نظير ما مر في قوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » فلا يجوز لهن النظر إلى ما لا يجوز النظر اليه ويجب عليهن ستر العورة عن الأجنبي والأجنبية .

وأما قوله : « ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » فالإبداء الإظهار ، والمراد بزينتهن مواضع الزينة لأن نفس ما يتزين به كالقرط والسوار لا يحرم إبداؤها فالمراد بإبداء الزينة إبداء مواضعها من البدن .

وقـد استثنى الله سبحانه منها ما ظهر ، وقد وردت الرواية أن المراد بما ظهر منها الوجه والكفان والقدمان كما سيجيء إن شاء الله .

وقوله: « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » الخمر بضمتين جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها وينسدل على صدرها ، والجيوب جمع جيب بالفتح فالسكون وهو معروف والمراد بالجيوب الصدور ، والمعنى وليلقين بأطراف مقانعهن على صدورهن ليسترنها بها .

وقوله : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن – إلى قوله – أو بني أخواتهن » البعولة هم أزواجهن ، والطوائف السبع الاخر محارمهن من جهة النسب والسبب ، وأجداد البعولة حكمهم حكم آبائهم وأبناء أبناء البعولة حكمهم حكم الأبناء .

وقوله : « أونسائهن » في الاضافة إشارة إلى أن المراد بهن المؤمنات من النساء فلا يجوز لهن التجرد لغيرهن من النساء وقد وردت به الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وقوله : « أو ما ملكت أيمانهن » إطلاقه يشمل العبيد والإماء ، وقد وردت به الرواية كما سيأتي إن شاء الله ، وهذا من موارد استعمال « ما » في اولي العقل .

وقوله : « أو التابعين غير اولي الإربة من الرجال » الإربة هي الحاجة ، والمراد به الشهوة التي تحوج إلى الازدواج ، و « من الرجال » بيان للتابعين ، والمراد بهم كما تفسره الروايات البله المولى عليهم من الرجال ولا شهوة لهم .

وقوله : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » أي جماعة الأطفال – واللام للاستغراق – الذين لم يقووا ولم يظهروا – من الظهور بمعنى الغلبة – على امور يسوء التصريح بها من النساء ، وهو – كما قيل – كناية عن البلوغ .

وقوله : « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن» ذلك بتصوت أسباب الزينة كالخلخال والعقد والقرط والسوار .

وقوله : « وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون» المراد بالتوبة – على ما يعطيه السياق – الرجوع اليه تعالى بامتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه وبالجملة اتباع سبيله .

قوله تعالى : « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم » الإنكاح

التزويج ، والأيامى جمع أيم بفتح الهمزة وكسر الياء المشددة وهو الذكر الذي لا انثى معه والانثى التي لا ذكر معها وقد يقال في المرأة أيمة ، والمراد بالصالحين الصالحون للتزويج لا الصالحون في الأعمال .

وقوله : « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » وعد جميل بالغنى وسعة الرزق وقد أكده بقوله : « والله واسع عليم » والرزق يتبع صلاحية المرزوق بمشية من الله سبحانه ، وسيوافيك إن شاء الله في تفسير قوله تعالى : « فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ كلام في معنى سعة الرزق .

قوله تعالى : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله » الاستعفاف والتعفف قريبا المعنى ، والمراد بعدم وجدان النكاح عدم القدرة على المهر والنفقة ، ومعنى الآية الأمر بالتعفف لمن لا يقدر على النكاح والتحرز عن الوقوع في الزنا حتى يغنيه الله من فضله .

قوله تعالى : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » الخ المراد بالكتاب المكاتبة ، وابتغاء المكاتبة أن يسأل العبد مولاه أن يكاتبه على إيتائه المولى ما لا على أن يعتقه ، وفي الآية أمر للموالي بإجابتهم إن علموا فيهم خيراً وهو كناية عن إحراز صلاحيتهم لذلك .

وقوله : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » إشارة إلى إيتائهم مال المكاتبة من الزكاة المفروضة فسهم من سهام الزكاة لهم ، كما قال تعالى : « وفي الرقـــاب » التوبة : ٦٠ أو إسقاط شيء من مال المكاتبة .

وفي هــــذه الآية والآيات السابقة مباحث فقهية جمة ينبغي أن يراجع فيها كتب الفقه .

قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً » الفتيات الإماء والولائد ، والبغاء الزنا وهو مفاعلة من البغي ، والتحصن والتعفف والازدواج وابتغاء عرض الحياة الدنيا طلب المال ، والمعنى ظاهر .

وإنما اشترط النهي عن الإكراه بإرادة التحصن لأن الإكراه لا يتحقق فيمن لا يريد التحصن ، ثم وعدهن المغفرة على تقدير الإكراه بقوله : « ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم » ومعناه ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » المثل الصفة ، ومن الممكن أن يكون قوله : « ولقد أنزلنا » الخ ، حالاً من فاعل قوله : « توبوا » في الآية السابقة أو استينافاً والمعنى وأقسم لقد أنزلنا اليكم آيات تبين لكم من معارف الدين ما تفلحون به ، وصفة من السابقين أخبارهم وأسرارهم يتميز بها لكم ما ينبغي أن تأخذوا به مما ينبغي لكم أن تجتنبوا ، وموعظة للمتقين منكم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » قال : الاستيناس وقع النعل والتسليم .

أقول : ورواه الصدوق في معاني الأخبار عن محمد بن الحسن مرفوعاً عن عبد الرحمن عنه عليه السلام .

وفي المجمع عن أبي أيوب الأنصاري قال : قلنا : يا رسول الله ما الاستيناس ؟ قال يتكلم الرجل بالتسبيحة والتحميدة والتكبيرة ويتنحنح على أهل البيت .

وعن سهل بن سعد قال : اطلع رجل في حجرة من حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه مدرى [1] يحك رأسه : لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينيك إنما الاستيذان من النظر .

وروي أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : أستأذن على أمي ؟ فقال : نعم . قال :

---

(١) المشط .

إنها ليس لها خادم غيري أفأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال الرجل : لا ، قال : فاستأذن عليها .

وروي أن رجلاً استأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتنحنح فقال صلى الله عليه وآله وسلم لامرأة يقال لها : روضة : قومي إلى هـذا فعلميه وقولي له : قل : السلام عليكم أأدخل ؟ فسمعها الرجل فقالها فقال : ادخل .

أقول : وروى في الدر المنثور عن جمع من أصحاب الجوامع الرواية الاولى عن أبي أيوب ، والثانية عن سهل بن سعد والرابعة عن عمرو بن سعد الثقفي .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الاستيذان في البيوت فقال: من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فقد عصى الله ولا إذن له .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم » ، قال : معناه وإن لم تجدوا فيهـا أحداً يأذن لكم فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم .

وفيه في قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم » قال الصادق عليه السلام :هي الحمامات والخانات والأرحية تدخلها بغير إذن.

وفي الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يذكر فيه مـا فرض الله على الجوارح . قال : وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرّم الله عليه ، وأن يعرض عما نهى الله عنه مما لا يحل له وهو عمله وهو من الإيمان .

فقال تبارك وتعالى : « قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » فنهاهم أن ينظروا إلى عوراتهم وأن ينظر المرء إلى فرج أخيه ، ويحفظ فرجه أن ينظر اليه ، وقال : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن » من أن تنظر إحداهن إلى فرج أختها وتحفظ فرجها من أن ينظر اليه .

وقـال : كل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا إلا هـذه الآية فهو من النظر .

أقول : وروى القمي في تفسيره ذيل الحديث عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عنه عليه‌السلام ، وروي مثله عن أبي العالية وابن زيد .

وفي الكافي بإسناده عن سعد الإسكاف عن أبي جعفر عليه‌السلام قال: استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن فنظر إليها وهي مقبلة فلما جازت نظر اليها ودخل في زقاق قد سماه ببني فلان ، وجعل ينظر خلفها ، واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشق وجهه فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على ثوبه وصدره فقال : والله لآتينّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ولاخبرنّه .

قال : فأتاه فلما رآه رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال له : ما هذا ؟ فأخبره فهبط جبرئيل بهذه الآية « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون » .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن علي بن أبي طالب مثله ، وظاهر الحديث أن المراد بالأمر بالغض في الآية النهي عن مطلق النظر إلى الأجنبية ، كما أن ظاهر بعض الروايات السابقة أنه نهي عن النظر إلى فرج الغير خاصة .

وفيه بإسناده عن مروك بن عبيد عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : قلت له : ما يحل أن يرى من المرأة إذا لم يكن محرماً ؟ قال : الوجه والكفّان والقدمان .

أقول : ورواه في الخصال عن بعض أصحابنا عنه عليه‌السلام ولفظه : الوجه والكفين والقدمين .

وفي قرب الأسناد للحميري عن علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عليه‌السلام قال : سألته عن الرجل ما يصلح له أن ينظر اليه من المرأة التي لا تحل له؟ قال : الوجه والكف وموضع السوار .

وفي الكافي بإسناده عن عبّاد بن صهيب قال : سمعت أبا عبد الله عليه‌السلام يقول : لا بأس بالنظر إلى رؤس أهل تهامة والأعراب وأهل السواد والعلوج لأنهم إذا نهوا لا ينتهون [1] .

---

(١) رعاية التذكير لاعتبار الأهل والقوم في مرجع الضمير ، وكان الظاهر أن يقال : لأنهن اذا نهين لا ينتهين .

قال : والمجنونة والمغلوبة على عقلها ، ولا بأس بالنظر إلى شعرها وجسدها ما لم يتعمد ذلك .

أقول : كأنه عليه‌السلام يريد بقوله : ما لم يتعمد ذلك ، الريبة .

وفي الخصال وقـال النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأمير المؤمنين عليه‌السلام : يا علي أول نظرة لك والثانية عليك لا لك .

أقول : وروى مثله في الدر المنثور عن عدة من أصحاب الجوامع عن بُريدة عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ولفظه : قـال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لعلي : لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الاولى وليست لك الآخرة .

وفي جوامع الجامع عن أم سلمة قالت : كنت عنـد النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وعنده ميمونة فأقبل ابن ام مكتوم وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب فقال : احتجبا ، فقلنا : يا رسول الله أليس أعمى لا يبصرنا ؟ فقال : أفعمياوان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟

أقول: ورواه في الدر المنثور عن أبي داود والترمذي والنسائي والبيهقي عنها.

وفي الفقيه وروى حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه‌السلام قـال : لا ينبغي للمرأة أن تنكشف بين يدي اليهودية والنصرانية فإنهن يصفن ذلك لأزواجهن .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أو ما ملكت أيمانهن » وقيل: معناه العبيد والإماء وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه‌السلام .

وفي الكافي بإسناده عن عبد الرحمن بن أبي عبد الله قال : سألته عن غير أولي الإربة من الرجال . قال : الأحمق المولى عليه الذي لا يأتي النساء .

وفيه بإسناده عن محمـد بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : من ترك التزويج مخافة العيلة فقد أساء ظنه بالله عز وجل إن الله يقول « إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .

أقول : وفي المعاني السابقة روايات كثيرة جداً عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من أرادها فليراجع كتب الحديث .

وفي الفقيه روى العلاء عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول الله عز

وجل : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً » قال : الخير أن يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويكون بيده عمل يكتسب به أو يكون له حرفة .

أقول : وفي معناه روايات اخر .

وفي الكافي بإسناده عن العلاء بن فضيل عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال في قوله عز وجل : « فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » قال : تضع عنه من نجومه التي لم تكن تريد أن تنقصه ، ولا تزيد فوق ما في نفسك . فقلت: كم ؟ فقال : وضع أبو جعفر عليه‌السلام عن مملوك ألفاً من ستة آلاف .

أقول : وروي في مجمع البيان وكذا في الدر المنثور عن علي عليه‌السلام ربع المال ، والمستفاد من ظواهر الأخبار عدم تعين مقدار معين ذي نسبة .

وقد تقدمت في ذيل قوله:« وفي الرقاب » التوبة: ٦٠ الجزء التاسع من الكتاب رواية العياشي أن المكاتب يؤتى من سهم الرقاب من الزكاة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً » ، قال : كانت العرب وقريش يشترون الإماء ويضعون عليهن الضريبة الثقيلة ويقولون : اذهبن وازنين واكتسبن فنهاهم الله عن ذلك فقال: « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء – إلى قوله – غفور رحيم »أي لا يؤاخذهن الله تعالى بذلك إذا اكرهن عليه.

وفي المجمع في قوله تعالى : « لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » قيل : إن عبد الله بن أبي كانت له ست جوار يكرههن على الكسب بالزنا ، فلما نزل تحريم الزنا أتين رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فشكون اليه فنزلت الآية .

أقول : أما أنه كان له من الجواري من يكرههن على الزنا فقد وردت فيه روايات رواها في الدر المنثور كما روى هذه الرواية، وأما كون ذلك بعد نزول تحريم الزنا فيضعفه أن الزنا لم يحرم في المدينة بل في مكة قبل الهجرة بل كانت حرمته من ضروريات الإسلام منذ ظهرت الدعوة الحقة ، وقد تقدم في تفسير سورة الأنعام أن حرمة الفواحش ومنها الزنا من الأحكام العامة التي لا تختص بشريعة دون شريعة .

* * *

أَللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ – ٣٥. فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ – ٣٦. رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَارُ – ٣٧. لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ – ٣٨. وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ – ٣٩. أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ ٱللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ – ٤٠. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلوٰتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ – ٤١. وَلِلَّهِ

مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ـ ٤٢ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاٰلِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمٰاءِ مِنْ جِبٰالٍ فِيهٰا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشٰاءُ يَكٰادُ سَنٰا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصٰارِ ـ ٤٣ . يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهٰارَ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصٰارِ ـ ٤٤ . وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دٰابَّةٍ مِنْ مٰاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اللهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ـ ٤٥ . لَقَدْ أَنْزَلْنٰا آيٰاتٍ مُبَيِّنٰاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ـ ٤٦ .

(بيان)

تتضمن الآيات مقايسة بين المؤمنين بحقيقة الإيمان والكفار ، تميّز المؤمنين منهم بأن المؤمنين مهديّون بأعمالهم الصالحة إلى نور من ربهم يفيدهم معرفة الله سبحانه ويسلك بهم إلى أحسن الجزاء والفضل من الله تعالى يوم ينكشف عن قلوبهم وأبصارهم الغطاء ، والكفار لا تسلك بهم أعمالهم إلا إلى سراب لا حقيقة له ، وهم في ظلمات بعضها فوق بعض ولم يجعل الله لهم نوراً فما لهم من نور .

وقد بيّن سبحانه هذه الحقيقة بأن له تعالى نوراً عاماً تستنير به السماوات والأرض فتظهر به في الوجود بعد ما لم تكن ظاهرة فيه ، فمن البيّن أن ظهور شيء بشيء يستدعي كون المظهر ظاهراً بنفسه والظاهر بذاته المظهر لغيره هو النور فهو تعالى نور يظهر السماوات والأرض بإشراقه عليها كما أن الأنوار الحسّية تظهر الأجسام

الكثيفة للحس بإشراقها عليها غير أن ظهور الأشياء بالنور الإلهي عين وجودها وظهور الأجسام الكثيفة بالأنوار الحسّية غير أصل وجودها .

ونوراً خاصاً يستنير بـه المؤمنون ويهتدون اليه بأعمالهم الصالحة وهو نور المعرفة الذي سيستنير بـه قلوبهم وأبصارهم يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار فيهتدون به إلى سعادتهم الخـالدة فيشاهدون فيه شهود عيان ما كان في غيب عنهم في الدنيا ، ومثّل تعالى هـذا النور بمصباح في زجاجة في مشكاة يشتعل من زيت في نهاية الصفاء فتتلألأ الزجاجة كأنها كوكب دريّ فتزيد نوراً على نور ، والمصباح موضوع في بيوت العبادة التي يسبّح الله فيها رجال من المؤمنين لا تلهيهم عن ذكر ربهم وعبادته تجـارة ولا بيع .

فهذه صفة ما أكرم الله به المؤمنين من نور معرفته المتعقّب للسعادة الخـالدة ، وحرّمه على الكافرين وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، فخصّ من اشتغل بربه وأعرض عن عرض الحياة الدنيا بنور من عنده ، والله يفعل ما يشاء له الملك وإليه المصير يحكم بما أراد ينزّل الودق والبرد من سحاب واحد ، ويقلّب الليل والنهـار ، ويجعل من الحيوان من يمشي على بطنه ومن يمشي على رجلين ومن يمشي على أربع وقـد خلق الكل من ماء .

والآيات غير فاقدة للاتصال بما قبلها لمـا أن بيان الأحكام والشرائع فيما تقدم انتهى إلى مثل قوله : «ولقد أنزلنا إليكم آيات مبيّنات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » والبيان إظهار لحقائق المعارف فهو تنوير إلهي .

على أن الآيات قرآن وقد سمى سبحانه القرآن في مواضع من كلامه نوراً كقوله : « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » النساء : ١٧٤ .

قوله تعالى : « الله نور السماوات والأرض » إلى آخر الآية. المشكاة على ما ذكره الراغب وغيره : كوّة غير نافذة وهي ما يتخذ في جدار البيت من الكوّ لوضع بعض الأثاث كالمصباح وغيره عليه وهو غير الفانوس .

والدريّ : من الكواكب العظيم الكثير النور ، وهو معدود في السماء ، والإيقاد: الإشعال ، والزيت : الدهن المتخذ من الزيتون .

وقوله : « الله نور السماوات والأرض » النور معروف وهو الذي يظهر به الأجسام الكثيفة لأبصارنا فالأشياء ظاهرة به وهو ظاهر مكشوف لنا بنفس ذاته فهو الظاهر بذاته المظهر لغيره من المحسوسات للبصر . هذا أول ما وضع عليه لفظ النور ثم عمّم لكل ما ينكشف به شيء من المحسوسات على نحو الاستعارة أو الحقيقة الثانية فعدّ كل من الحواس نوراً أو ذا نور يظهر به محسوساته كالسمع والشم والذوق واللمس. ثم عمّم لغير المحسوس فعدّ العقل نوراً يظهر به المعقولات كل ذلك بتحليل معنى النور المبصر إلى الظاهر بذاته المظهر لغيره .

وإذ كان وجود الشيء هو الذي يظهر به نفسه لغيره من الأشياء كان مصداقاً تاماً للنور ، ثم لما كانت الأشياء الممكنة الوجود إنما هي موجودة بإيجاد الله تعالى كان هو المصداق الأتم للنور فهناك وجود ونور يتصف به الأشياء وهو وجودها ونورها المستعار المأخوذ منه تعالى ووجود ونور قائم بذاته يوجد ويستنير به الأشياء .

فهو سبحانه نور يظهر به السماوات والأرض، وهذا هو المراد بقوله : « الله نور السماوات والأرض» حيث أضيف النور إلى السماوات والأرض ثم حمل على اسم الجلالة، وعلى هذا ينبغي أن يحمل قول من قال : إن المعنى الله منوّر السماوات والأرض ، وعمدة الغرض منه أن ليس المراد بالنور النور المستعار القائم بهما وهو الوجود الذي يحمل عليها تعالى الله عن ذلك وتقدس .

ومن ذلك يستفاد أنه تعالى غير مجهول لشيء من الاشياء إذ ظهور كل شيء لنفسه أو لغيره إنما هو عن إظهاره تعالى فهو الظاهر بذاته له قبله ، وإلى هذه الحقيقة يشير قوله تعالى بعد آيتين : « ألم ترَ أن الله يسبّح له من في السماوات والأرض والطير صافّات كل قد علم صلاته وتسبيحه » إذ لا معنى للتسبيح والعلم به وبالصلاة مع الجهل بمن يصلّون له ويسبّحونه فهو نظير قوله : « وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٤ ، وسيوافيك البحث عنه إن شاء الله .

فقد تحصّل أن المراد بالنور في قوله : « الله نور السماوات والأرض » نوره تعالى من حيث يشرق منه النور العام الذي يستنير به كل شيء وهو مساو لوجود كل شيء وظهوره في نفسه ولغيره وهي الرحمة العامة .

وقوله : « مثل نوره » يصف تعالى نوره ، وإضافة النور إلى الضمير الراجع اليه تعالى – وظاهره الإضافة اللامية – دليل على أن المراد ليس هو وصف النور الذي هو الله بل النور المستعار الذي يفيضه ، وليس هو النور العام المستعار الذي يظهر به كل شيء وهو الوجود الذي يستفيضه منه الأشياء وتتصف به ، والدليل عليه قوله بعد تتميم المثل : « يهدي الله لنوره من يشاء » إذ لو كان هو النور العام لم يختص به شيء دون شيء بل هو نوره الخاص بالمؤمنين بحقيقة الإيمان على ما يفيده الكلام .

وقد نسب تعالى في سائر كلامه إلى نفسه نوراً كما في قوله : « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره » الصف : ٨ ، وقوله : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ وقوله : « يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به » الحديد : ٢٨ ، وقوله : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه » الزمر : ٢٢ ، وهذا هو النور الذي يجعله الله لعباده المؤمنين يستضيئون به في طريقهم إلى ربهم وهو نور الإيمان والمعرفة .

وليس المراد به القرآن كما قاله بعضهم فإن الآية تصف حال عامة المؤمنين قبل نزول القرآن وبعده . على أن هذا النور وصف لهم يتصفون به كما يشير اليه قوله : « لهم أجرهم ونورهم » الحديد : ١٩ وقوله : « يقولون ربنا أتمم لنا نورنا » التحريم : ٨ ، والقرآن ليس وصفاً لهم وإن لوحظ باعتبار ما يكشف عنه من المعارف رجع إلى ما قلناه .

وقوله : « كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة » المشبه به مجموع ما ذكر من قوله مشكاة فيها مصباح المصباح « الخ » لا مجرد المشكاة وإلا فسد المعنى ، وهذا كثير في تمثيلات القرآن .

وقوله : « الزجاجة كأنها كوكب درّي » تشبيه الزجاجة بالكوكب الدرّي من جهة ازدياد لمعان نور المصباح وشروقه بتركيب الزجاجة على المصباح فتزيد الشعلة بذلك سكوناً من غير اضطراب بتموج الأهوية وضرب الرياح فهي كالكوكب الدري في تلألؤ نورها وثبات شروقها .

وقوله : « يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار » خبر بعد خبر للمصباح أي المصباح يشتعل آخذاً اشتعاله من شجرة مباركة زيتونة أي إنه يشتعل من دهن زيت مأخوذ منها ، والمراد بكون الشجرة لا شرقية ولا غربية أنها ليست نابتة في الجانب الشرقي ولا في الجانب الغربي حتى تقع الشمس عليها في أحد طرفي النهار ويفيء الظل عليها في الطرف الآخر فلا تنضج ثمرتها فلا يصفو الدهن المأخوذ منها فلا تجود الإضاءة بل هي ضاحية تأخذ من الشمس حظها طول النهار فيجود دهنها لكمال نضج ثمرتها .

والدليل على هذا المعنى قوله : « يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار » فإن ظاهر السياق أن المراد به صفاء الدهن وكمال استعداده للاشتعال وأن ذلك متفرع على الوصفين : لا شرقية ولا غربية .

وأما قول بعضهم : إن المراد بقوله : « لا شرقية ولا غربية » أنها ليست من شجر الدنيا حتى تنبت إما في شرق أو في غرب ، وكذا قول آخرين : إن المراد أنها ليست من شجر شرق المعمورة ولا من شجر غربها بل من شجر الشام الواقع بين الشرق والغرب وزيته أفضل الزيت فغير مفهوم من السياق .

وقوله : « نور على نور » خبر لمبتدأ محذوف وهو ضمير راجع إلى نور الزجاجة المفهوم من السياق ، والمعنى نور الزجاجة المذكور نور عظيم على نور كذلك أي في كمال التلمع .

والمراد من كون النور على النور قيل : هو تضاعف النور لا تعدّده فليس المراد به أنه نور معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ، ولا أنه مجموع نورين اثنين فقط بل أنه نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه وهذا التعبير شائع في الكلام .

وهذا معنى لا يخلو من جودة وإن كان إرادة التعدّد أيضاً لا تخلو من لطف ودقة فإن للنور الشارق من المصباح نسبة إليه بالأصالة والحقيقة ونسبة إلى الزجاجة التي عليه بالاستعارة والمجاز ، ويتغاير النور بتغاير النسبتين ويتعدّد بتعدّدهما وإن لم يكن بحسب الحقيقة إلا للمصباح والزجاجة صفر الكف منه فللزجاجة بالنظر إلى تعدّد النسب نور غير نور المصباح وهو قائم به ومستمد منه .

وهذا الاعتبار جار بعينه في الممثل له فإن نور الإيمان والمعرفة نور مستعار مشرق على قلوب المؤمنين مقتبس من نوره تعالى قائم به مستمد منه .

فقد تحصل أن الممثل له هو نور الله المشرق على قلوب المؤمنين والمثل هو المشبّه به النور المشرق من زجاجة على مصباح موقـد من زيت جيّد صاف وهو موضوع في مشكاة فإن نور المصباح المشرق من الزجاجة والمشكاة تجمعه وتعكسه على المستنيرين به يشرق عليهم في نهاية القوة والجودة .

فأخذ المشكاة للدلالة على اجتماع النور في بطن المشكاة وانعكاسه إلى جو البيت ، واعتبار كون الدهن من شجرة زيتونة لا شرقية ولا غربية للدلالة على صفاء الدهن وجودته المؤثر فيصفاء النور المشرق عن اشتعاله وجودة الضياء على ما يدل عليه كون زيته يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، واعتبار كون النور على النور للدلالة على تضاعف النور أو كون الزجاجة مستمدة من نور المصباح في إنارتها .

وقوله: « يهدي الله لنوره من يشاء » استئناف يعلل به اختصاص المؤمنين بنور الإيمان والمعرفة وحرمان غيرهم ، فمن المعلوم من السياق أن المراد بقوله : «من يشاء» القوم الذين ذكرهم بقوله بعد : « رجال لا تلهيهم تجـارة ولا بيع عن ذكر الله » الخ ، فالمراد بمن يشاء المؤمنون بوصف كمال إيمانهم .

والمعنى: أن الله إنما هدى المتلبسين بكمال الإيمان إلى نوره دون المتلبسين بالكفر – الذين سيذكرهم بعد – لمجرّد مشيّته ، وليس المعنى أن الله يهدي بعض الأفراد إلى نوره دون بعض بمشيته ذلك حتى يحتاج في تتميمه إلى القول بأنه إنمـا يشاء الهداية إذا استعد المحل إلى الهداية بحسن السريرة والسيرة ، وذلك مما يختص به أهل الإيمان دون أهل الكفر فافهمه .

والدليل على ذلك ما سيأتي من قوله: « ولله ملك السماوات والأرض » إلى آخر الآيات بالبيان الآتي إن شاء الله .

وقوله : « ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » إشارة إلى أن المثل المضروب تحته طور من العلم ، وإنمــا اختير المثل لكونه أسهل الطرق لتبيين الحقائق والدقائق ويشترك فيه العالم والعامي فيأخذ منه كل ما قسم له ، قــال تعالى :

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » العنكبوت : ٤٣ .

قوله تعالى : « في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيهــا اسمه » الإذن في الشيء هو إعلام ارتفاع المانع عن فعله ، والمراد بالرفع رفع القدر والمنزلة وهو التعظيم ، وإذ كانت العظمة والعلوّ لله تعالى لا يشاركه في ذلك غيره إلا أن ينتسب اليه ، وبمقدار ما ينتسب اليه فالإذن منه تعالى في أن ترفع هذه البيوت إنما هو لانتساب ما منها اليه .

وبذلك يظهر أن السبب لرفعها هو ما عطف عليه من ذكر اسمه فيها ، والسياق يدل على الاستمرار أو التهيوء له فيعود المعنى إلى مثل قولنا : « أن يذكر فيها اسمه فيرتفع قدرها بذلك » .

وقوله : « في بيوت » متعلق بقوله في الآية السابقة : « كمشكاة » أو قوله : « يهدي الله » الخ ، والمآل واحد ، ومن المتيقن من هــذه البيوت المساجد فإنها معدة لذكر اسمه فيها محضة لذلك ، وقد قال تعالى : « ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » الحج : ٤٠ .

قوله تعالى : « يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال رجال » إلى آخر الآية . تسبيحه تعالى تنزيهه عن كل ما لا يليق بساحة قدسه ، والغدو جمع غداة وهو الصبح والآصال جمع أصيل وهو العصر ، والإلهاء صرف الإنسان عمــا يعنيه ويهمه ، والتجارة على ما قاله الراغب : التصرف في رأس المال طلباً للربح . قــال : وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذا اللفظ . والبيع على ما قال : إعطاء المثمن وأخــذ الثمن ، وقلب الشيء على ما ذكره صرف الشيء من وجــه إلى وجه ، والتقليب مبالغة فيه والتقلب قبوله فتقلب القلوب والأبصار تحوّل منها من وجه من الإدراك إلى وجه آخر .

وقوله: « يسبح له فيها بالغدوّ والآصال » صفة لبيوت أو استئناف لبيان قوله: « ويذكر فيها اسمه » ، وكون التسبيح بالغدو والآصال كناية عن استمرارهم فيه لا أن التسبيح مقصور في الوقتين لا يسبّح له في غيرهما .

والاكتفاء بالتسبيح من غير ذكر التحميد معه لأنه تعــالى معلوم بجميع صفاته الكمالية لا سترة عليه إذ المفروض أنه نور والنور هو الظاهر بذاته المظهر لغيره وإنمــا يحتــاج خلوص المعرفة إلى نفي النقائص عنه وتنزيهه عما لا يليق به فإذا تمّ التسبيح لم

يبق معه غيره وتمّت المعرفة ثم إذا تمت المعرفة وقع الثناء والحمد وبالجملة التوصيف بصفات الكمال موقعه بعد حصول المعرفة كما قال تعالى : « سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين» الصافات: ١٦٠ ، فنزّهه عما يصفونه به إلا ما وصفه به من أخلصهم لنفسه من عباده ، وقد تقدم في تفسير سورة الحمد كلام في معنى حمده تعالى .

وبيبان آخر حمده تعالى وهو ثناؤه بصفة الكمال مساوق لحصول نور المعرفة وتسبيحه وهو التنزيه بنفي ما لا يليق به عنه مقدّمة لحصوله ، والآية في مقام بيان خصالهم التي تستدعي هدايتهم إلى نوره فلا جرم اقتصر فيها بذكر ما هي المقدمة وهو التسبيح ، فافهم ذلك .

وقوله: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع » التجارة إذا قوبلت بالبيع كان المفهوم منها بحسب العرف الاستمرار في الاكتساب بالبيع والشراء والبيع هو العمل الاكتسابي الدفعي فالفرق بينهما هو الفرق بين الدفعة والاستمرار فمعنى نفي البيع بعد نفي التجارة مع كونه منفياً بنفيها الدلالة على أنهم لا يُلهون عن ربهم في مكاسبهم دائماً ولا في وقت من الأوقات ، وبعبارة اخرى لا تنسيهم ربهم تجارة مستمرة ولا بيع ما من البيوع التي يوقعونها مدة تجارتهم .

وقيل : الوجه في نفي البيع بعد نفي إلهاء التجارة أن الربح في البيع ناجز بالفعل بخلاف التجارة التي هي الحرفة ، فعدم إلهاء التجارة لا يستلزم عدم إلهاء البيع الرابح بالفعل ، ولذلك نفى البيع ثانياً بعد نفي إلهاء التجارة ولذلك كرّرت لفظة « لا » لتذكير النفي وتأكيده ، وهو وجه حسن .

وقوله : « عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » الإقام هو الإقامة بحذف التاء تخفيفاً .

والمراد بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة الإتيان بجميع الأعمال الصالحة التي كلّف الله تعالى عباده بإتيانها في حياتهم الدنيا ، وإقامة الصلاة ممثلة لإتيان ما للعبد من وظائف العبودية مع الله سبحانه ، وإيتاء الزكاة ممثل لوظائفه مع الخلق وذلك لكون كل منها ركناً في بابه .

والمقابلة بين ذكر الله وبين إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وهما – وخاصة الصلاة –

من ذكر الله يعطي أن يكون المراد بذكر الله الذكر القلبي الذي يقابل النسيان والغفلة وهو ذكر علمي كما أن أمثال الصلاة والزكاة ذكر عملي .

فالمقابلة المذكورة تعطي أن المراد بقوله : « عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة » أنهم لا يشتغلون بشيء عن ذكرهم المستمر بقلوبهم لربهم وذكرهم الموقت بأعمالهم من الصلاة والزكاة ، وعند ذلك يظهر حسن التقابل بين التجارة والبيع وبين ذكر الله وإقام الصلاة الخ ، لرجوع المعنى إلى أنهم لا يلهيهم مُلهٍ مستمر ولا موقت عن الذكر المستمر والموقت ، فافهم ذلك .

وقوله : « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » هـذا هو يوم القيامة ، والمراد بالقلوب والأبصار ما يعمّ قلوب المؤمنين والكافرين وأبصارهم لكون القلوب والأبصار جمعاً محلّى باللام وهو يفيد العموم .

وأما تقلّب القلوب والأبصار فالآيات الواصفة لشأن يوم القيامة تدل على أنه بظهور حقيقة الأمر وانكشاف الغطاء كما قال تعالى : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ ، وقال : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » الزمر : ٤٧ ، إلى غير ذلك من الآيات .

فتنصرف القلوب والأبصار يومئذ عن المشاهدة والرؤية الدنيوية الشاغلة عن الله الساترة للحق والحقيقة إلى سنخ آخر من المشاهدة والرؤية وهو الرؤية بنور الايمان والمعرفة فيتبصر المؤمن بنور ربه وهو نور الإيمان والمعرفة فينظر إلى كرامة الله ، ويعمى الكافر ولا يجد إلا ما يسوؤه قال تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربهـا » الزمر : ٦٩ وقال : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » الحديد : ١٢ ، وقال : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » الأسراء : ٧٢ ، وقال : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » القيامة : ٢٣ وقال : « كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ .

وقد تبين بما مر :

أولاً : وجه اختصاص هذه الصفة أعني تقلب القلوب والأبصار من بين أوصاف يوم القيامة بالذكر وذلك أن الكلام مسوق لبيان ما يتوسل به إلى هدايته تعالى إلى

نوره وهو نور الإيمان والمعرفة الذي يستضاء به يوم القيامة ويبصّر به .

وثانياً : أن المراد بالقلوب والأبصار النفوس وبصائرها .

وثالثاً : أن توصيف اليوم بقوله : « تتقلب فيه القلوب والأبصار » لبيان سبب الخوف فهم إنما يخافون اليوم لما فيه من تقلب القلوب والأبصار ، وإنما يخافون هذا التقلب لما في أحد شقيه من الحرمان من نور الله والنظر إلى كرامته وهو الشقاء الدائم والعذاب الخالد وفي الحقيقة يخافون أنفسهم .

قوله تعالى : « ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب » الظاهر أن لام « ليجزيهم » للغاية ، والذي ذكره الله في خلال الكلام هو أعمالهم الصالحة والأجر الجميل على كل صالح مما ينص عليه كلامه تعالى فقوله : إنه يجزيهم أحسن ما عملوا معناه أنه يجزيهم بإزاء عملهم في كل باب جزاء أحسن عمل في ذلك الباب ، ومرجع ذلك إلى أنه تعالى يزكي أعمالهم فلا يناقش فيها بالمؤاخذة في جهات توجب نقصها وانحطاط قدرها فيعد الحسن منها أحسن .

ويؤيد هذا المعنى قوله في ذيل الآية : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » فإن ظاهره عدم المداقة في حساب الحسنات بالإغماض عن جهات نقصها فيلحق الحسن بالأحسن .

وقوله : « ويزيدهم من فضله » الفضل العطاء ، وهذا نص في أنه تعالى يعطيهم من فضله ما ليس بإزاء أعمالهم الصالحة ، وأوضح منه قوله تعالى في موضع آخر : « لهم ما يشاؤن فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ ، حيث إن ظاهره أن هذا المزيد الموعود أمر وراء ما تتعلق به مشيتهم .

وقد دل كلامه سبحانه أن أجرهم أن لهم ما يشاؤن قال تعالى : « أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤن عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » الزمر : ٣٤ ، وقال : « أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً لهم فيها ما يشاؤن خالدين » الفرقان : ١٦ ، وقال : « لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين » : النحل : ٣١ .

فهذا المزيد الذي هو وراء جزاء الأعمال أمر أعلى وأعظم من أن تتعلق به مشية الإنسان أو يوصل اليه سعيه ، وهـذا أعجب ما يعده القرآن المؤمنين ويبشّرهم به فأجد التدبر فيه .

وقوله : « والله يرزق من يشاء بغير حساب » استئناف مآله تعليل الجملتين السابقتين بالمشية نظير قوله فيما تقدم : « يهدي الله لنوره من يشاء » على ما مر بيانه .

ومحصله أنهم عملوا صالحاً وكان لهمّ من الأجر ما يعادل عملهم كما هو ظاهر قوله : « وتوفّى كلُّ نفس ما عملت » النحل : ١١١ ، وما في معناه من الآيات لكنه تعالى يجزيهم بكل عمل من أعمالهم جزاء أحسن عمل يؤتى به في بابه من غير أن يداق في الحساب فهذه موهبة ثم يرزقهم أمراً هو أعلى وأرفع من أن تتعلق به مشيتهم وهذه أيضاً موهبة ورزق بغير حساب ، والرزق من الله موهبة محضـة من غير أن يملك المرزوقون منه شيئاً أو يستحقوه عليه تعالى فله تعالى أن يخص منه ما يشاء لمن يشاء .

غير أنه تعالى وعدهم الرزق وأقسم على إنجازه في قوله : « فورب السماء والأرض إنه لحق » الذاريات : ٢٣ ، فملكهم الاستحقاق لأصله وهو الذي يجزيهم به على قدر أعمالهم وأما الزائد عليه فلم يملكهم ذلك فله أن يختص به من يشاء فلا يعلل ذلك إلا بمشية ، وللكلام تتمة ستوافيك إن شاء الله في بحث مستقل .

قوله تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء » إلى آخر الآية . السراب هو مـا يلمع في المفازة كالماء ولا حقيقة له ، والقيع والقاع هو المستوي من الأرض ومفرداهما القيعة والقاعة كالتينة والتمرة ، والظمآن هو العطشان.

لما ذكر سبحانه المؤمنين ووصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمة لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع ، وأن الله الذي هو نور السماوات والأرض يهديهم بذلك إلى نوره فيكرمهم بنور معرفتـه قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنها لا حقيقة لها كسراب بقيعة فلا غاية لها تنتهي اليها ، وتارة بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها وهي حاجزة عن النور ، وهذه الآية هي التي تتضمن الوصف الأول.

فقوله : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » شبّه أعمالهم - وهي التي يأتون بها من قرابين وأذكار وغيرهمـا من

عباداتهم يتقربون بها إلى آلهتهم – بسراب بقيعة يحسبه الإنسان ماء ولا حقيقة له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش وغير ذلك .

وإنما قيل: يحسبه الظمآن ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء لأن المطلوب بيان سيره اليه ولا يسير اليه إلا الظمآن يدفعه اليه ما به من ظماء ، ولذلك رتب عليه قوله : « حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » كأنه قيل : كسراب بقيعة يتخيله الظمآن ماء فيسير اليه ويقبل نحوه ليرتوي ويرفع عطشه بـه ، ولا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

والتعبير بقوله : « جاءه » دون أن يقال : بلغه أو وصل اليه أو انتهى اليه ونحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه وينتظره انتظاراً وهو الله سبحانه، ولذلك أردفه بقوله: « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحوه فطرتهم وجبلتهم وهو السعادة التي يريدها كل إنسان بفطرته وجبلته لكن أعمالهم لا توصلهم اليه ، ولا أن الآلهة التي يبتغون بأعمالهم جزاء حسناً منهم لهم حقيقة بل الذي ينتهي اليه أعمالهم ويحيط هو بها ويجزيهم هو الله سبحانه فيوفيهم حسابهم ، وتوفية الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال وإيصال ما يستحقه صاحب الأعمال .

ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب ، وتشبيههم بالظمآن الذي يريد الماء وعنده عذب الماء لكنه يعرض عنه ولا يصغي إلى مولاه الذي ينصحه ويدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير اليه ويقبل نحوه ، وتشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الآجال وعند ذلك تمام الأعمال بالظمآن السائر إلى السراب إذا جاءه وعنده مولاه الذي كان ينصحه ويدعوه إلى شرب الماء .

فهؤلاء قوم ألهوا عن ذكر ربهم والأعمال الصالحة الهادية إلى نوره وفيه سعادتهم وحسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهة الذين يدعونهم ، والأعمال المقربة اليهم وفيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرابية واستوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بهـا مدة أعمارهم حتى حلت آجالهم وشارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيئاً مما يؤملونه من أعمالهم ولا أثراً من ألوهية آلهتهم فوفاهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

وقوله : « والله سريع الحساب » إنما هو لاحاطة علمه بالقليل والكثير والحقير والخطير والدقيق والجليل والمتقدم والمتأخر على حد سواء .

واعلم أن الآية وإن كان ظاهرها بيان حال الكفار من أهل الملل وخاصة المشركين من الوثنيين لكن البيان جار في غيرهم من منكري الصانع فإن الإنسان كائناً من كان يرى لنفسه سعادة في الحياة ولا يرتاب أن الوسيلة إلى نيلها أعماله التي يأتي بها فإن كان ممن يقول بالصانع ويراه المؤثر في سعادته بوجه من الوجوه توسل بأعماله إلى تحصيل رضاه والفوز بالسعادة التي يقدرها له ، وإن كان ممن ينكره وينهي التأثير إلى غيره توسل بأعماله إلى توجيه ما يقول به من المؤثر كالدهر والطبيعة والمادة نحو سعادة حياته الدنيا التي لا يقول بما وراءها .

فهؤلاء يرون المؤثر الذي بيده سعادة حياتهم غيره تعالى ولا مؤثر غيره ويرون مساعيهم الدنيوية موصلة لهم إلى سعادتهم وليست إلا سراباً لا حقيقة له ولا يزالون يسعون حتى إذا تمّ ما قدّر لهم من الأعمال بحلول ما سمّي لهم من الآجال لم يجدوا عندها شيئاً وعاينوا أن ما كانوا يتمنون منها لم يكن إلا طائف خيال أو حلم نائم ، وعند ذلك يوفّيهم الله حسابهم والله سريع الحساب .

قوله تعالى : « أو كظلمات في بحر لجّي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » تشبيه ثان لأعمالهم يظهر به أنها حجب متراكمة على قلوبهم تحجبهم عن نور المعرفة ، وقد تكرر في كلامه تعالى أنهم في الظلمات كقوله : « والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » البقرة : ٢٥٧ ، وقوله : « كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام : ١٢٢ ، وقوله : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » المطففين : ١٥ .

وقوله : « أو كظلمات في بحر لجيّ » معطوف على « سراب » في الآية السابقة ، والبحر اللجّي هو البحر المتردّد أمواجه منسوب إلى لجّة البحر وهي تردّد أمواجه ، والمعنى : أعمالهم كظلمات كائنة في بحر لجيّ .

وقوله : « يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب » صفة البحر جيء بها لتقرير الظلمات المفروضة فيه فصفته أنه يغشاه ويحيط به موج كائن من فوقه موج آخر

كائن من فوقه سحاب يحجبنه جميعاً من الاستضاءة بأضواء الشمس والقمر والنجوم .

وقوله : « ظلمات بعضها فوق بعض » تقرير لبيان أن المراد بالظلمات المفروضة الظلمات المتراكمة بعضها على بعض دون المتفرقة ، وقد أكد ذلك بقوله : « إذا أخرج يده لم يكد يراها » فإن أقرب ما يشاهده الإنسان منه هو نفسه وهو أقدر على رؤية يده منه على سائر أعضائه لأنه يقرّبها تجاه باصرته كيفما أراد فإذا أخرج يده ولم يكد يراها كانت الظلمة بالغة .

فهؤلاء وهم سائرون إلى الله وصائرون اليه من جهة أعمالهم كراكب بحر لجيّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب في ظلمات متراكمة كأشد ما يكون ولا نور هناك يستضيء به فيهتدي إلى ساحل النجاة .

وقوله : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » نفي للنور عنهم بأن الله لم يجعله لهم ، كيف لا ؟ وجاعل النور هو الله الذي هو نور كل شيء ، فإذا لم يجعل لشيء نوراً لم يكن له نور إذ لا جاعل غيره تعالى .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات » إلى آخر الآية ، لما ذكر سبحانه أنه نور تستنير به السماوات والأرض وأنه يختص بمزيد نوره المؤمنين من عباده والذين كفروا لا نصيب لهم من ذلك شرع يحتج على ذلك بما في هذه الآية والآيات الأربع التالية لها .

فكونه تعالى نور السماوات والأرض يدلّ عليه أن ما في السماوات والأرض موجود بوجود ليس من عنده ولا من عند شيء مما فيها لكونه مثله في الفاقة ، فوجود ما فيها من موجود من الله الذي ينتهي اليه الحاجات .

فوجود كل شيء مما فيها كما يظهر به نفس الوجود يدل على من يظهره بما أفاض عليه من الوجود فهو نور يستنير به الشيء ويدل على منوّره بما أشرق عليه من النور وأن هناك نوراً يستنير به كل شيء فكل شيء مما فيها يدل على أن وراءه شيئاً منزّهاً من الظلمة التي غشيته ، والفاقة التي لزمته ، والنقص الذي لا ينفك عنه ، وهذا هو تسبيح ما في السماوات والأرض له سبحانه ، ولازمه نفي الاستقلال عن كل من سواه وسلب أي إله ورب يدبر الأمر دونه تعالى .

وإلى ذلك يشير قوله: « ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه » وبه يحتج تعالى على كونه نور السماوات والأرض لأن النور هو ما يظهر به الشيء المستنير ثم يدل بظهوره على مظهره ، وهو تعالى يظهر ويوجد بإظهاره وإيجاده الأشياء ثم يدل على ظهوره ووجوده .

وتزيد الآية بالإشارة إلى لطائف يكمل بها البيان :

منها : اختصاصها من في السماوات والأرض والطير صافات وهم العقلاء وبعض ذوات الروح بالذكر مع عموم التسبيح لغيرهم لقوله: « وإن من شيء إلا يسبّح بحمده».

ولعلّ ذلك من باب اختيار أمور من أعاجيب الخلقة للذكر فإن ظهور الموجود العاقـل الذي يدل عليه لفظ « من في السماوات والأرض » من عجيب أمر الخلقة الذي يدهش لبّ ذي اللب ، كما أن صفيف الطير الصافـّات في الجو من أعجب ما يرى من أعمال الحيوان ذي الشعور وأبدعه .

ويظهر من بعضهم أن المراد بقوله : « من في السماوات » الخ ، جميـع الأشياء وإنما عبّر بلفظ أولي العقل لكون التسبيح المنسوب اليها من شؤن أولي العقل أو للتنبيه على قوة تلك الدلالة ووضوح تلك الإشارة تنزيلاً للسان الحال منزلة المقال .

وفيه أنه لا يلائم إسناد العلم اليها في قوله بعد: « كلّ قد علم صلاته وتسبيحه ».

ومنها : تصدير الكلام بقوله: « ألم ترَ » وفيه دلالة على ظهور تسبيحهم ووضوح دلالتهم على التنزيه بحيث لا يرتاب فيه ذو ريب فكثيراً ما يعبّر عن العلم الجازم بالرؤية كما في قوله تعالى : « ألم ترَ أن الله خلق السماوات والأرض » إبراهيم : ١٩ ، والخطاب فيه عام لكل ذي عقل وإن كان خاصاً بحسب اللفظ .

ومن الممكن أن يكون خطاباً خاصاً بالنبي ﷺ وقد كان أراه الله تسبيح من في السماوات والأرض والطير صافـّات فيما أراه من ملكوت السماوات والأرض وليس ببدع منه ﷺ وقد أرى الناس تسبيح الحصاة في كفه كما وردت به الأخبار المعتبرة.

ومنها: أن الآية تعمّم العلم لكل ما ذكر في السماوات والأرض والطير ، وقد تقدم بعض البحث عنه في تفسير قوله : « وإن من شيء إلا يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » الإسراء : ٤٤ ، وستجيء تتمة الكلام فيه في تفسيرة سورة حمّ السجدة إن شاء الله .

وقول بعضهم : إن الضمير في قوله : « قد علم » راجع اليه تعالى ، يدفعه عدم ملاءمته للسياق وخاصة لقوله بعده : « والله عليم بما يفعلون » ونظيره قول آخرين : إن إسناد العلم إلى مجموع ما تقدم من المجاز بتنزيل غير العالم منزلة العالم لقوة دلالته على تسبيحه وتنزيهه .

ومنها: تخصيصها التسبيح بالذكر مع أن الأشياء تشير إلى صفات كماله تعالى وهو التحميد كما تسبّحه على ما يدل عليه البرهان ويؤيده قوله : « وإن من شيء إلا يسبّح بحمده » ولعل الوجه فيه كون الآيات مسوقة للتوحيد ونفي الشركاء وذلك بالتنزيه أمسّ فإن من يدعو من دون الله إلهاً آخر أو يركن إلى غيره نوعاً من الركون إنما يكفر بإثبات خصوصية وجود ذلك الشيء للإله تعالى فنفيه إنما يتأتى بالتنزيه دون التحميد فافهمه .

وأما قوله : « كل قد علم صلاته وتسبيحه » فصلاته دعاؤه والدعاء توجيه من الداعي المدعو إلى حاجته ففيه دلالة على حاجة عند الداعي المدعو في غنى عنها فهو أقرب إلى الدلالة على التنزيه منه على الثناء والتحميد .

ومنها : أن الآية تنسب التسبيح والعلم به إلى من في السماوات والأرض فيعمّ المؤمن والكافر ، ويظهر بذلك أن هناك نورين : نور عام يعم الأشياء والمؤمن والكافر فيه سواء ، وإلى ذلك تشير آيات كآية الذر : « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » الأعراف : ١٧٢ ، وقوله : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ إلى غير ذلك ، ونور خاص وهو الذي تذكره الآيات ويختص بأوليائه من المؤمنين .

فالنور الذي ينوّر تعالى به خلقه كالرحمة التي يرحمهم بها قسمان : عام وخاص وقد قال تعالى : « ورحمتي وسعت كل شيء » الأعراف : ١٥٦ ، وقوله : « فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته » الجاثية : ٣٠ ، وقد جمع بينهما في قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً » الحديد : ٢٨ ، وما ذكر فيه من النور هو النور على نور بحذاء الثاني من كفلي الرحمة .

وقوله : « والله عليم بما يفعلون » ومن فعلهم تسبيحهم له سبحانه ، وهـذا التسبيح وإن كان في بعض المراحل هو نفس وجودهم لكن صدق اسم التسبيح يجوز أن يعدّ فعلاً لهم بهذه العناية .

وفي ذكر علمه تعالى بما يفعلون عقيب ذكر تسبيحهم ترغيب للمؤمنين وشكر لهم بأن ربهم يعلم ذلك منهم وسيجزيهم جزاء حسناً ، وإيذان بتمام الحجة على الكافرين ، فإن من مراتب علمه تعالى كتب الأعمال والكتاب المبين التي تثبت فيها أعمالهم فيثبت فيها تسبيحهم بوجودهم ثم إنكارهم بألسنتهم .

قوله تعالى : « ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير » سياق الآية وقد وقعت بين قوله : « ألم تر أن الله يسبح له » الخ ، وهو احتجاج على شمول نوره العام لكل شيء ، وبين قوله : « ألم تر أن الله يزجي » الخ ، وما يتعقبه وهو احتجاج على اختصاص النور الخاص ، يعطي أنها كالمتوسط بين القبيلين أعني بين الأمرين يحتج بها على كليهما ، فملكه تعالى لكل شيء وكونه مصيراً لها هو دليل على تعميمه نوره العام وتخصيصه نوره الخاص يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

فقوله : « ولله ملك السماوات والأرض » يخص الملك ويقصره فيه تعالى فله أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ، ولازم قصر الملك فيه كونه هو المصير لكل شيء ، وإذ كان لا مليك إلا هو وإليه مرجع كل شيء ومصيره فله أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ومن هنا يظهر أن المراد – والله أعلم – بقوله : « وإلى الله المصير » مرجعيته تعالى في الامور دون المعاد نظير قوله : « ألا إلى الله تصير الامور » الشورى : ٥٣ .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلّف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله » إلى آخر الآية . الإزجاء هو الدفع ، والركام المتراكم بعضه على بعض ، والودق هو المطر ، والخلال جمع الخلل وهو الفرجة بين الشيئين .

والخطاب للنبي ﷺ بعنوان أنه سامع فيشمل كل سامع ، والمعنى : ألم تر أنت وكل من يرى أن الله يدفع بالرياح سحاباً متفرقاً ثم يؤلف بينه ثم يجعله متراكماً بعضه على بعض فترى المطر يخرج من خلله وفرجه فينزل على الأرض .

وقوله : « وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » السماء جهة العلو، وقوله : « من جبال فيها » بيان للسماء ، والجبال جمع جبل وهو معروف ، وقوله : « من برد » بيـــان للجبال ، والبرد قطعات الجمد النازل من السماء ، وكونه جبالاً فيها كناية عن كثرته وتراكمه ، والسنا بالقصر الضوء .

والكلام معطوف على قوله : « يزجي » ، والمعنى : ألم تر أن الله ينزل من السماء من البرد المتراكم فيها كالجبال فيصيب به من يشاء فيفسد المزارع والبساتين وربما قتل النفوس والمواشي ويصرفه عمن يشاء فلا يتضررون به يقرب ضوء برقه من أن يذهب بالأبصار .

والآية - على ما يعطيه السياق - مسوقة لتعليل ما تقدم من اختصاصه المؤمنين بنوره ، والمعنى : أن الأمر في ذلك إلى مشيّته تعـــالى كما ترى أنه إذا شاء نزّل من السماء مطراً فيه منافع النـــاس لنفوسهم ومواشيهم ومزارعهم وبساتينهم ، وإذا شاء نزّل برداً فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء .

قوله تعالى : « يقلّب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لاولي الأبصار » بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيّته تعـــالى فقط . وتقليب الليل والنهار تصريفهما بتبديل أحدهما من الآخر ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من مـــاء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » بيان آخر لرجوع الأمر إلى مشيّته تعالى محضاً حيث يخلق كل دابة من ماء ثم تختلف حالهم في المشي فمنهم من يمشي على بطنه كالحيّـــات والديدان ، ومنهم من يمشي على رجلين كالأناسي والطيور ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم والسباع ، واقتصر سبحانه على هذه الأنواع الثلاثة - وفيهم غير ذلك - إيجازاً لحصول الغرض بهذا المقدار .

وقوله : « يخلق الله ما يشاء » تعليل لما تقدم من اختلاف الدواب ، مع وحدة المادة التي خلقت منها يبين أن الأمر إلى مشية الله محضاً فله أن يعمم فيضاً من فيوضه

على جميع خلقه كالنور العام والرحمة العامة ، وله أن يختص بفيض من فيوضه بعضاً من خلقه دون بعض كالنور الخاص والرحمة الخاصة .

وقوله : « إن الله على كل شيء قدير » تعليل لقوله : « يخلق الله ما يشاء » فإن إطلاق القدرة على كل شيء يستوجب أن لا يتوقف شيء من الأشياء في كينونته على أمر وراء مشيته وإلا كانت قدرته عليه مشروطة بحصول ذلك الأمر وهـذا خلف . وهذا باب من التوحيد دقيق سيتضح بعض الاتضاح إن شاء الله بما في البحث الآتي .

(بحث فلسفي)

إنا لا نشك في أن مـا نجده من الموجودات الممكنة معلولة منتهية إلى الواجب تعالى وإن كثيراً منها – وخاصة في الماديات – تتوقف في وجودها على شروط لا تحقق لها بدونها كالإنسان الذي هو ابن فإن لوجوده توقفاً على وجود الوالدين وعلى شرائط أخرى كثيرة زمانية ومكانية ، وإذ كان من الضروري كون كل ما يتوقف عليه جزء من علته التامة كان الواجب تعالى على هذا جزء علته التامة لا علة تامة وحدها.

نعم هو بالنسبة إلى مجموع العالم علة تامة إذ لا يتوقف على شيء غيره وكذا الصادر الأول الذي تتبعه بقية أجزاء المجموع ، وأما سائر أجزاء العالم فإنه تعالى جزء علته التامة ضرورة توقفه على ما هو قبله من العلل وما هو معه من الشرائط والمعدات.

هذا إذا اعتبرنا كل واحد من الأجزاء بحياله ثم نسبنا وحده إلى الواجب تعالى.

وههنا نظر آخر أدق وهو أن الارتباط الوجودي الذي لا سبيل إلى إنكاره بين كل شيء وبين علله الممكنة وشروطه ومعداته يقضي بنوع من الاتحاد والاتصال بينها فالواحد من الأجزاء ليس مطلقاً منفصلاً بل هو في وجوده المتعين مقيد بجميع مـا يرتبط به متصل الهوية بغيرها .

فالإنسان الإبن الذي كنا نعتبره في المثال المتقدم بالنظر السابق موجوداً مستقلاً مطلقاً فنجده متوقفاً على علل وشروط كثيرة والواجب تعالى أحدها يعود بحسب هذه النظرة هوية مقيدة بجميع ما كان يعتبر توقفه عليه من العلل والشرائط غير الواجب

تعالى فحقيقة زيد مثلاً هو الإنسان ابن فلان وفلانة المتولد في زمان كذا ومكان كذا المتقدم عليه كذا و كذا المقارن لوجوده كذا و كذا من الممكنات .

فهذه هو حقيقة زيد مثلاً ومن الضروري أن ما حقيقته ذلك لا تتوقف على شيء غير الواجب فالواجب هو علته التامة التي لا توقف له على غيره ، ولا حاجة له إلى غير مشيته ، وقدرته تعالى بالنسبة اليه مطلقة غير مشروطة ولا مقيدة ، وهو قوله تعالى : « يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير » .

قوله تعالى : « لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » يريد آية النور وما يتلوها المبينة لصفة نوره تعالى والصراط المستقيم سبيله التي لا سبيل للغضب والضلال إلى من اهتدى اليها كما قال : « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » الحمد : ٧ ، وقد تقدم الكلام فيه في تفسير سورة الحمد .

وتذييل الآية بقوله : « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » هو الموجب لعدم تقييد قوله : « لقد أنزلنا آيات مبينات » بلفظة اليكم بخلاف قوله قبل آيات : « لقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » .

إذ لو قيل : لقد أنزلنا اليكم آيات مبينات والله يهدي . تبادر إلى الذهن أن البيان اللفظي هداية إلى الصراط المستقيم وأن المخاطبين عامة مهديّون إلى الصراط المستقيم وفيهم المنافق والذين في قلوبهم مرض والله العالم .

(بحث روائي)

في التوحيد بإسناده عن العباس بن هلال قال : سألت الرضا عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « الله نور السماوات والأرض » فقال : هاد لأهل السماوات وهاد لأهل الأرض .

وفي رواية البرقي : هدى من في السماوات وهدى من في الأرض .

أقول : إذ كان المراد بالهداية الهداية الخاصة وهي الهداية إلى السعادة الدينية

كان من التفسير بمرتبة من المعنى ، وإن كان المراد بهـا الهداية العامة وهي إيصال كل شيء إلى كماله انطبق على ما تقدم .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن جرير قال : سألتني امرأة أن أدخلها على أبي عبد الله عليه‌السلام فاستأذنت لها فأذن لها فدخلت ومعها مولاة لها فقالت له: يا أبا عبدالله قول الله : « زيتونة لا شرقية ولا غربية » ما عنى بهذا ؟ فقال لها : أيتها المرأة إن الله لم يضرب الأمثال للشجر إنما ضرب الأمثال لبني آدم .

وفي تفسير القمي بإسناده عن طلحة بن زيد عن جعفر بن محمـد عن أبيه عليه‌السلام في هذه الآية « الله نور السماوات والأرض » قـال : بدء بنور نفسه « مثل نوره » مثل هداه في قلب المؤمن « كمشكاة فيها مصباح » والمصباح جوف المؤمن والقنديل قلبه ، والمصباح النور الذي جعله الله في قلبه .

« يوقد من شجرة مباركة » قال: الشجرة المؤمن «زيتونة لا شرقية ولا غربية» قال : على سواد الجبل لا غربية أي لا شرق لهـــا ، ولا شرقية أي لا غرب لها إذا طلعت الشمس طلعت عليها وإذا غربت غربت عليها « يكاد زيتها يضيء » يكاد النور الذي في قلبه يضيء وإن لم يتكلم .

« نور على نور » فريضة على فريضة ، وسنّة على سنّة « يهدي الله لنوره من يشاء » يهدي الله لفرائضه وسننه من يشاء « ويضرب الله الأمثال للنـاس » فهذا مثل ضربه الله للمؤمن .

ثم قال : فالمؤمن يتقلب في خمسة من النور : مدخله نور ، ومخرجه نور ، وعلمه نور ، وكلامه نور ، ومصيره يوم القيامة إلى الجنـــة نور . قلت لجعفر عليه‌السلام : إنهم يقولون : مثل نور الرب . قال : سبحان الله ليس لله مثل ، قـال الله : « فلا تضربوا لله الأمثال » .

أقول : الحديث يؤيد ما تقدم في تفسير الآية ، وقـــد اكتفى عليه‌السلام في تفسير بعض فقرات الآية بذكر بعض المصاديق كالذي ذكره في ذيل قوله : « يكاد زيتها يضيء » وقوله : « نور على نور » .

وأما قوله: « سبحان الله ليس لله مثل » فإنما ينفي به أن يكون المثل مثلاً للنور

الذي هو اسمه تعالى المحمول عليه فكونه مثلاً له تعالى يؤدي إلى الحلول أو الانقلاب تعالى عن ذلك بل هو مثل لنوره المفاض على السماوات والأرض، وأما الضمير في قوله: «مثل نوره» فلا ضير في رجوعه اليه تعالى مع الاحتفاظ على المعنى الصحيح.

وفي التوحيد وقد روي عن الصادق عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: «الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح» فقال: هو مثل ضربه الله لنا فالنبي والأئمة صلوات الله عليهم من دلالات الله وآياته التي يهتدي بها إلى التوحيد ومصالح الدين وشرائع الإسلام والسنن والفرائض، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أقول: الرواية من قبيل الإشارة إلى بعض المصاديق وهو من أفضل المصاديق وهو النبي صلى الله عليه وآله وسلم والطاهرون من أهل بيته عليهم السلام وإلا فالآية تعم بظاهرها غيرهم من الأنبياء عليهم السلام والأوصياء والأولياء.

نعم ليست الآية بعامة لجميع المؤمنين لأخذها في وصفهم صفات لا تعم الجميع كقوله: «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله» الخ.

وقد وردت عدّة من الأخبار من طرق الشيعة في تطبيق مفردات الآية على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام وهي من التطبيق دون التفسير، ومن الدليل على ذلك اختلافها في نحو التطبيق كرواية الكليني في روضة الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام وفيها أن المشكاة قلب محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والمصباح النور الذي فيه العلم، والزجاجة علي أو قلبه، والشجرة المباركة الزيتونة التي لا شرقية ولا غربية إبراهيم عليه السلام ما كان يهودياً ولا نصرانياً، وقوله: «يكاد زيتها يضيء» الخ، يكاد أولادهم أن يتكلموا بالنبوة وإن لم ينزل عليهم ملك.

وما رواه في التوحيد بإسناده إلى عيسى بن راشد عن الباقر عليه السلام وفيه أن المشكاة نور العلم في صدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والزجاجة صدر علي «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار» يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل «نور على نور» إمام مؤيد بنور العلم والحكمة في إثر الإمام من آل محمد.

وما في الكافي بإسناده عن صالح بن سهل الهمداني عن الصادق عليه السلام وفيه أن المشكاة فاطمة عليها السلام، والمصباح الحسن عليه السلام، والزجاجة الحسين عليه السلام،

والشجرة المباركة إبراهيم عليه السلام ، ولا شرقية ولا غربية ما كان يهودياً ولا نصرانياً ، ونور على نور إمام بعد إمام ، ويهدي الله لنوره من يشاء يهدي الله للأئمة عليهم السلام من يشاء .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله : « زيتونة لا شرقية ولا غربية » قال : قلب إبراهيم لا يهودي ولا نصراني .

أقول : وهو من قبيل ذكر بعض المصاديق ، وقد ورد مثله من طرق الشيعة عن بعض أئمة أهل البيت عليهم السلام كما تقدم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك وبريدة قالا : قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية « في بيوت أذن الله أن ترفع » فقام اليه رجل فقال : أي بيوت هذه يا رسول الله ؟ قال : بيوت الأنبياء. فقام اليه أبو بكر فقال : يا رسول الله هذا البيت منها لبيت علي وفاطمة ؟ قال : نعم من أفاضلها .

أقول : ورواه في المجمع عنه صلى الله عليه وآله وسلم مرسلاً ، وروى هذا المعنى القمي في تفسيره بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ولفظه : قال : هي بيوت الأنبياء وبيت علي عليه السلام منها . وهو على أي حال من قبيل ذكر بعض المصاديق على ما تقدم .

وفي نهج البلاغة من كلام له عليه السلام عند تلاوته « رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » وإن للذكر لأهلاً أخذوه من الدنيا بدلاً فلم يشغلهم تجارة ولا بيع عنه يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله في أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط ويأتمرون به وينهون عن المنكر وينتهون عنه .

كأنما قطعوا الدنيا الى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك فكأنما اطّلعوا غيوب أهل البرزخ في طول الإقامة فيه ، وحققت القيامة عليهم عذابها فكشفوا غطاء ذلك لأهل الدنيا حتى كأنهم يرون ما لا يرى الناس ويسمعون ما لا يسمعون .

وفي المجمع في قوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع » وروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام : أنهم قوم إذا حضرت الصلاة تركوا التجارة وانطلقوا الى الصلاة وهم أعظم أجراً ممن لم يتّجر .

أقول : أي لم يتّجر واشتغل بذكر الله كما في روايات أخر .

وفي الدر المنثور عن ابن مردويه وغيره عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » قال : هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله .

أقول : كأن الرواية غير تامة وتمامها فيما روي عن ابن عباس قال: كانوا رجالاً يبتغون من فضل الله يشترون ويبيعون فإذا سمعوا النداء بالصلاة ألقوا ما بأيديهم وقاموا الى المسجد فصلّوا .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والله سريع الحساب » وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: كيف يحاسبهم في حالة واحدة ؟ فقال : كما يرزقهم في حالة واحدة .

وفي روضة الكافي بإسناده عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله عز وجل جعل السحاب غرابيل المطر هي تذيب البرد حتى يصير ماء لكي لا يضرّ شيئاً يصيبه ، والذي ترون فيه من البرد والصواعق نقمة من الله عز وجل يصيب بها من يشاء من عباده .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » قال : على رجلين الناس ، وعلى بطنه الحيّات ، وعلى أربع البهائم ، وقال أبو عبد الله عليه السلام : ومنهم من يمشي على أكثر من ذلك .

* * *

وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ـــ ٤٧ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ـــ ٤٨ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ـــ ٤٩ . أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ـــ ٥٠ .

إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ـ ٥١ . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ـ ٥٢ . وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون ـ ٥٣ . قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ـ ٥٤ . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ـ ٥٥ . وأقيموا الصلوة وآتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ـ ٥٦ . لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير ـ ٥٧ .

(بيان)

تتضمن الآيات افتراض طاعة الرسول ﷺ وأنها لا تفارق طاعة الله تعالى ، ووجوب الرجوع إلى حكمه وقضائه وأن الإعراض عنه آية النفاق ، وتختتم بوعد جميل للصالحين من المؤمنين وإيعاد للكافرين .

قوله تعالى : « ويقولون آمنـا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك » الخ ، بيان حال بعض المنافقين حيث أظهروا الإيمان والطاعة أولاً ثم تولوا ثانياً فالإيمان بالله هو العقد على توحيده وما شرع من الدين ، والإيمان بالرسول هو العقد على كونه رسولا مبعوثاً من عند ربه أمره أمره ونهيه نهيه وحكمه حكمه من غير أن يكون له من الأمر شيء ، وطاعة الله هي تطبيق العمل بمـا شرعه ، وطاعة الرسول الإيتمار والإنتهاء عند أمره ونهيه وقبول ما حكم به وقضى عليه .

فالإيمان بالله وطاعته موردهما نفس الدين والتشرّع به ، والإيمان بالرسول وطاعته موردهما ما أخبر به الرسول من الدين بما أنه يخبر به وما حكم به وقضى عليه في المنازعات والإنقياد له في ذلك كله .

فبين الإيمانين والطاعتين فرق ما من حيث سعة المورد وضيقه ، ويشير إلى ذلك ما في العبارة من نوع من التفصيل حيث قيل : « آمنـا بالله وبالرسول » فاشير إلى تعدّد الإيمان والطاعة ولم يقل : آمنا بالله والرسول بحذف الباء ، والإيمانان مع ذلك متلازمان لا ينفكّ أحدهما عن الآخر ، قـال تعالى : « ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله » النساء : ١٥٠ .

فقوله : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » أي عقدنا القلوب على دين الله وتشرّعنا به وعلى أن الرسول لا يخبر إلا بالحق ولا يحكم إلا بالحق .

وقوله : « ثم يتولى فريق منهم من بعـد ذلك » أي ثم يعرض طائفة من هؤلاء القائلين : « آمنا بالله وبالرسول وأطعنا » عن مقتضى قولهم من بعد ما قالوا ذلك .

وقوله : « وما أولئك بالمؤمنين » أي ليس أولئك القائلون بالمؤمنون ، والمشار اليه باسم الإشارة القائلون جميعاً لا خصوص الفريق المتولّين على ما يعطيه السياق لأن الكلام مسوق لذمّ الجميع .

قوله تعالى : « وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون » يشهد سياق الآية أن الآيات إنما نزلت في بعض من المنافقين دعوا إلى حكم النبي ﷺ في منازعة وقعت بينه وبين غيره فأبى الرجوع إلى النبي ﷺ وفي ذلك نزلت الآيات .

والنبي ﷺ إنما كان يحكم بينهم بحكم الله على ما أراه الله كما قال تعالى : « إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » النساء: ١٠٥ . فللحكم نسبة إليه بالمباشرة ونسبة إلى الله سبحانه من حيث كان الحكم في ضوء شريعته وبنصبه النبي ﷺ للحكم والقضاء .

وبذلك يظهر أن المراد بالدعوة إلى الله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى المتابعة لما يقتضيه شرعه تعالى في مورد النزاع ، وبالدعوة إلى رسوله ليحكم بينهم هي الدعوة إلى متابعة ما يقضي عليه بالمباشرة ، وأن الظاهر أن ضمير « ليحكم » للرسول ، وإنما أفرد الفاعل ولم يثنّ إشارة إلى أن حكم الرسول حكمه تعالى .

والآية بالنسبة إلى الآية السابقة كالخاص بالنسبة إلى العام فهي تقصّ إعراضنا معيّناً منهم والإعراض المذكور في الآية السابقة منهم إعراض مطلق .

قوله تعالى : « وإن يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين » الإذعان الإنقياد ، وظاهر السياق وخاصة قوله : « يأتوا اليه » أن المراد بالحق حكم الرسول بدعوى أنه حق لا ينفك عنه ، والمعنى وإن يكن الحق الذي هو حكم الرسول لهم لا عليهم يأتوا إلى حكمه منقادين فليسوا بمعرضين عنه إلا لكونه عليهم لا لهم ، ولازم ذلك أنهم يتّبعون الهوى ولا يريدون اتّباع الحق .

قوله تعالى : « أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله » إلى آخر الآية . الحيف الجور .

وظاهر سياق الآيات أن المراد بمرض القلوب ضعف الإيمان كما في قوله تعالى : « فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض » الأحزاب : ٣٢ ، وقوله : « لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم » الأحزاب : ٦٠ ، وغير ذلك من الآيات .

وأما كون المراد بمرض القلوب النفاق كما فسّر به فيدفعه قوله في صدر الآيات : « وما أولئك بالمؤمنين » فإنه حكم بنفاقهم ، ولا معنى مع إثبات النفاق للاستفهام عن النفاق ثم الإضراب عنه بقوله : « بل أولئك هم الظالمون » .

وقوله : « أم ارتابوا » ظاهر إطلاق الإرتياب وهو الشكّ أن يكون المراد هو

شكهم في دينهم بعد الإيمان دون الشك في صلاحية النبي ﷺ للحكم أو عدله ونحو ذلك لكونها بحسب الطبع محتاجة إلى بيان بنصب قرينة .

وقوله : « أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله » أي أم يعرضون عن ذلك لأنهم يخافون أن يجور الله عليهم ورسوله لكون الشريعة الإلهية التي يتبعها حكم النبي ﷺ مبنيّة على الجور وإماتة الحقوق الحقة ، أو لكون النبي ﷺ لا يراعي الحق في قضائه .

وقوله : « بل أولئك هم الظالمون » إضراب عن الترديد السابق بشقوقه الثلاثة وذلك أن سبب إعراضهم لو كان مرض قلوبهم أو ارتيابهم لم يأتوا اليه مذعنين على تقدير كون الحق لهم بل كانوا يعرضون كان الحق لهم أو عليهم ، وأما الخوف من أن يحيف الله عليهم ورسوله فلا موجب له فالله بري من الحيف ورسوله فليس إعراضهم عن إجابة الدعوة إلى حكم الله ورسوله إلا لكونهم حق عليهم أنهم ظالمون .

والظاهر أن المراد بالظلم التعدي عن طور الإيمان مع الإقرار بـه قولا كما قال آنفاً : « وما أولئك بالمؤمنين » أو خصوص التعدي إلى الحقوق غير المالية ، ولو كان المراد مطلق الظلم لم يصح الإضراب عن الشقوق الثلاثة السابقة اليه لأنها من مطلق الظلم ويدل عليه أيضاً الآية التالية .

وقـد بان بما تقدم أن الترديد في أسباب الإعراض على تقدير عدم النفاق بين الامور الثلاثة حاصر والأقسام متغايرة فإن محصل المعنى أنهم منافقون غير مؤمنين إذ لو لم يكونوا كذلك كان إعراضهم إما لضعف إيمانهم وإما لزواله بالارتياب وإما للخوف من غير سبب يوجبه فإن الخوف من الرجوع إلى حكم الحاكم إنما يكون إذا احتمل حيفه في حكمه وميله عن الحق إلى الباطل ولا يحتمل ذلك في حكم الله ورسوله.

وقد طال البحث في كلامهم عما في الآية من الترديد والإضراب ولعل فيما ذكرناه كفاية ، ومن أراد أزيد من ذلك فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا » إلى آخر الآية سياق قوله : « إنما كان قول المؤمنين » وقد أخذ فيـه « كان » ، ووصف الإيمان في « المؤمنين » يدل على أن ذلك من مقتضيات طبيعة

الإيمان فإن مقتضى الإيمان بالله ورسوله وعقد القلب على اتباع ما حكم به الله ورسوله التلبية للدعوة إلى حكم الله ورسوله دون الرد .

وعلى هذا فالمراد بقوله : « إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم » دعوة بعض الناس ممن ينازعهم كدعوة بعض المتنازعين المتخاصمين الآخر إلى التحاكم إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، ويدل عليه تصدير الجملة بلفظة « إذا » ولو كان المراد به دعوة الله ورسوله بمعنى إيجاب رجوع المؤمنين في منازعاتهم إلى حكم الله ورسوله كان ذلك حكماً مؤبداً لا حاجة فيه إلى التقييد بالزمان .

وبذلك يظهر ضعف ما قيل : إن فاعل « دعوا » المحذوف هو الله ورسوله ، والمعنى : إذا دعاهم الله ورسوله . نعم مرجع الدعوة بأخرة إلى دعوة الله ورسوله .

وكيف كان تقصر الآية قول المؤمنين على تقدير الدعوة إلى حكم الله ورسوله في قولهم : سمعنا وأطعنا وهو سمع وطاعة للدعوة الإلهية سواء فرض الداعي هو أحد المتنازعين للآخر أو فرض الداعي هو الله ورسوله أو كان المراد هو السمع والطاعة لحكم الله ورسوله وإن كان بعيداً .

وانحصار قول المؤمنين عند الدعوة في « سمعنا وأطعنا » يوجب كون الردّ للدعوة ليس من قول المؤمنين فيكون تعدّياً عن طور الإيمان ، كما يفيده قوله : « بل اولئك هم الظالمون » على ما تقدم ، فتكون الآية في مقام التعليل للإضراب في ذيل الآية السابقة .

وقد ختمت الآية بقوله : « وأولئك هم المفلحون » وفيه قصر الفلاح فيهم لا قصرهم في الفلاح .

قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون » ورود الآية في سياق الآيات السابقة وانضمامها إلى سابقتها يعطي أنها في مقام التعليل - كالكبرى الكلية - للآية السابقة حيث حكمت بفلاح من أجاب الدعوة إلى حكم الله ورسوله بالسمع والطاعة بقيد الإيمان كأنه قيل : إنما أفلح من أجاب إلى حكم الله ورسوله وهو مؤمن لأنه مطيع لله ولرسوله وهو مؤمن حقاً في باطنه خشية الله وفي

ظاهره تقواه ومن يطع الله ورسوله فيما قضى عليه ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون، والفوز هو الفلاح .

وتشمل الآية الداعي إلى حكم الله ورسوله من المتنازعين كما يشمل المدعو منهما إذا أجاب بالسمع والطاعة ففيها زيادة على تعليل حكم الآية السابقة تعميم الوعد الحسن للداعي والمدعو جميعاً .

قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة » إلى آخر الآية ، الجهد الطاقة ، والتقدير في قوله : « أقسموا بالله جهد أيمانهم » أقسموا بالله مبلغ جهدهم في أيمانهم والمراد أقسموا بأغلظ أيمانهم .

والظاهر أن المراد بقوله : « ليخرجن » الخروج إلى الجهاد على ما وقع في عدة من الآيات كقوله : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا » التوبة : ٤٧ .

وقوله : « قل لا تقسموا » نهي عن الإقسام ، وقوله : « طاعة معروفة » خبر لمبتدأ محذوف هو الضمير الراجع إلى الخروج والجملة في مقام التعليل للنهي عن الإقسام ولذا جيء بالفصل ، وقوله : « والله خبير بما تعملون » من تمام التعليل .

ومعنى الآية: وأقسموا بالله بأغلظ أيمانهم لئن أمرتهم بالخروج إلى الجهاد ليخرجن قل لهم: لا تقسموا فالخروج إلى الجهاد طاعة معروفة من الدين – وهو واجب لا حاجة إلى إيجابه بيمين مغلظ – وإن تكونوا تقسمون لأجل أن ترضوا الله ورسوله بذلك فالله خبير بما تعملون لا يغرّه إغلاظكم في الأيمان .

وقيل : المراد بالخروج خروجهم من ديارهم وأموالهم لو حكم الرسول بذلك ، وقوله : « طاعة معروفة » مبتدأ لخبر محذوف ، والتقدير : طاعة معروفة للنبي خير من إقسامكم ، ومعنى الآية : وأقسموا بالله بأغلظ الأيمان لئن أمرتهم وحكمت عليهم في منازعاتهم بالخروج من ديارهم وأموالهم ليخرجن منها قل لهم : لا تقسموا لأن طاعة حسنة منكم للنبي خير من إقسامكم بالله والله خبير بما تعملون .

وفيه أن هذا المعنى وإن كان يؤكد اتصال الآية بما قبلها بخلاف المعنى السابق لكنه لا يلائم التصريح السابق بردّهم الدعوة إلى الله ورسوله ليحكم بينهم لأنهم إذ كانوا

تولوا وأعرضوا عن حكم الله ورسوله لم يكن يسعهم أن يقسموا للنبي ﷺ لئن أمرهم في حكمه بالخروج من ديارهم وأموالهم ليخرجن وهو ظاهر ، اللهم إلا أن يكون المقسمون فريقاً آخر منهم غير الرادّين للدعوة المعرضين عن الحكم ، وحينئذ كان حمل « ليخرجن » على هذا المعنى لا دليل يدلّ عليه .

قوله تعالى : « قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمّل وعليكم ما حُمّلتم » إلى آخر الآية ، أمر بطاعة الله فيما أنزل من الدين ، وأمر بطاعة الرسول فيما يأتيهم به من ربهم ويأمرهم به في أمر دينهم ودنياهم ، وتصدير الكلام بقوله : «قل» إشارة إلى أن الطاعة جميعاً لله ، وقد أكده بقوله : « وأطيعوا الرسول » دون أن يقول : وأطيعوني لأن طاعة الرسول بما هو طاعة الرسول طاعة المرسل ، وبذلك تتمّ الحجة .

ولذلك عقّب الكلام :

أولاً بقوله : « فإن تولوا فإنما عليه ما حمّل وعليكم ما حمّلتم » أي فإن تتولوا وتعرضوا عن طاعة الرسول لم يضرّ ذلك الرسول فإنما عليه ما حمّل من التكليف ولا يمسّكم منه شيء وعليكم ما حمّلتم من التكليف ولا يمسّه منه شيء فإن الطاعة جميعاً لله سبحانه .

وثانياً بقوله : «وإن تطيعوه تهتدوا» أي وإن كان لكل منكم ومنه ما حمّل لكن إن تطيعوا الرسول تهتدوا لأن ما يجيء به إليكم وما يأمركم به من الله وبأمره ، والطاعة لله وفيه الهداية .

وثالثاً بقوله : « وما على الرسول إلا البلاغ المبين » وهو بمنزلة التعليل لما تقدّمه أي إن ما حمّله الرسول من التكليف هو التبليغ فحسب فلا بأس عليه إن خالفتم ما بلّغ ، وإذ كان رسولا لم يحتمل إلا التبليغ فطاعته طاعة من أرسله وفي طاعة من أرسله وهو الله سبحانه اهتداؤكم .

قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » إلى آخر الآية .

ظاهر وقوع الآية موقعها أنها نزلت في ذيل الآيات السابقة من السورة وهي مدنية ولم تنزل بمكة قبل الهجرة على ما يؤيده سياقها وخاصة ذيلها .

فالآية ــ على هذا ــ وعد جميل للذين آمنوا وعملوا الصالحات أن الله تعالى سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً يخص بهم فيستخلفهم في الأرض ويمكّن لهم دينهم ويبدلهم من بعد خوفهم أمناً لا يخافون كيد منافق ولا صدّ كافر يعبدونه لا يشركون به شيئاً .

فقوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » من فيه تبعيضيّة لا بيانية والخطاب لعامة المسلمين وفيهم المنافق والمؤمن وفي المؤمنين منهم من يعمل الصالحات ومن لا يعمل الصالحات ، والوعد خاص بالذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات محضاً .

وقوله : « ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » إن كان المراد بالإستخلاف إعطاء الخلافة الإلهية كما ورد في آدم وداود وسليمان عليهم السلام ، قال تعالى : « إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ ، وقال : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض » ص : ٢٦ ، وقال : « وورث سليمان داود » النمل : ١٦ ، فالمراد بالذين من قبلهم خلفاء الله من أنبيائه وأوليائه ولا يخلو من بعد كما سيأتي .

وإن كان المراد به إيراث الأرض وتسليط قوم عليها بعد قوم كما قال : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » الأعراف: ١٢٨ ، وقال : « أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » الأنبياء : ١٠٥ ، فالمراد بالذين من قبلهم المؤمنون من أمم الأنبياء الماضين الذين أهلك الله الكافرين والفاسقين منهم ونجّى الخلّص من مؤمنيهم كقوم نوح وهود وصالح وشعيب كما أخبر عن جمعهم في قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنّكم من أرضنا أو لتعودنّ في ملّتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين ولنسكننّكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد» إبراهيم : ١٤ ، فهؤلاء الذين أخلصوا لله فنجّاهم فعقدوا مجتمعاً صالحاً وعاشوا فيه حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم .

وأما قول من قال : إن المراد بالذين استخلفوا من قبلهم بنو إسرائيل لما أهلك الله فرعون وجنوده فأورثهم أرض مصر والشام ومكّنهم فيها كما قال تعالى فيهم :

« ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكّن لهم في الأرض » القصص : ٦ .

ففيه أن المجتمع الاسرائيلي المنعقد بعد نجاتهم من فرعون وجنوده لم يصف من الكفر والنفاق والفسق ولم يخلص للذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا حيناً على ما ينص عليه القرآن الكريم في آيات كثيرة ، ولا وجه لتشبيه استخلاف الذين آمنوا وعملوا الصالحات باستخلافهم وفيهم الكافر والمنافق والطالح والصالح .

ولو كان المراد تشبيه أصل استخلافهم بأصل استخلاف الذين من قبلهم – وهم بنو إسرائيل – كيفما كان لم يحتج إلى إشخاص المجتمع الإسرائيلي للتشبيه به وفي زمن نزول الآية وقبل ذلك أمم أشد قوة وأكثر جمعاً منهم كالروم والفارس وكلدة وغيرهم وقد قال تعالى في عاد الاولى وثمود : « إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » الأعراف: ٦٩ ، وقال : « إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » الأعراف : ٧٤ ، وقد خاطب بذلك الكفار من هذه الامة فقال : « وهو الذي جعلكم خلائف الأرض » الأنعام : ١٦٥ ، وقال : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره » فاطر : ٣٩ .

فإن قلت :لم لا يجوز أن يكون التشبيه ببني إسرائيل ثم يؤدي حق هذا المجتمع الصالح بما يعقبه من قوله : « وليمكننّ لهم دينهم » إلى آخر الوعد ؟

قلت : نعم ولكن لا موجب حينئذ لاختصاص استخلاف بني إسرائيل لأن يشبّه به وأن يكون المراد بالذين من قبلهم بني اسرائيل فقط كما تقدم .

وقوله : « وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم » تمكين الشيء إقراره في مكان وهو كناية عن ثبات الشيء من غير زوال واضطراب وتزلزل بحيث يؤثر أثره من غير مانع ولا حاجز فتمكن الدين هو كونه معمولا به في المجتمع من غير كفر به واستهانة بأمره ، ومأخوذاً باصول معارفه من غير اختلاف وتخاصم وقد حكم الله سبحانه في مواضع من كلامه أن الاختلاف في الدين من بغي المختلفين كقوله : « وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم » البقرة : ٢١٣ .

والمراد بدينهم الذي ارتضى لهم دين الإسلام ، وأضاف الدين اليهم تشريفاً لهم ولكونه من مقتضى فطرتهم .

وقوله : « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً » هو كقوله : « وليمكنن لهم » عطف على قوله : « ليستخلفنهم » وأصل المعنى : وليبدلن خوفهم أمناً فنسبة التبديل اليهم إما على المجاز العقلي أو على حذف مضاف يدل عليه قوله : « من بعد خوفهم » والتقدير وليبدلن خوفهم ، أو كون « أمناً » بمعنى : آمين .

والمراد بالخوف على أي حال ، ما كان يقاسيه المؤمنون في صدر الإسلام من الكفار والمنافقين .

وقوله : « يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » الأوفق بالسياق أن يكون حالا من ضمير « وليبدلنهم » أي وليبدلن خوفهم أمناً في حال يعبدونني لا يشركون بي شيئاً .

والإلتفات في الكلام من الغيبة إلى التكلم ، وتأكيد « يعبدونني » بقوله : « لا يشركون بي شيئاً » و وقوع النكرة – شيئاً – في سياق النفي الدال على نفي الشرك على الإطلاق كل ذلك يقضي بأن المراد عبادتهم لله عبادة خالصة لا يداخلها شرك جلي أو خفي ، وبالجملة يبدّل الله مجتمعهم مجتمعاً أمناً لا يعبد فيه إلا الله ولا يتخذ فيه ربّ غيره .

وقوله : « ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » ظاهر السياق كون « ذلك » إشارة الى الموعود والأنسب على ذلك كون « كفر » من الكفران مقابل الشكر ، والمعنى : ومن كفر ولم يشكر الله بعد تحقق هذا الوعد بالكفر أو النفاق أو سائر المعاصي الموبقة فاولئك هم الفاسقون الكاملون في الفسق وهو الخروج عن زي العبودية .

وقد اشتد الخلاف بين المفسرين في الآية .

فقيل : انها واردة في أصحاب النبي ﷺ وقد أنجز الله وعده لهم باستخلافهم في الأرض وتمكين دينهم وتبديل خوفهم أمناً بما أعزّ الإسلام بعد رحلة النبي في أيام الخلفاء الراشدين ، والمراد باستخلافهم استخلاف الخلفاء الأربعة بعد النبي ﷺ أو الثلاثة الاول منهم ، ونسبة الاستخلاف إلى جميعهم مع اختصاصه ببعضهم وهم الأربعة أو الثلاثة من قبيل نسبة أمر البعض الى الكل كقولهم: قتل بنو فلان وإنما قتل بعضهم .

وقيل : هي عامة لامة محمد ﷺ ، والمراد باستخلافهم وتمكين دينهم وتبديل

خوفهم أمناً إيراثهم الأرض كما أورثها الله الامم الذين كانوا قبلهم أو استخلاف الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم – على اختلاف التقرير – وتمكين الإسلام وانهزام أعداء الدين وقد أنجز الله وعده بما نصر الإسلام والمسلمين بعد الرحلة ففتحوا الأمصار وسخروا الأقطار.

وعلى القولين الآية من ملاحم القرآن حيث أخبر بأمر قبل أوان تحققه ولم يكن مرجوّاً ذلك يومئذ.

وقيل: إنها في المهديّ الموعود عليه السلام الذي تواترت الأخبار على أنه سيظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وإن المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل بيته عليهم السلام.

والذي يعطيه سياق الآية الكريمة على ما تقدم من البحث بالتحرّز عن المسامحات التي ربما يرتكبها المفسرون في تفسير الآيات هو أن الوعد لبعض الامة لا لجميعها ولا لأشخاص خاصة منهم وهم الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات فالآية نص في ذلك، ولا قرينة من لفظ او عقل يدلّ على كونهم هم الصحابة أو النبي وأئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، ولا على أن المراد بالذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات جميع الامة وإنما صرف الوعد إلى طائفة خاصة منهم تشريفاً لهم أو لمزيد العناية بهم فهذا كله تحكّم من غير وجه.

والمراد باستخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم عقد مجتمع مؤمن صالح منهم يرثون الأرض كما ورثها الذين من قبلهم من الامم الماضين أولي القوة والشوكة، وهذا الاستخلاف قائم بمجتمعهم الصالح من دون أن يختص به أشخاص منهم كما كان كذلك في الذين من قبلهم، وأما إرادة الخلافة الإلهية بمعنى الولاية على المجتمع كما كان لداود وسليمان ويوسف عليهم السلام وهي السلطنة الإلهية فمن المستبعد أن يعبّر عن أنبيائه الكرام بلفظ «الذين من قبلهم»، وقد وقعت هذه اللفظة أو ما بمعناها في أكثر من خمسين موضعاً من كلامه تعالى ولم يقصد ولا في واحد منها الأنبياء الماضون مع كثرة ورود ذكرهم في القرآن، نعم ذكرهم الله بلفظ «رسل من قبلك» أو «رسل من قبلي» أو نحوهما بالإضافة إلى الضمير الراجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

والمراد بتمكين دينهم الذي ارتضى لهم كما مرّ ثبات الدين على ساقه بحيث لا

يزلزله اختلافهم في أصوله، ولا مساهلتهم في إجراء أحكامه، والعمل بفروعه وخلوص المجتمع من وصمة النفاق فيه .

والمراد من تبديل خوفهم أمناً انبساط الأمن والسلام على مجتمعهم بحيث لا يخافون عدواً في داخل مجتمعهم أو خارجه متجاهراً أو مستخفياً على دينهم أو دنياهم.

وقول بعضهم : إن المراد الخوف من العدو الخارج من مجتمعهم كما كان المسلمون يخافون الكفار والمشركين القاصدين إطفاء نور الله وإبطال الدعوة .

تحكّم مدفوع بإطلاق اللفظ من غير قرينة معيّنة للمدّعى . على أن الآية في مقام الامتنان وأي امتنان على قوم لا عدوّ يقصدهم من خارج وقد أحاط بمجتمعهم الفساد وعمّته البليّة لا أمن لهم في نفس ولا عرض ولا مال ، الحرية فيه للقدرة الحاكمة والسبق فيه للفئة الباغية .

والمراد بكونهم يعبدون الله لا يشركون به شيئاً ما يعطيه حقيقة معنى اللفظ وهو عموم إخلاص العبادة وانهدام بنيان كل كرامة إلا كرامة التقوى .

والمتحصل من ذلك كله أن الله سبحانه يعد الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات أن سيجعل لهم مجتمعاً صالحاً خالصاً من وصمة الكفر والنفاق والفسق يرث الأرض لا يحكم في عقائد أفراده عامة ولا أعمالهم إلا الدين الحق يعيشون آمنين من غير خوف من عدو داخل أو خارج ، أحراراً من كيد الكائدين وظلم الظالمين وتحكّم المتحكمين .

وهذا المجتمع الطيب الطاهر على ما له من صفات الفضيلة والقداسة لم يتحقق ولم ينعقد منذ بُعث النبي ﷺ إلى يومنا هذا ، وإن انطبق فلينطبق على زمن ظهور المهدي عليه السلام على ما ورد من صفته في الأخبار المتواترة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام لكن على أن يكون الخطاب للمجتمع الصالح لا له عليه السلام وحده .

فإن قلت : ما معنى الوعد حينئذ للذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات وليس المهدي عليه السلام أحد المخاطبين حين النزول ولا واحد من أهل زمان ظهوره بينهم ؟

قلت : فيه خلط بين الخطابات الفردية والاجتماعية أعني الخطاب المتوجه إلى أشخاص القوم بما هم أشخاص بأعيانهم والخطاب المتوجه إليهم بما هم قوم على نعت كذا فالأول لا يتعدى إلى غير أشخاصهم ولا ما تضمّنه من وعد أو وعيد أو غير ذلك

يسري إلى غيرهم ، والثاني يتعدى إلى كل من اتصف بما ذكر فيه من الوصف ويسري اليه ما تضمّنه من الحكم ، وخطاب الآية من القبيل الثاني على ما تقدم .

ومن هـــذا القبيل أغلب الخطابات القرآنية المتوجهة إلى المؤمنين والكفار ، ومنه الخطابات الذامّة لأهل الكتاب وخاصة اليهود بما فعله أسلافهم وللمشركين بمـا صنعه آباؤهم .

ومن هذا القبيل خاصة ما ذكر من الوعد في قوله تعـــالى : « فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم» الاسراء : ٧ ، فإن الموعودين لم يعيشوا إلى زمن إنجاز هذا الوعد ، ونظيره الوعد المذكور في قول ذي القرنين على ما حكاه الله : « فإذا جاء وعد ربي جعله دكّاء وكان وعد ربي حقاً » الكهف : ٩٨ ، وكذا وعده تعالى الناس بقيام الساعة وانطواء بساط الحياة الدنيا بنفخ الصور كما قال: « ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتــــة » الأعراف : ١٨٧ ، فوعد الصالحين من المؤمنين بعنوان أنهم مؤمنون صالحون بوعد لا يدركه أشخاص زمـان النزول بأعيانهم ولما يوجد أشخاص المجتمع الذي يدرك إنجاز الوعد مما لا ضير فيه البتة .

فالحق أن الآية إن أعطيت حق معنـاها لم تنطبق إلا على المجتمع الموعود الذي سينعقد بظهور المهـدي عليه السلام وإن سومح في تفسير مفرداتها وجملها وكان المراد باستخلاف الذين آمنوا منهم وعملوا الصالحات استخلاف الامـة بنوع من التغليب ونحوه ، وبتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم كونهم معروفين في الدنيـا بالامة المسلمة وعدّهم الإسلام ديناً لهم وإن تفرّقوا فيه ثلاثاً وسبعين فرقـــة يكفّر بعضهم بعضاً ويستبيح بعضهم دماء بعض وأعراضهم وأموالهم ، وبتبديل خوفهم أمناً يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً عزة الامة وشوكتها في الدنيـــا وانبساطها على معظم المعمورة وظواهر ما يأتون به من صلاة وصوم وحج وإن ارتحل الأمن من بينهم أنفسهم وودّعهم الحق والحقيقة ، فالوجه أن الموعود بهذا الوعد الامة ، والمراد باستخلافهم مـا رزقهم الله من العزة والشوكة بعـد الهجرة إلى ما بعد الرحلة ولا موجب لقصر ذلك في زمن الخلفاء الراشدين بل يجري فيما بعد ذلك إلى زمن انحطاط الخلافة الإسلامية .

وأما تطبيق الآية على خلافة الخلفاء الراشدين أو الثلاثة الاوّل أو خصوص علي

صلى الله عليه وآله وسلم فلا سبيل اليه البتة .

قوله تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » مناسبة مضمون الآية لما سيقت لبيانه الآيات السابقة تعطي أنها من تمامها .

فقوله : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » أمر في الحقيقة بطاعته تعالى فيما شرعه لعباده ، وتخصيص الصلاة والزكاة بالذكر لكونهما ركنين في التكاليف الراجعة إلى الله تعالى وإلى الخلق ، وقوله : « وأطيعوا الرسول » إنفاذ لولايته صلى الله عليه وآله وسلم في القضاء والحكومة .

وقوله : « لعلكم ترحمون » تعليل للأمر بما في المأمور به من المصلحة ، والمعنى – على ما يعطيه السياق – : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن في هاتين الطاعتين رجاء أن تشملكم الرحمة الإلهية فينجز لكم وعده أو يعجل لكم إنجازه فإن ارتفاع النفاق من بين المسلمين وعموم الصلاح والاتفاق على كلمة الحق مفتاح انعقاد مجتمع صالح يدرّ عليهم بكل خير .

قوله تعالى : « لا تحسبنّ الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير » من تمام الآيات السابقة ، وفيها تأكيد ما مرّ من وعد الاستخلاف في الأرض وتمكين الدين وتبديل الخوف أمناً .

يخاطب تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بعد الوعد – بخطاب مؤكد – أن لا يظن أن الكفار معجزون لله في الأرض فيمنعونه بما عندهم من القوة والشوكة من أن ينجز وعده ، وهذا في الحقيقة بشرى خاصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بما أكرم به أمته وأن أعداءه سينهزمون ويغلبون ولذلك خصّه بالخطاب على طريق الالتفات .

ولكون النهي المذكور في معنى أن الكفار سينتهون عن معارضة الدين وأهله عطف عليه قوله: « ومأواهم النار » الخ، كأنه قيل: هم مقهورون في الدنيا ومسكنهم النار في الآخرة وبئس المصير .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « ويقولون آمنا بالله » الآيات قيل : نزلت الآيات في

رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة فدعاه اليهودي الى رسول الله ﷺ ودعاه المنافق الى كعب بن الأشرف .

وحكى البلخي أنه كانت بين علي وعثمان منازعة في أرض اشتراهـــا من علي فخرجت فيها أحجار وأراد ردّها بالعيب فلم يأخذها فقال : بيني وبينك رسول الله ﷺ فقال الحكم بن أبي العاص : ان حاكمته الى ابن عمه يحكم له فلا تحاكمه اليه فنزلت الآيات ، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام أو قريب منه .

أقول : وفي تفسير روح المعاني عن الضحّاك أن النزاع كان بين علي والمغيرة بن وائل وذكر قريباً من القصة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إنما كان قول المؤمنين » الآية : وروي عن أبي جعفر أن المعني بالآية أمير المؤمنين عليه السلام .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم مـــا حملتم » الآية ، أخرج ابن جرير وابن قانع والطبراني عن علقمة بن وائل الحضرمي عن سلمة بن يزيد الجهني قال : قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان علينا أمراء من بعدك يأخذونا بالحق الذي علينا ويمنعونا الحق الذي جعله الله لنا نقاتلهم ونبغضهم؟ فقال النبي ﷺ : عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم .

أقول : وفي معناه بعض روايات أخر مروية فيه لكن ينبغي أن لا يرتاب في أن الإسلام بما فيه من روح إحيـــاء الحق وإماتة الباطل يأبى عن إجازة ولاية الظلمة المتظاهرين بالظلم وإباحة السكوت وتحمل الضيم والاضطهاد قبال الطغاة والفجرة لمن يجد الى إصلاح الأمر سبيلا ، وقد اتضح بالأبحاث الاجتماعية اليوم أن استبداد الولاة برأيهم واتباعهم لأهوائهم في تحكماتهم أعظم خطراً وأخبث أثراً من إثارة الفتن وإقامة الحروب في سبيل إلجائهم الى الحق والعدل .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم » الآية : واختلف في الآية والمروي عن أهل البيت عليهم السلام أنها في المهدي من آل محمد .

قال : وروى العياشي بإسناده عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قرأ الآية وقال : هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا وهو مهدي هذه الامة ،

وهو الذي قال رسول الله صلى الله عليه وآله « لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يلي رجل من عترتي اسمه اسمي يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً وروي مثل ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : وبذلك وردت الأخبار عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد تقدم بيان انطباق الآية على ذلك .

وقال في المجمع بعد نقل الرواية : فعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا وعملوا الصالحات النبي وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام انتهى . وقد عرفت أن المراد به عام والرواية لا تدل على أزيد من ذلك حيث قال عليه السلام : هم والله شيعتنا أهل البيت يفعل ذلك بهم على يدي رجل منا الحديث .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن البراء في قوله : « وعد الله الذين آمنوا منكم » الآية قال : فينا نزلت ونحن في خوف شديد .

أقول : ظاهره أن المراد بالذين آمنوا الصحابة وقد عرفت أن الآية لا دلالة فيها عليه بوجه بل الدلالة على خلافه .

وفيه أخرج ابن المنذر والطبراني في الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والضياء في المختارة عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون الا فيه فقالوا : أترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله فنزلت : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » الآية .

أقول : هو لا يدل على أزيد من سبب النزول وأما أن المراد بالذين آمنوا من هم ؟ وأن الله متى أنجز أو ينجز هذا الوعد ؟ فلا تعرّض له به .

ونظيرته روايته الاخرى : لما نزلت على النبي صلى الله عليه وآله « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » الآية قال : بشّر هذه الامة بالسنا والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض فمن عمل منكم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب.

فإن تبشير الامة بالاستخلاف لا يستلزم كون المراد بالذين آمنوا في الآية جميع الامة أو خصوص الصحابة أو نفراً معدوداً منهم .

وفي نهج البلاغة في كلام له لعمر لما استشاره لانطلاقه لقتال أهل الفارس حين تجمّعوا للحرب قال عليه‌السلام : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا بقلة ، وهو دين الله الذي أظهره ، وجنده الذي أعزّه وأيّده حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع ، ونحن على موعود من الله تعالى حيث قال عز اسمه : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً .

والله تعالى منجز وعده وناصر جنده ، ومكان القيّم في الإسلام مكان النظام من الخرز فإن انقطع النظام تفرّق وربّ متفرق لم يجتمع ، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام عزيزون بالاجتماع فكن قطباً واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب فإنك إن شخصت من هذه الأرض تنقّضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهمّ اليك مما بين يديك ، وكان قد آن للأعاجم أن ينظروا اليك غداً يقولون : هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك .

فأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة .

أقول: وقد استدل به في روح المعاني على ما ارتضاه من كون المراد بالاستخلاف في الآية ظهور الإسلام وارتفاع قدره في زمن الخلفاء الراشدين وهو بمعزل عن ذلك بل دليل على خلافه ، فإن ظاهر كلامه أن الوعد الإلهي لم يتم أمر إنجازه بعد وأنهم يومئذ في طريقه حيث يقول : والله منجز وعده ، وأن الدين لم يمكّن بعد ولا الخوف بدّل أمناً وكيف لا ؟ وهم بين خوفين خوف من تنقضّ العرب من داخل وخوف من مهاجمة الأعداء من خارج .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن أبي الشعثاء قال: كنت جالساً مع حذيفة وابن مسعود فقال حذيفة ذهب النفاق إنما كان النفاق على عهد رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ، وإنما هو اليوم الكفر بعد الإيمان فضحك ابن مسعود ثم قال : بمَ تقول ؟ قال : بهذه الآية « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات » إلى آخر الآية .

أقول : ليت شعري أين ذهب منافقوا عهــد النبي ﷺ ؟ وشواهد الكتاب العزيز والتاريخ تدل على أنهم ما كانوا بأقل من ثلث أهل المدينة ومعظمهم بها أصدقوا الإسلام يوم رحلته ﷺ أم تغيرت آراؤهم في تربصهم الدوائر وتقليبهم الامور ؟.

* * *

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ـــ ٥٨ . وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ـــ ٥٩ . وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ـــ ٦٠ . لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ
أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ
عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ — ٦١ . إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا
كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ
شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ — ٦٢ . لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ
بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ
عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ — ٦٣ . أَلَا إِنَّ
لِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ
إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ — ٦٤ .

(بيان)

بقية الأحكام المذكورة في السورة وتختتم السورة بآخر الآيات وفيها إشارة إلى أن الله سبحانه إنما يشرّع ما يشرّع بعلمه وسيظهر وسينكشف لهم حقيقته حين يرجعون اليه .

قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم » إلى آخر الآية . وضع الثياب خلعها وهو كناية عن كونهم على حال ربما لا يحبون أن يرام عليها الأجنبي . والظهيرة وقت الظهر ، والعورة السوأة حيث يحسها لما يلحق الإنسان من انكشافها من العار وكأن المراد بها في الآية ما ينبغي ستره .

فقوله : « يا أيها الذين آمنوا » الخ ، تعقيب لقوله سابقاً : « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا » الخ ، القاضي بتوقف دخول البيت على الإذن وهو كالاستثناء من عمومه في العبيد والأطفال بأنه يكفيهم الاستيذان ثلاث مرات في اليوم .

وقوله : « ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم » أي مُروهم أن يستأذنوكم للدخول ، وظاهر الذين ملكت أيمانكم العبيد دون الإماء وإن كان اللفظ لا يأبى عن العموم بعناية التغليب ، وبه وردت الرواية كما سيجيء .

وقوله : « والذين لم يبلغوا الحلم منكم » يعني المميّزين من الأطفال قبل البلوغ ، والدليل على تقيّدهم بالتمييز قوله بعد : « ثلاث عورات لكم » .

وقوله : « ثلاث مرات » أي كل يوم بدليل تفصيله بقوله : « من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة – أي وقت الظهر – ومن بعد صلاة العشاء » ، وقد أشار إلى وجه الحكم بقوله : « ثلاث عورات لكم » أي الأوقات الثلاثة ثلاث عورات لكم لا ينبغي بالطبع أن يطّلع عليكم فيها غيركم .

وقوله : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » أي لا مانع لكم من أن لا تأمروهم بالاستيذان ولا لهم من أن لا يستأذنوكم في غير هذه الأوقات ، وقد أشار إلى جهة نفي الجناح بقوله : « طوّافون عليكم بعضكم على بعض » أي هم كثير الطوف عليكم بعضكم يطوف على بعض للخدمة فالاستيذان كلما دخل حرج عادة فليكتفوا فيه بالعورات الثلاث .

ثم قال : « كذلك يبيّن الله الآيات » أي أحكام دينه التي هي آيات دالّة عليه « والله عليم » يعلم أحوالكم وما تستدعيه من الحكم « حكيم » يراعي مصالحكم في أحكامه .

قوله تعالى : « وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا » الخ ، بيان أن حكم

الاستيذان ثلاث مرات في الأطفال مغيّى بالبلوغ فإذا بلغ الأطفال منكم الحلم بأن بلغوا فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم وهم البالغون من الرجال والنساء الأحرار « كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم » .

قوله تعالى : « والقواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحاً » إلى آخر الآية . القواعد جمع قاعدة وهي المرأة التي قعدت عن النكاح فلا ترجوه لعدم الرغبة في مباشرتها لكبرها ، فقوله : « اللاتي لا يرجون نكاحاً » وصف توضيحي ، وقيل: هي التي يئست من الحيض ، والوصف احترازي .

وفي المجمع : التبرّج إظهار المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، وأصله الظهور ومنه البرج البناء العالي لظهوره .

والآية في معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب ، والمعنى : والكبائر المسنّة من النساء فلا بأس عليهن أن لا يحتجبن حال كونهن غير متبرّجات بزينة .

وقوله : « وأن يستعففن خير لهن » كناية عن الاحتجاب أي الاحتجاب خير لهن من وضع الثياب ، وقوله : « والله سميع عليم » تعليل لما شرع بالاسمين أي هو تعالى سميع يسمع ما يسألنه بفطرتهن عليم يعلم ما يحتجن اليه من الأحكام .

قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم – إلى قوله – أو صديقكم » ظاهر الآية أن فيها جعل حق للمؤمنين أن يأكلوا من بيوت قراباتهم أو التي ائتمنوا عليها أو بيوت أصدقائهم فهم مأذونون في أن يأكلوا منها بمقدار حاجتهم من غير إسراف وإفساد .

فقوله : « ليس على الأعمى حرج – إلى قوله – ولا على أنفسكم » في عطف « على أنفسكم » على ما تقدمه دلالة على أن عدّ المذكورين ليس لاختصاص الحق بهم بل لكونهم أرباب عاهات يشكل عليهم أن يكتسبوا الرزق بعمل أنفسهم أحياناً وإلا فلا فرق بين الأعمى والأعرج والمريض وغيرهم في ذلك .

وقوله : « من بيوتكم أو بيوت آبائكم » الخ ، في عدّ « بيوتكم » مع بيوت الأقرباء وغيرهم إشارة إلى نفي الفرق في هذا الدين المبني على كون المؤمنين بعضهم

أولياء بعض بين بيوتهم أنفسهم وبيوت أقربائهم وما ملكوا مفاتحه وبيوت أصدقائهم.

على أن « بيوتكم » يشمل بيت الابن والزوج كما وردت به الرواية ، وقوله : « أو ما ملكتم مفاتحه » المفاتح جمع مفتح وهو المخزن ، والمعنى : أو البيت الذي ملكتم أي تسلّطتم على مخازنه التي فيها الرزق كما يكون الرجل قيّماً على بيت أو وكيلاً أو سُلِّم اليه مفتاحه .

وقوله : « أو صديقكم » معطوف على ما تقدمه بتقدير بيت على ما يعلم من سياقه ، والتقدير أو بيت صديقكم .

قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً » الأشتات جمع شت وهو مصدر بمعنى التفرّق استعمل بمعنى المتفرق مبالغة ثم جمع أو صفة بمعنى المتفرق كالحق ، والمعنى : لا إثم عليكم أن تأكلوا مجتمعين وبعضكم مع بعض أو متفرقين ، والآية عامة وإن كان نزولها لسبب خاص كما روي .

وللمفسرين في هذا الفصل من الآية وفي الفصل الذي قبلها اختلافات شديدة رأينا الصفح عن إيرادها والغور في البحث عنها أولى ، وما أوردناه من المعنى في الفصلين هو الذي يعطيه سياقها .

قوله تعالى : «فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم تحيّةً من عند الله مباركة طيبة » الخ ، لما تقدم ذكر البيوت فرّع عليه ذكر أدب الدخول فيها فقال : « فإذا دخلتم بيوتاً » .

فقوله : « فسلّموا على أنفسكم » المراد فسلّموا على من كان فيها من أهلها وقد بدّل من قوله : « على أنفسكم » للدلالة على أن بعضهم من بعض فإن الجميع إنسان وقد خلقهم الله من ذكر وأنثى على أنهم مؤمنون والإيمان يجمعهم ويوحّدهم أقوى من الرحم وأي شيء آخر .

وليس ببعيد أن يكون المراد بقوله: «فسلّموا على أنفسكم» أن يسلّم الداخل على أهل البيت ويردّوا السلام عليه .

وقوله : « تحية من عند الله مباركة طيبة » أي حال كون السلام تحية من عند الله شرّعها الله وأنزل حكمها ليحيّي بها المسلمون وهو مبارك ذو خير كثير باق وطيّب

يلائم النفس فإن حقيقة هذه التحية بسط الأمن والسلامة على المسلَّم عليه وهو أطيب أمر يشترك فيه المجتمعان .

ثم ختم سبحانه الآية بقوله : « كذلك يبيّن الله لكم الآيات » وقد مرّ تفسيره « لعلكم تعقلون » أي تعلموا معالم دينكم فتعملوا بها كما قيل .

قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » ذكر قوله « الذين آمنوا بالله ورسوله » بياناً للمؤمنين على ظهور معناه للدلالة على اتصافهم بحقيقة المعنى أي إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله بحقيقة الإيمان وأيقنوا بتوحّده تعالى واطمأنّت نفوسهم وتعلّقت قلوبهم برسوله .

ولذلك عقّبه بقوله : « وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » والأمر الجامع هو الذي يجمع الناس للتدبّر في أطرافه والتشاور والعزم عليه كالحرب ونحوها .

والمعنى : وإذا كانوا مع الرسول بالاجتماع عنده على أمر من الامور العامة لم يذهبوا ولم ينصرفوا من عند الرسول حتى يستأذنوه للذهاب .

ولذلك أيضاً عقّبه بقوله : « إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله » وهو بمنزلة عكس صدر الآية للدلالة على الملازمة وعدم الانفكاك .

وقوله : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » تخيير منه تعالى لرسوله في أن يأذن لمن شاء ولا يأذن لمن لم يشأ .

وقوله : « واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم » أمر له بالاستغفار لهم تطييباً لنفوسهم ورحمة بهم .

قوله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً » إلى آخر الآية ، دعاء الرسول هو دعوته الناس إلى أمر من الامور كدعوتهم إلى الإيمان والعمل الصالح ، ودعوتهم ليشاورهم في أمر جامع ، ودعوتهم إلى الصلاة جامعة ، وأمرهم بشيء في أمر دنياهم او أخراهم فكل ذلك دعاء ودعوة منه ﷺ .

ويشهد بهذا المعنى قوله ذيلاً : « قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً » وما

يتلوه من تهديد مخالفي أمره ﷺ كما لا يخفى . وهو أنسب لسياق الآية السابقة فإنها تمدح الذين يلبثون دعوته ويحضرون عنده ولا يفارقونه حتى يستأذنوه وهذه تذمّ وتهدّد الذين يدعوهم فيتسللون عنه لواذاً غير مهتمّين بدعائه ولا معتنين .

ومن هنـــا يعلم عدم استقامة ما قيل : إن المراد بدعاء النبي ﷺ خطابه فيجب أن يفخّم ولا يساوى بينه وبين غيره من النـاس فلا يقال له : يا محمـد ويا ابن عبد الله ، بل : يا رسول الله .

وكذا ما قيل: إن المراد بالدعاء دعاؤه عليهم لو أسخطوه فهو نهي عن التعرّض لدعائه عليهم بإسخاطه فإن الله تعالى لا يردّ دعاءه هذا، وذلك لأن ذيل الآية لا يساعد على شيء من الوجهين .

وقوله : « قـد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً » التسلل : الخروج من البين برفق واحتيال من سلّ السيف من غمده ، واللواذ : الملاوذة وهو أن يلوذ الإنسان ويلتجيء إلى غيره فيستتر به ، والمعنى : أن الله يعـلم منكم الذين يخرجون من بين الناس والحال أنهم يلوذون بغيرهم ويستترون به فينصرفون فلا يهتمّون بدعاء الرسول ولا يعتنون به .

وقوله : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » ظاهر سياق الآية بما تقدم من المعنى أن ضمير « عن أمره » للنبي ﷺ وهو دعاؤه ، ففي الآية تحذير لمخالفي أمر النبي ﷺ ودعوته من أن تصيبهم فتنـة وهي البليّة أو يصيبهم عذاب أليم .

وقيل : ضمير « عن أمره » راجع إلى الله سبحانه ، والآية وإن لم يقع فيها أمر منه تعالى لكن نهيه المذكور بقوله: « لا تجعلوا دعاء الرسول » الخ ، في معنى أجيبوا دعاء الرسول ، وهو أمر ، وأول الوجهين أوجه .

قوله تعالى : « ألا إن لله ما في السماوات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه » اختتام للسورة ناظر إلى قوله في مفتتحها : « سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنـا فيها آيات بيّنات » فما في مختتمها كالتعليل لما في مفتتحها .

فقوله : « ألا إن لله ما في السماوات والأرض » بيـان لعموم الملك وأن كل شيء

مملوك لله سبحانه قائم به فهي معلومة له بجميع خصوصيات وجودها فيعلم ما تحتاج اليه ، والناس من جملة ما يعلم بحقيقة حاله وما يحتاج اليه فالذي يشرّعه لهم من الدين مما يحتاجون اليه في حياتهم كما أن ما يرزقهم من المعيشة مما يحتاجون اليه في بقائهم .

فقوله : « قد يعلم ما أنتم عليه » – أي من حقيقة الحال المنبئة عن الحاجة – بمنزلة النتيجة المترتبة على الحجة أي ملكه لكم ولكل شيء يستلزم علمه بحالكم وبما تحتاجون اليه من شرائع الدين فيشرّعه لكم ويفرضه عليكم .

وقوله : « ويوم يرجعون اليه فينبّئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم » معطوف على قوله : « ما أنتم عليه » أي ويعلم يوماً يرجعون اليه وهو يوم القيامة فيخبرهم بحقيقة ما عملوا والله بكل شيء عليم .

وفي هذا الذيل حث على الطاعة والانقياد لما شرّعه وفرضه من الأحكام والعمل به من جهة أنه سيخبرهم بحقيقة ما عملوا به كما أن في الصدر حثاً على القبول من جهة أن الله إنما شرّعها لعلمه بحاجتهم اليها وأنها التي ترفع بها حاجتهم .

(بحث روائي)

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم » الآية ، أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس قال : آية لم يؤمن بها أكثر الناس آية الإذن ، وإني لآمر جاريتي هذه – لجارية قصيرة قائمة على رأسه – أن يستأذن عليّ .

وفي تفسير القمي في الآية قال: إن الله تبارك وتعالى نهى أن يدخل أحد في هذه الثلاثة الأوقات على أحد لا أب ولا أخت ولا أم ولا خادم إلا بإذن ، والأوقات بعد طلوع الفجر ونصف النهار وبعد العشاء الآخرة . ثم أطلق بعد هذه الثلاثة الأوقات فقال : « ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن » يعني بعد هذه الثلاثة الأوقات « طوّافون عليكم بعضكم على بعض » .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه‌السلام في قول الله عز وجل :

« ملكت أيمانكم » قال : هي خاصة في الرجال دون النساء . قلت : فالنساء يستأذنّ في هذه الثلاث ساعات ؟ قال: لا ولكن يدخلن ويخرجن «والذين لم يبلغوا الحلم منكم» قال : من أنفسكم ، قال عليكم(١) استيذان كاستيذان من قد بلغ في هذه الثلاث ساعات.

أقول : وروى فيه روايات أخرى غيرها في كون المراد بالذين ملكت أيمانكم الذكور دون الإناث عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفي المجمع في الآية : معناه مروا عبيدكم وإماءكم أن يستأذنوا عليكم إذا أرادوا الدخول إلى موضع خلواتكم عن ابن عباس وقيل : أراد العبيد خاصة عن ابن عمر وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : وبهذه الأخبار وبظهور الآية يضعّف ما رواه الحاكم عن علي عليه السلام في الآية قال : النساء فإن الرجال يستأذنون .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تغلبنّكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء فإنما هي في كتاب الله العشاء وإنما يعتم بحلاب الإبل .

أقول : وروى مثله عن عبد الرحمان بن عوف ولفظه : إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : لا يغلبنّكم الأعراب على اسم صلاتكم قال الله : «ومن بعد صلاة العشاء» وإنما العتمة عتمة الإبل .

وفي الكافي بإسناده عن حريز عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قرأ « أن يضعن من ثيابهن » قال : الجلباب والخمار إذا كانت المرأة مسنّة .

أقول : وفي معناه أخبار أخر .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحّاك قال : كان أهل المدينة قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وآله لا يخالطهم في طعامهم أعمى ولا مريض ولا أعرج لأن الأعمى لا يبصر طيّب الطعام ، والمريض لا يستوفي الطعام كما يستوفي الصحيح ، والأعرج لا يستطيع المزاحمة على الطعام فنزلت رخصة في مواكلتهم .

---

(١) عليهم ظ .

وفيه أخرج الثعلبي عن ابن عباس قال : خرج الحارث غازياً مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلّف على أهله خالد بن زيد فحرج أن يأكل من طعامه وكان مجهوداً فنزلت .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : كان هذا الحي من بني كنانة بن خزيمة يرى أحدهم أن عليه مخزاة أن يأكل وحده في الجاهلية حتى أن كان الرجل يسوق الذود الحفل وهو جائع حتى يجد من يؤاكله ويشاربه فأنزل الله : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً » .

أقول : وفي معنى هذه الروايات روايات أخر .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « أو ما ملكتم مفاتحه أو صديقكم » قال : هؤلاء الذين سمّى الله عز وجل في هذه الآية يأكل بغير إذنهم من التمر والمأدوم وكذلك تطعم المرأة من منزل زوجها بغير إذنه فأما ما خلا ذلك من الطعام فلا .

وفيه بإسناده عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لرجل : أنت ومالك لأبيك ، ثم قال أبو جعفر عليه السلام : وما أحب له أن يأخذ من مال ابنه إلا ما احتاج اليه مما لا بد له منه إن الله لا يحب الفساد .

وفيه بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن رجل لابنه مال فيحتاج الأب قال : يأكل منه فأما الام فلا تأكل منه إلا قرضاً على نفسها .

وفيه بإسناده عن جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : للمرأة أن تأكل وأن تصدّق وللصديق أن يأكل من منزل أخيه ويتصدق .

وفيه بإسناده عن ابن أبي عمير عمن ذكره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « أو ما ملكتم مفاتحه » قال : الرجل يكون له وكيل يقوم في ماله فيأكل بغير إذنه .

وفي المجمع في قوله تعالى : « أن تأكلوا من بيوتكم » ، وقيل : معناه من بيوت أولادكم ويدل عليه قوله عليه السلام : أنت ومالك لأبيك . وقوله عليه السلام : إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه .

أقول : وفي هذه المعاني روايات كثيرة أخرى .

وفي المعاني بإسناده عن أبي الصباح قال: سألت أبا جعفر عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم » الآية فقال : هو تسليم الرجل على أهل البيت حين يدخل ثم يردون عليه فهو سلامكم على أنفسكم .

أقول : وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في تفسير الآية .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين – إلى قوله – حتى يستأذنوه » فإنها نزلت في قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأمر من الامور في بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عز وجل عن ذلك .

وفيه في قوله تعالى : « فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم » قال: نزلت في حنظلة بن أبي عياش وذلك أنه تزوج في الليلة التي كان في صبيحتها حرب أحد فاستأذن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أن يقيم عند أهله فأنزل الله عز وجل هذه الآية « فأذن لمن شئت منهم » فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال فاستشهد ، فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض فكان يسمّى غسيل الملائكة .

وفيه في قوله تعالى : « لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضاً » قال : لا تدعوا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم كما يدعو بعضكم بعضاً ، وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله عز وجل : « لا تجعلوا دعاء الرسول كدعاء بعضكم بعضاً » ، يقول : لا تقولوا : يا محمد ولا يا أبا القاسم لكن قولوا : يا نبي الله ويا رسول الله .

أقول : وروي مثله عن ابن عباس ، وقد تقدم أن ذيل الآية لا يلائم هذا المعنى تلك الملائمة .

(سورة الفرقان مكية ، وهي سبع وسبعون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ. تَبٰارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقٰانَ عَلىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰالَمِينَ نَذِيراً ــ ١ . ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ــ ٢ . وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاٰ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاٰ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاٰ نَفْعاً وَلاٰ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاٰ حَيٰوةً وَلاٰ نُشُوراً ــ ٣ .

(بيان)

غرض السورة بيان أن دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوة حقة عن رسالة من جانب الله تعالى وكتاب نازل من عنده وفيها عناية بالغة بدفع ما أورده الكفار على كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم رسولاً من جانب الله وكون كتابه نازلاً من عنده ورجوع اليه كرة بعد كرة .

وقد استتبع ذلك شيئاً من الاحتجاج على التوحيد ونفي الشريك وذكر بعض أوصاف يوم القيامة وذكر نبذة من نعوت المؤمنين الجميلة ، والكلام فيها جار على سياق الإنذار والتخويف دون التبشير .

والسورة مكية على ما يشهد به سياق عامة آياتها نعم ربما استثني منها ثلاث آيات وهي قوله تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر – إلى قوله – غفوراً رحيماً » .

ولعل الوجه فيه اشتمالها على تشريع حرمة الزنا لكنك قد عرفت فيما أوردناه من أخبـــار آية الخمر من سورة المائدة أن الزنا والخمر كانا معروفين بالتحريم في الإسلام من أول ظهور الدعوة الإسلامية .

ومن العجيب قول بعضهم : إن السورة مدنية كلها إلا ثلاث آيات من أولها « تبارك الذي ـ إلى قوله ـ نشورا » .

قوله تعالى : « تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » البركة بفتحتين ثبوت الخير في الشيء كثبوت الماء في البركة بالكسر فالسكون مأخوذ من برك البعير إذا ألقى صدره على الأرض واستقرّ عليها ، ومنه التبارك بمعنى ثبوت الخير الكثير وفي صيغته دلالة على المبالغة على ما قيل ، وهو كالمختص به تعالى لم يطلق على غيره إلا على سبيل الندرة .

والفرقان هو الفرق سمّي به القرآن لنزول آياته متفرقـة أو لتمييزه الحق من الباطل ويؤيد هـذا المعنى إطلاق الفرقان في كلامه تعالى على التوراة أيضاً مع نزولها دفعة ، قال الراغب في المفردات : والفرقان أبلغ من الفرق لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل ، وتقديره كتقدير رجل قُنعان يقنع به في الحكم ، وهو اسم لا مصدر فيما قيل ، والفرق يستعمل فيه وفي غيره . انتهى .

والعالمون جمع عالم ومعناه الخلق قال في الصحاح : العـالم الخلق والجمع العوالم ، والعالمون أصناف الخلق انتهى . واللفظة وإن كانت شاملة لجميع الخلق من الجمـــاد والنبات والحيوان والإنسان والجن والملك لكن سياق الآية ـ وقد جعل فيها الإنذار غاية لتنزيل القرآن ـ يدل على كون المراد بها المكلفين من الخلق وهم الثقلان : الإنس والجن فيما نعلم .

وبذلك يظهر عدم استقامة ما ذكره بعضهم أن الآية تدل على عموم رسالته ﷺ لجميع ما سوى الله فإن فيه غفلة عن وجه التعبير عن الرسالة بالإنذار ونظير الآية قوله تعالى: « واصطفاك على نساء العالمين » آل عمران : ٤٢ وقوله : « وفضّلناهم على العالمين » الجاثية : ١٦ .

والنذير بمعنى المنذر على ما قيل ، والإنذار قريب المعنى من التخويف .

فقوله تعالى : «تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده» أي ثبت وتحقق خير كثير فيمن نزّل الفرقان على عبده محمد ﷺ ، وثبوت الخير الكثير العائد إلى الخلق فيه تعالى كناية عن فيضانه منه على خلقه حيث نزّل على عبده كتاباً فارقاً بين الحق والباطل منقذاً للعالمين من الضلال سائقاً لهم إلى الهدى .

والجمع في الآية بين نزول القرآن من عنده تعالى وكون النبي ﷺ رسولا منه نذيراً للعالمين مع تسمية القرآن فرقاناً بين الحق والباطل وتوصيف النبي ﷺ بكونه عبداً له نذيراً للعالمين المشعر بكونه مملوكاً مأموراً لا يملك من نفسه شيئاً كل ذلك تمهيد لما سيحكي – عن المشركين من طعنهم في القرآن بأنه افتراه على الله اختلقه النبي ﷺ وأعانه على ذلك قوم آخرون ، ومن طعنهم في النبي ﷺ بأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق وسائر ما تفوّهوا به – وما يدفع به مطاعنهم .

فالمحصّل أنه كتاب يفرّق بحجته الباهرة بين الحق والباطل فلا يكون إلا حقاً إذ الباطل لا يفرّق بين الحق والباطل وإنما يشبّه الباطل بالحق ليلبس على الناس ، وأن الذي جاء به عبد مطيع لله ينذر به العالمين ويدعوهم إلى الحق فلا يكون إلا على الحق ولو كان مبطلا لم يدع إلى الحق بل حاد عنه والمحرف على أن الله سبحانه يشهد في كلامه المعجز بصدق رسالته وأن الذي جاء به من الكتاب منزل من عنده .

ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالفرقان مطلق الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء ، وبعبده عامة الأنبياء عليهم السلام ، ولا يخفى بعده من ظاهر اللفظ .

وقوله تعالى : « ليكون للعالمين نذيراً » اللام للتعليل وتدل على أن غاية تنزيل الفرقان على عبده أن يكون منذراً لجميع العالمين من الإنس والجن ، والجمع المحلّى باللام يفيد الاستغراق ، ولا يخلو الإتيان بصيغة الجمع المحلى باللام من إشارة إلى أن للجميع إلهاً واحداً لا كما يذهب اليه الوثنيون حيث يتخذ كل قوم إلهاً غير ما يتخذه الآخرون .

والإكتفاء بذكر الإنذار دون التبشير لأن الكلام في السورة مسوق سوق الإنذار والتخويف .

قوله تعالى : « الذي له ملك السموات والأرض » إلى آخر الآية . الملك بكسر

الميم وفتحها قيام شيء بشيء بحيث يتصرف فيه كيف شاء سواء كان قيام رقبته به كقيام رقبة المال بمالكه بحيث كان له أنواع التصرف فيه أو قيامه به باستيلائه عليه بالتصرف بالأمر والنهي وأنواع الحكم كاستيلاء الملك على الناس من رعيته ومـا في أيديهم ، ويطلق على القسم الثاني الملك بضم الميم .

فالملك بكسر الميم أعم من الملك بضمها كما قال الراغب الملك – بفتح الميم وكسر اللام – هو المتصرف بالأمر والنهي في الجمهور ، وذلك يختص بسياسة الناطقين ، ولهذا يقال : ملك الناس ولا يقال : مُلكُ الأشياء – إلى أن قال – فالملك بالضم – ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم ، والملك – بالكسر – كالجنس للملك فكل ملك – بالضم – ملك بالكسر – وليس كل ملك – بالكسر – ملكاً – بالضم – انتهى .

وربما يخص الملك بالكسر بما يتعلق بالرقبة ، والملك بالضم بغيره .

فقوله تعالى : « الذي له ملك السماوات والأرض » واللام للاختصاص – يفيد أن السماوات والأرض مملوكة له غير مستقلة بنفسها في جهة من جهاتها ولا مستغنية عن التصرف فيهـــا بالحكم وأن الحكم فيها وإدارة رحاها يختص به تعالى فهو المليك المتصرف بالحكم فيها على الإطلاق .

وبذلك يظهر ترتب قوله : « ولم يتخذ ولداً » على ما تقدمه فإن الملك على الإطلاق لا يدع حاجة إلى اتخاذ الولد إذ اتخاذ الولد لأحد أمرين إما لكون الشخص لا يقوى على إدارة رحى جميع أموره ولا يملك تدبيرها جميعاً فيتخذ الولد ليستعين به على بعض حوائجه والله سبحانه يملك كل شيء ويقوى على مـا أراد ، وإما لكون الشخص محدود البقاء لا يملك ما يملك إلا في أمد محدود فيتخذ الولد ليخلفه فيقوم على أموره بعده والله سبحانه يملك كل شيء سرمداً ولا يعتريه فناء وزوال فلا حاجة له إلى اتخاذ الولد البتة وفيه رد على المشركين والنصارى .

وكذا قوله تعالى بعده : « ولم يكن له شريك في الملك » فان الحاجة إلى الشريك إنما هي فيما إذا لم يستوعب الملك الامور كلها وملكه تعالى عام لجميع الأشياء محيط بجميع جهاتها لا يشذ منه شاذ ، وفيه رد على المشركين .

وقوله تعالى : « وخلق كل شيء فقدّره تقديراً » بيان لرجوع تدبير عامة الامور اليه تعالى وحده بالخلق والتقدير فهو رب العالمين لا رب سواه .

بيان ذلك أن الخلقة لما كانت بتوسيط الأسباب المتقدمة على الشيء والمقارنة له استلزم ذلك ارتباط وجودات الأشياء بعضها ببعض فيتقدّر وجود كل شيء وآثار وجوده حسب ما تقدره العلل والعوامل المتقدمة عليه والمقارنة له فالحوادث الجارية في العالم على النظام المشهود مختلطة بالخلقة تابعة للعلل والعوامل المتقدمة والمقارنة وإذ لا خالق غير الله سبحانه فلا مدبر للأمر غيره فلا رب يملك الأشياء ويدبر أمرها غيره.

فكونه تعالى له ملك السماوات والارض حاكماً متصرفاً فيها على الاطلاق يستلزم قيام الخلقة به إذ لو قامت بغيره كان الملك لذلك الغير ، وقيام الخلقة به يستلزم قيام التقدير به ، لكون التقدير متفرعاً على الخلقة ، وقيام التقدير به يستلزم قيام التدبير به فله الملك والتدبير فهو الرب عز شأنه .

وملكه تعالى للسماوات والارض وإن استلزم استناد الخلق والتقدير اليه لكن لما كان الوثنيون مع تسليمهم عموم ملكه يرون أن ملكه للجميع وربوبيته للكل لا ينافي ملك آلهتهم وربوبيتهم للبعض بتفويضه تعالى ذلك اليهم فكل من الآلهة مليك في صقع ألوهيته رب لمربوبيته والله سبحانه ملك الملوك ورب الارباب وإله الآلهة .

فلذلك لم يكف قوله : « الذي له ملك السماوات والارض » لإثبات اختصاص الربوبية به تعالى قبالهم بل احتج إلى الإتيان بقوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً ».

فكأن قائلاً يقول : هب أن ملكه للسماوات والأرض يغنيه عن اتخاذ الولد والشريك الموجب لسلب ملكه عن بعض الأشياء لكن لم لا يجوز أن يتخذ بعض خلقه شريكاً لنفسه بتفويض بعض أمور العالم اليه مع كونه مالكاً له ولما فوّضه اليه وهذا هو الذي كانت تراه المشركون فقد كانوا يقولونه في تلبية الحج: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

فاجيب عنه بأن الخلق له سبحانه والتقدير يلازمه وإذا اجتمعا لزمهما التدبير فله سبحانه تدبير كل شيء فليس مع ملكه ملك ولا مع ربوبيته ربوبية .

فقد تحصل أن قوله : «الذي له ملك السماوات والارض ولم يتخذ ولداً ولم يكن

له شريك في الملك ، مسوق لتوحيد الربوبية ونفي الولد والشريك من طريق إثبات الملك المطلق ، وأن قوله : « وخلق كل شيء فقدّره تقديراً » تقرير وبيان لمعنى عموم الملك وأنه ملك متقوّم بالخلق والتقدير موجب لتصديه تعالى لكل حكم وتدبير من غير أن يفوّض شيئاً من الأمر إلى أحد من الخلق .

وفي الآية والتي قبلها لهم أقوال أخر أغمضنا عن إيرادها لخلوّها عن الجدوى .

قوله تعالى : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون » الخ ، لمّا نعت نفسه بأنـه خالق كل شيء ومقدّره وأن له ملك السماوات والأرض وهكذا كان يجب أن يكون الإله المعبود ، أشار إلى ضلالة المشركين حيث عبدوا أصناماً ليست بخالقة شيئاً بل هي مخلوقة مصنوعة لهم ولا مالكة شيئاً لأنفسهم ولا لغيرهم .

وضمير « واتخذوا » للمشركين على ما يفيده السياق وإن لم يسبق لهم ذكر ومثل هذا التعبير يفيد التحقير والاستهانة .

وقوله : « من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » يريـــد به أصنامهم التي صنعوها بأيديهم بنحت او نحوه ، وتوصيفها بالآلهة مع تعقيبها بمثل قوله : « لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون » إشارة إلى أن ليس لها من الالوهية إلا اسم سمّوها به من غير أن تتحقق من حقيقتها بشيء كما قـال تعالى : « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » النجم : ٢٣ .

ووضع النكرة في قوله : « لا يخلقون شيئاً » في سياق النفي مبالغة في تقريعهم حيث أعرضوا عن الله سبحانه وهو خالق كل شيء وتعلقوا بأصنام لا يخلقون ولا شيئاً من الأشياء بل هم أردأ حالاً من ذلك حيث إنهم مصنوعون لعبّادهم مخلوقون لأوهامهم ، ونظير الكلام جار في قوله : « ضراً ولا نفعاً » وقوله : « موتاً ولا حياة ولا نشوراً » .

وقوله : « ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً » نفي للملك عنهم وهو ضروري في الإله إذ كان عبّادهم إنما يعبدونهم ليدفعوا عنهم الضر ويجلبوا إليهم النفع وإذ كانوا لا يملكون ضراً ولا نفعاً حتى لأنفسهم لم تكن عبادتهم إلا خبلاً وضلالاً .

وبذلك يظهر أن في وقوع « لأنفسهم » في السياق زيادة تقريع والكلام في معنى الترقي أي لا يملكون لأنفسهم ضراً حتى يدفعوه ولا نفعاً حتى يجلبوه فكيف لغيرهم؟ وقد قدّم الضر على النفع لكون دفع الضرر أهم من جلب النفع .

وقوله : « ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً » أي لا يملكون موتاً حتى يدفعوه عن عبّادهم او عمن شاؤا ولا حياة حتى يسلبوها عمن شاؤا او يفيضوها على من شاؤا ولا نشوراً حتى يبعثوا الناس فيجازوهم على أعمالهم ، وملك هذه الامور من لوازم الالوهية .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن ابن سنان عمن ذكره قال : سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن القرآن والفرقان هما شيئان او شيء واحد ؟ فقال : القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به .

وفي الاختصاص للمفيد ، في حديث عبد الله بن سلام لرسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال : فأخبرني هل أنزل الله عليك كتاباً ؟ قال : نعم ، قال : وأي كتاب هو ، قال : الفرقان : قال ولم سماه ربك فرقاناً ؟ قال : لأنه متفرق الآيات والسور أنزل في غير الألواح وغيره من الصحف والتوراة والإنجيل والزبور أنزلت كلها جملة في الألواح والأوراق . قال : صدقت يا محمد .

أقول : كل من الروايتين ناظرة إلى واحد من معنيي الفرقان المتقدمين .

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً ـ ٤ . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ـ ٥ . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ

السِّرَّ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً – ٦. وَقَالُوا
مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً – ٧ . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ
جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً – ٨ .
أُنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً – ٩ .
تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً – ١٠. بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا
لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً – ١١. إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا
لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيرًا – ١٢ . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ
دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً – ١٣ . لاَ تَدْعُوا ٱلْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَٱدْعُوا
ثُبُوراً كَثِيراً – ١٤ . قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ
كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً – ١٥ . لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُنَ خَالِدِينَ كَانَ
عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً – ١٦ . وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هٰؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ – ١٧.
قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ
وَلٰكِن مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً – ١٨ .
فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ

مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذاباً كَبِيراً ـ ١٩ . وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ
فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ـ ٢٠ .

(بيان)

تحكي الآيات عن المشركين ما طعنوا به في القرآن الكريم في النبي ﷺ وتجيب عنه .

قوله تعالى : « قال الذين كفروا إن هـذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون » الخ في التعبير بمثل قوله : « وقال الذين كفروا » من غير أن يقال : وقالوا ، مع تقدم ذكر الكفار في قوله : « واتخذوا من دونه آلهة » تلويح إلى أن القائلين بهذا القول هم كفار العرب دون مطلق المشركين .

والمشار اليه بقولهم : « إن هذا » القرآن الكريم ، وإنما اكتفوا بالإشارة دون أن يذكروه باسمه أو بشيء من أوصافه إزراء به وحطاً لقدره .

والإفك هو الكلام المصروف عن وجهه ، ومرادهم بكونه إفكاً افتراه كونه كذباً اختلقه النبي ﷺ ونسبه إلى الله سبحانه .

والسياق لا يخلو من إيماء إلى أن المراد بالقوم الآخرين بعض أهل الكتاب وقد ورد في بعض الآثار أن القوم الآخرين هم عداس مولى حويطب بن عبد العزّى ويسار مولى العلاء بن الحضرمي وجبر مولى عامر كانوا من أهل الكتاب يقرؤن التوراة أسلموا وكان النبي ﷺ يتعهدهم فقيل ما قيل .

وقوله : « فقد جاؤا ظلماً وزوراً » قال في مجمع البيان : إن جاء وأتى ربما كانا بمعنى فعل فيتعديان مثله فمعنى الآية فقد فعلوا ظلماً وكذباً ، وقيل : إن ظلماً منصوب بنزع الخافض والتقدير فقد جاؤا بظلم ، وقيل : حال والتقدير فقد جاؤا ظالمين وهو سخيف .

وفيه أيضاً : ومتى قيل : كيف اكتفى بهذا القدر في جوابهم ؟ قلنا : لما تقدم التحدي وعجزهم عن الإتيان بمثله اكتفى ههنا بالتنبيه على ذلك . انتهى والظاهر أن الجواب عن قولهم : « إن هذا إلا إفك افتراه » ـ الخ ، وقولهم : « أساطير الأولين اكتتبها » الخ ، جميعاً هو قوله تعالى : « قل أنزله الذي يعلم السر » الخ ، على ما سنبين والجملة أعني قوله : « فقد جاؤا ظلماً وزوراً » رد مطلق لقولهم وهو في معنى المنع مع السند وسنده الآيات المشتملة على التحدي .

وبالجملة معنى الآية : وقال الذين كفروا من العرب ليس هذا القرآن إلا كلاماً مصروفاً عن وجهه ـ حيث إنه كلام محمد ﷺ وقد نسبه إلى الله ـ افترى به على الله وأعانه على هذا الكلام قوم آخرون وهم بعض أهل الكتاب فقد فعل هؤلاء الذين كفروا بقولهم هذا ظلماً و كذباً .

قوله تعالى : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » الأساطير جمع أسطورة بمعنى الخبر المكتوب ويغلب استعماله في الأخبار الخرافية والاكتتاب هو الكتابة ونسبته اليه ﷺ مع كونه امياً لا يكتب إنما هي بنوع من التجوز ككونه مكتوباً باستدعاء منه كما يقول الأمير كتبت إلى فلان كذا و كذا وإنما كتبه كاتبه بأمره ، والدليل على ذلك قوله بعد : « فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » إذ لو كان هو الكاتب لم يكن معنى للاملاء ، وقيل : الاكتتاب بمعنى الاستكتاب .

والإملاء إلقاء الكلام إلى المخاطب بلفظه ليحفظه ويعيه أو إلى الكاتب ليكتبه والمراد به في الآية هو المعنى الأول على مـا يعطيه سياق « اكتتبها فهي تملي عليه » إذ ظاهره تحقق الاكتتاب دفعة والإملاء تدريجاً على نحو الاستمرار فهي مكتوبة مجموعة عنده تقرأ عليه وقتاً بعد وقت وهو يعيها فيقرأ على الناس ما وعاه وحفظه .

والبكرة والأصيل الغداة والعشي ، وهو كناية عن الوقت بعـد الوقت ، وقيل المراد أول النهار قبل خروج الناس من منازلهم وآخر النهار بعـد دخولهم في منازلهم وهو كناية عن أنها تملى عليه خفية .

والآية بمنزلة التفسير للآية السابقة فكأنهم يوضحون قولهم : إنـــه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون بأنهم كتبوا له أساطير الأولين ثم يتلونها عليه وقتاً بعد وقت

بقراءة شيء بعد شيء عليه ، وهو يقرؤها على الناس وينسبها الى الله سبحانه .

فالآية بتمامها من كلام الذين كفروا ، وربما قيل : إن قوله : « اكتتبها فهي تملى عليه » إلى آخر الآية من كلام الله سبحانه لا من تمام كلامهم ، وهو استفهام إنكاري لقولهم : أساطير الأولين ، والسياق لا يساعد عليه .

قوله تعالى : « قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً » أمر للنبي ﷺ برد قولهم وتكذيبهم فيما رموا به القرآن أنه إفك مفترى وأنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه وقتاً بعد وقت .

وتوصيفه تعالى بأنه يعلم السر أي خفيّات الامور وبواطنها في السماوات والأرض للإيذان بأن هذا الكتاب الذي أنزله منطو على أسرار مطوية عن عقول البشر ، وفيه تعريض بمجازاتهم على جناياتهم التي منها رميهم القرآن بأنه إفك مفترى وأنه من الأساطير وهو مما يعلمه تعالى .

وقوله : « إنه كان غفوراً رحيماً » تعليل لما هو المشاهد من إمهالهم وتأخير عقوبتهم على جناياتهم وتكذيبهم للحق وجرأتهم على الله سبحانه .

والمعنى : قل إن القرآن ليس إفكاً مفترى ولا من الأساطير كما يقولون بل كتاب منزل من عند الله سبحانه ضمّنه أسرار خفية لا تصل الى كنهها عقولكم ولا تحيط بها أحلامكم ، ورميكم إياه بالإفك والأساطير وتكذيبكم لحقائقه جناية عظيمة تستحقون بها العقوبة غير أن الله سبحانه أمهلكم وأخّر عقوبة جنايتكم لأنه متصف بالمغفرة والرحمة وذلك يستتبع تأخير العذاب ، هذا ملخص ما ذكروه في معنى الآية.

وفيه أن السياق لا يساعد عليه فإن محصّل معنى الآية على ما فسّروه يرجع الى رد دعوى الكفار كون القرآن إفكاً مفترى ومن الأساطير بدعوى أنه منزل من عند الله منطو على أسرار خفية لا سبيل لهم الى الوقوف عليها لا مساغ في مقام المخاصمة لرد الدعوى بدعوى أخرى مثلها او هي أخفى منها .

على أن التعليل بقوله : « إنه كان غفوراً رحيماً » إنما يناسب انتفاء العقوبة من أصلها دون الإمهال والتأخير وإنما المناسب للإمهال والتأخير من الأسماء هو مثل الحليم والعليم والحكيم دون الغفور الرحيم .

والأوفق لمقام المخاصمة والدفاع بإبانة الحق والتعليل بالمغفرة والرحمة أن يكون قوله : « إنه كان غفوراً رحيماً » تعليلاً لإنزال الكتاب وقد ذكر قبل ذلك أنه أنزله على عبده ليكون للعالمين نذيراً وهذه هي النبوة، ويكون حينئذ وصفه تعالى بعلم السر في السماوات والأرض للإيماء إلى أن في سرهم ما يستدعي شمول المغفرة والرحمة الإلهيتين لحالهم وهو طلبهم بفطرتهم وجبلّتهم للسعادة والعاقبة الحسنى التي ليست حقيقتها إلا السعادة الإنسانية بشمول المغفرة والرحمة وإن أخطأ كثير منهم في تطبيقها على التمتع بالحياة الدنيا وزينتها الداثرة فيكون حجة برهانية على حقّية الدعوة النبوية المشتملة عليها القرآن ، وبطلان دعوى كونه إفكاً من أساطير الأولين .

وتقرير الحجة أن الله سبحانه يعلم السر في السماوات والأرض وهو يعلم أن في سركم المستقر في سرائركم المجبولة عليه فطرتكم حباً للسعادة وطلباً وانتزاعاً للعاقبة الحسنى وحقيقتها فوز الدنيا والآخرة ، وكان سبحانه غفوراً رحيماً ومقتضى ذلك أن يجيبكم إلى ما تسألونه في سركم وبلسان فطرتكم فيهديكم إلى سبيله التي تضمن لكم السعادة.

وهذا كتاب ينطق عليكم بسبيله فليس إفكاً مفترى على الله ولا من قبيل الأساطير بل هو كتاب يتضمن ما تسألونه بفطرتكم وتستدعونه في سرّكم فإن استجبتم لداعيه شملتكم المغفرة والرحمة وإن توليتم حرمتم ذلك فهو كتاب منزل من عند الله ولو لم يكن نازلاً من عنده كما يخبر عنه لم يهد إلى حقيقة السعادة ولم يدع إلى محض الحق ولاختلفت بياناته فدعاكم تارة إلى ما فيه خيركم ونفعكم وهو الذي يجلب اليكم المغفرة والرحمة ، وتارة إلى ما هو شرّ لكم وضارّ وهو الذي يثير عليكم السخط الإلهي ويستوجب لكم العقوبة .

قوله تعالى : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً او يُلقى اليه كنز او يكون له جنة يأكل منها » هذه حكاية ما طعنوا به في الرسول بعد ما حكى طعنهم في القرآن بقوله : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه » الخ .

وتعبيرهم عنه ﷺ بقولهم : « هذا الرسول » مع تكذيبهم برسالته مبني على التهكم والاستهزاء .

وقولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » استفهام للتعجيب والوجه فيه أن الوثنيين يرون أن البشر لا يسوغ له الاتصال بالغيب وهو متعلق الوجود بالمادة منغمر في ظلماتها ، ومتلوّث بقذاراتها ، ولذا يتوسلون في التوجه إلى اللاهوت بالملائكة فيعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله ويقرّبوهم من الله زلفى فالملائكة هم المقرّبون عند الله المتصلون بالغيب المتعيّنون للرسالة لو كانت هناك رسالة ، وليس للبشر شيء من ذلك .

ومن هنا يظهر معنى قولهم: « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » وأن المراد أن الرسالة لا تجامع أكل الطعام والمشي في الأسواق لاكتساب المعاش فإنها اتصال غيبي لا يجامع التعلقات المادية ، وليست إلا من شؤون الملائكة ولذا قالوا في غير موضع على ما حكاه الله تعالى: «لو شاء الله لأنزل ملائكة» المؤمنون: ٢٤ أو ما في معناه.

ومن هنا يظهر أيضاً أن قولهم: « لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا » تنزّل من المشركين في الاقتراح أي كيف يكون هذا المدّعي للرسالة رسولا وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق والرسول لا يكون إلا ملكاً منزّهاً عن هذه الخصال المادية ، فإن تنزّلنا وسلّمنا رسالته وهو بشر فلينزل اليه ملك يكون معه نذيراً ليتصل الإنذار وتبليغ الرسالة بالغيب بتوسّط الملك .

وكذا قولهم : « أو يلقى اليه كنز » تنزّل عما قبله من الاقتراح أي إن لم ينزل اليه ملك واستقلّ بالرسالة وهو بشر فليُلق اليه من السماء كنز حتى يصرف منه في وجوه حوائجه المادية ولا يكدح في الأسواق في اكتساب ما يعيش به ، ونزول الكنز اليه أسهل من نزول الملك اليه ليعينه في تبليغ الرسالة .

وكذا قولهم : « أو يكون له جنة يأكل منها » تنزّل عما قبله في الاقتراح ، والمعنى : وإن لم يلق اليه كنز فليكن له جنة يأكل منها ولا يحتج إلى كسب المعاش وهذا أسهل من إلقاء الكنز اليه .

قوله تعالى : « وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » المراد بالظالمين هم المقترحون السابقو الذكر – كما قيل – فهو من وضع الظاهر موضع المضمر ووصفهم بالظلم للدلالة على بلوغهم في الظلم والاجتراء على الله ورسوله .

وقولهم : « إن تتبعون » الخ ، خطاب منهم للمؤمنين تعييراً لهم وإغواء عن طريق الحق ، ومرادهم بالرجل المسحور النبي ﷺ يريدون أنه مسحور سحره بعض السحرة فصار يخيّل اليه أنه رسول يأتيه ملك الوحي بالرسالة والكتاب .

قوله تعالى : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلّوا فلا يستطيعون سبيلا » الأمثال الأشباه وربما قيل : إن المثل هنا بمعنى الوصف على حدّ قوله تعالى : « مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن » سورة محمد: ١٥ ، والمحصّل: انظر كيف وصفوك فضلّوا فيك ضلالاً لا يرجى معه اهتداؤهم إلى الحق كقولهم إنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق فلا يصلح للرسالة لأن الرسول يجب أن يكون شخصاً غيبياً لا تعلّق له بالمادة ولا أقل من عدم احتياجه إلى الأسباب العادية في تحصيل المعاش ، وكقولهم : إنه رجل مسحور .

وقوله : « فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » أي تفرّع على هذه الأمثال التي ضربوها لك أنهم ضلوا ضلالاً لا يستطيعون معه أن يردوا سبيل الحق ولا يرجى لهم معه الاهتداء فإن من أخطأ الطريق ربما أخطأها بانحراف يسير يرجى معه ركوبها ثانياً ، وربما استدبرها فصار كلما أمعن في مسيره زاد منها بعداً ، ومن سمى كتاب الله بالأساطير ووصف رسوله بالمسحور ولم يزل يزيد تعنتاً ولجاجاً واستهزاء بالحق كيف يرجى اهتداؤه وحاله هذه ؟

قوله تعالى : « تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً » الإشارة في قوله : « من ذلك » إلى ما اقترحوه من قولهم : « أو يكون له جنة يأكل منها » أو إلى مجموع ما ذكروه من الكنز والجنة .

والقصور جمع قصر وهو البيت المشيد العالي ، وتنكير « قصورا » للدلالة على التعظيم والتفخيم .

والآية بمنزلة الجواب عن طعنهم بالنبي ﷺ واقتراحهم أن ينزل اليه ملك أو يُلقى اليه كنز أو يكون له جنة غير أن فيها التفاتاً من التكلم إلى الغيبة فلم يقل : قل إن شاء ربي جعل لي كذا وكذا بل عدل إلى قوله : « تبارك الذي إن شاء جعل لك » الخ .

وفيه تلويح إلى أنهم لا يستحقون جواباً ولا يصلحون لأن يخاطبوا لأنهم على علم بفساد ما اقترحوا به عليه فالنبي ﷺ لم يذكر لهم إلا أنه بشر مثلهم يوحى اليه ، ولم يدّع أن له قدرة غيبية وسلطنة إلهية على كل ما يريد أو يراد منه ، كما قال تعالى بعدما حكى بعض اقتراحاتهم في سورة الإسراء ، « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا » أسرى : ٩٣ .

فأعرض سبحانه عن مخاطبتهم وعن الجواب عما اقترحوه ، وانما ذكر لنبيه ﷺ أن ربه الذي اتخذه رسولا وأنزل عليه الفرقان ليكون للعالمين نذيراً قادر على أعظم مما يقترحونه فإن شاء جعل له خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل له قصورا لا يبلغ وصفها واصف وذلك خير من أن يكون له جنة يأكل منها أو يلقى اليه كنز ليصرفه في حوائجه .

وبهذا المقدار يتحصل جوابهم فيما اقترحوه من الكنز والجنة ، وأما نزول الملك اليه ليشاركه في الانذار ويعينه على التبليغ فلم يذكر جواب عنه لظهور بطلانه ، وقد أجاب تعالى عنه في مواضع من كلامه بأجوبة مختلفة كقوله : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » الأنعام: ٩ ، وقوله : « قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا » أسرى : ٩٥ ، وقوله : « ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين » الحجر : ٨ ، وقد تقدم تقرير حجة كل من الآيات في ضمن تفسيرها .

ومن هنا يظهر أن المراد بجعل الجنات والقصور له ﷺ جعله في الدنيا على ما يقتضيه مقام المخاصمة ورد قولهم فإن المحصل من السياق أنهم يقترحون عليك كيت وكيت وهم يريدون تعجيزك وتبكيتك وإن ربك قادر على أعظم من ذلك فإن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار «الخ» وهي لا محالة في الدنيا وإلا لم ينقطع به الخصام .

وبذلك يتبين فساد ما نقل عن بعضهم أن المراد جنات الآخرة وقصورها وأفسد منه قول آخرين ان المراد جعل جنات تجري من تحتها الأنهار في الدنيا وجعل القصور في الآخرة ، وربما استونس لذلك بأن التعبير في الجنات بقوله : « ان شاء جعل » وهو

صيغة ماض مفيدة للتحقق مناسبة للدنيا ، وفي القصور بقوله : « يجعل » وهو صيغة مستقبل مناسبة للآخرة هذا مع أن الفعل الواقع في حيز الشرط منسلخ عن الزمان ، والاختلاف في التعبير تفنن فيه وتجديد لصورة الكلام والله العالم .

قوله تعالى : « بل كذبوا بالساعة واعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيرا » ، اضراب عن طعنهم فيه ﷺ واعتراضهم عليه بأكل الطعام والمشي في الأسواق بما يتضمن معنى التكذيب أي ما كذبوك وردّوا نبوتك لأنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق فإنما هو كلام منهم صوري بل السبب الأصلي في إنكارهم نبوّتك وطعنهم فيك أنهم كذّبوا بالساعة وأنكروا المعاد ، ومن المعلوم أن لا وقع للنبوة مع إنكار الساعة ولا معنى للدين والشريعة لولا المحاسبة والمجازاة .

فالإشارة الى السبب الأصلي بعد ذكر الاعتراض والاقتراح والجواب ههنا نظير ما وقع في سورة الإسراء بعد ذكر الإقتراحات ثم الجواب من ذكر السبب الاصلي في قوله : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً وما منع الناس أن يؤمنوا إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً » .

وذكر جمع من المفسرين أن قوله : « بل كذّبوا بالساعة » حكاية لبعض آخر من أباطيلهم كما حكى بعضاً آخر منها متعلقاً بالتوحيد والكتاب والرسالة في قوله : « واتخذوا من دونه آلهة » وقوله : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك » الخ ، وقوله : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل » الخ .

ثم تشعبوا في نكتة الإضراب ، فذكر بعضهم أن الوجه فيه كون المعاد لا ريب فيه ، وقال بعضهم : إن إنكاره أعظم ، وقال بعضهم : إنه أعجب الى غير ذلك .

والحق أن السياق لا يساعد عليه فإن السياق المتعرض لطعنهم في الرسول ﷺ والجواب عنه لم يتم بعد بشهادة قوله بعد : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » الخ ، وما يتلوه من الآيات فلا معنى لاعتراض حكاية تكذيبهم بالساعة بين الآيات الحاكية لتكذيبهم بالرسول والمجيبة عنه ، وهو ظاهر .

وقوله تعالى: « وأعتدنا لمن كذّب بالساعة سعيراً » وضع الموصول والصلة مكان

الضمير الراجع للدلالة على أن الجزاء بالسعير ثابت في حق كل من كذّب بالساعة هم وغيرهم فيه سواء ، وعلى أن سبب إعتاد السعير عليه فيهم تكذيبهم بالساعة .

ووضع الساعة ثانياً موضع ضميرها ليكون أنصّ وأصرح فهو المناسب لمقام التهديد ، والسعير النار المشتعلة الملتهبة .

قوله تعالى : «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً» في المفردات: الغيظ أشد غضب – إلى أن قال – والتغيظ هو إظهار الغيظ ، وقد يكون ذلك مع صوت مسموع كما قال : « سمعوا لها تغيظاً وزفيرا » انتهى ، وفيه أيضاً : الزفير تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه ، انتهى .

والآية تمثل حال النار بالنسبة اليهم اذا برزوا لها يوم الجزاء أنها تشتد إذا ظهروا لها كالأسد يزأر إذا رأى فريسته .

قوله تعالى : « وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرّنين دعوا هنالك ثبورا » « مكاناً » منصوب بتقدير في ، والثبور الويل والهلاك .

والتقرين التصفيد بالأغلال والسلاسل وقيل: هو جعلهم مع قرناء الشياطين وهو بعيد من اللفظ. والمعنى وإذا ألقوا يوم الجزاء في مكان ضيق من النار وهم مصفدون بالاغلال دعوا هنالك ثبورا لا يوصف وهو قولهم : واثبوراه .

قوله تعالى : « لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا » الإستغاثة بالويل والثبور نوع احتيال للتخلص من الشدة وإذ كان اليوم يوم الجزاء فحسب لا ينفع فيه عمل ولا يجدي فيه سبب البتة لم ينفعهم الدعاء بالثبور أصلاً ولذا قال تعالى : « لا تدعوا اليوم » الخ ، فهو كناية عن أن الثبور لا ينفعكم اليوم سواء استقللتم منه أو استكثرتم . فهو في معنى قوله تعالى : « اصلوها فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم » الطور : ١٦ ، وقوله حكاية عنهم: « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص » إبراهيم : ٢١ .

وقيل : المراد أن عذابكم طويل مؤبد لا ينقطع بثبور واحد بل يحتاج الى ثبورات كثيرة . وهو بعيد .

قوله تعالى : « قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون – إلى قوله –

مسؤلاً ، الإشارة الى السعير بمـا له من الوصف ، أمر نبيه ﷺ أن يسألهم أيهما أرجع السعير أم جنة الخلد ؟ والسؤال سؤال في أمر بديهي لا يتوقف في جوابه عاقل وهو دائر في المناظرة والمخاصمة يردد الخصم بين أمرين أحدهمـا بديهي الصحة والآخر بديهي البطلان فيكلف ان يختار أحدهما فإن اختار الحق فقد اعترف بما كان ينكره ، وان اختار الباطل افتضح .

وقوله : « أم جنة الخلد » اضافة الجنة الى الخلد وهو الدوام للدلالة على كونها في نفسها خالدة لا تفنى كما أن قوله بعـد : « خالدين » للدلالة على ان أهلها خالدون فيها لا سبيل للفناء اليهم .

وقوله : « وعد المتقون » تقديره وعدهـا المتقون لان وعد يتعدى لمفعولين والمتقون مفعول ثان ناب مناب الفاعل .

وقوله : « كانت لهم جزاء ومصيرا » أي جزاء لتقواهم ومنقلباً ينقلبون اليه بما هم متقون كما قال تعالى : « إن المتقين في جنات وعيون إلى أن قال — وما هم منها بمخرجين » الحجر : ٤٨ : وهو من الأقضية التي قضاهـا يوم خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس بالسجود له ، ويتعين به جزاء المتقين ومصيرهم كما تقدم في تفسير سورة الحجر .

وقوله : « لهم فيها ما يشاؤن خالدين » أي انهم يملكون فيها بتمليك من الله لهم كل ما تتعلق به مشيتهم ، ولا تتعلق مشيتهم إلا بما يحبونه ويشتهونه على خلاف أهل النار كما قال تعالى فيهم : « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » سبأ : ٥٤ ، ولا يحبون ولا يشتهون إلا ما من شأنه أن يتعلق به الحب واقعاً وهو الذي يحبه الله لهم وهو ما يستحقونه من الخير والسعادة مما يستكملون به ولا يستضرون به لا هم ولا غيرهم فافهم ذلك .

وبهذا البيان يظهر أن لهم اطلاق المشية يعطون مـا شاؤا وأرادوا غير أنهم لا يشاؤن الا ما فيه رضى ربهم ، ويندفع به ما استشكل على الآيات الناطقة بإطلاق المشية كهذه الآية أن لازم اطلاق المشية أن يجوز لهم أن يريدوا بعض المعاصي والقبائح والشنائع واللغو ، وأن يريدوا بعض ما يسوء سائر أهل الجنة ، وأن يريدوا نجاة بعض المخلدين في النار ، وأن يريدوا مقامات الأنبياء والمخلصين من الأولياء ممن هم فوقهم درجة الى غير ذلك .

كيف ؟ وقد قال تعالى : « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » الفجر : ٢٧ – ٣٠ فهم راضون بما رضي به الله ومرضيون لا يريدون الا ما يرتضيه فلا يريدون معصية ولا قبيحاً ولا شنيعاً ولا لغوا ولا كذاباً، ولا يريدون ما لا يرتضيه غيرهم من أهل الجنة، ولا يريدون ارتفاع العذاب ممن يريد ربهم عذابه ، ولا يشاؤن ولا يتمنون مقام من هو أرفع درجة منهم لأن الذي خصهم بها هو ربهم وقد رضوا بما فعل وأحبوا ما أحبه .

وقوله تعالى : « كان على ربك وعدا مسؤلا » أي كان هذا الوعد الذي وعده المتقون وعدا على ربك يجب عليه أن يفي به ، وانما أوجبه هو تعالى على نفسه حيث قضى بذلك أول يوم ، وأخبر عن ذلك بمثل قوله : « وأن للمتقين لحسن مآب جنات عدن – الى أن قال – هذا ما توعدون ليوم الحساب » ص : ٥٣ .

ووجه اتصاف هذا الوعد بكونه مسؤلا أن المتقين سألوا ربهم ذلك بلسان حالهم واستعدادهم ، أو سألوه ذلك في دعائهم ، أو الملائكة سألوا ذلك كما فيما يحكيه الله عنهم : « ربنا وأدخلهم جنات عدن » – الخ المؤمن : ٨ أو جميع هذه الأسئلة .

وذكر الطبرسي «ره» في الآية أن قوله : « كانت لهم جزاء ومصيرا » حال من ضمير الجنة المقدر في « وعد المتقون » ، وأن قوله : « لهم فيها ما يشاؤن » حال من « المتقون » وهو أقرب الى الذهن من قول غيره أن الجملتين استينافان في موضع التعليل كالجواب لسؤال مقدر .

قوله تعالى : « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله » الى آخر الآية ضمائر الجمع الأربعة عائدة الى الكفار ، والمراد بما يعبدون الملائكة والمعبودون من البشر والاصنام ان كان « ما » أعم من غير اولي العقل ، والا فالاصنام فقط .

والمشار اليهم المعنيون بقوله : « عبادي هؤلاء » الكفار ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء » الخ ، جواب المعبودين عن قوله : « ءأنتم أضللتم عبادي هؤلاء » الخ ، وقد بدؤا بالتسبيح على ما هو من أدب العبودية في موارد يذكر فيها شرك أهل الشرك او ما يوهم ذلك بوجه .

وقوله : « ما كان ينبغي لنـــا أن نتخذ من دونك من أولياء » أي ما صحّ وما استقام لنا أن نتجاوزك إلى غيرك فنتخذ من دونك من أوليـــاء وهم الذين عبدونا واتخذونا أولياء من دونك، وقوله : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا » البور جمع بائر وهو الهالك وقيل : الفاسد .

لما نفى المعبودون المسؤلون عن سبب ضلال عبادهم نسبة الإضلال إلى أنفسهم أخذوا في نسبته إلى الكفار أنفسهم مع بيان السبب الذي أضلّهم وهو أنهم كانوا قوماً هالكين او فاسدين وقد متعتهم وآباءهم من أمتعة الحياة الدنيا ونعمها حتى طال عليهم التمتيع امتحاناً وابتلاء فتمتعوا منها واشتغلوا بهـا حتى نسوا الذكر الذي جاءت به الرسل فعدلوا عن التوحيد إلى الشرك .

فكونهم قوماً هالكين او فاسدين بسبب انكبابهم على الدنيـــا وانهماكهم في الشهوات هو السبب في استغراقهم في التمتع وانصراف هممهم إلى الاشتغال بالأسباب وهو السبب لنسيانهم الذكر والعدول عن التوحيد إلى الشرك .

فتبيّن بذلك أن قوله : « وكانوا قوماً بورا » من تمام الجواب وأمـــا من جعل الجملة اعتراضاً تذييلياً مقرراً لمضمون ما قبله واستفاد منه أن السبب الأصلي في ضلالهم أنهم كانوا بحسب ذواتهم أشقياء هالكين ، وليس ذلك إلا بقضاء حتم منه تعـــالى في سابق علمه فهو المضلّ لهم حقيقة ، وإنما نسب إلى أنفسهم أدباً .

ففيه أولاً : إنه إفساد لمعنى الآية إذ لا موجب حينئذ لإيراد الاستدراك بقوله : « ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر » لكونه فضلاً لا حاجة اليه .

وثانياً : أن نسبة البوار والشقاء إلى ذوات الأشياء ينـــافي ما أطبق عليه العقلاء بفطرتهم من تأثير التعليم والتربية ، والحس والتجربة يؤيدان ذلك، وهو يناقض القول بالاختيار والجبر معاً ، أما مناقضة القول بالاختيار فظاهر، وأما مناقضة القول بالجبر فلأن الجبري يقصر العلّية في الواجب تعـــالى وينفيه عن غيره ويناقضه نسبة الاقتضاء الضروري إلى ذوات الأشياء وماهياتها .

وثالثاً : أن فيه خلطاً في معنى القضاء من حيث متعلقه فكون القضاء حتماً لا يوجب خروج الفعل الذي تعلّق به من الاختيار إلى الإجبار فإن القضاء إنمـــا تعلق

بالفعل بحدوده وهو صدوره عن اختيار الفاعل من حيث إنه صادر عن اختياره فتعلقه يوجب تأكد كونه اختيارياً لا أنه يزيل عنه وصف الاختيار .

ورابعاً : أن قولهم : إن المضلّ بالحقيقة هو الله وإنما نسبوا الضلال إلى الكفار أنفسهم تأدّباً وبمثله صرّحوا في نسبة المعاصي والأعمال القبيحة الشنيعة والفجائع الفظيعة إلى فواعلها أنها في عين أنها من أفعاله تعالى إنما تنسب إلى غيره تأدباً كلام متهافت فإن الأدب - كما تقدم تفصيل القول فيه في الجزء السادس من الكتاب - هو الهيئة الحسنة التي ينبغي أن يقع عليها فعل ما ، وبعبارة اخرى ظرافة الفعل ، وإذ كان الحق الصريح في الفعل غير الجميل أنه فعل الله سبحانه ولا يشاركه في فعله غيره بأي وجه فرض كانت نسبته إلى غيره تعالى نسبة باطلة غير حق وكذباً وفرية لا تطابق الواقع فليت شعري أي أدب جميل في إماطة حق صريح وإحياء باطل؟ وأي ظرافة ولطف في الكذب والفرية بإسناد الفعل إلى غير فاعله ؟

والله سبحانه أجلّ من أن يعظم بباطل او بالستر على بعض أفعاله او بالكذب والفرية بإسناد بعض ما يفعله إلى غيره ، وإذ كان جميلاً لا يفعل إلا الجميل فما معنى التأدّب بنفي بعض أفعاله عنه ؟

قوله تعالى : « فقد كذبوكم بما تقولون فلا تستطيعون صرفاً ولا نصرا » إلى آخر الآية ، كلام له تعالى يلقيه إلى المشركين بعد براءة المعبودين منهم ، وأما كلام المعبودين فقد تمّ في قوله : « وكانوا قوماً بورا » .

والمعنى : فقد كذبكم المعبودون بما تقولون في حقهم إنهم آلهة من دون الله يصرفون عن عبدتهم السوء وينصرونهم ، وإذ كذبوكم ونفوا عن أنفسهم الالوهية والولاية فلا تستطيعون أنتم أيها العبدة أن تصرفوا عن أنفسكم العذاب بسبب عبادتهم ، ولا تستطيعون نصراً لأنفسكم بسببهم .

والترديد بين الصرف والنصر كأنه باعتبار استقلال المعبودين في دفع العذاب عنهم وهو الصرف . وعدم استقلالهم بأن يكونوا جزء السبب وهو النصر .

وقرأ غير عاصم من طريق حفص « يستطيعون » بالياء المثنّاة من تحت وهي قراءة حسنة ملائمة لمقتضى السياق ، والمعنى : فقد كذّبكم المعبودون بما تقولون إنهم

آلهة يصرفون عنكم السوء أو ينصرونكم ويتفرّع على ذلك أنهم لا يستطيعون لكم صرفاً ولا نصرا .

وقوله : «ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً» المراد بالظلم مطلق الظلم والمعصية وإن كان مورد الآيات السابقة خصوص الظلم الذي هو الشرك ، فقوله : « ومن يظلم منكم » الخ ، من قبيل وضع القانون العام موضع الحكم الخاص ، ولو كان المراد به الحكم الخاص بهم لكان من حق الكلام أن يقال : « ونذيقكم بما ظلمتم عذاباً كثيراً لأنهم كلهم ظالمون ظلم الشرك .

والنكتة فيه الإشارة إلى أن الحكم الإلهي نافذ جار لا مانع منه ولا معقّب له كأنه قيل : وإن كذّبكم المعبودون وما استطاعوا صرفاً ولا نصراً فالحكم العام الإلهي «من يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً» على نفوذه وجريانه لا مانع منه ولا معقّب له فأنتم ذائقون العذاب البتة .

قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق » إلى آخر الآية . أجاب تعالى عن قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » الخ ، أولاً بقوله : « تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك » الخ،مع ما يلحقه من قوله :« بل كذّبوا بالساعة » الخ،وهذا جواب ثان محصّله أن هذا الرسول ليس بأول رسول أرسل إلى الناس بل أرسل الله قبله جماً غفيراً من المرسلين وقد كانوا على العادة البشرية الجارية بين الناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ولم يخلق لهم جنة يأكلون منها ولا ألقي إليهم كنز ولا أنزل معهم ملك ، وهذا الرسول إنما هو كأحدهم ولم يأت بأمر بدع حتى يتوقع منه ما لا يتوقع من غيره.

فالآية في معنى قوله : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتّبع إلا ما يوحى إليّ » الأحقاف : ٩ ، وقريبة المعنى من قوله : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ » الكهف : ١١٠ .

فإن قيل : هذا في الحقيقة دفع للاعتراض عنه ﷺ خاصة وتوجيهه إلى عامة

الرسل فلهم أن يعترضوا على عامة الرسل كما وجّهه سابقوهم وقد حكى الله عنهم ذلك قال : « قالوا أبشر يهدوننا » التغابن : ٦ ، وقال : « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا » إبراهيم : ١٠ ، وقال : « ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون » المؤمنون : ٣٣ .

قلنا : الجواب مطابق للاعتراض فإن قولهم : « ما لهذا الرسول يأكل » الخ ، يعطي الخصوصية بلا إشكال وأما تعميم الإعتراض لو عمّم فيدفعه قوله تعالى : « بل كذّبوا بالساعة » الخ ، وقوله قبل ذلك : « قل أنزل الذي يعلم السر » الخ ، على ما تقدم من التقرير .

ومن عجيب القول ما عن بعض المفسرين أن الآية تسلية للنبي ﷺ كأنه قيل: إن الرسل من قبلك كانوا على الحال التي أنت عليها فلك فيهم أسوة حسنة ، وأما كونه جواباً عن تعنتهم فالنظم لا يساعد عليه إذ قد أجيب عنه بقوله: « انظر كيف ضربوا لك الأمثال » هذا وهو خطأ .

وقوله تعالى : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون » متمم للجواب السابق بمنزلة التعليل لكون الرسل كسائر الناس في الخواص البشرية من غير أن تتميز حياتهم أو دعوتهم بخواص سماوية تورث القطع بكونهم حاملين للرسالة الإلهية كإنزال ملك عليهم أو إلقاء كنز اليهم او خلق جنة لهم فكأنه قيل : والسبب في كون الرسل جارين في حياتهم على ما يجري عليه الناس أنا جعلنا بعض الناس لبعض فتنة يمتحنون بها فالرسل فتنة لسائر الناس يمتحنون بهم فيتميز بهم أهل الريب من أهل الإيمان والمتبعون للأهواء الذين لا يصبرون على مرّ الحق من طلاب الحق الصابرين في طاعة الله وسلوك سبيله .

وبما مر يتبين أولاً : أن المراد بالصبر هو الصبر بأقسامه وهي الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، والصبر عند المصائب .

وثانياً : أن قوله : « وجعلنا بعضكم لبعض فتنة » من وضع الحكم العام موضع الخاص، والمطلوب الإشارة إلى جعل الرسل – وحالهم هذه الحال – فتنة لسائر الناس.

وقوله تعالى : « وكان ربك بصيراً » أي عالماً بالصواب في الامور فيضع كل أمر

في الموضع المناسب له ويجري بذلك أتمّ النظام فهدف النظام الإنساني كمال كل فرد بقطعه طريق السعادة أو الشقاوة على حسب ما يستعد له ويستحقه ولازمه بسط نظام الامتحان بينهم ولازمه ارتفاع التمايز بين الرسل وغيرهم .

وفي الجملة التفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة ، والنكتة فيه نظيرة ما في قوله السابق : « تبارك الذي إن شاء » الخ .

(بحث روائي)

في الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب والنضر بن الحارث وأبا البختري والأسود بن المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبدالله بن أمية وأمية ابن خلف والعاصي بن وائل ونبيه بن الحجاج اجتمعوا فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا منه ، فبعثوا اليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك .

قال : فجاءهم رسول الله ﷺ فقالوا له : يا محمد إنا بعثنا اليك لنعذر منك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا ، وإن كنت تطلب الشرف فنحن نسوّدك ، وإن كنت تطلب ملكاً ملّكناك .

فقال رسول الله ﷺ : ما بي مما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني اليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلّغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئاً عرضناه عليك فسلْ لنفسك وسلْ ربك أن يبعث معك ملكاً يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك وسله أن يجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة يغنيك عما تبتغي فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم .

فقال لهم رسول الله ﷺ : ما أنا بفاعل . ما أنا بالذي يسأل ربه هـذا ، وما بعثت اليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيراً ونذيرا .

فأنزل الله في قولهم ذلك « وقالوا مـا لهذا الرسول يأكل الطعام – إلى قوله – وجعلنا بعضكم لبعض فتنـة . أتصبرون وكان ربك بصيرا » أي جعلت بعضكم لبعض بلاء لتصبروا ، ولو شئت أن أجعل الدنيا مع رسولي فلا تخالفوه لفعلت .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه من طريق مكحول عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعداً من بين عيني جهنم . قالوا : يا رسول الله وهل لجهنم من عين ؟ قال : أما سمعتم الله يقول: « إذا رأتهم من مكان بعيد » فهل تراهم إلا بعينين ؟

أقول : ورواه أيضاً عن رجل من الصحابة ، وفي حجة الخبر خفاء .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن أبي أسيد أن رسول الله ﷺ سئل عن قول الله : « وإذا ألقوا منها مكاناً ضيّقاً مقرّنين » قـال : والذي نفسي بيـده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط .

* * *

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ــ ٢١ . يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلٰئِكَةَ لاَ بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُوراً ــ ٢٢ . وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ــ ٢٣ . أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ــ ٢٤ . وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَاءُ بِٱلْغَمَامِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلٰئِكَةُ تَنْزِيلاً ــ ٢٥ . ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى ٱلْكَافِرِينَ عَسِيرًا ــ ٢٦ . وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ

يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ــ ٢٧ . يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً ــ ٢٨ . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً ــ ٢٩ . وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي ٱتَّخَذُوا هٰذَا ٱلْقُرْآنَ مَهْجُوراً ــ ٣٠. وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ــ ٣١ .

(بيان)

تحكي الآيات اعتراضاً آخر من المشركين على رسالة الرسول يردّون به عليه محصّله أنه لو جاز أن يكون من البشر بما هو بشر رسول تنزل عليه الملائكة بالوحي من الله سبحانه أو يراه تعالى فيكلمه وحياً لكان الرسول وسائر البشر سواء في هذه الخصيصة فإن كان ما يدّعيه من الرسالة حقاً لكنا أو كان البعض منا يرى ما يدّعي رؤيته ويجد من نفسه ما يجده .

وهذا الاعتراض مما سبقهم اليه أمم الأنبياء الماضين كما حكاه الله : «قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا » ابراهيم : ١٠ ، وقد مرّ تقريبه مراراً .

وهذا مع ما تقدم من اعتراضهم بقولهم : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام » الخ، بمنزلة حجة واحدة تلزم الخصم بأحد محذورين ومحصّل تقريره أن الرسالة التي يدّعيها هذا الرسول إن كانت موهبة سماوية واتصالا غيبياً لا حظ فيها للبشر بما هو بشر فلينزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى اليه كنز أو يجعل له جنة يأكل منها ، وإن كانت خاصة من شأن البشر بما هو بشر أن ينالها يتصف بها فما بالنا لا نجدها في أنفسنا ؟ فلولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .

وقد أجاب الله سبحانه عن الشق الأول بما تقدم تقريره ، وعن الشاني بأنهم سيرون الملائكة لكن في نشأة غير هذه النشأة الدنيوية، والجواب في معنى قوله : « ما

تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين» الحجر: ٨ وسيجيء تقريره، وفي الآيات إشارة إلى ما بعد الموت ويوم القيامة .

قوله تعالى : «وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً» قال في مجمع البيان: الرجاء ترقّب الخير الذي يقوى في النفس وقوعه ومثله الطمع والأمل ، واللقاء المصير إلى الشيء من غير حائل ، والعتوّ الخروج إلى أفحش الظلم . انتهى .

والمراد باللقاء الرجوع إلى الله يوم القيامة سمّي به لبروزهم اليه تعالى بحيث لا يبقى في البين حائل جهل أو غفلة لظهور العظمة الإلهية كما قال تعالى : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » .

فالمراد بعدم رجائهم اللقاء إنكارهم للمعاد وتكذيبهم بالساعة ولم يعبّر عنه بتكذيب الساعة ونحوه كما عبّر في الآيات السابقة لكان ذكرهم مشاهدة الملائكة ورؤية الرب تعالى وتقدس ففيه إشارة إلى أنهم إنما قالوا ما قالوا وطلبوا إنزال الملائكة أو رؤية الرب ليأسهم من اللقاء وزعمهم استحالة ذلك فقد ألزموا بما هو مستحيل على زعمهم .

فقولهم : « لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا » اعتراض منهم على رسالة الرسول أوردوه في صورة التحضيض كقولهم في موضع آخر : « لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » الحجر : ٧ ، وتقرير الحجة كما تقدمت الإشارة اليه أنه لو كانت الرسالة – وهي نزول الملائكة بالوحي أو تكليمه تعالى البشر بالمشافهة – مما يتيسر للبشر نيله ونحن بشر أمثال هذا المدعي للرسالة فما بالنا لا ينزل علينا الملائكة ولا نرى ربنا ؟ فهلا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا .

ويؤيد ما ذكرناه من التقرير إطلاق إنزال الملائكة ورؤية الرب من غير أن يقولوا : لولا أنزل علينا الملائكة فيصدقوك أو نرى ربنا فيصدقك . على أنهم ذكروا في اعتراضهم السابق نزول الملك ليكون معه نذيراً وفيه تصديقه .

وفي التعبير عنه تعالى بلفظ ربنا نوع تهكم منهم فإن المشركين ما كانوا يرونه تعالى رباً لهم بل كان عندهم أن أربابهم ما كانوا يعبدونهم والله سبحانه رب الأرباب

فكأنهم قالوا للنبي ﷺ : إنك ترى أن الله ربك وقد حنّ اليك فخصك بالمشافهة والتكليم ، وأنه ربنا ، فليحن الينا وليشافهنا بالرؤية كما فعل بك .

على أنهم إنما عدلوا عن عبـــادة أرباب الأصنام وهم الملائكة وروحانيات الكواكب ونحوهم إلى عبادة الأصنام والتماثيل لتكون محسوسة غير غائبة عن المشاهدة عند العبادة والتقرب بالقرابين .

وقوله تعالى : « لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوّاً كبيراً » أي أقسم لقد طلبوا الكبر لأنفسهم بغير حق وطغوا طغياناً عظيماً .

قوله تعالى : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » في المفردات : الحجر الممنوع منه بتحريمه قال تعالى : « وقالوا هــذه أنعام وحرث حجر » ، « ويقولون حجراً محجوراً » كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظناً أن ذلك ينفعهم . انتهى .

وعن الخليل كان الرجل يرى الرجل الذي يخاف منه القتل في الجاهلية في الأشهر الحرم فيقول :حجراً محجوراً أي حرام عليك التعرض لي في هذا الشهر فلا يبدؤه بشر وعن أبي عبيدة : هي عوذة للعرب يقولها من يخاف آخر في الحرم أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما ترة .

فقوله : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين » يوم – على ما قيل – ظرف لقوله :« لا بشرى » وقوله : « يومئذ » تأكيد له، والمراد بقوله : « لا بشرى » نفي للجنس ، والمراد بالمجرمين كل متصف بالإجرام غير أن مورد الكلام إجرام الشرك والمجرمون هم الذين لا يرجون اللقاء ، وقد تقدم ذكرهم والمعنى : يوم يرى هؤلاء الذين لا يرجون لقـاءنا الملائكة لا بشرى – على طريق نفي الجنس – يومئذ للمجرمين وهم منهم .

وقوله : « ويقولون حجراً محجوراً » فاعل يقولون هم المشركون أي يقول المشركون يومئذ للملائكة وهم قاصدوهم بالعذاب : حجراً محجوراً أي لنكن في معاذ منكم ، وقيل : ضمير الجميع للملائكة ، والمعنى : ويقول الملائكة للمشركين حراماً محرماً عليكم سماع البشرى ، أو حراماً محرماً عليكم أن تدخلوا الجنة أو حراماً محرماً

عليكم أن تتعوذوا من العذاب إلى شيء فلا معاذ لكم هذا ، والمعنى : الأول أقرب إلى السياق .

والآية في موضع الجواب عن قولهم : « لولا أنزل الينا الملائكة » وقد أعرضت عن جواب قولهم : « أو نرى ربنا » فإن الرؤية التي كانوا يقصدونها بقولهم هي الرؤية البصرية التي تستلزم التجسم والمادية تعالى عن ذلك ، وأما الرؤية بعين اليقين وهي الرؤية القلبية فلم يكونوا ممن يفقه ذلك وعلى تقديره ما كانوا يقصدونه .

وأما توضيح الجواب عن أمر إنزال الملائكة ورؤيتهم فقــد اخذ أصل الرؤية مفروغاً منه مسلماً أن هناك يوماً يرون فيه الملائكة غير أنه وضع الإخبار عن وصفهم يوم للرؤية موضع الاخبار عن أصل رؤيتهم للإشارة إلى أن طلبهم لرؤية الملائكة ليس يجري على نفعهم فإنهم لا يرون الملائكة إلا يوم يشافهون عذاب النار وذلك بعد تبدل النشأة الدنيوية من النشأة الاخرى كما أشار اليه في موضع آخر بقوله : « ما ننزّل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين » الحجر: ٨ ، فهم في مسألتهم هذه يستعجلون بالعذاب وهم يحسبون أنهم يعجزون الله ورسوله بالحجة .

وأما ما هو هذا اليوم الذي أشير اليه بقوله : « يوم يرون الملائكة » فقد ذكر المفسرون أنه يوم القيامة لكن الذي يعطيه السياق مع ما ينضم اليه من الآيات الواصفة ليوم الموت وما بعــده كقوله : « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » الآية ، الأنعام : ٩٣ ، وقوله : « إن الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » النساء : ٩٧ إلى غير ذلك من الآيات .

أن المراد به الموت وهو المسمى في عرف القرآن برزخاً فإن في الآيات دلالة قاطعة على أنهم يرون الملائكة ويشافهونهم بعد الموت قبل يوم القيامة ، والمتعين – على ما يقتضيه طبع المخاصمة – في جواب من يجحد رؤية الملائكة أن ينكر له أول يوم يراهم بما يسوؤه وهو يوم الموت لا أن يخلص بذكر رؤيتهم يوم القيامة وقوله لهم : حجراً محجوراً ، وقد رآهم قبل ذلك وعذّب بأيديهم أمداً بعيداً وهو ظاهر .

فالظاهر أن الآية والآيتين التاليتين ناظرة إلى حالهم في البرزخ تصف رؤيتهم للملائكة فيه ، وإحباط أعمالهم فيه ، وحال أهل الجنة التي فيه .

قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » قال الراغب في المفردات : العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد فهو أخص من الفعل لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد وقد ينسب إلى الجمادات ، والعمل قلما ينسب إلى ذلك ، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلا في قولهم : البقر العوامل . انتهى .

وقال : الهباء دقاق التراب وما انبثّ في الهواء فلا يبدو إلا في أثناء ضوء الشمس في الكوّة . انتهى . والنثر التفريق .

والمعنى: وأقبلنا إلى كل عمل عملوه – والعمل هو الذي يعيش به الإنسان بعد الموت – ففرّقناه تفريقاً لا ينتفعون به كالهباء المنثور ، والكلام مبني على التمثيل مثّل به استيلاء القهر الإلهي على جميع أعمالهم التي عملوها لسعادة الحياة وإبطالها بحيث لا يؤثر في سعادة حياتهم المؤبدة شيئاً بتشبيهه بسلطان غلب عدوه فحلّ داره بعد ما ظهر عليه فخرّب الدار وهدم الآثار وأحرق المتاع والأثاث فأفنى منه كل عين وأثر .

ولا منافاة بين ما تدل عليه الآية من حبط الأعمال يومئذ وبين ما تدل عليه آيات أخر أن أعمالهم أحبطت حينما عملوها في الدنيا بكفرهم وإجرامهم فإن معنى الإحباط بعد الموت ظهور الحبط لهم بعد ما كان خفياً في الدنيا عليهم وقد تقدم كلام مشبع في معنى الحبط في الجزء الثاني من الكتاب فراجع .

قوله تعالى : «أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً» المراد بأصحاب الجنة المتقون فقد تقدم قوله قبل آيات : « قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون » ، والمستقر والمقيل اسما مكان من الاستقرار ومعناه ظاهر ومن القيلولة وهي الاستراحة فيمنتصف النهار سواء كان معها نوم أم لا –على ما قيل– والجنة لا نوم فيه.

وكلتا « خير » و « أحسن » منسلخان عن معنى التفضيل كما في قوله تعالى : « وهو أهون عليه » الروم : ٢٧ ، وقوله : « ما عند الله خير من اللهو » الجمعة : ١١ كذا قيل ، وليس يبعد أن يقال : إن « أفعل » أو ما هو في معناه كخير بناء على ما

رجّحنا أنه صفة مشبهة تدل على التفضيل بمادته لا بهيئته في مثل هــذه الموارد غير منسلخ عن معنى التفضيل والعناية في ذلك أنهم لمــا اختاروا الشرك والإجرام واستحسنوا ذلك ولازمه النار في الآخرة فقد أثبتوا لها خيرية وحسناً فقوبلوا بأن الجنة وما فيها خير وأحسن حتى على لازم قولهم فعليهم أن يختاروها على النــار وأن يختاروا الإيمان على الكفر على أي حال ، وقيل : إن التفضيل مبني على التهكم .

قوله تعالى : « ويوم تشقق السماء بالغمام ونزّل الملائكة تنزيلا » الظاهر أن الظرف منصوب بفعل مقدّر ، والمعنى واذكر يوم كذا وكذا فإنهم يرون الملائكة فيه أيضاً وهذا اليوم هو يوم القيامة بدليل قوله بعد : « الملك يومئذ الحق للرحمان » ، وقيل في متعلق الظرف وجوه أخر لا فائدة في نقلها .

و « تشقق » أصله تتشقق من باب التفعل من الشق بمعنى الخرم والتشقق التفتح ، والغمام السحاب سمي به لستره ضوء الشمس مأخوذ من الغم بمعنى الستر .

والباء في قوله : « تشقق السماء بالغمام » إما للملابسة والمعنى تتفتح السماء متلبسة بالغمام أي متغيمة ، وإما بمعنى عن والمعنى تتفتح عن الغمام أي من قبل الغمام أو تشققه .

وكيف كان فظاهر الآية أن السماء تنشق يوم القيامة بما عليها من الغمام الساتر لها ونزّل منها الملائكة الذين هم سكانها فيشاهدونهم فالآية قريبة المعنى من قوله في موضع آخر : « وانشقت السماء فهي يومئذ واهية والملك على أرجائها » الحاقة : ١٧ .

وليس من البعيد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العــالم الأرضي موطن الإنسان .

وقيل : المراد أن السماء يشقها الغمام وهو الذي يذكره في قوله : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الامور » البقرة : ٢١٠ ، وقد مرّ كلام في تفسير الآية .

والتعبير عن الواقعة بالتشقق دون التفتح وما يماثله للتهويل ، وكذا التنوين في قوله : « تنزيلا » للدلالة على التفخيم .

قوله تعالى : « الملك يومئذ الحق للرحمان وكان يوماً على الكافرين عسيراً » أي

الملك المطلق يومئذ حق ثابت للرحمان وذلك لبطلان الأسباب وزوال ما بينها وبين مسبباتها من الروابط المتنوعة ، وقد تقدم غير مرة أن المراد بذلك في يوم القيامة هو ظهور أن الملك والحكم لله والأمر اليه وحده ، وأن لا استقلال في شيء من الأسباب على خلاف ما كان يتراءى من ظاهر حالها في نشأة الدنيا قبل قيام الساعة ورجوع كل شيء اليه تعالى .

وقوله : « وكان يوماً على الكافرين عسيراً » الوجه فيه ركونهم الى ظواهر الأسباب وإخلادهم إلى الحيـاة الأرضية البائدة الدائرة وانقطاعهم عن السبب الحقيقي الذي هو مالك الملك بالحقيقة وعن حياتهم الباقيـة المؤبدة فيصبحون اليوم ولا ملاذ لهم ولا معاذ .

فعلى هـذا يكون الملك مبتدأ والحق خبره عرّف لإفادة الحصر ، ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدأ ، وفائدة التقييد الدلالة على ظهور حقيقة الامر يومئذ فإن حقيقة الملك لله سبحانه دائماً ، وإنمـا يختلف يوم القيامة مع غيره بزوال الملك الصوري عن الاشياء فيه وثبوته لها في غيره .

وقال بعضهم : الملك بمعنى المالكية ويومئذ متعلق به والحق خبر الملك ، وقيل: يومئذ متعلق بمحذوف هو صفة للحق ، وقيل : المراد بيومئذ هو يوم الله ، وقيل : يومئذ هو الخبر للملك والحق صفة للمبتدأ ، وهذه أقوال ردية لا جدوى لها .

قوله تعالى : « ويوم يعضّ الظـالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً » قال الراغب في المفردات : العض أزم بالاسنان ، قال تعالى : « عضّوا عليكم الانامل » و « ويوم يعض الظالم » وذلك عبارة عن الندم لمـا جرى به عادة الناس أن يفعلوه عند ذلك . انتهى . ولذلك يتمنى عنـده ما فات من واجب العمل كما حكى الله تعالى عنهم قولهم : « يا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً » .

والظاهر أن المراد بالظالم جنسه وهو كل من لم يهتد بهدى الرسول ، وكذا المراد بالرسول جنسه وإن انطبق الظالم بحسب المورد على ظالمي هـذه الامة والرسول على محمد ﷺ .

والمعنى: واذكر يوم يندم الظالم ندماً شديداً قائلاً من فرط ندمه يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ما إلى الهدى أي سبيل كانت .

قوله تعالى : « يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً » تتمة تمني الظالم النـــادم على ظلمه ، وفلان كناية عن العلم المذكر وفلانة عن العلم المؤنث ، قال الراغب : فلان وفلانة كنايتان عن الإنسان ، والفلان والفلانة – باللام – كنايتان عن الحيوانات . انتهى .

والمعنى : يا ويلتى – يا هلاكي – ليتني لم اتخذ فلاناً – وهو من اتخذه صديقاً يشاوره ويسمع منه ويقلده – خليلاً .

وذكر بعضهم : أن فلاناً في الآية كناية عن الشيطان ، وكأنه نظراً إلى ما في الآية التالية من حديث خذلان الشيطان للانسان غير أن السياق لا يساعد عليه .

ومن لطيف التعبير قوله في الآية السابقة : « يا ليتني اتخذت » الخ وفي هـــذه الآية : « يا ويلتى ليتني لم اتخذ » الخ فإن في ذلك تدرّجاً لطيفاً في النداء والاستغاثة فحذف المنادى في الآية السابقة يلوح إلى أنه يريد أي منج ينجيه مما هو فيه من الشقاء وذكر الويل بعد ذلك – في هذه الآية يدل على أنه بان له أن لا يخلصه من العذاب شيء قط إلا الهلاك والفناء ، ولذلك نادى الويل .

قوله تعالى : « لقد أضلني عن الذكر بعـــد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا » تعليل للتمني السابق ، والمراد بالذكر مطلق ما جاءت به الرسل أو خصوص الكتب السماوية وينطبق بحسب المورد على القرآن .

وقوله : « وكان الشيطان للانسان خذولا » من كلامه تعالى ويمكن أن يكون تتمة الكلام الظالم ذكره تأسفاً وتحسراً .

والخذلان بضم الخاء ترك من يظن به أن ينصر نصرته ، وخذلانه أنه يعد الإنسان أن ينصره على كل مكروه إن تمسك بالأسباب ونسي ربه فلما تقطعت الأسباب بظهور القهر الإلهي يوم الموت جزئياً ويوم القيامة كلياً خذله وسلمه إلى الشقاء ، قال تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان أكفر فلما كفر قال إني بريء منك » الحشر : ١٦ ، وقال فيما يحكي عن الشيطان يوم القيـــامة : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل » ابراهيم : ٢٢ .

وفي هـــذه الآيات الثلاث إشعار بل دلالة على أن السبب العمدة في ضلال أهل الضلال ولاية أهل الأهواء وأولياء الشيطان ، والمشاهدة يؤيد ذلك .

قوله تعالى : « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » المراد بالرسول محمد ﷺ بقرينة ذكر القرآن ، وعبر عنه بالرسول تبجيلاً لرسالته وإرغاماً لاولئك القادحين في رسالته وكتابه والهجر بالفتح فالسكون الترك .

وظاهر السياق أن قوله : « وقال الرسول » الخ معطوف على « يعضُّ الظالم » والقول مما يقوله الرسول يوم القيامة لربه على طريق البث والشكوى ، وعلى هـــذا فالتعبير بالماضي بعناية تحقق الوقوع ،والمراد بالقوم عامة العرب بَل عامة الامة باعتبار كفرتهم وعصاتهم .

وأما كونه استئنافاً أو عطفاً على قوله : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا » وكون ما وقع بينهما اعتراضاً فبعيد من السياق ، وعليه فلفظة قال على ظاهر معناها والمراد بالقوم هم القادحون في رسالته الطاعنون في كتابه .

ونظيره في الضعف قول بعضهم : إن المهجور من الهجر بمعنى : الهـــذيان . وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً » أي كما جعلنا هؤلاء المجرمين عدواً لك كذلك جعلنا لكل نبي عدواً منهم أي هذه من سنتنا الجارية في الأنبياء واممهم فلا يسوءنك ما تلقى من عداوتهم ولا يشقن عليك ذلك ، ففيه تسلية للنبي ﷺ .

ومعنى : جعل العدو من المجرمين أن الله جازاهم على معاصيهم بالختم على قلوبهم فعاندوا الحق وأبغضوا الداعي اليه وهو النبي فلعداوتهم نسبة اليه تعالى بالمجازاة .

وقوله : « وكفى بربّك هادياً ونصيراً » ، معناه – على مـــا يعطيه السياق – لا يهولنك أمر عنـــادهم وعداوتهم ولا تخافنهم على اهتداء النـــاس ونفوذ دينك فيهم وبينهم فحسبك ربك كفى به هادياً يهدي من استحق من النـــاس الهداية واستعد له وإن كفر هؤلاء وعتوا فليس اهتداء النـــاس منوطاً باهتدائهم وكفى به نصيراً ينصرك وينصر دينك الذي بعثك به وإن هجره هؤلاء ولم ينصروك ولا دينك فالجمـــلة مسوقة لإظهار الاستغناء عنهم .

فظهر أن صدر الآية مسوق لتسلي النبي ﷺ وذيله للاستغناء عن المجرمين من

قومه ، وفي قوله : « وكفى بربك » حيث أخذ بصفة الربوبية : مضافة إلى ضمير الخطاب ولم يقل : وكفى بالله تأييد له .

(بحث روائي)

في تفسير البرهان عن كتاب الجنة والنار بإسناده عن جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر عليه‌السلام في حديث يذكر فيه قبض روح الكافر قال : فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره وقيل : « أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون » وذلك قوله : « يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً » فيقولون حراماً عليكم الجنة محرما[1] .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق والفاريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: الهباء ريح الغبار يسطع ثم يذهب فلا يبقى منه شيء فجعل الله أعمالهم كذلك .

وفيه أخرج سمويه في فوائده عن سالم مولى أبي حذيفة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : ليجاء يوم القيامة بقوم معهم حسنات مثال جبال تهامة حتى إذا جيء بهم جعل الله تعالى أعمالهم هباء ثم قذفهم في النار .

قال سالم : بأبي وأمي يا رسول الله حل لنا هؤلاء القوم ، قال : كانوا يصلّون ويصومون ويأخذون سنّة من الليل ولكن كانوا إذا عرض عليهم شيء من الحرام وثبوا عليه فأدحض الله تعالى أعمالهم .

وفي الكافي بإسناده عن سليمان بن خالد قال : سألت أبا عبد الله عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا » قال : أما والله لقد كانت أعمالهم أشدّ بياضاً من القباطي ولكن كانوا إذا عرض لهم حرام لم يدعوه .

---

(١) محرمة ظ .

أقول :وهذا المعنى مروي فيه وفي غيره عنه وعن أبيه عليهما السلام بغير واحد من الطرق .

وفي الكافي أيضاً بإسناده عن عبد الأعلى وبإسناد آخر عن سويد بن غفلة قال : قال أمير المؤمنين عليه‌السلام في حديث وضع المؤمن في قبره . ثم يفسحان يعني الملكين في قبره مد بصره ثم يفتحان له باباً إلى الجنة ويقولان له : نم قرير العين نوم الشاب الناعم فإن الله يقول : « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً » .

أقول : والرواية ــ كما ترى ــ تجعل الآية من آيات البرزخ ، وتشير بقوله : ويقال له : نم « الخ » إلى نكتة التعبير في الآية بالمقيل فليتنبه .

وفي الدر المنثور أخرج أبو نعيم من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان عقبة بن أبي معيط لا يقدم من سفر إلا صنع طعاما فدعا اليه أهل مكة كلهم وكان يكثر مجالسة النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ويعجبه حديثه وغلب عليه الشقاء .

فقدم ذات يوم من سفر فصنع طعاما ثم دعا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى طعامه فقال: ما أنا بالذي آكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال: اطعم يا ابن أخي . قال : ما أنا بالذي أفعل حتى تقول ، فشهد بذلك وطعم من طعامه .

فبلغ ذلك أبيّ بن خلف فأتاه فقال : أصبوت يا عقبة ؟ ــ وكان خليله ــ فقال: لا والله ما صبوت ولكن دخل عليّ رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي قبل أن يطعم فشهدت له فطعم ، فقال : ما أنا بالذي أرضى عنك حتى تأتيه فتبزق في وجهه ففعل عقبة فقال له رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : لا ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف فاسر عقبة يوم بدر فقتل صبراً ولم يقتل من الاسارى يومئذ غيره .

أقول : وقد ورد في غير واحد من الروايات في قوله تعالى : « يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً » ، أن السبيل هو علي عليه‌السلام وهو من بطن القرآن أو من قبيل الجري وليس من التفسير في شيء .

* * *

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ـ ٣٢ . وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ـ ٣٣ . الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ـ ٣٤ . وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيراً ـ ٣٥ . فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً ـ ٣٦ . وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً ـ ٣٧ . وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً ـ ٣٨ . وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ـ ٣٩ . وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ نُشُوراً ـ ٤٠ .

(بيان)

نقل لطعن آخر مما طعنوا به في القرآن وهو أنه لم ينزل جملة واحدة والجواب عنه.

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » المراد بهم مشركو العرب الرادّون لدعوة القرآن كما في قدحهم السابق المحكي بقوله : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه » الخ .

وقوله : « لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » قد تقدم أن الإنزال والتنزيل إنما يفترقان في أن الإنزال يفيد الدفعة والتنزيل يفيد التدريج لكن ذكر بعضهم أنّ التنزيل في هذه الآية منسلخ عن معنى التدريج لأدائه إلى التدافع إذ يكون المعنى على تقدير إرادة التدريج : لولا فرّق القرآن جملة واحدة والتفريق ينافي الجملية بل المعنى هلاّ أنزل القرآن عليه دفعة غير مفرق كما أنزل التوراة والإنجيل والزبور .

لكن ينبغي أن يعلم أنّ نزول التوراة مثلاً كما هو الظاهر المستفاد من القرآن كانت دفعة في كتاب مكتوب في ألواح والقرآن إنما كان ينزل عليه ﷺ بالتلقي من عند الله بتوسط الروح الأمين كما يتلقى السامع الكلام من المتكلم ، والدفعة في إيتاء كتاب مكتوب وتلقيه تستلزم المعية بين أوله وآخره لكنه إذا كان بقراءة وسماع لم يناف التدريج بين أجزائه وأبعاضه بل من الضروري أن يؤتاه القارىء ويتلقاه السامع آخذاً من أوله إلى آخره شيئاً فشيئاً .

وهؤلاء إنما كانوا يقترحون نزول القرآن جملة واحدة على ما كانوا يشاهدون أو يسمعون من كيفية نزول الوحي على النبي ﷺ وهو تلقي الآيات بألفاظها من لسان ملك الوحي فكان اقتراحهم أن الذي يتلوه ملك الوحي على النبي ﷺ سورة بعد سورة وآية بعد آية ويتلقاه هو كذلك فليقرأ جميع ذلك مرة واحدة وليتلقه هو مرة واحدة ولو دامت القراءة والتلقّي مدة من الزمان ، وهذا المعنى أوفق بالتنزيل الدال على التدريج .

وأما كون مرادهم من اقتراح نزوله جملة واحدة أن ينزل كتاباً مكتوباً دفعة كما نزلت التوراة وكذا الإنجيل والزبور على ما هو المعروف عندهم فلا دلالة في الكلام المنقول عنهم على ذلك . على أنهم ما كانوا مؤمنين بهذه الكتب السماوية حتى يسلموا نزولها دفعة .

وكيف كان فقولهم : « لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » اعتراض منهم على القرآن من جهة نحو نزوله ، يريدون به أنه ليس بكتاب سماوي نازل من عند الله سبحانه إذ لو كان كتاباً سماوياً متضمناً لدين سماوي يريده الله من الناس وقد بعث رسولاً

يبلّغه الناس لكان الدين المضمن فيه المراد من الناس ديناً تامة أجزاؤه معلومة أصوله وفروعه مجموعة فرائضه وسننه وكان الكتاب المشتمل عليه منظمة أجزاؤه ، مركّبة بعضه على بعض .

وليس كذلك بل هو أقوال متفرقة يأتي بها في وقائع مختلفة وحوادث متشتتة ربما وقع واقع فأتى عند ذلك بشيء من الكلام مرتبط به يسمى جملها المنضودة آيات إلهية ينسبها إلى الله ويدعي أنها قرآن منزّل اليه من عند الله سبحانه وليس إلا أنه يتمحّل حيناً بعد حين عند وقوع وقائع فيختلق قولاً يفتريه على الله ، وليس إلا رجلاً صابئاً ضل عن السبيل. هذا تقرير اعتراضهم على ما يستفاد من مجموع الاعتراض والجواب.

قوله تعالى : « كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » الثبات ضدُّ الزوال ، والإثبات والتثبيت بمعنى واحد والفرق بينهما بالدفعة والتدريج ، والفؤاد القلب والمراد به كما مر غير مرة الأمر المدرك من الإنسان وهو نفسه ، والترتيل – كما قالوا – الترسيل والإتيان بالشيء عقيب الشيء ، والتفسير – كما قال الراغب – المبالغة في إظهار المعنى المعقول كما أن الفسر بالفتح فالسكون إظهار المعنى المعقول .

وظاهر السياق أن قوله : « كذلك » متعلق بفعل مقدر يعلله قوله : « لنثبت » ويعطف عليه قوله : « ورتلناه » ، والتقدير نزلناه أي القرآن كذلك أي نجوماً متفرقة لا جملة واحدة لنثبت به فؤادك ، وقول بعضهم : إن « كذلك » من تمام قول الذين كفروا سخيف جداً .

فقوله : « كذلك لنثبت به فؤادك » بيان تام لسبب تنزيل القرآن نجوماً متفرقة وبيان ذلك أن تعليم علم من العلوم وخاصة مـا كان منها مرتبطاً بالعمل بإلقاء المعلّم مسائله واحدة بعد واحدة إلى المتعلّم حتى تتم فصوله وأبوابه إنما يفيد حصولاً ما لصور مسائله عند المتعلّم وكونها مذخورة بوجه ما عنده يراجعها عند مسيس الحاجة اليها ، وأما استقرارها في النفس بحيث تنمو النفس عليها وتترتب عليها آثارها المطلوبة منها فيحتاج إلى مسيس الحاجة والإشراف على العمل وحضور وقته .

ففرق بيّن بين أن يلقي الطبيب المعلم مثلا مسألة طبية إلى متعلم الطب إلقـاء

فحسب وبين أن يلقيها اليه وعنده مريض مبتلى بمـــا يبحث عنه من الداء وهو يعالجه فيطابق بين ما يقول وما يفعل .

ومن هنا يظهر أن إلقاء أي نظرة علمية عند مسيس الحاجة وحضور وقت العمل إلى من يراد تعليمه وتربيته أثبت في النفس وأوقع في القلب وأشد استقراراً وأكمل رسوخاً في الذهن وخاصة في المعارف التي تهدي اليها الفطرة فإن الفطرة إنمـــا تستعد للقبول وتتهيأ للإذعان إذا أحست بالحاجة .

ثم إن المعارف التي تتضمنها الدعوة الإسلامية الناطق بها القرآن إنما هي شرائع وأحكام عملية وقوانين فردية واجتماعية تسمد الحيـــاة الإنسانية مبنية على الأخلاق الفاضلة المرتبطة بالمعارف الكلية الإلهية التي تنتهي بالتحليل إلى التوحيد كما أن التوحيد ينتهي بالتركيب اليها ثم إلى الأخلاق والأحكام العملية .

فأحسن التعليم وأكمل التربية أن تلقى هذه المعارف العالية بالتدريج موزعة على الحوادث الواقعة المتضمنة لمساس أنواع الحاجات مبينة لما يرتبط بهـا من الاعتقاد الحق والخلق الفاضل والحكم العملي المشروع مع ما يتعلق بهـا من أسباب الاعتبار والإتعاظ بين قصص الماضين وعاقبة أمر المسرفين وعتوّ الطاغين والمستكبرين .

وهذه سبيل البيانات القرآنية المودعة في آياته النازلة كما قال تعالى : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزّلناه تنزيلا » أسرى : ١٠٦ ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : « كذلك لنثبّت به فؤادك » والله أعلم .

نعم يبقى عليه شيء وهو أن تفرّق أجزاء التعليم وإلقاءها إلى المتعلم على التمهل والتؤدة يفسد غرض التعليم لانقطاع أثر السابق إلى أن يلحق به اللاحق وسقوط الهمة والعزيمة عن ضبط المطالب ففي اتصال أجزاء العلم الواحـد بعضها ببعض إمداد للذهن وتهيئة للفهم على التفقه والضبط لا يحصل بدونه البتة .

وقد أجاب تعالى عنه بقوله : « ورتّلناه ترتيلا » فمعنـاه على ما يعطيه السياق أن هذه التعليمات على نزولها نجوماً متفرقة عقّبنا بعضها ببعض ونزّلنا بعضها إثر بعض بحيث لا تبطل الروابط ولا تنقطع آثار الأبعاض فلا يفسد بذلك غرض التعليم بل هي سور وآيات نازلة بعضها اثر بعض مترتبة مرتلة .

على أن هناك أمراً آخر وهو أن القرآن كتاب بيان واحتجاج يحتج على المؤالف والمخالف فيما أشكل عليهم أو استشكلوه على الحق والحقيقة بالتشكيك والاعتراض ، ويبيّن لهم ما التبس عليهم أمره من المعارف والحكم الواقعة في الملل والأديان السابقة وما فسرها بـه علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضعه كما يظهر بقياس ما كان يعتقده الوثنيون في الله تعالى والملائكة والجن وقديسي البشر وما وقع في العهدين من أخبار الأنبياء وما بثّوه من معارف المبدء والمعاد ، إلى ما بيّنه القرآن في ذلك .

وهـذا النوع من الاحتجاج والبيان لا يستوفي حقه إلا بالتنزيل التدريجي على حسب ما كان يبدو من شبههم ويرد على النبي ﷺ من مسائلهم تدريجاً ، ويورد على المؤمنين او على قومهم من تسويلاتهم شيئاً بعد شيء وحيناً بعد حين .

وإلى هذا يشير قوله تعالى : «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً» – والمثل الوصف – أي لا يأتونك بوصف فيك او في غيرك حادوا بـه عن الحق او أساؤا تفسيره إلا جئناك بما هو الحق فيه او ما هو أحسن الوجوه في تفسيره فإن ما أتوا به إما باطل محض فالحق يدفعه او حق محرّف عن موضعه فالتفسير الأحسن يردّه إلى مستواه ويقوّمه .

فتبين بما تقدم أن قوله : « كذلك لنثبّت به فؤادك – إلى قوله – وأحسن تفسيراً » جواب عن قولهم : « لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » بوجهين :

أحدهما : بيان السبب الراجع إلى النبي ﷺ وهو تثبيت فؤاده بالتنزيل التدريجي .

وثانيهما : بيان السبب الراجع إلى الناس وهو بيان الحق فيما يوردون على النبي ﷺ من المثل والوصف الباطل ، والتفسير بأحسن الوجوه فيما يوردون عليه من الحق المغيّر عن وجهه المحرّف عن موضعه .

ويلحق بهذا الجواب قوله تلواً : « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلا » فهو كالمتمم للجواب على ما سيجيء بيانه .

وتبين أيضاً أن الآيات الثلاث مسوقة جميعاً لغرض واحد وهو الجواب عمـا

أوردوه من القدح في القرآن هذا، والمفسرون فرّقوا بين مضامين الآيات الثلاث فجعلوا قوله : « كذلك لنثبّت به فؤادك » جواباً عن قولهم : « لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة » ، وقوله : « ورتلناه ترتيلا » خبراً عن ترسيله في النزول او في القراءة على النبي ﷺ من غير ارتباط بما تقدمه .

وجعلوا قوله : « ولا يأتونك بمثل » الخ ، كالبيان لقوله : « كذلك لنثبّت به فؤادك » وإيضاحاً لكيفية تثبيت فؤاده ﷺ ، وجعله بعضهم ناظراً إلى خصوص المثل الذي ضربوه للنبي ﷺ ، وأن الله بيّن الحق فيه وجاء بأحسن التفسير وقيل غير ذلك ، وجعلوا قوله : « الذين يحشرون » الآية أجنبياً عن غرض الآيتين السابقتين بالكلية .

والتأمل فيما قدّمناه في توجيه مضمون الآيتين الاولين وما سيأتي من معنى الآية الثالثة يوضح فساد جميع ذلك ، ويظهر أن الآيات الثلاث جميعاً ذات غرض واحد وهو الجواب عما أوردوه من الطعن في القرآن من جهة نزوله التدريجي .

وذكروا أيضاً أن الجواب عن قدحهم واقتراحهم بقوله : « كذلك لنثبّت به فؤادك » جواب بذكر بعض ما لتفريق النزول من الفوائد وأن هناك فوائد أخرى غير ما ذكره الله تعالى ، وقد أوردوا فوائد أخرى أضافوها إلى ما وقع في الآية :

منها : أن الكتب السماوية السابقة على القرآن إنما أنزلت جملة واحدة لأنها أنزلت على أنبياء يكتبون ويقرؤن فنزلت عليهم جملة واحدة مكتوبة والقرآن إنما نزّل على نبي أمي لا يكتب ولا يقرأ ولذلك نزّل متفرقاً .

ومنها : أن الكتب المتقدمة لم يكن شاهد صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى إعجازها ، وأما القرآن فبيّنة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مرّ الدهور المتحقق في كل جزء من أجزائه المقدّر بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدي .

ولا ريب أن مدار الإعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الأحوال ، ومن ضرورة تجددها تجدد ما يطابقها .

ومنها : أن في القرآن ناسخاً ومنسوخاً ولا يتيسر الجمع بينهما لمكان المضادة والمنافاة، وفيه ما هو جواب لمسائل سألوا النبي ﷺ عنها، وفيه ما هو إنكار لبعض ما كان ، وفيه ما هو حكاية لبعض ما جرى ، وفيه ما فيه إخبار عما سيأتي في زمن النبي ﷺ كالإخبار عن فتح مكة ودخول المسجد الحرام ، والإخبار عن غلبة الروم على الفرس إلى غير ذلك من الفوائد فاقتضت الحكمة تنزيله متفرقاً .

وهذه وجوه ضعيفة لا تقتضي امتناع النزول جملة واحدة :

أما الوجه الأول : فكون النبي ﷺ أمياً لا يقرأ ولا يكتب لا يمنع النزول جملة واحدة ، وقد كان معه من يكتبه ويحفظه . على أن الله سبحانه وعده أن يعصمه من النسيان ويحفظ الذكر النازل عليه كما قال : « سنقرئك فلا تنسى » الأعلى : ٦ ، وقال : «إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون» الحجر : ٩ ، وقال : « إنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حم السجدة : ٤٢ ، وقدرته تعالى على حفظ كتابه مع نزوله دفعة او تدريجاً سواء .

وأما الوجه الثاني : فكما أن الكلام المفرّق يقارنه أحوال تقتضي في نظمه أموراً إن اشتمل عليها الكلام كان بليغاً وإلا فلا ، كذلك الكلام الجملي وإن كان كتاباً يقارنه بحسب فصوله وأجزائه أحوال لها اقتضاءات إن طابقها كان بليغاً وإلا فلا فالبلاغة غير موقوفة على غير الكتاب النازل دفعة والكلام المجموع جملة واحدة .

وأما الوجه الثالث فالنسخ ليس إبطالا للحكم السابق وإنما هو بيان انتهاء أمده فمن الممكن الجمع بين الحكمين المنسوخ والناسخ بالإشارة إلى أن الحكم الأول محدود موقت إن اقتضت المصلحة ذلك .

ومن الممكن أيضاً أن يقدم بيان المسائل التي سيسألون عنها حتى لا يحتاجوا فيها إلى سؤال ولو سألوا عن شيء منها أرجعوا إلى سابق البيان ، وكذا من الممكن أن يقدم ذكر ما هو إنكار لما كان أو حكاية لما جرى أو إخبار عن بعض المغيبات فشيء من ذلك لا يمتنع تقديمه كما هو ظاهر .

على أن تفريق النزول لبعض هذه الحكم والمصالح من تثبيت الفؤاد فليست هذه الوجوه المذكورة وجوها على حدتها .

فالحق أن البيان الواقع في الآية بيان تام جامع لا حاجة معه إلى شيء من هذه الوجوه البتة .

قوله تعالى : « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم هم شر مكانا وأضل سبيلا » اتصال الآية بما قبلها من الآيات على ما لها من السياق يعطي أن هؤلاء القادحين في القرآن استنتجوا من قدحهم ما لا يليق بمقام النبي ﷺ فذكروه واصفين له بسوء المكانة وضلال السبيل فلم يذكره الله تعالى في ضمن ما حكى من قولهم في القرآن صونا لمقام النبوة أن يذكر بسوء ، وإنما أشار إلى ذلك في ما أورد في هذه الآية من الرد عليهم بطريق التكنية .

فقوله : « الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم » كناية عن الذين كفروا القادحين في القرآن الواصفين للنبي ﷺ بما وصفوا ، والكناية أبلغ من التصريح .

فالمراد أن هؤلاء القادحين في القرآن الواصفين لك هم شر مكانا وأضل سبيلا لا أنت فالكلام مبني على قصر القلب ، ولفظنا « شر » و « أضل » منسلختان عن معنى التفضيل أو مفيدتان على التهكم ونحوه .

وقد كنى عنهم بالمحشورين على وجوههم إلى جهنم وهو وصف من أضله الله من المتعنتين المنكرين للمعاد كما قال تعالى : « ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا » الخ أسرى : ٩٨ .

ففي هذه التكنية مضافا إلى كونها أبلغ ، تهديد لهم بشر المكان وأليم العذاب وأيضا هي في معنى الاحتجاج على ضلالهم إذ لا ضلال أضل من أن يسير الإنسان على وجهه وهو لا يشعر بما في قدامه ، وهذا الضلال الذي في حشرهم على وجوههم إلى جهنم ممثل للضلال الذي كان لهم في الدنيا فكأنه قيل: إن هؤلاء هم الضالون فإنهم محشورون على وجوههم ، ولا يبتلي بذلك إلا من كان ضالا في الدنيا .

وقد اختلفت كلماتهم في وجه اتصال الآية بما قبلها فسكت عنه بعضهم، وذكر في مجمع البيان أنهم قالوا لمحمد ﷺ والمؤمنين : أنهم شر خلق الله فقال الله تعالى :

« أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » وذكر بعضهم أنها متصلة بقوله قبل آيات: « أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا » وقد عرفت ما يلوح من السياق .

وقد اختلفوا أيضا في المراد بحشرهم على وجوههم فقيل: وهو على ظاهره وهو الانتقال مكبوبا ، وقيل : هو السحب .

وقيل:هو الانتقال من مكان إلى مكان منكوسا وهو خلاف المشي على الاستقامة وفيه أن الأولى حينئذ التعبير بالحشر على الرؤوس لا على الوجوه ، وقد قال تعالى في موضع آخر وهو كتوصيف ما يجري بعد هذا الحشر : « يوم يسحبون في النار على وجوههم » القمر : ٤٨ .

وقيل : المراد به فرط الذلة والهوان والخزي مجازا . وفيه أن المجاز إنما يصار اليه إذا لم يمكن حمل اللفظ على الحقيقة .

وقيل : هو من قول العرب : مرّ فلان على وجهه إذا لم يُدرَ أين ذهب ؟ وفيه أن مرجعه إلى الجهل بالمكان المحشور اليه ولا يناسب ذلك تقييد الحشر في الآية بقوله : « إلى جهنم » .

وقيل : الكلام كناية او استعارة تمثيلية ، والمراد أنهم يحشرون وقلوبهم متعلقة بالسفليات من الدنيا وزخارفها متوجهة وجوههم اليها . وأورد عليه أنهم هناك في شغل شاغل عن التوجه إلى الدنيا وتعلق القلوب بها ، ولعل المراد به بقاء آثار ذلك فيهم وعليهم .

وفيه أن مقتضى آيات تجسّم الأعمال كون العذاب ممثلا للتعلق بالدنيا والتوجه نحوها فهم في الحقيقة لا شغل لهم يومئذ إلا ذلك .

قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً » استشهاد على رسالة النبي ﷺ ونزول الكتاب عليه قبال تكذيب الكفار به وبكتابه برسالة موسى وإيتائه الكتاب وإشراك هارون في أمره للتخلص إلى ذكر تعذيب آل فرعون وإهلاكهم ، ومعنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذّبوا بآياتنا فدمّرناهم تدميراً » قال

في مجمع البيان : التدمير الإهلاك لأمر عجيب ، ومنه التنكيل يقال : دمّر على فلان إذا هجم عليه بالمكروه . انتهى .

والمراد بالآيات آيات الآفاق والأنفس الدالة على التوحيد التي كذّبوا بها ، وذكر أبو السعود في تفسيره أن الآيات هي المعجزات التسع المفصّلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لها عند إرسالها اليهم بهـذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن إظهارها المتأخر عن ذهابها المتأخر عن الأمر به بل إنما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بياناً لعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أي فذهبا إليهم فأرياهم آياتنا كلها فكذّبوها تكذيباً مستمراً فدمرناهم . انتهى . وهو حسن لو تعين حمل الآيات على آيات موسى عليه السلام .

ووجه اتصال الآيتين بما قبلها هو تهديد القادحين في كتاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته بتنظير الأمر بأمر موسى حيث آتاه الله الكتاب وأرسله مع أخيه إلى قوم فرعون فكذّبوه فدمرهم تدميراً .

ولهذه النكتة قدّم ذكر إيتاء الكتاب على إرسالهما إلى القوم وتدميرهم مع أن التوراة إنما نزلت بعد غرق فرعون وجنوده فلم يكن الغرض من القصة إلا الإشارة إلى إيتاء الكتاب والرسالة لموسى وتدمير القوم بالتكذيب .

وقيل : الآيتان متصلتان بقوله تعالى قبل : « وكفى بربك هادياً ونصيراً » وهو بعيد .

قوله تعالى : « وقوم نوح لما كذّبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً » الظاهر أن قوله : « قوم نوح » منصوب بفعل مقدّر يدل عليه قوله : « أغرقناهم » .

والمراد بتكذيبهم الرسل تكذيبهم نوحاً فإن تكذيب الواحـد من رسل الله تكذيب للجميع لاتفاقهم على كلمة الحق . على أن هؤلاء الامم كانوا أقواماً وثنيين وهم ينكرون النبوة ويكذّبون الرسالة من رأس .

وقوله : «وجعلناهم للناس آية» أي لمن بقي بعدهم من ذراريهم ، والباقي ظاهر.

قوله تعالى : « وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً » قال في مجمع البيان : الرس البئر التي لم تطو ذكروا أنهم كانوا قوماً بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله اليهم رسولاً فكذّبوا به فأهلكهم الله ، وقيل هو اسم نهر كانوا على شاطئه وفي روايات الشيعة ما يؤيد ذلك .

وقوله : « وعاداً » الخ معطوف على «قوم نوح» والتقدير : ودمرنا أو وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب الرس « الخ » .

وقوله : « وقروناً بين ذلك كثيراً » القرن أهل عصر واحد وربما يطلق على نفس العصر والإشارة بذلك إلى من مر ذكرهم من الأقوام أولهم قوم نوح وآخرهم أصحاب الرس او قوم فرعون ، والمعنى ودمرنا او وأهلكنا عاداً وهم قوم هود ، وثمود وهم قوم صالح ، وأصحاب الرسّ ، وقروناً كثيراً متخللين بين هؤلاء الذين ذكرناهم وهم قوم نوح فمن بعدهم .

قوله تعالى : « وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا » كلا منصوب بفعل يدل عليه قوله : « ضربنا له الأمثال » فإن ضرب الأمثال في معنى التذكير والموعظة والإنذار ، والتتبير التفتيت ، ومعنى الآية .

قوله تعالى : « ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا » هذه القرية هي قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجيل وقد مر تفصيل قصصهم في السور السابقة .

وقوله : « أفلم يكونوا يرونها » استفهام توبيخي فإن القرية كانت على طريق أهل الحجاز إلى الشام .

وقوله : « بل كانوا لا يرجون نشورا » أي لا يخافون معادا أو كانوا آئسين من المعاد ، وهذا كقوله تعالى فيما تقدم : « بل كذبوا بالساعة » والمراد به أن المنشأ الأصيل لتكذيبهم بالكتاب والرسالة وعدم اتعاظهم بهذه المواعظ الشافية وعدم اعتبارهم بما يعتبر به المعتبرون أنهم منكرون للمعاد فلا ينجح فيهم دعوة ولا تقع في قلوبهم حكمة ولا موعظة .

(بحث روائي)

في العيون بإسناده عن أبي الصلت الهروي عن الرضا عن أمير المؤمنين عليهما السلام حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الرس ، ملخصه أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها شاه درخت كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها : روشن آب وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له الرس يسمّين بأسماء : أبان ، آذر ، دي ، بهمن ، اسفندار ، فروردين ، أردي بهشت خرداد ، مرداد ، تير ، مهر ، شهريور ، ومنها اشتق العجم أسماء شهورهم .

وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبة . أجروا عليها نهرا من العين التي عند الصنوبرة ، وحرّموا شرب مائها على أنفسهم وأنعامهم ومن شرب منه قتلوه ويقولون : إنه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها .

وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوماً في كل قرية عيدا يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية يقرّبون اليها القرابين ويذبحون الذبائح ثم يحرقونها في نار أضرموها فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها وسطوعه في السماء ويبكون ويتضرعون والشيطان يكلمهم من الشجرة .

وهذا دأبهم في القرى حتى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى التي كان يسكنها ملكهم واسمها إسفندار اجتمع اليها أهل القرى جميعاً وعيّدوا اثني عشر يوما ، وجاؤا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين والعبادات للشجرة وكلمهم إبليس وهو يعدهم ويمنيهم أكثر مما كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر .

ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة بعث الله اليهم رسولا من بني إسرائيل من ولد يهودا فدعاهم إلى عبادة الله وترك الشرك برهة فلم يؤمنوا فدعا على الشجرة فيبست فلما رأوا ذلك ساءهم فقال بعضهم : إن هـذا الرجل سحر آلهتنا ، وقال آخرون : إن آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه وشأنه من غير أن نغضب عليه لآلهتنا .

فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئرا عميقا وألقوه فيها وشدوا رأسها فلم

يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام : أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفأوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وهشام وحفص عن أبي عبد الله عليه السلام أنه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهن عن السحق فقال : حدها حد الزاني فقالت المرأة : ما ذكره الله عز وجل في القرآن ، فقال : بلى ، فقالت : وأين هو ؟ قال : هنّ الرس .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي وابن عساكر عن جعفر بن محمد بن علي أن امرأتين سألتاه : هل تجد غشيان المرأة المرأة محرّماً في كتاب الله ؟ قال : نعم هن اللواتي كن على عهد تبّع ، وهن صواحب الرس ، وكل نهر وبئر رسّ .

قال : يقطع لهن جلباب من نار ، ودرع من نار ، ونطاق من نار ، وتاج من نار ، وخفّان من نار ، ومن فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف منتن من نار . قال جعفر : علّموا هذا نساءكم .

أقول : وروى القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير ، عن جميل عن أبي عبد الله عليه السلام ما في معناه .

وفي تفسير القمي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى : « وكلا تبّرنا تتبيراً » يعني « كسّرنا تكسيراً » قال : هي لفظة بالنبطية .

وفيه وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: وأما القرية التي أمطرت مطر السوء فهي سدوم قرية قوم لوط أمطر الله عليهم حجارة من سجّيل يعني من طين.

* * *

وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَـٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً ــ ٤١ . إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلاَ أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا

وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً – ٤٢ . أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً – ٤٣ . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَٱلأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً – ٤٤ . أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً – ٤٥ . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً – ٤٦ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً – ٤٧ . وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً – ٤٨ . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً – ٤٩ . وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً – ٥٠ . وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً – ٥١ . فَلاَ تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً – ٥٢ . وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً – ٥٣ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً – ٥٤ . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً – ٥٥ . وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً – ٥٦ . قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً – ٥٧ . وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ

الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً ــ ٥٨ .
الَّذِي خَلَقَ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَمٰا بَيْنَهُمٰا فِي سِتَّةِ أَيّٰامٍ ثُمَّ اسْتَوىٰ
عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً ــ ٥٩ . وَإِذٰا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا
لِلرَّحْمٰنِ قٰالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمٰا تَأْمُرُنٰا وَزٰادَهُمْ نُفُوراً ــ ٦٠ .
تَبٰارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمٰاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهٰا سِرٰاجاً وَقَمَراً
مُنِيراً ــ ٦١ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهٰارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرٰادَ أَنْ يَذَّكَّرَ
أَوْ أَرٰادَ شُكُوراً ــ ٦٢ .

(بيان)

تذكر الآيات بعض صفات أولئك الكفار القادحين في الكتاب والرسالة والمنكرين للتوحيد والمعاد ممّا يناسب سنخ اعتراضاتهم واقتراحاتهم كاستهزائهم الرسول ﷺ واتباعهم الهوى وعبادتهم لما لا ينفعهم ولا يضرهم واستكبارهم عن السجود لله سبحانه .

قوله تعالى : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولا » ضمير الجمع للذين كفروا السابق ذكرهم ، والهزؤ الإستهزاء والسخرية فالمصدر بمعنى المفعول ، والمعنى : وإذا رآك الذين كفروا لا يتخذونك إلا مهزوّاً به .

وقوله : « أهذا الذي بعث الله رسولا » بيان لاستهزائهم أي يقولون كذا استهزاء بك .

قوله تعالى : « إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها » الخ « إن » مخففة من الثقيلة ، والإضلال كأنه مضمن معنى الصرف ولذا عدّي بعن ، وجواب لولا محذوف

يدل عليه ما تقدمه ، والمعنى أنه قرب أن يصرفنا عن آلهتنا مضلا لنا لولا أن صبرنا على آلهتنا أي على عبادتها لصرفنا عنها .

وقوله : « وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا » توعد وتهديد منه تعالى لهم وتنبيه أنهم على غفلة مما سيستقبلهم من معاينة العذاب واليقين بالضلال والغي .

قوله تعالى : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا » الهوى ميل النفس إلى الشهوة من غير تعديله بالعقل ، والمراد باتخاذ الهوى إلهاً طاعته واتباعه من دون الله وقد أكثر الله سبحانه في كلامه ذم اتباع الهوى وعدّ طاعة الشيء عبادة له في قوله : « ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني » يس : ٦١ .

وقوله : « أفأنت تكون عليه وكيلا » استفهام إنكاري أي لست أنت وكيلا عليه قائماً على نفسه وبامورة حتى تهديه إلى سبيل الرشد فليس في مقدرتك ذلك وقد أضله الله وقطع عنه أسباب الهداية وفي معناه قوله : « إنك لا تهدي من أحببت » القصص : ٥٦ ، وقوله : « وما أنت بمسمع من في القبور » الفاطر : ٢٢ ، والآية كالإجمال للتفصيل الذي في قوله : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه قلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله » الجاثية : ٢٣ .

ويظهر مما تقدم من المعنى أن قوله : « اتخذ إلهه هواه » على نظمه الطبيعي أي إن « اتخذ » فعل متعدّ إلى مفعولين و « إلهه » مفعوله الأول و « هواه » مفعول ثان له فهذا هو الذي يلائم السياق وذلك أن الكلام حول شرك المشركين وعدولهم عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام ، وإعراضهم عن طاعة الحق التي هي طاعة الله إلى طاعة الهوى الذي يزين لهم الشرك ، وهؤلاء يسلّمون أن لهم إلهاً مطاعاً وقد أصابوا في ذلك ، لكنهم يرون أن هذا المطاع هو الهوى فيتخذونه مطاعاً بدلا من أن يتّخذوا الحق مطاعاً فقد وضعوا الهوى موضع الحق لا أنهم وضعوا المطاع موضع غيره فافهم .

ومن هنا يظهر ما في قول عدة من المفسرين أن « هواه » مفعول أول لقوله « اتخذ » و « إلهه » مفعول ثان مقدم ، وإنما قدم للاعتناء به من حيث إنه الذي يدور

عليه أمر التعجيب في قوله : « أرأيت من اتخذ » الخ ، كما قاله بعضهم ، أو إنما قدّم للحصر على ما قاله آخرون ، ولهم في ذلك مباحثات طويلة أغمضنا عن إيرادها وفيما ذكرناه كفاية إن شاء الله .

قوله تعالى : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » أم منقطعة ، والحسبان بمعنى الظن وضمائر الجمع راجعة إلى الموصول في الآية السابقة باعتبار المعنى . والترديد بين السمع والعقل من جهة أن وسيلة الإنسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين إما أن يستقلّ بالتعقل فيعقل الحق فيتبعه أو يرجع إلى قول من يعقله وينصحه فيتبعه ان لم يستقل بالتعقل فالطريق الى الرشد سمع أو عقل فالآية في معنى قوله : « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » ، الملك : ١٠ .

والمعنى : بل أتظن أن أكثرهم لهم استعداد استماع الحق ليتبعه أو استعداد عقل الحق ليتبعه فترجو اهتداءهم فتبالغ في دعوتهم .

وقوله : « إن هم إلا كالانعام » بيان للجملة السابقة فإنه في معنى : أن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون فتنبّه أنهم ليسوا إلا كالأنعام والبهائم في أنها لا تعقل ولا تسمع إلا اللفظ دون المعنى .

وقوله : « بل هم أضل سبيلا » أي من الأنعام وذلك أنّ الأنعام لا تقتحم على ما يضرها وهؤلاء يرجحون ما يضرهم على ما ينفعهم ، وأيضاً الأنعام إن ضلت عن سبيل الحق فإنها لم تجهز في خلقتها بما يهديها اليه وهؤلاء مجهزون وقد ضلوا .

واستدل بعضهم بالآية على أن الأنعام لا علم لها بربها . وفيه أن الآية لا تنفي عنها ولا عن الكفار أصل العلم بالله وإنما تنفي عن الكفار اتباع الحق الذي يهدي اليه عقل الإنسان الفطري لاحتجابه باتباع الهوى ، وتشبيههم في ذلك بالأنعام التي لم تجهز بهذا النوع من الإدراك .

وأما مـا أجاب به بعضهم أن الكلام خارج مخرج الظاهر فنقول لا سبيل الى إثباته بالاستدلال .

قوله تعالى : « ألم ترَ إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضاً يسيرا » هاتان الآيتان وما بعدهما إلى تمام تسع آيات في معنى التنظير لما تضمنته الآيتان السابقتان بل الآيات الأربع السابقة من أن الله سبحانه جعل رسالة الرسول لهداية النـــاس إلى سبيل الرشد وإنقاذهم من الضلال فيهتدي بها بعضهم ممن شاء الله وأما غيرهم ممن اتخذ إلهه هواه فصار لا يسمع ولا يعقل فليس في وسع أحد أن يهديهم من بعد الله .

فهي تبين أن ليس هـذا ببدع من الله سبحانه ففي عجائب صنعه وبيّنات آياته نظائر لذلك ففعله متشابه وهو على صراط مستقيم ، وذلك كمدّ الظل وجعل الشمس دليلا عليه تنسخه ، وكجعل الليل لباساً والنوم سباتاً والنهار نشوراً ، وكجعل الرياح بشراً وإنزال المطر وإحياء الأرض الميتة وإرواء الأنعام والأناسي به .

ثم ما مثل المؤمن والكافر في اهتداء هـــذا وضلال ذاك – وهم جميعاً عباد الله يعيشون في أرض واحـدة – إلا كمثل المائين العذب الفرات والملح الاجاج مرجهما الله تعالى لكن جعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ، وكالماء خلق الله سبحانه منه بشراً ثم جعله نسباً وصهراً فاختلف بذلك المواليد وكان ربك قديراً .

هذا ما يهدي اليه التدبر في مضامين الآيات وخصوصيات نظمها ، وبه يظهر وجه اتصالها بما تقدمّها ، وأما ما ذكروه من أن الآيات مسوقة لبيان بعض أدلة التوحيد إثر بيان جهالة المعرضين عنها وضلالهم فالسياق لا يساعد عليه وسنزيد ذلك إيضاحاً .

فقوله : « ألم ترَ إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً » تنظير – كما تقدمت الإشارة اليه – لشمول الجهل والضلال للناس ورفعه تعالى ذلك بالرسالة والدعوة الحقة كما يشاء ، ولازم ذلك أن يكون المراد بمد الظل ما يعرض الظل الحادث بعد الزوال من التمدد شيئاً فشيئاً من المغرب إلى المشرق حسب اقتراب الشمس من الافق حتى إذا غربت كانت فيه نهاية الإمتداد وهو الليل ، وهو في جميع أحواله متحرك ولو شاء الله لجعله ساكناً .

وقوله : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلا » والدليل هي الشمس من حيث دلالتها

بنورها على أن هناك ظلاً وبانبساطه شيئاً فشيئاً على تمدّد الظل شيئاً فشيئاً ولولاها لم يلتنبه لوجود الظل فإن السبب العام لتميز الإنسان بعض المعاني من بعض تحوّل الأحوال المختلفة عليه من فقدان ووجدان فإذا فقد شيئاً كان يجده تنبّه لوجوده واذا وجد ما كان يفقده تنبّه لعدمه ، وأما الأمر الثابت الذي لا تتحول عليه الحال فليس إلى تصوّره بالتنبه سبيل .

وقوله : « ثم قبضناه الينا قبضاً يسيراً » أي أزلنا الظل بإشراق الشمس وارتفاعها شيئاً فشيئاً حتى ينسخ بالكلية ، وفي التعبير عن الإزالة والنسخ بالقبض وكونه اليه ، وتوصيفه باليسير دلالة على كمال القدرة الإلهية وأنها لا يشق عليها فعل ، وأن فقدان الأشياء بعد وجودها ليس بالانعدام والبطلان بل بالرجوع اليه تعالى .

وما تقدم من تفسير مد الظل بتمديد الفيء بعد زوال الشمس وإن كان معنى لم يذكره المفسرون لكن السياق – على ما أشرنا اليه – لا يلائم غيره مما ذكره المفسرون كقول بعضهم: إن المراد بالظل الممدود ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وقول بعض : ما بين غروب الشمس وطلوعها ، وقول بعض : ما يحدث من مقابلة كثيف كجبل او بناء او شجر للشمس بعد طلوعها ، وقول بعض – وهو أسخف الأقوال – هو ما كان يوم خلق الله السماء وجعلها كالقبة ثم دحا الأرض من تحتها فألقت ظلها عليها .

وفي الآية أعني قوله : « ألم ترَ إلى ربك » الخ ، التفات من سياق التكلم بالغير في الآيات السابقة إلى الغيبة ، والنكتة فيه أن المراد بالآية وما يتلوها من الآيات بيان أن أمر الهداية إلى الله سبحانه وليس للنبي ﷺ من الأمر شيء وهو تعالى لا يريد هدايتهم وأن الرسالة والدعوة الحقة في مقابلتها للضلال المنبسط على أهل الضلال ونسخها ما تنسخ منه من شعب السنة العامة الإلهية في بسط الرحمة على خلقه نظير إطلاع الشمس على الأرض ونسخ الظل الممدود فيها بها ، ومن المعلوم أن الخطاب المتضمن لهذه الحقيقة مما ينبغي أن يختص به ﷺ وخاصة من جهة سلب القدرة على الهداية عنه ، وأما الكفار المتخذون إلههم هواهم وهم لا يسمعون ولا يعقلون فلا نصيب لهم فيه .

وفي قوله : « ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه الينا » رجوع إلى السياق السابق ، وفي ذلك مع ذلك من إظهار العظمة والدلالة على الكبرياء ما لا يخفى .

والكلام في قوله الآتي : « وهو الذي جعل لكم الليل » الخ ، وقوله : « وهو الذي أرسل الرياح » ، وقوله : « وهو الذي مرج البحرين » ، وقوله : « وهو الذي خلق من الماء بشراً » ، كالكلام في قوله : « ألم ترَ إلى ربك » ، والكلام في قوله : « وأنزلنا من السماء ماء » الخ ، وقوله : « ولقد صرّفناه بينهم »، وقوله : « ولو شئنا لبعثنا » ، كالكلام في قوله : « ثم جعلنا الشمس » .

قوله تعالى : « وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً » كون الليل لباساً إنما هو ستره الإنسان بغشيان الظلمة كما يستر اللباس لابسه.

وقوله : « والنوم سباتاً » أي قطعاً للعمل ، وقوله : « وجعل النهار نشورا » أي جعل فيه الانتشار وطلب الرزق على ما ذكره الراغب في معنى اللفظتين .

وحال ستره تعالى الناس بلباس الليل وقطعهم به عن العمل والحركة ثم نشرهم للعمل والسعي بإظهار النهار وبسط النور كحال مد الظل ثم جعل الشمس عليه دليلاً وقبض الظل بها اليه .

قوله تعالى : « وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً » البشر بالضم فالسكون مخفف بشر بضمتين جمع بشور بمعنى مبشر أي هو الذي أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهي المطر .

وقوله : « وأنزلنا من السماء ماء طهوراً » أي من جهة العلو وهي جو الأرض ماء طهورا أي بالغاً في طهارته فهو طاهر في نفسه مطهّر لغيره يزيل الأوساخ ويذهب بالأرجاس والأحداث – فالطهور على ما قيل صيغة مبالغة – .

قوله تعالى : « لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً » ، البلدة معروفة قيل : وأريد بها المكان كما في قوله : « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » الأعراف : ٥٨ ، ولذا اتصف بالميت وهو مذكر والمكان الميت ما لا نبات فيه وإحياؤه إنباته ، والأناسي جمع إنسان ، ومعنى الآية ظاهر .

وحال شمول الموت للأرض والحاجة إلى الشرب والري للأنعام والأناسي ثم إنزاله تعالى من السماء ماء طهورا ليحيي به بلدة ميتاً ويسقيه أنعاماً وأناسي كثيرا من خلقه كحال مد الظل ثم الدلالة عليه بالشمس ونسخه بها كما تقدم ·

قوله تعالى : « ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » ظاهر اتصال الآية بما قبلها أن ضمير « صرفناه » للماء وتصريفه بينهم صرفه عن قوم إلى غيرهم تارة وعن غيرهم اليهم أخرى فلا يدوم في نزوله على قوم فيهلكوا ولا ينقطع عن قوم دائماً فيهلكوا بل يدور بينهم حتى ينال كل نصيبه بحسب المصلحة ، وقيل : المراد بالتصريف التحويل من مكان إلى مكان .

وقوله : « ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا » تعليل للتصريف أي وأقسم لقد صرّفنا المـاء بتقسيمه بينهم ليتذكّروا فيشكروا فأبى وامتنع أكثر الناس إلا كفران النعمة .

قوله تعالى : « « ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا » أي لو أردنا أن نبعث في كل قرية نذيرا ينذرهم ورسولاً يبلغهم رسالاتنا لبعثنا ولكن بعثناك إلى القرى كلهـا نذيرا ورسولاً لعظيم منزلتك عندنا . هكذا فسرت الآية ولا تخلو الآية التالية من تأييد لذلك ، وهذا المعنى لما وجهنا به اتصال الآيات أنسب .

أو أن المراد أنـّا قادرون على أن نبعث في كل قرية رسولاً وإنما اخترناك لمصلحة في اختيارك .

قوله تعالى : « فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا » متفرع على معنى الآية السابقة ، وضمير « به » للقرآن بشهادة سياق الآيات، والمجاهدة والجهاد بذل الجهد والطاقة في مدافعة العدو وإذ كان بالقرآن فالمراد تلاوته عليهم وبيـــان حقائقه لهم وإتمام حججه عليهم .

فمحصل مضمون الآية أنه إذا كان مثل الرسالة الإلهية في رفع حجاب الجهل والغفلة المضروب على قلوب الناس بإظهار الحق لهم وإتمام الحجة عليهم مثل الشمس في الدلالة على الظل الممدود ونسخه بأمر الله ، ومثل النهـار بالنسبة إلى الليل وسبته ، ومثل المطر بالنسبة إلى الأرض الميتة والأنعام والأناسيّ الظامئة ، وقد بعثناك لتكون

نذيرا لأهل القرى فلا تطع الكافرين لأن طاعتهم تبطل هذا الناموس العام المضروب للهداية . وابذل مبلغ جهدك ووسعك في تبليغ رسالتك وإتمام حجتك بالقرآن المشتمل على الدعوة الحقة وجاهدهم به مجاهدة كبيرة .

قوله تعالى : « وهو الذي مرج البحرين هـذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجرا محجورا» المرج الخلط ومنه أمر مريج أي مختلط ،والعذب من الماء ما طاب طعمه ، والفرات منه ما كثر عذوبته ، والملح هو الماء المتغير طعمه . والاجاج شديد الملوحة ، والبرزخ هو الحد الحاجز بين شيئين ، وحجرا محجورا أي حراماً محرماً أن يختلط أحد الماءين بالآخر .

وقوله : « وجعل بينهما » الخ قرينة على أن المراد بمرج البحرين إرسال الماءين متقارنين لا الخلط بمعنى ضرب الأجزاء بعضها ببعض .

والكلام معطوف على ما عطف عليه قوله : « وهو الذي أرسل الرياح » الخ ، وفيه تنظير لامر الرسالة من حيث تأديتها إلى تميز المؤمن من الكافر مع كون الفريقين يعيشان على أرض واحدة مختلطين وهما مع ذلك غير متمازجين كما تقدمت الإشارة اليه في أول الآيات التسع .

قوله تعالى : « وهو الذي خلق من المـاء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديرا » الصهر على ما نقل عن الخليل الختن وأهل بيت المرأة فالنسب هو التحرّم من جهة الرجل والصهر هو التحرم من جهة المرأة – كما قيل – ويؤيده المقابلة بين النسب والصهر .

وقد قيل : إن كلاً من النسب والصهر بتقدير مضاف والتقدير فجعله ذا نسب وصهر ، والضمير للبشر ، والمراد بالماء النطفة ، وربما احتمل أن يكون المراد به مطلق الماء الذي خلق الله منه الأشياء الحية كما قال : « وجعلنا من المـــاء كل شيء حي » الأنبياء : ٣٠ .

والمعنى : وهو الذي خلق من النطفة – وهي ماء واحد – بشراً فقسّمه قسمين ذا نسب وذا صهر يعني الرجل والمرأة وهـذا تنظير آخر يفيد ما تفيده الآية السابقة أن لله سبحانه أن يحفظ الكثرة في عين الوحدة والتفرق في عين الاتحاد وهكذا يحفظ

اختلاف النفوس والآراء بالإيمان والكفر مع اتحاد المجتمع البشري بما بعث الله الرسل لكشف حجاب الضلال الذي من شأنه غشيانه لولا الدعوة الحقة .

وقوله : « وكان ربك قديرا » في إضافة الرب إلى ضمير الخطاب من النكتة نظير ما تقدم في قوله : « ألم ترَ إلى ربك » .

قوله تعالى : « ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا » معطوف على قوله : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا » . والظهير بمعنى المظاهر على ما قيل والمظاهرة المعاونة .

والمعنى : ويعبدون ـ هؤلاء الكفار المشركون ـ من دون الله ما لا ينفعهم بإيصال الخير على تقدير العبادة ولا يضرهم بإيصال الشر على تقدير ترك العبادة وكان الكافر معاوناً للشيطان على ربه .

وكون هؤلاء المعبودين وهم الأصنام ظاهرا لا ينفعون ولا يضرون لا ينافي كون عبادتهم مضرة فلا يستلزم نفي الضرر عنهم أنفسهم حيث لا يقدرون على شيء نفي الضرر عن عبادتهم المضرة المؤدية للإنسان إلى شقاء لازم وعذاب دائم .

قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا مبشّرا ونذيرا » أي لم نجعل لك في رسالتك إلا التبشير والإنذار وليس لك وراء ذلك من الأمر شيء فلا عليك إن كانوا معاندين لربهم مظاهرين لعدوه عليه فليسوا بمعجزين لله وما يمكرون إلا بأنفسهم ، هذا هو الذي يعطيه السياق .

وعليه فقوله : « وما أرسلناك إلا مبشّرا ونذيرا » هذا الفصل من الكلام نظير قوله : « أفأنت تكون عليهم وكيلا » في الفصل السابق .

ومنه يظهر أن أخذ بعضهم الآية تسلية منه تعالى لنبيه ﷺ حيث قال والمراد ما أرسلناك إلا مبشّرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين فلا تحزن على عدم إيمانهم . غير سديد .

قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا ما شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » ضمير « عليه » للقرآن بما أن تلاوته عليهم تبلغ للرسالة كما قال تعالى : « إن هذه

تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » المزمّل : ١٩ ، الدهر : ٢٩ ، وقـال : « قل ما أسألكم عليه أجرا وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين » ص : ٨٧ .

وقوله : « إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا » استثناء منقطع في معنى المتصل فإنه في معنى إلا أن يتخذ إلى ربـه سبيلا من شاء ذلك على حد قوله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء : ٨٩ ، أي إلا أن يأتي الله بقلب سليم من أتاه به .

ففيه وضع للفاعل وهو من اتخذ السبيل موضع فعله وهو اتخـاذ السبيل شكرا له ففي الكلام عـدّ اتخاذهم سبيلا إلى الله سبحانه باستجابة الدعوة أجرا لنفسه ففيه تلويح إلى نهاية استغنائه عن أجر مالي أو جاهي منهم ، وأنـــه لا يريد منهم وراء استجابتهم للدعوة واتباعهم للحق شيئاً آخر من مال أو جـــاه او أي أجر مفروض فليطيبوا نفساً ولا يتهموه في نصيحته .

وقد علّق اتخاذ السبيل على مشيتهم للدلالة على حريتهم الكاملة عن قبله صلى الله عليه وآله فلا إكراه ولا إجبار إذ لا وظيفة له عن قبل ربه وراء التبشير والإنذار وليس عليهم بوكيل بل الامر إلى الله يحكم فيهم ما يشاء .

فقوله : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ » الخ بعد ما سجل لنبيه ﷺ أن ليس له إلا الرسالة بالتبشير والإنذار يأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا أن يستجيبوا له ويتخذوا إلى ربهم سبيلاً من غير غرض زائد من الاجر أياً ما كان ، وأن لهم الخيرة في أمرهم من غير أي إجبار وإكراه فهم والدعوة إن شاؤا فليؤمنوا وإن شاؤا فليكفروا .

هذا ما يرجع اليه ﷺ وهو تبليغ الرسالة فحسب من غير طمع في أجر ولا تحميل عليهم بإكراه أو انتقام منهم بنكال ، وأما ما وراء ذلك فهو لله فليرجعه اليه وليتوكل عليه كما أشار اليه في الآية التالية : « وتوكل على الحي الذي لا يموت » .

وذكر جمهور المفسرين أن الاستثناء منقطع ، والمعنى لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً أي بالإنفاق القائم مقام الاجر كالصدقة والإنفاق في سبيل الله فليفعل ، وهو ضعيف لا دليل عليه لا من جهة لفظ الجملة ولا من جهة السياق .

وقال بعضهم : إنه متصل والكلام بحذف مضاف والتقدير إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً بالإيمان والطاعة حسبما أدعوا اليها . وفيه أخذ استجابتهم له أجرا لنفسه وقطعاً لشائبة الطمع بالكلية وتطييباً لانفسهم ، ويرجع هذا الوجه بحسب المعنى إلى ما قدمناه ويمتاز منه بتقدير مضاف والتقدير خلاف الاصل .

وقال آخرون : إنه متصل بتقدير مضاف والتقدير لا أسألكم عليه من أجر إلا أجر من شاء «الخ» أي إلا الاجر الحاصل لي من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله. وفيه أن مقتضى هذا المعنى أن يقال : الا من اتخذ الى ربه سبيلاً فلا حاجة الى تعليق الاتخاذ بالمشية والاجر إنما يترتب على العمل دون مشيته .

قوله تعالى : « وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبّح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا » لما سجل على نبيه ﷺ أن ليس له من أمرهم شيء إلا الرسالة وأمره أن يبلغهم أن لا بغية له في دعوتهم إلا الإستجابة لها وأنهم على خيرة من أمرهم إن شاؤا آمنوا وإن شاؤا كفروا تمم ذلك بأمره ﷺ أن يتخذه تعالى وكيلاً في أمرهم فهو تعالى عليهم وعلى كل شيء وكيل وبذنوب عباده خبير .

فقوله : « وتوكل على الحي الذي لا يموت » أي اتخذه وكيلاً في أمرهم يحكم فيهم ما يشاء ويفعل بهم ما يريد فإنه الوكيل عليهم وعلى كل شيء وقد عدل عن تعليق التوكل بالله إلى تعليقه بالحي الذي لا يموت ليفيد التعليل فإن الحي الذي لا يموت لا يفوته فائت فهو المتعين لأن يكون وكيلاً .

وقوله : « وسبّح بحمده » أي نزهه عن العجز والجهل وكل ما لا يليق بساحة قدسه مقارناً ذلك للثناء عليه بالجميل فإن أمهلهم واستدرجهم بنعمه فليس عن عجز فعل بهم ذلك ولا عن جهل بذنوبهم وإن أخذهم بذنوبهم فبحكمة اقتضته وباستحقاق منهم استدعى ذلك فسبحانه وبحمده .

وقوله : « وكفى به بذنوب عباده خبيرا » مسوق للدلالة على توحيده في فعله وصفته فهو الوكيل المتصرف في أمور عباده وحده وهو خبير بذنوبهم وحاكم فيهم وحده من غير حاجة إلى من يعينه في علمه أو في حكمه .

ومن هنا يظهر أن الآية التالية : « الذي خلق السماوات والارض » متممة لقوله:

« وتوكل على الحي الذي لا يموت » الخ ، لاشتمالها على توحيده في ملكه وتصرفه كما يشتمل قوله : « وكفى به » الخ على علمه وخبرته وبالحياة والملك والعلم معاً يتم معنى الوكالة وسنشير اليه .

قوله تعالى : « الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا » ظاهر السياق أن الموصول صفة لقوله في الآية السابقة : « الحي الذي لا يموت » وبهذه الآية يتم البيان في قوله : « وتوكل على الحي الذي لا يموت » فإن الوكالة كما تتوقف على حياة الوكيل تتوقف على العلم ، وقد ذكره في قوله : « وكفى به بذنوب عباده خبيرا » وتتوقف على السلطنة على الحكم والتصرف وهو الذي تتضمنه هذه الآية بما فيها من حديث خلق السماوات والارض والإستواء على العرش .

وقد تقدم تفسير صدر الآية في مواضع من السور السابقة ، وأما قوله : « الرحمن فاسأل به خبيراً » فالذي يعطيه السياق ويهدي اليه النظم أن يكون الرحمن خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير هو الرحمن ، وقوله : « فاسأل » متفرّعاً عليه والفاء للتفريع ، والباء في قوله : « به » للتعدية مع تضمين السؤال معنى الإعتناء . وقوله : « خبيراً » حال من الضمير .

والمعنى : هو الرحمن – الذي استوى على عرش الملك والذي برحمته وإفاضته يقوم الخلق والأمر ومنه يبتدي كل شيء واليه يرجع – فاسأله عن حقيقة الحال يخبرك بها فإنه خبير .

فقوله : « فاسأل به خبيرا » كناية عن أن الذي أخبر به حقيقة الأمر التي لا معدل عنها وهذا كما يقول من سئل عن أمر : سلني أجبك إن كذا وكذا ومن هذا الباب قولهم : على الخبير سقطت .

ولهم في قوله : « الرحمن فاسأل به خبيرا » أقوال أخرى كثيرة : فقيل : إن الرحمن مرفوع على القطع للمدح ، وقيل : مبتدأ خبره قوله : « فاسأل به » ، وقيل : خبر مبتدؤه « الذي » في صدر الآية ، وقيل : بدل من الضمير المستكن في « استوى » .

وقيل في « فاسأل به » ، إنه خبر للرحمن كما تقدم والفاء فصيحة ، وقيل : جملة

مستقلة منفرعة على ما قبلها والفاء للتفريع ثم الباء في « به » للصلة أو بمعنى عن والضمير راجع اليه تعالى أو إلى ما تقدم من الخلق والاستواء .

وقيل : « خبيرا » حال عن الضمير وهو راجع اليه تعالى ، والمعنى فاسأل الله حال كونه خبيرا ، وقيل : مفعول فاسأل والباء بمعنى عن والمعنى فاسأل عن الرحمن أو عن حديث الخلق والاستواء خبيرا ، والمراد بالخبير هو الله سبحانه ، وقيل جبريل وقيل : محمد ﷺ ، وقيل : من قرأ الكتب السماوية القديمة ووقف على صفاته وأفعاله تعالى وكيفية الخلق والإيجاد ، وقيل : كل من كان له وقوف على هذه الحقائق .

وهذه الوجوه المتشتتة جلها أو كلها لا تلائم ما يعطيه سياق الآيات الكريمة ولا موجب للتكلم عليها والغور فيها .

قوله تعالى : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا » هذا فصل آخر من معاملتهم السوء مع الرسول ودعوته الحقة يذكر فيه استكبارهم عن السجود لله سبحانه إذا دعوا اليه ونفورهم منه وللآية اتصال خاص بما قبلها من حيث ذكر الرحمن فيها وقد وصف في الآية السابقة بما وصف ولعل اللام فيه للعهد .

فقوله : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن » الضمير للكفار ، والقائل هو النبي صلى الله عليه وآله بدليل قوله بعد : « أنسجد لما تأمرنا » ولم يذكر اسمه ليتوجه استكبارهم إلى الله سبحانه وحده .

وقوله : « قالوا وما الرحمن » سؤال منهم عن هويته ومائيته مبالغة منهم في التجاهل به استكبارا منهم على الله ولولا ذلك لقالوا : ومن الرحمن ، وهذا كقول فرعون لموسى لما دعاه إلى رب العالمين : « وما رب العالمين » الشعراء : ٢٣ ، وقول إبراهيم لقومه : « ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون » الأنبياء : ٥٢ ، ومراد السائل في مثل هذا السؤال أنه لا معرفة له من المسؤل عنه بشيء أزيد من اسمه كقول هود لقومه : « أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » الأعراف : ٧١ .

وقوله حكاية عنهم : « أنسجد لما تأمرنا » في تكرار التعبير عنه تعالى بما إصرار على الاستكبار ، والتعبير عن طلبه عنهم السجدة بالأمر لا يخلو من تهكم واستهزاء .

وقوله : « وزادهم نفورا » معطوف على جواب إذا والمعنى : وإذا قيل لهم اسجدوا استكبروا وزادهم ذلك نفورا ففاعل (زادهم) ضمير راجع إلى القول المفهوم من سابق الكلام .

وقول بعضهم : إن الفاعل ضمير راجع إلى السجود بناء على ما رووا أنه ﷺ وأصحابه سجدوا فتباعدوا عنهم مستهزئين ليس بسديد فإن وقوع واقعة ما لا يؤثر في دلالة اللفظ ما لم يتعرض له لفظاً . ولا تعرّض في الآية لهذه القصة أصلا .

قوله تعالى : « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » الظاهر أن المراد بالبروج منازل الشمس والقمر من السماء او الكواكب التي عليها كما تقدم في قوله : « ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيّناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم » الحجر : ١٧ ، وإنما خصّت بالذكر في الآية للإشارة إلى الحفظ والرجم المذكورين .

والمراد بالسراج الشمس بدليل قوله : « وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً » نوح : ١٦ .

وقد قرروا الآية أنها احتجاج بوحدة التدبير العجيب السماوي والأرضي على وحدة المدبّر فيجب التوجه بالعبادات اليه وصرف الوجه عن غيره .

والتدبر في اتصال الآيتين بما قبلها وسياق الآيات لا يساعد عليه لأن مضمون الآية السابقة من استكبارهم على الرحمان إذا أمروا بالسجود له واستهزائهم بالرسول لا نسبة كافية بينه وبين الاحتجاج على توحيد الربوبية حتى يعقّب به ، وإنما المناسب لهذا المعنى إظهار العزة والغنى وأنهم غير معجزين لله بفعالهم هذا ولا خارجون عن ملكه وسلطانه .

والذي يعطيه التدبر أن قوله : « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً » الخ ، مسوق سوق التعزز والاستغناء ، وأنهم غير معجزين باستكبارهم على الله واستهزائهم بالرسول بل هؤلاء ممنوعون عن الاقتراب من حضرة قربه والصعود إلى سماء جواره والمعارف الإلهية مضيئة مع ذلك لأهله وعباده بما نوّرها الله سبحانه بنور هدايته وهو نور الرسالة .

وعلى هذا فقد أثنى الله سبحانه على نفسه بذكر تباركه بجعل البروج المحفوظة الراجمة للشياطين بالشهب في السماء المحسوسة وجعل الشمس المضيئة والقمر المنير فيها لإضاءة العالم المحسوس ، وأشار بذلك إلى ما يناظره في الحقيقة من إضاءة العالم الإنساني بنور الهداية من الرسالة ليتبصر به عباده ، كما يذكر حالهم بعد هـذه الآيات ودفع أولياء الشياطين عن الصعود اليه بما هيأ لدفعهم من بروج محفوظة راجمة .

هذا ما يعطيه السياق وعلى هذا النمط من البيان سيقت هذه الآيات والتي قبلها كما تقدمت الإشارة اليه في تفسير قوله : « ألم ترَ إلى ربك كيف مدّ الظل » فليس ما ذكرناه من التأويل بمعنى صرف الآيات عن ظاهرها .

قوله تعالى : « وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً » الخلفة هي الشيء يسدّ مسدّ شيء آخر وبالعكس وكأنه بناء نوع أريد به معنى الوصف فكون الليل والنهار خلفة أن كلا منهما يخلف الآخر ، وتقييد الخلفة بقوله : « لمن أراد أن يذكّر او أراد شكوراً » للدلالة على نيابة كل منهما عن الآخر في التذكر والشكر .

والمقابلة بين التذكر والشكر يعطي أن المراد بالتذكر الرجوع إلى ما يعرفه الإنسان بفطرته من الحجج الدالة على توحيد ربه وما يليق به تعالى من الصفات والأسماء وغايته الإيمان بالله ، وبالشكور القول او الفعل الذي ينبىء عن الثناء عليه بجميل ما أنعم ، وينطبق على عبادته وما يلحق بها من صالح العمل .

وعلى هـذا فالآية اعتزاز او امتنان بجعله تعالى الليل والنهار بحيث يخلف كل صاحبه فمن فاته الإيمان به في هذه البرهة من الزمان تداركه في البرهة الاخرى منه ، ومن لم يوفّق لعبادة او لأي عمل صالح في شيء منهما أتى به في الآخر .

هـذا ما تفيده الآية ولها مع ذلك ارتباط بقوله في الآية السابقة : « وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً » ففيه إشارة إلى أن الله سبحانه وإن دفع أولئك المستكبرين عن الصعود إلى ساحة قربه لكنه لم يمنع عباده عن التقرب اليه والاستضاءة بنوره فجعل نهاراً ذا شمس طالعة وليلا ذا قمر منير وهما ذوا خلفة من فاته ذكر أو شكر في أحدهما أتى به في الآخر .

وفسّر بعضهم التذكر بصلاة الفريضة والشكور بالنافلة والآية تقبل الانطباق على ذلك وإن لم يتعين حملها عليه .

(بحث روائي)

في الدر المنثور في قوله تعالى : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » أخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متّبع .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « ألم ترَ إلى ربك كيف مدّ الظل » فقال : الظل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وهو الذي خلق من الماء » الآية ، قال ابن سيرين : نزلت في النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب زوج فاطمة علياً فهو ابن عمه وزوج ابنته فكان نسباً وصهراً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « وكان الكافر على ربه ظهيراً » يعني أبا الحكم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا جهل بن هشام .

أقول : والروايتان بالجري والتطبيق أشبه .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تبارك وتعالى : « تبارك الذي جعل في السماء بروجاً » فالبروج الكواكب والبروج التي للربيع والصيف الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة ، و بروج الخريف والشتاء : الميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهي اثنا عشر برجاً .

وفي الفقيه قال الصادق عليه السلام : كلما فاتك بالليل فاقضه بالنهار قال الله تبارك وتعالى : « وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكوراً » يعني أن يقضي الرجل ما فاته بالليل بالنهار وما فاته بالنهار بالليل .

* * *

وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
ٱلْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ــ ٦٣. وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ــ ٦٤.
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ
غَرَاماً ــ ٦٥ . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ــ ٦٦ . وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا
لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً ــ ٦٧ . وَٱلَّذِينَ لَا
يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا
بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً ــ ٦٨ . يُضَاعَفْ لَهُ
ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ــ ٦٩ . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ
عَمَلاً صَالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً
رَحِيماً ــ ٧٠ . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ــ ٧١.
وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ــ ٧٢ .
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ــ ٧٣ .
وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ــ ٧٤ . أُولٰئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا
تَحِيَّةً وَسَلاماً ــ ٧٥ . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ــ ٧٦ .

قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ــ ٧٧ .

(بيان)

تذكر الآيات من محاسن خصال المؤمنين ما يقابل ما وصف من صفات الكفار السيئة ويجمعها أنهم يدعون ربهم ويصدقون رسوله والكتاب النازل عليه قبال تكذيب الكفار لذلك وإعراضهم عنه إلى اتباع الهوى ، ولذلك تختتم الآيات بقوله : « قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » وبه تختتم السورة .

قوله تعالى : « وعبــاد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » لما ذكر في الآية السابقة استكبارهم على الله سبحانه وإهانتهم بالاسم الكريم : الرحمن ، قابله في هذه الآية بذكر ما يقابل ذلك للمؤمنين وسماهم عبادا وأضافهم إلى نفسه متسمياً باسم الرحمن الذي كان يحيد عنه الكفار وينفرون .

وقد وصفتهم الآية بوصفين من صفاتهم :

أحدهما : ما اشتمل عليه قوله : « الذين يمشون على الأرض هوناً » والهون على ما ذكره الراغب التذلل ، والأشبه حينئذ أن يكون المشي على الأرض كناية عن عيشتهم بمخالطة الناس ومعاشرتهم فهم في أنفسهم متذللون لربهم ومتواضعون للناس لمـا أنهم عباد الله غير مستكبرين على الله ولا مستعلين على غيرهم بغير حق ، وأما التذلل لأعداء الله ابتغاء ما عندهم من العزة الوهمية فحاشاهم وإن كان الهون بمعنى الرفق واللين فالمراد أنهم يمشون من غير تكبر وتبختر .

وثانيهما : ما اشتمل عليه قوله : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » أي إذا خاطبهم الجاهلون خطاباً ناشئاً عن جهلهم مما يكرهون أن يخاطبوا به أو يثقل عليهم كما يستفاد من تعلق الفعل بالوصف أجابوهم بما هو سالم من القول وقالوا لهم قولاً سلاماً خالياً عن اللغو والإثم ، قال تعالى : « لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً » الواقعة : ٢٦ ، ويرجع إلى عدم مقابلتهم الجهل بالجهل .

وهذه ـ كما قيل ـ صفة نهارهم إذا انتشروا في الناس وأما صفة ليلهم فهي التي تصفها الآية التالية .

قوله تعالى : « والذين يبيتون لربهم سجّداً وقياماً » البيتوتة إدراك الليل سواء نام أم لا ، و « لربهم » متعلق بقوله : « سجداً » والسجد والقيام جمعا ساجد وقائم، والمراد عبادتهم له تعالى بالخرور على الأرض والقيام على السوق، ومن مصاديقه الصلاة.

والمعنى : وهم الذين يدركون الليل حال كونهم ساجدين فيه لربهم وقائمين يتراوحون سجوداً وقياماً ، ويمكن أن يراد به التهجد بنوافل الليل .

قوله تعالى : « والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً » الغرام ما ينوب الانسان من شدة أو مصيبة فيلزمه ولا يفارقه والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « إنها ساءت مستقراً ومقاماً » الضمير لجهنم والمستقر والمقام اسما مكان من الاستقرار والإقامة ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » ، الإنفاق بذل المال وصرفه في رفع حوائج نفسه أو غيره ، والإسراف الخروج عن الحد ولا يكون إلا في جانب الزيادة ، وهو في الإنفاق التعدي عما ينبغي الوقوف عليه في بذل المال ، والقتر بالفتح فالسكون التقليل في الإنفاق وهو بإزاء الاسراف على ما ذكره الراغب ، والقتر والاقتار والتقتير بمعنى .

والقوام بالفتح الواسط العدل، وبالكسر ما يقوم به الشيء، وقوله : « بين ذلك» متعلق بالقوام ، والمعنى : وكان إنفاقهم وسطاً عدلاً بين ما ذكر من الاسراف والقتر فقوله : « وكان بين ذلك قواماً » تنصيص على ما يستفاد من قوله : « إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا » ، فصدر الآية ينفي طرفي الافراط والتفريط في الانفاق ، وذيلها يثبت الوسط .

قوله تعالى : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر » إلى آخر الآية هذا هو الشرك وأصول الوثنية لا تجيز دعاءه تعالى وعبادته أصلا لا وحده ولا مع آلهتهم وإنما توجب دعاء آلهتهم وعبادتهم ليقرّبوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده .

فالمراد بدعائهم مع الله إلهاً آخر إما التلويح الى أنه تعالى إله مدعو بالفطرة على كل حال فدعاء غيره دعاء لإله آخر معه وإن لم يذكر الله .

أو أنه تعالى ثابت في نفسه سواء دعي غيره أم لا فالمراد بدعاء غيره دعاء إله آخر مع وجوده وبعبارة أخرى تعدّيه إلى غيره .

أو إشارة إلى ما كان يفعله جهلة مشركي العرب فإنهم كانوا يرون أن دعاء آلهتهم إنما ينفعهم في البر وأما البحر فإنه لله لا يشاركه فيه أحد فالمراد دعاؤه تعالى في مورد كما عند شدائد البحر من طوفان ونحوه ودعاء غيره معه في مورد وهو البر ، وأحسن الوجوه أوسطها .

وقوله : « ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق » أي لا يقتلون النفس الإنسانية التي حرّم الله قتلها في حال من الأحوال إلا حال تلبّس القتل بالحق كقتلها قصاصاً وحدّاً .

وقوله تعالى : «ولا يزنون» أي لا يطؤن الفرج الحرام وقد كان شائعاً بين العرب في الجاهلية ، وكان الإسلام معروفاً بتحريم الزنا والخمر من أول ما ظهرت دعوته .

وقوله : « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً » الإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره وهو الشرك وقتل النفس المحترمة بغير حق والزنا ، والأثام الإثم وهو وبال الخطيئة وهو الجزاء بالعذاب الذي سيلقاه يوم القيامة المذكور في الآية التالية .

قوله تعالى : « يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهاناً » بيان للقاء الأثام ، وقوله : « ويخلد فيها مهاناً » أي يخلد في العذاب وقد وقعت عليه الإهانة .

والخلود في العذاب في الشرك لا ريب فيه ، وأما الخلود فيه عند قتل النفس المحترمة والزنا وهما من الكبائر وقد صرّح القرآن بذلك فيهما وكذا في أكل الربا فيمكن أن يحمل على اقتضاء طبع المعصية ذلك كما ربما استفيد من ظاهر قوله : « إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » .

أو يحمل الخلود على المكث الطويل أعمّ من المنقطع والمؤبّد أو يحمل قوله : « ومن يفعل ذلك » على فعل جميع الثلاثة لأن الآيات في الحقيقة تنزّه المؤمنين عما كان الكفار مبتلين به وهو الجميع دون البعض .

قوله تعالى : « إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فاولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً » استثناء من لقى الأثام والخلود فيه ، وقد أخذ في المستثنى التوبة والإيمان وإتيان العمل الصالح ، أما التوبة وهي الرجوع عن المعصية وأقل مراتبها الندم فلو لم يتحقق لم ينتزع العبد عن المعصية ولم يزل مقيماً عليها ، وأما إتيان العمل الصالح فهو مما تستقر به التوبة وبه تكون نصوحاً .

وأما أخذ الإيمان فيدلّ على أن الاستثناء إنما هو من الشرك فتختص الآية بمن أشرك وقتل وزنا او بمن أشرك سواء أتي معه بشيء من القتل المذكور والزنا او لم يأتِ ، وأما من أتى بشيء من القتل والزنا من غير شرك فالمتكفل لبيان حكم توبته الآية التالية .

وقوله : « فاولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات » تفريع على التوبة والإيمان والعمل الصالح يصف ما يترتب على ذلك من جميل الأثر وهو أن الله يبدّل سيئاتهم حسنات .

وقد قيل في معنى ذلك أن الله يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم فيبدّل الكفر إيماناً والقتل بغير حق جهاداً وقتلا بالحق والزنا عفة وإحصانا.

وقيل : المراد بالسيئات والحسنات ملكاتها لا نفسها فيبدّل ملكة السيئة ملكة الحسنة .

وقيل : المراد بها العقاب والثواب عليها لا نفسها فيبدّل عقاب القتل والزنا مثلا ثواب القتل بالحق والإحصان .

وأنت خبير بأن هذه الوجوه من صرف الكلام عن ظاهره بغير دليل يدلّ عليه.

والذي يفيد ظاهر قوله: « يبدّل الله سيئاتهم حسنات » وقد ذيّله بقوله: «وكان الله غفوراً رحيماً » أن كل سيئة منهم نفسها تتبدّل حسنة ، وليست السيئة هي متن

الفعل الصادر من فاعله وهو حركات خاصة مشتركة بين السيئة والحسنة كعمل المواقعة مثلاً المشترك بين الزنا والنكاح، والأكل المشترك بين أكل المال غصباً وبإذن من مالكه بل صفة الفعل من حيث موافقته لأمر الله ومخالفته له مثلاً من حيث إنـــه يتأثر به الإنسان ويحفظ عليه دون الفعل الذي هو مجموع حركات متصرّمة متقضية فانية وكذا عنوانه القائم به الفاني بفنائه .

وهذه الآثار السيئة التي يتبعها العقاب أعني السيئات لازمة للانسان حتى يؤخذ بها يوم تبلى السرائر .

ولولا شوب من الشقوة والمساءة في الذات لم يصدر عنهـــا عمل سيء إذ الذات السعيدة الطاهرة من كل وجه لا يصدر عنها سيئة قذرة فالأعمال السيئة إنما تلحق ذاتاً شقيّة خبيثة بذاتها او ذاتاً فيها شوب من شقاء وخباثة .

ولازم ذلك إذا تطهرت بالتوبة وطابت بالإيمـــان والعمل الصالح فتبدلت ذاتاً سعيدة ما فيها شوب من قذارة الشقاء أن تتبدل آثارها اللازمة التي كانت سيئات قبل ذلك فتناسب الآثار للذات بمغفرة من الله ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً .

وإلى مثل هـــذا يمكن أن تكون الإشارة بقوله: « فاولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً » .

قوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً » المتاب مصدر ميمي للتوبة ، وسياق الآية يعطي أنها مسوقة لرفع استغراب تبدّل السيئات حسنات بتعظيم أمر التوبة وأنها رجوع خاص إلى الله سبحانه فلا بدع في أن يبدّل السيئات حسنات وهو الله يفعل ما يشاء .

وفي الآية مع ذلك شمول للتوبة من جميع المعاصي سواء قارنت الشرك أم فارقته، والآية السابقة ـ كما تقدمت الإشارة اليه ـ كانت خفية الدلالة على حال المعاصي إذا تجردت من الشرك .

قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » قال في مجمع البيان : أصل الزور تمويه الباطل بما يوهم أنه حق . انتهى . فيشمل الكذب وكل

لهو باطل كالغناء والفحش والخناء بوجه ، وقال أيضاً : يقال : تكرم فلان عما يشينه إذا تنزه وأكرم نفسه منه انتهى .

فقوله : « والذين لا يشهدون الزور » إن كان المراد بالزور الكذب فهو قائم مقام المفعول المطلق والتقدير لا يشهدون شهادة الزور ، وإن كان المراد اللهو الباطل كالغناء ونحوه كان مفعولاً به والمعنى لا يحضرون مجالس الباطل ، وذيل الآية يناسب ثاني المعنيين .

وقوله : « وإذا مروا باللغو مروا كراماً » اللغو مـا لا يعتد به من الأفعال والأقوال لعدم اشتماله على غرض عقلائي ويعم – كما قيل – جميع المعاصي ، والمراد بالمرور باللغو المرور بأهل اللغو وهم مشتغلون به .

والمعنى :وإذا مروا بأهل اللغو وهم يلغون مروا معرضين عنهم منزهين أنفسهم عن الدخول فيهم والاختلاط بهم ومجالستهم .

قوله تعالى : «والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً»الخرور على الأرض السقوط عليها وكأنها في الآية كناية عن لزوم الشيء والانكباب عليه .

والمعنى : والذين إذا ذُكروا بآيات ربهم من حكمة أو موعظة حسنة من قرآن أو وحي لم يسقطوا عليه وهم صم لا يسمعون وعميان لا يبصرون بل تفكروا فيها وتعقلوها فأخذوا بها عن بصيرة فآمنوا بحكمتها واتعظوا بموعظتها وكانوا على بصيرة من أمرهم وبينة من ربهم .

قوله تعالى : « والذين يقولون ربنا هب لنـا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً » قال الراغب في المفردات : قرت عينه تقرُّ سُرّت قال،تعالى: « كي تقر عينها » وقيل لمن يسر به قرة عين قال : « قرة عين لي ولك » وقوله تعالى : « هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » قيل : أصله من القر أي البرد فقرت عينه قيل : معناه بردت فصحّت ، وقيل : بل لأن للسرور دمعة باردة قارة وللحزن دمعة حارة ولذلك يقال فيمن يدعى عليه : أسخن الله عينه ، وقيل : هو من القرار والمعنى أعطاه الله ما يسكن به عينه فلا تطمح إلى غيره انتهى .

ومرادهم بكون أزواجهم وذرياتهم قرة أعين لهم أن يسروهم بطاعة الله والتجنب عن معصيته فلا حاجة لهم في غير ذلك ولا إربة وهم أهل حق لا يتبعون الهوى .

وقوله : « واجعلنا للمتقين إماماً » أي متسابقين إلى الخيرات سابقين إلى رحمتك فيتبعنا غيرنا من المتقين كما قال تعالى : « فاستبقوا الخيرات » البقرة : ١٤٨ ، وقال : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة » الحديد : ٢١ ، وقال : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » الواقعة : ١١ . وكأن المراد أن يكونوا صفاً واحداً متقدماً على غيرهم من المتقين ولذا جيىء بالإمام بلفظ الإفراد .

وقال بعضهم : إن الإمام مما يطلق على الواحد والجمع ، وقيل : إن إمام جمع آم بمعنى القاصد كصيام جمع صائم ، والمعنى : اجعلنا قاصدين للمتقين متقيدين بهم ، وفي قراءة أهل البيت « واجعل لنا من المتقين إماماً » .

قوله تعالى : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً » الغرفة – كما قيل – البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت ، وهي كناية عن الدرجة العالية في الجنة ، والمراد بالصبر الصبر على طاعة الله وعن معصيته فهذان القسمان من الصبر هما المذكوران في الآيات السابقة لكن لا ينفك ذلك عن الصبر عند النوائب والشدائد .

والمعنى : أولئك الموصوفون بما وصفوا يجزون الدرجة الرفيعة من الجنة يلقون فيها أي يتلقاهم الملائكة بالتحية وهو ما يقدم للإنسان مما يسره وبالسلام وهو كل ما ليس فيه ما يخافه ويحذره ، وفي تنكير التحية والسلام دلالة على التفخيم والتعظيم ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » قال في المفردات : ما عبأت به أي لم أبال به ، وأصله من العبء أي الثقل كأنه قال : ما أرى له وزناً وقدراً ، قال تعالى : « قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم » وقيل : من عبأت الطيب كأنه قيل : ما يبقيكم لولا دعاؤكم . انتهى .

قيل : « دعاؤكم » من إضافة المصدر إلى المفعول وفاعله ضمير راجع إلى « ربي »

وعلى هذا فقوله : «فقد كذّبتم» من تفريع السبب على المسبّب بمعنى انكشافه بسببه ، وقوله : « فسوف يكون لزاماً » أي سوف يكون تكذيبكم ملازماً لكم أشد الملازمة فتجزون بشقاء لازم وعذاب دائم .

والمعنى: قل لا قدر ولا منزلة لكم عند ربي فوجودكم وعدمكم عنده سواء لأنكم كذّبتم فلا خير يرجى فيكم فسوف يكون هذا التكذيب ملازماً لكم أشد الملازمة ، إلا أن الله يدعوكم ليتمّ الحجة عليكم أو يدعوكم لعلكم ترجعون عن تكذيبكم . وهذا معنى حسن .

وقيل : « دعاؤكم » من إضافة المصدر إلى الفاعل ، والمراد به عبادتهم لله سبحانه والمعنى : ما يبالي بكم ربي أو ما يبقيكم ربي لولا عبادتكم له .

وفيه أن هذا المعنى لا يلائم تفرّع قوله : « فقد كذّبتم » عليه وكان عليه من حق الكلام أن يقال : وقد كذّبتم ! على أن المصدر المضاف إلى فاعله يدل على تحقق الفعل منه وتلبّسه به وهم غير متلبّسين بدعائه وعبادته تعالى فكان من حق الكلام على هذا التقدير أن يقال لولا أن تدعوه فافهم .

والآية خاتمة السورة وتنعطف إلى غرض السورة ومحصّل القول فيه وهو الكلام على اعتراض المشركين على الرسول وعلى القرآن النازل عليه وتكذيبهما .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « الذين يمشون على الأرض هوناً » قال أبو عبد الله عليه السلام : هو الرجل يمشي بسجيته التي جبل عليها لا يتكلف ولا يتبختر .

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في قوله : « إن عذابها كان غراماً » قال : الدائم .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: « إن عذابها كان غراماً » يقول : ملازماً لا ينفك . وقوله عز وجل : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» والإسراف الإنفاق في المعصية في غير حق «ولم يقتروا» لم يبخلوا

في حق الله عز وجل « وكان بين ذلك قواماً » القوام العدل والإنفاق فيما أمر الله به .

وفي الكافي : أحمد بن محمد بن علي عن محمد بن سنان عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عز وجل : « وكان بين ذلك قواماً » قال : القوام هو المعروف على الموسع قدره وعلى المقتر قدره على قدر عياله ومؤنتهم التي هي صلاح له ولهم لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها .

وفي المجمع روي عن معاذ أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فقال : من أعطى في غير حق فقد أسرف ، ومن منع من حق فقد قتر .

أقول : والأخبار في هذه المعاني كثيرة جداً .

وفي الدر المنثور أخرج الفاريابي وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : سئل النبي صلى الله عليه وآله وسلم : أي الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قلت : ثم أي؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قلت : ثم أي؟ قال : أن تزاني حليلة جارك فأنزل الله تصديق ذلك « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا يزنون » .

أقول : لعل المراد الانطباق دون سبب النزول .

وفيه أخرج عبد بن حميد عن علي بن الحسين « يبدل الله سيئاتهم حسنات » قال: في الآخرة ، وقال الحسن : في الدنيا .

وفيه أخرج أحمد وهنّاد ومسلم والترمذي وابن جرير والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابي ذرّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه فتعرض عليه صغارها وينحّى عنه كبارها فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وهو مقرّ ليس ينكر وهو مشفق من الكبار أن تجيء فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة .

أقول : هو من أخبار تبديل السيئات حسنات يوم القيامة وهي كثيرة مستفيضة من طرق أهل السنّة والشيعة مرويّة عن النبي والباقر والصادق والرضا عليه وعليهم الصلاة والسلام .

وفي روضة الواعظين قال ﷺ : ما جلس قوم يذكرون الله إلا نادى بهم مناد من السماء قوموا فقد بدّل الله سيئاتكم حسنات وغفر لكم جميعاً .

وفي الكافي بإسناده عن ابي الصباح عن ابي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل : « لا يشهدون الزور » قال : الغناء .

أقول : وفي المجمع أنه مروي عن ابي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ورواه القمي مسنداً ومرسلاً .

وفي العيون بإسناده إلى محمد بن ابي عباد وكان مشتهراً بالسماع ويشرب النبيذ قال: سألت الرضا عليه السلام عن السماع فقال: لأهل الحجاز رأي فيه وهو في حيز الباطل واللهو أما سمعت الله عز وجل يقول : « وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً » .

وفي روضة الكافي بإسناده عن ابي بصير قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « والذين إذا ذُكّروا بآيات ربهم لم يخرّوا عليها صمّاً وعمياناً » قال : مستبصرين ليسوا بشكّاك .

وفي جوامع الجامع عن الصادق عليه السلام في قوله: « واجعلنا للمتقين إماماً » قال: إيانا عنى .

أقول : وهناك عدة روايات في هذا المعنى وأخرى تتضمن قراءتهم عليهم السلام: « واجعل لنا من المتقين إماماً » .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن أبي جعفر في قوله: « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » قال : على الفقر في الدنيا .

وفي المجمع روى العيّاشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال : قلت لأبي جعفر عليه السلام : كثرة القراءة أفضل او كثرة الدعاء ؟ قال : كثرة الدعاء أفضل وقرأ هذه الآية .

أقول : وفي انطباق الآية على ما في الرواية إبهام .

وفي تفسير القمي في رواية ابي الجارود عن ابي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل: « قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم » يقول : ما يفعل ربي بكم فقد كذّبتم فسوف يكون لزاماً .

(سورة الشعراء مكية ، وهي مائتان وسبع وعشرون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . طسٓمٓ ــ ١ . تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ
ٱلْمُبِينِ ــ ٢ . لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ــ ٣ . إِنْ نَشَأْ
نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ــ ٤ . وَمَا
يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ــ ٥ .
فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ــ ٦ . أَوَلَمْ يَرَوْا
إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ــ ٧ . إِنَّ فِي ذٰلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ٨ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ــ ٩ .

(بيان)

غرض السورة تسلية النبي ﷺ قبال ما كذّبه قومه وكذّبوا بكتابه النازل عليه من ربه – على ما يلوّح اليه صدر السورة : تلك آيات الكتاب المبين – وقد رموه تارة بأنه مجنون وأخرى بأنه شاعر ، وفيها تهديدهم مشفّعاً ذلك بإيراد قصص جمع من الأنبياء وهم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام وما انتهت اليه عاقبة تكذيبهم لتتسلى بــه نفس النبي ﷺ ولا يحزن بتكذيب أكثر قومه وليعتبر المكذبون .

والسورة من عتائق السور المكية وأوائلها نزولاً وقد اشتملت على قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وربما أمكن أن يستفاد من وقوع هذه الآية في هذه السورة ووقوع قوله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » في سورة الحجر وقياس مضمونيهما كل مع الاخرى أن هذه السورة أقدم نزولاً من سورة الحجر وظاهر سياق آيات السورة أنها جميعاً مكية واستثنى بعضهم الآيات الخمس التي في آخرها ، وبعض آخر قوله : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل » وسيجيء الكلام فيهما .

قوله تعالى : « طسم تلك آيات الكتاب المبين » الإشارة بتلك إلى آيات الكتاب مما سينزل بنزول السورة وما نزل قبل ، وتخصيصها بالإشارة البعيدة للدلالة على علوّ قدرها ورفعة مكانتها ، والمبين من أبان بمعنى ظهر وانجلى .

والمعنى : تلك الآيات العالية قدراً الرفيعة مكاناً آيات الكتاب الظاهر الجلي كونه من عند الله سبحانه بما فيه من سمة الإعجاز وإن كذّب به هؤلاء المشركون المعاندون ورموه تارة بأنه من إلقاء شياطين الجن وأخرى بأنه من الشعر .

قوله تعالى : «لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين» البخوع هو إهلاك النفس عن وجد ، وقوله : « ألا يكونوا مؤمنين » تعليل للبخوع ، والمعنى : يرجى منك أن تهلك نفسك بسبب عدم إيمانهم بآيات هذا الكتاب النازل عليك .

والكلام مسوق سوق الإنكار والغرض منه تسلية النبي ﷺ .

قوله تعالى : « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلّت أعناقهم لها خاضعين » متعلق المشيّة محذوف لدلالة الجزاء عليه ، وقوله : « فظلّت » الخ ، ظلّ فعل ناقص اسمه « أعناقهم » وخبره «خاضعين» ونسب الخضوع إلى أعناقهم وهو وصفهم أنفسهم لأن الخضوع أول ما يظهر في عنق الإنسان حيث يطأطىء رأسه تخضعاً فهو من المجاز العقلي

والمعنى: إن نشأ أن ننزّل عليهم آية تخضعهم وتلجئهم إلى القبول وتضطرهم إلى الإيمان ننزل عليهم آية كذلك فظلوا خاضعين لها خضوعاً بيّناً بانحناء أعناقهم .

وقيل : المراد بالأعناق الجماعات وقيل : الرؤساء والمقدّمون منهم ، وقيل :

هو على تقدير مضاف والتقدير فظلت أصحاب أعناقهم خاضعين لها. وهو أسخف الوجوه.

قوله تعالى : « وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين » بيان لاستمرارهم على تكذيب آيات الله وتمكن الإعراض عن ذكر الله في نفوسهم بحيث كلما تجدد عليهم ذكر من الرحمن ودعوا اليه دفعه بالإعراض .

فالغرض بيان استمرارهم على الإعراض عن كل ذكر أتاهم لا أنهم يعرضون عن محدث الذكر ويقبلون إلى قديمه وفي ذكر صفة الرحمن إشارة الى أن الذكر الذي يأتيهم إنما ينشأ عن صفة الرحمة العامة التي بها صلاح دنياهم وأخراهم .

وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنبياء كلام في معنى الذكر المحدث فراجع .

قوله تعالى : « فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن » تفريع على ما تقدم من استمرار إعراضهم ، وقوله : « فسيأتيهم » الخ تفريع على التفريع والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الخطير ، والمعنى لما استمر منهم الإعراض عن كل ذكر يأتيهم تحقق منهم وثبت عليهم أنهم كذبوا ، وإذ تحقق منهم التكذيب فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن من آيات الله ، وتلك الأنباء العقوبات العاجلة والآجلة التي ستحيق بهم .

قوله تعالى : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » الاستفهام للإنكار التوبيخي والجملة معطوف على مقدر يدل عليه المقام والتقدير أصروا واستمروا على الإعراض وكذبوا بالآيات ولم ينظروا إلى هذه الأزواج الكريمة من النباتات التي أنبتناها في الأرض .

فالرؤية في قوله : « أولم يروا » مضمنة معنى النظر ولذا عديت بإلى ، والظاهر أن المراد بالزوج الكريم . وهو الحسن على ما قيل : النوع من النبات وقد خلق الله سبحانه أنواعه أزواجاً ، وقيل : المراد بالزوج الكريم الذي أنبته الله يعم الحيوان وخاصة الانسان بدليل قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين » الاشارة بذلك إلى ما ذكر في الآية السابقة من إنبات كل زوج كريم حيث أن فيه إيجاداً لكل زوج منه وتتميم نقائص كل من الزوجين بالآخر وسوقهما إلى الغاية المقصودة من وجودهما

وفيه هداية كل إلى سعادته الأخيرة ومن كانت هذه سنته فكيف يهمل أمر الانسان ولا يهديه الى سعادته ولا يدعوه الى ما فيه خير دنياه وآخرته . هـذا ما تدل عليه آية النبات .

وقوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » أي لم يكن المترقب من حال أكثرهم بما عندهم من ملكة الاعراض وبطلان الاستعـداد أن يؤمنوا فظاهر الآية نظير ظاهر قوله : « فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » يونس: ٧٤ . وتعليل الكفر والفسوق برسوخ الملكات الرذيله واستحكام الفساد في السريرة من قبل في كلامه تعالى أكثر من أن تحصى .

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم : إن المراد ما كان في علم الله أن لا يؤمنوا غير سديد لأنه مضافاً الى كونه خلاف المتبادر من الجملة ، مما لا دليل على أنه المراد من اللفظ بل الدليل على خلافـه لسبق الدلالة على أن ملكة الاعراض راسخة لم تزل في نفوسهم .

وعن سيبويه أن « كان » في قوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » صلة زائدة والمعنى : وما أكثرهم مؤمنين . وفيه أنه معنى صحيح في نفسه لكن المقام بما تقدم من المعنى أوفق .

قوله تعالى : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » فهو تعالى لكونه عزيزاً غير مغلوب يأخذ المعرضين عن ذكره المكذبين لآياته المستهزئين بها ويجازيهم بالعقوبات العـاجلة والآجلة ، ولكونه رحيماً ينزّل عليهم الذكر ليهديهم ويغفر للمؤمنين به ويمهل الكافرين .

(بحث عقلي متعلق بالعلم)

قال في روح المعاني في قوله تعالى : « وما كان أكثرهم مؤمنين » قيل : أي وما كان في علم الله تعالى ذلك ، واعترض – بناء على أنه يفهم من السياق العلية – بأن علمه تعالى ليس علة لعدم إيمانهم لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس .

ورد بأن معنى كون علمه تعالى تابعاً للمعلوم أن علمه سبحانه في الأزل بمعلوم معيّن حادث تابع لماهيته بمعنى أن خصوصية العلم وامتيازه عن سائر العلوم باعتبار أنه علم بهـذه الماهية ، وأما وجود الماهية فيما لا يزال فتابع لعلمه تعالى الأزلي التابع لماهيته بمعنى أنه تعالى لما علمها في الأزل على هـذه الخصوصية لزم أن يتحقق ويوجد فيما لا يزال كذلك فنفس موتهم على الكفر وعـدم إيمانهم متبوع لعلمه الأزلي ووقوعه تابع له . انتهى .

وهذه حجة كثيرة الورود في كلام المجبرة وخاصة الإمام الرازي في تفسيره الكبير يستدلون بها على إثبات الجبر ونفي الاختيار ومحصّلها أن الحوادث ومنها أفعال الإنسان معلومة لله سبحانه في الأزل فهي ضرورية الوقوع وإلا كان علمه جهلاً ـ تعالى عن ذلك ـ فالإنسان مجبر عليها غير مختار . واعترض عليه بأن العـلم تابع للمعلوم لا بالعكس وأجيب بمـا ذكره من أن علمه في الأزل تابع لماهية المعلوم لكن المعلوم تابع في وجوده للعلم .

والحجة مضافاً إلى فساد مقدماتها بناء ومبنى مغالطة بيّنة . ففيها أولاً أن فرض ثبوت مّا للماهية في الأزل ووجودها فيما لا يزال يقضي بتقدم الماهيـة على الوجود وأنى للماهية هذه الأصالة والتقدم ؟

وثانياً : أن مبنى الحجة وكذا الاعتراض والجواب على كون علمه تعالى بالأشياء علماً حصولياً نظير علومنا الحصولية المتعلقة بالمفاهيم وقـد أقيم البرهان في محله على بطلانه وأن الأشياء معلومة له تعالى علماً حضورياً وعلمه علمان : علم حضوري بالأشياء قبل الإيجاد وهو عين الذات وعلم حضوري بهـا بعد الإيجاد وهو عين وجود الأشياء . وتفصيل الكلام في محله .

وثالثاً : أن العلم الأزلي بمعلومه فيما لا يزال إنما يكون علماً بحقيقة معنى العلم إذا تعلق به على ما هو عليه أي بجميع قيوده ومشخصاته وخصوصياته الوجودية ، ومن خصوصيات وجود الفعل أنه حركات خاصة إرادية اختيارية صادرة عن فاعله الخاص مخالفة لسائر الحركات الاضطرارية القائمة بوجوده .

وإذا كان كذلك كانت الضرورة اللاحقة للفعل من جهة تعلّق العلم بـه صفة

للفعل الخاص الاختياري بما هو فعل خاص اختياري لا صفة للفعل المطلق إذ لا وجود له أي كان من الواجب أن يصدر الفعل عن إرادة فاعله واختياره وإلا تخلف المعلوم عن العلم لا أن يتعلق العلم بالفعل الإختياري ثم يدفع صفة الاختيار عن متعلقه ويقيم مقامها صفة الضرورة والإجبار .

فقد وضع في الحجة الفعل المطلق مكان الفعل الخاص فعدّ ضرورياً مع أن الضروري تحقق الفعل بوصف الإختيار نظير الممكن بالذات الواجب بالغير ففي الحجة مغالطة بالخلط بين الفعل المطلق والفعل المقيد بالاختيار .

ومن هنا يتبين عدم استقامة تعليل ضرورة عدم إيمانهم بتعلق العلم الأزلي به فإن تعلق العلم الأزلي بفعل إنما يوجب ضرورة وقوعه بالوصف الذي هو عليه فإن كان اختيارياً وجب تحققه اختيارياً وإن كان غير اختياري وجب تحققه كذلك .

على أنه لو كان معنى قوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » امتناع إيمانهم لتعلق العلم الأزلي بعدمه لاتخذوه حجة على النبي ﷺ وعدّوه عذراً لأنفسهم في استنكافهم عن الإيمان كما اعترف به بعض المجبّرة .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى: « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : تخضع رقابهم يعني بني أمية وهي الصيحة من السماء باسم صاحب الأمر .

أقول : وهذا المعنى رواه الكليني في روضة الكافي والصدوق في كمال الدين والمفيد في الارشاد والشيخ في الغيبة ، والظاهر أنه من قبيل الجري دون التفسير لعدم مساعدة سياق الآية عليه .

* * *

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ــ ١٠ . قَوْمَ

فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ ــ ١١. قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ــ ١٢.
وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ــ ١٣ . وَلَهُمْ
عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ــ ١٤ . قَالَ كَلاَّ فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا
مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ــ ١٥ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَالَمِينَ ــ ١٦ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ــ ١٧ . قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ
فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ــ ١٨ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي
فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ــ ١٩ . قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ
الضَّالِّينَ ــ ٢٠ . فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً
وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ــ ٢١ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي
إِسْرَائِيلَ ــ ٢٢ . قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ــ ٢٣ . قَالَ رَبُّ
السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ ــ ٢٤ . قَالَ لِمَنْ
حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ ــ ٢٥ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ــ ٢٦.
قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ــ ٢٧ . قَالَ رَبُّ
ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ــ ٢٨ . قَالَ لَئِنِ
ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ــ ٢٩ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ
بِشَيْءٍ مُبِينٍ ــ ٣٠ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ــ ٣١ .
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ــ ٣٢ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ

لِلنَّاظِرِينَ ـ ٣٣. قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰـذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ـ ٣٤.
يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ـ ٣٥. قَالُوا
أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ـ ٣٦. يَأْتُوكَ بِكُلِّ
سَحَّارٍ عَلِيمٍ ـ ٣٧. فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ـ ٣٨. وَقِيلَ
لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ـ ٣٩. لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ
ٱلْغَالِبِينَ ـ ٤٠. فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ
كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ ـ ٤١. قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ٤٢. قَالَ
لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ـ ٤٣. فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا
بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَالِبُونَ ـ ٤٤. فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ـ ٤٥. فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ـ ٤٦. قَالُوا
آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ـ ٤٧. رَبِّ مُوسَىٰ وَهٰرُونَ ـ ٤٨. قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ
قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ـ ٤٩.
قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ـ ٥٠. إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا
رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ـ ٥١. وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ
أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ـ ٥٢. فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ ـ ٥٣. إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ـ ٥٤. وَإِنَّهُمْ لَنَا

لَغَائِظُونَ ــ ٥٥ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ــ ٥٦ . فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ
وَعُيُونٍ ــ ٥٧ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ــ ٥٨ . كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ ــ ٥٩ . فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ــ ٦٠ . فَلَمَّا تَرَاءَ ٱلْجَمْعَانِ قَالَ
أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ــ ٦١ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي
سَيَهْدِينِ ــ ٦٢ . فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِبْ بِعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنْفَلَقَ
فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ــ ٦٣ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ــ ٦٤ .
وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ــ ٦٥ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ــ ٦٦ .
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ٦٧ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ــ ٦٨ .

(بيان)

شروع في ذكر قصص عـدّة من أقوام الأنبياء الماضين موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ليظهر أن قوم النبي ﷺ سائرون مسيرهم وسيردون موردهم ، لا يؤمن أكثرهم فيؤاخذهم الله تعالى بعقوبة العـاجل والآجل ، والدليل على ذلك ختم كل واحدة من القصص بقوله : « ومـا كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم» كما ختم به الكلام الحاكي لإعراض قوم النبي ﷺ في أول السورة ، وليس ذلك إلا لتطبيق القصة على القصة .

كل ذلك ليتسلى النبي ﷺ ولا يضيق صدره ويعلم أنه ليس بدعاً من الرسل ولا المتوقع من قومه غير ما عامل به الامم الماضون رسلهم ، وفيه تهـديد ضمني لقومه

ويؤيده تصدير قصة إبراهيم عليه السلام بقوله : « واتل عليهم نبأ إبراهيم » .

قوله تعالى : « وإذ نادى ربك موسى – إلى قوله – ألا يتقون » أي واذكر وقتاً نادى فيه ربك موسى وبعثه بالرسالة إلى قوم فرعون لإنجاء بني إسرائيل على ما فصّله في سورة طه وغيرها .

وقوله : « أن ائت القوم الظالمين » نوع تفسير للنداء ، وتوصيفهم أولاً بالظالمين ثم بيانه ثانياً بقوم فرعون للإشارة إلى حكمة الإرسال وهي ظلمهم بالشرك وتعذيب بني إسرائيل كما في سورة طه من قوله : « إذهبا إلى فرعون إنه طغى – إلى أن قال – فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم » طه : ٤٧ .

وقوله : « ألا يتقون » بصيغة الغيبة ، وهو توبيخ غيابي منه تعالى لهم وإيراده في مقام عقد الرسالة لموسى عليه السلام في معنى قولنا : قل لهم إن ربي يوبخكم على ترك التقوى ويقول : ألا تتقون .

قوله تعالى : « قال رب إني أخاف أن يكذّبون – إلى قوله – فأرسل إلى هارون » ، قال في مجمع البيان : الخوف انزعاج النفس بتوقع الضرّ ونقيضه الأمن وهو سكون النفس إلى خلوص النفع ، انتهى . وأكثر ما يطلق الخوف على إحساس الشر بحيث يؤدي إلى الإتقاء عملاً وإن لم تضطرب النفس ، والخشية على تأثر النفس من توقع الشر بحيث يورث الاضطراب والقلق ، ولذا نفى الله الخشية من غيره عن أنبيائه وربما أثبت الخوف فقال : « ولا يخشون أحداً إلا الله » الأحزاب : ٣٩ ، وقال : « وإما تخافن منهم خيانة » الأنفال : ٥٨ .

وقوله : «إني أخاف أن يكذّبون» أي ينسبني قوم فرعون إلى الكذب،وقوله: « ويضيق صدري ولا ينطلق لساني » الفعلان مرفوعان وهما معطوفان على قوله : « أخاف » فالذي اعتلّ به أمور ثلاثة : خوف التكذيب وضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان ، وفي قراءة يعقوب وغيره يضيق وينطلق بالنصب عطفاً على « يكذبون » وهو أوفق بطبع المعنى ، وعليه فالعلة واحدة وهي خوف التكذيب الذي يترتب عليه ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان . ويطابق ما سيجيء من آية القصص من ذكر علة واحدة هي خوف التكذيب .

وقوله : «فأرسل إلى هارون» أي أرسل ملك الوحي إلى هارون ليكون معيناً لي على تبليغ الرسالة يقال لمن نزلت به نائبة أو أشكل عليه أمر : أرسل إلى فلان أي استمد منه واتخذه عوناً لك .

فالجملة أعني قوله : « فأرسل إلى هارون » متفرعة على قوله : «إني أخاف» الخ وذكر خوف التكذيب مع ما معه من ضيق الصدر وعدم انطلاق اللسان توطئة وتقدمة لذكرها وسؤال موهبة الرسالة لهارون .

وإنما اعتلّ بما اعتل به وسأل الرسالة لأخيه ليكون شريكاً له في أمره ، معيناً مصدّقاً له في التبليغ لا فراراً عن تحمل أعباء الرسالة ، واستعفاءً منها ، قال في روح المعاني : ومن الدليل على أن المعنى على ذلك لا أنه تعلل وقوع « فأرسل » بين الأوائل وبين الرابعة أعني قوله : « ولهم عليّ ذنب » الخ ، فآذن بتعلقه بها ولو كان تعللاً لاخّر ، انتهى .

وهو حسن وأوضح منه قوله تعالى في سورة القصص في القصة : « قال رب إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إني أخاف أن يكذبون » القصص : ٣٤ .

قوله تعالى : « ولهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون » قال الراغب في المفردات : الذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء يقال : ذنبته أصبت ذنبه ، ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتباراً لما يحصل من عاقبته . انتهى .

وفي الآية إشارة إلى قصة قتله عليه‌السلام ، وكونه ذنباً لهم عليه إنما هو بالبناء على اعتقادهم أو الاعتبار بمعناه اللغوي المذكور آنفاً ، وأما كونه ذنباً بمعنى معصية الله تعالى فلا دليل عليه وسيوافيك فيه كلام عند تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون » كلا للردع وهو متعلق بما ذكره من خوف القتل ، ففيه تأمين له وتطييب لنفسه أنهم لا يصلون اليه ، وأما سؤاله الإرسال إلى هارون فلم يذكر ما أجيب به عنه ، غير أن قوله : «فاذهبا بآياتنا» دليل على إجابة مسؤله .

وقوله : «فاذهبا بآياتنا» متفرع على الردع فيفيد أن اذهبا اليه بآياتنا ولا تخافا ،

وقد علل ذلك بقوله : « إنا معكم مستمعون » والمراد بضمير الجمع موسى وهارون والقوم الذين أرسلا إليهم ، ولا يعبؤ بقول من قال : إن المراد به موسى وهارون بناء على كون أقل الجمع اثنين فإنه مع فساده في أصله لا تساعد عليه ضمائر التثنية قبله وبعده كما قيل .

والاستماع هو الإصغاء إلى الكلام والحديث وهو كناية عن الحضور وكمال العناية بما يجري بينهما وبين فرعون وقومه عند تبليغ الرسالة كما قال في القصة من سورة طه : « لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » طه : ٤٦ .

ومحصل المعنى : كلا لا يقدرون على قتلك فاذهبا اليهم بآياتنا ولا تخافا إنا حاضرون عندكم شاهدون عليكم معتنون بما يجري بينكم .

قوله تعالى : « فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني إسرائيل » بيان لقوله في الآية السابقة : « فاذهبا اليهم بآياتنا » .

وقوله : « فقولا إنا رسول رب العالمين » تفريع على إتيان فرعون ، والتعبير بالرسول بلفظ المفرد إما باعتبار كل واحد منهما أو باعتبار كون رسالتهما واحدة وهي قولهما : « أن أرسل » الخ ، أو باعتبار أن الرسول مصدر في الأصل فالأصل أن يستوي فيه الواحد والجمع ، والتقدير إنا ذوا رسول رب العالمين أي ذوا رسالته كما قيل .

وقوله : « أن أرسل معنا بني إسرائيل » تفسير للرسالة المفهومة من السياق والمراد بإرسالهم إطلاقهم لكن لما كان المطلوب أن يعودوا إلى الأرض المقدسة التي كتب الله لهم وهي أرض آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام سمّي إطلاقهم ليعودوا اليها إرسالاً منه لهم اليها .

قوله تعالى : « قال ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين » الاستفهام للإنكار التوبيخي ، و « نربك » من التربية ، والوليد الصبي .

لما أقبل فرعون على موسى وهارون وسمع كلامهما عرف موسى وخصه بالخطاب قائلا ألم نربك الخ ، ومراده الاعتراض عليه أولاً من جهة دعواه الرسالة يقول : أنت الذي ربيناك وأنت وليد ولبثت فينا من عمرك سنين عديدة نعرفك باسمك ونعتك ولم ننس شيئاً من أحوالك فمن أين لك هذه الرسالة وأنت من نعرفك ولا نجهل أصلك ؟

قوله تعالى : « وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين » الفعلة بفتح الفاء بناء مرة من الفعل ، وتوصيف الفعلة بقوله : « التي فعلت » للدلالة على عظم خطره وكثرة شناعته وفظاعته نظير ما في قوله : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » طه : ٧٨ ، ومراده بهذه الفعلة قتله عليه‌السلام القبطي .

وقوله : « وأنت من الكافرين » ظاهر السياق على ما سيأتي الإشارة اليه أن مراده بالكفر كفران النعمة وأن قتله القبطي وإفساده في أرضه كفران لنعمته عليه بالخصوص بما له عنده من الصنيعة حيث كف عن قتله كسائر المواليد من بني إسرائيل ورباه في بيته بل لأنه من بني إسرائيل وهو يراهم عبيداً لنفسه ويرى نفسه رباً منعماً عليهم فقتل الواحد منهم رجلاً من قومه وإفساده في الأرض خروج من طور العبودية وكفر بنعمته .

فمحصل اعتراضه المشار اليه في الآيتين أنك الذي ربيناك صبياً صغيراً ولبثت فينا من عمرك سنين ، وأفسدت في الأرض بقتل النفس فكفرت بنعمتي وأنت من عبيدي الإسرائيليين فمن أين جاءتك هذه الرسالة ؟ وكيف تكون رسولا وأنت هذا الذي نعرفك ؟.

وبذلك يظهر عدم استقامة تفسير بعضهم الكفر بالكفر المقابل للايمان ، وأن المعنى وأنت من الكافرين بالوهيتي أو أنت من الكافرين بالله على زعمك حيث خالطتنا سنين وأنت في ملتنا ، وكذا قول بعضهم : إن المراد وأنت من الكافرين بنعمتي عليك خاصة .

قوله تعالى : « قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل » ضمير « فعلتها » راجع إلى الفعلة ، والظاهر أن « إذاً » مقطوع عن الجواب والجزاء ويفيد معنى حينئذ كما قيل ، وعبده تعبيداً وأعبده إعباداً إذا اتخذه عبداً لنفسه .

والآيات الثلاث جواب موسى عليه‌السلام عما اعترض به فرعون ، والتطبيق بين جوابه عليه‌السلام وما اعترض به فرعون يعطي أنه عليه‌السلام حلل كلام فرعون إلى القدح في دعواه الرسالة من ثلاثة أوجه : أحدها استغراب رسالته واستبعادها وهو الذي يعلم حاله

وقد أشار اليه بقوله: «ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين»والثاني استقباح فعلته ورميه بالإفساد والجرم بقوله : « وفعلت فعلتك التي فعلت » والثالث المن عليه بأنه من عبيده ويستفاد ذلك من قوله : « وأنت من الكافرين » وقد اقتضى طبع ما يذكره في الجواب أن يغير الترتيب في الجواب فيجيب أولاً عن اعتراضه الثاني ثم عن الأول ثم عن الثالث .

فقوله : « فعلتها إذاً وأنا من الضالين » جواب عن اعتراضه بقتل القبطي وقد استعظمه حيث لم يصرّح باسمه بل كنّى عنه بالفعلة التي فعلت صوناً للأسماع أن تقرع باسمه فتتألم .

والتدبر في متن الجواب ومقابلته الاعتراض يعطي أن قوله : « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً » من تمام الجواب عن القتل فيتقابل الحكم والضلال ويتضح حينئذ أن المراد بالضلال الجهل المقابل للحكم والحكم إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في تطبيق العمل عليه فيرجع معناه إلى القضاء الحق في حسن الفعل وقبحه وتطبيق العمل عليه ، وهذا هو الذي كان يؤتاه الأنبياء ، قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليُطاع بإذن الله » .

فالمراد أني فعلتها حينئذ والحال أني في ضلال من الجهل بجهة المصلحة فيه والحق الذي يجب أن يتبع هناك فأقدمت على الدفاع عمن استنصرني ولم أعلم أنه يؤدي إلى قتل الرجل ويؤدي ذلك إلى عاقبة وخيمة تحوجني إلى خروجي من مصر وفراري إلى مدين والتغرّب عن الوطن سنين .

ومن هنا يظهر ما في قول بعضهم : إن المراد بالضلال الجهل بمعنى الإقدام على الفعل من غير مبالاة بالعواقب كما في قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وكذا قول بعض آخر : إن المراد بالضلال المحبة كما فسّر به قول بني يعقوب لأبيهم : « تالله إنك لفي ضلالك القديم » أي في محبتك القديمة ليوسف، فالمعنى: فعلتها حينئذ وأنا من المحبين لله لا ألوي عن محبته إلى شيء .

أما الوجه الأول ففيه أنه اعتراف بالجرم والمعصية ، وآيات سورة القصص ناصّة

على أن الله سبحانه آتاه حكماً وعلماً قبل واقعة القتل وهذا لا يجامع الضلال بهذا المعنى من الجهل .

وأما الوجه الثاني ففيه مضافاً إلى عدم مساعدة السياق : أن من الممتنع من أدب القرآن أن يسمي محبة الله سبحانه ضلالا .

وأما قول القائل : إن المراد بالضلال الجهل بمعنى عدم التعمّد وأنه إنما فعل ذلك جاهلا به غير متعمد إياه فإنه عليه السلام إنما تعمّد وكز القبطي للتأديب فأدّى إلى ما أدّى .

وكذا قول القائل : إن المراد بالضلال الجهل بالشرائع كما فسّر به بعضهم قوله : « ووجدك ضالاً فهدى » .

وكذا قول القائل : إن المراد بالضلال النسيان كما فسر به قوله تعالى : « أن تضلّ إحداهما فتذكّر إحداهما الاخرى » البقرة : ٢٨٢ . وأن المعنى فعلتها ناسياً حرمتها أو ناسياً أن الوكز مما يفضي إلى القتل عادة .

فوجوه يمكن أن يوجه كل منها بما يرجع به إلى ما قدمناه .

وقوله : « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً » متفرع على قصة القتل، والسبب في خوفه وفراره ما أخبر الله به في سورة القصص بقوله : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها خائفاً يترقب » القصص : ٢١ .

وأما الحكم فالمراد به — كما استظهرناه — إصابة النظر في حقيقة الأمر وإتقان الرأي في العمل به .

فإن قلت : صريح الآية أن موهبة الحكم كانت بعد واقعة القتل ومفاد آيات سورة القصص أنه عليه السلام أعطي الحكم قبلها، قال تعالى: «ولما بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ، ودخل المدينة » الخ ، القصص : ١٥ ، ثم ساق القصة وذكر القتل والفرار .

قلت : إنما ورد لفظ الحكم ههنا وفي سورة القصص منكّراً وهو مشعر بمغايرة كل منهما الآخر وقد ورد في خصوص التوراة أنهـا متضمنة للحكم ، قال تعالى :

« وعندهم التوراة فيها حكم الله » المائدة : ٤٣ ، وقد نزلت التوراة بعد غرق فرعون وإنجاء بني إسرائيل .

فمن الممكن أن يقال : إن موسى عليه‌السلام أعطي مراتب من الحكم بعضها فوق بعض قبل قتل القبطي وبعد الفرار قبل العود إلى مصر وبعد غرق فرعون ، وقد خصّه الله في كل مرة بمرتبة من الحكم حتى تمت له الحكمة بنزول التوراة ، وهذا بحسب التمثيل نظير ما يرزق بعض الناس أوان صباه سلامة في فطرته فلما يميل معها طبعه إلى الشر والفساد ثم إذا نشأ يعطى اعتدالاً في التعقل وجودة في التدبير فينبعث الى اكتساب الفضائل فيرزق ملكة التقوى والصفات الثلاث في الحقيقة سنخ واحد ينمو ويزيد حالاً بعد حال .

ويظهر بما تقدم عدم استقامة تفسير بعضهم الحكم بالنبوّة لعدم دليل عليه من جهة اللفظ ولا المقام .

على أن الله سبحانه ذكر الحكم والنبوة في مواضع من كلامه وفرّق بينها كقوله: « أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة » آل عمران : ٧٩ ، وقوله : « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة » الأنعام : ٨٩ ، وقوله : « ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة » الجاثية : ١٦ إلى غير ذلك .

وقوله : « وجعلني من المرسلين » جواب عن الاعتراض الأول وهو استغراب رسالته واستبعادها وهم يعرفونه ، وقد شاهدوا أحواله حينما كانوا يربّونه فيهم وليداً ولبث فيهم من عمره سنين ، وتقريره أن استغرابهم واستبعادهم رسالته استناداً إلى سابق معرفتهم بحاله إنما يستقيم لو كانت الرسالة أمراً اكتسابياً يمكن أن يحدس به أو يتوقع حصوله بحصول مقدماته الاختيارية ، وليس الأمر كذلك بل هي أمر وهبي لا تأثير للأسباب العادية فيها وقد جعله الله من المرسلين كما وهب له الحكم بغير اكتساب هذا ما يعطيه التدبر في السياق .

وأما ما ذكروه من أن قوله : « ألم نربّك فينا وليداً » الخ ، مسوق للمنّ على موسى عليه‌السلام دون الاستغراب والاستبعاد كما ذكرناه ، فالآية في نفسها وإن لم تأب الحمل على ذلك لكن سياق مجموع الجواب لا يساعد عليه، وذلك أن فيه إفساد السياق

من حيث يتعين أن يحمل قوله : « وتلك نعمة تمنّ عليّ » الخ ، جواباً عن المن وهو لا ينطبق عليه ، ويحمل قوله : « فعلتها إذا » الخ ، جواباً عن الاعتراض بالقتل ، ويبقى قوله : « وجعلني من المرسلين » فضلاً لا حاجة اليه فافهم ذلك .

وقوله : « وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل » جواب عن منّه عليه وتقريعه بأنه من عبيده وقد كفر نعمته وتقرير الجواب أن هذا الذي تعدّه نعمة وتقرّعني بكفر انها سلطة ظلم وتغلّب إذ عبّدت بني إسرائيل والتعبيد ظلماً وتغلّباً ليس من النعمة في شيء .

فالجملة استفهامية مسوقة للإنكار و « أن عبّدت بني إسرائيل» بيان لما أشير اليه بقوله : « تلك » ، والمحصّل أن الذي تشير اليه بقولك : « وأنت من الكافرين » من أن لك عليّ نعمة كفرتها إذ كنت وليّ نعمتي وسائر بني إسرائيل – أو إذ كنت وليّ نعمتنا معشر بني إسرائيل – ليس بحق إذ كونك ولياً منعماً ليس إلا استناداً إلى التعبيد ، والتعبيد ظلم والولاية المستندة اليه أيضاً ظلم وحاشا أن يكون الظالم ولياً منعماً له على من عبّده نعمة وإلا كان التعبيد نعمة وليس نعمة ، ففي قوله : « أن عبّدت بني إسرائيل » وضع السبب موضع المسبب .

والقوم حلّلوا كلام فرعون : « ألم نربّك » الخ ، إلى اعتراضين – كما أشرنا اليه – المن عليه بتربيته وليداً وكفرانه النعمة وإفساده في الأرض بقتل القبطي فأشكل عليهم الأمر من جهتين – كما أشرنا اليه .

إحداهمـــا صيرورة قوله : « وجعلني من المرسلين » فضلاً لا حاجة اليه في سوق الجواب .

والثانية: عدم صلاحية قوله: «وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل» جواباً عن منّه على موسى عليه‌السلام بتربيته في بيته وليداً .

وقد ذكروا في توجيهه وجوهاً :

منها: أنه مسوق للاعتراف بأن تربيته لموسى كانت نعمة عليه وإنكار أن يكون ترك استعباده نعمة وهمزة الإنكار مقدرة فكأنه يقول : أو تلك نعمة تمنّها عليّ أن

عبدت بني إسرائيل ولم تعبدني هذا ، وأنت ترى أن فيه تقديراً لما لا دليل عليه من جهة اللفظ ولا إشارة .

ومنها: أنه إنكار لأصل النعمة عليه لمكان تعبيده بني إسرائيل كأنه يقول : إن تربيتك لي ليست نعمة يمن بها علي لأنك عبدت قومي فأحبطت به عملك فقوله : « أن عبدت » الخ في مقام التعليل للانكار هذا ، وهذا الوجه وإن كان أقرب إلى الذهن من سابقه لكن هذا الجواب غير تام معنى فإن تعبيده لبني اسرائيل لا يغير حقيقة ما له من الصنيعة عند موسى في تربيته وليداً .

ومنها: أن المعنى أن هذه النعمة التي تمن بها علي من التربية إنما سببه ظلمك بني إسرائيل بتعبيدهم فاضطرت أمي لذلك أن ألقتني في اليم فأخذتني فربيتني فإذ كانت هذه التربية مسببة عن ظلمك بالتعبيد فليست بنعمة هذا والشأن في استفادة هذا المعنى من لفظ الآية .

ومنها: أن الذي رباني أمي وغيرها من بني إسرائيل حيث استعبدتهم فأمرتهم فربوني فليست هذه التربية نعمة منك تمنها علي لانتهائها إلى التعبيد ظلماً هذا ، وهذا الوجه أبعد من سابقه من لفظ الآية .

ومنها: أن ذلك اعتراف منه عليه‌السلام بنعمة فرعون عليه والمعنى وتلك التربية نعمة منك تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل وتركت تعبيدي هذا وأنت خبير بأن لا دليل على ما قدره من قوله : وتركت تعبيدي .

قوله تعالى : « قال فرعون وما رب العالمين – الى قوله – من المسجونين » لمّا كلم فرعون موسى عليه‌السلام في معنى رسالته قادحاً فيها فتلقى الجواب بما كان فيه إفحامه أخذ يكلمه في خصوص مرسله وقد أخبره أن الذي أرسله هو رب العالمين فراجعه فيه واستوضحه بقوله : « وما رب العالمين » ؟ إلى تمام سبع آيات .

واتضاح المراد منها يتوقف على تذكر أصول مذاهب الوثنية في أمر الربوبية وقد تقدمت الإشارة اليها في خلال الأبحاث السابقة من هذا الكتاب كراراً .

فهؤلاء يرون أن وجود الأشياء ينتهي الى موجد واجب الوجود هو واحد لا شريك له في وجوب وجوده هو أجلّ من أن يحدّه حد في وجوده وأعظم من يحيط

به فهم أو يناله إدراك ، ولذلك لا يجوز عبادته لأن العبادة نوع توجّه الى المعبود والتوجه ادراك .

ولذلك بعينه عدلوا عن عبادته والتقرب اليه الى التقرب الى أشياء من خلقه ذوي وجودات شريفة نورية أو نارية ، هي مقربة اليه فانية فيه من الملائكة والجنّ والقديسين من البشر المتخلصين من ألواث المادة الفانين في اللاهوت الباقين بها ومنهم الملوك العظام أو بعضهم عند قدماء الوثنية وكان من جملتهم فرعون وموسى وبالجملة كانوا يعبدونهم بعبادة أصنامهم ليقربوهم الى الله زلفى ويشفعوا لهم بمعنى أن يفيضوا اليهم من الخير الذي يفيض عنهم كما في الملائكة أو لا يصيبوهم بالشر الذي يترشح عنهم كما في الجن فإن كلا من هؤلاء المعبودين يرجع اليه تدبير أمر من أمور العالم الكلية كالحب والبغض والسلم والحرب والرفاهية وغيرها أو صقع من أصقاعه كالسماء والأرض والانسان ونحوها .

فهناك أرباب وآلهة يتصرف كل منهم في العالم الذي يرجع اليه تدبيره كإله عالم الأرض وإله عالم السماء وهؤلاء هم الملائكة والجن وقديسو البشر ، وإله عالم الآلهة وهو الله سبحانه فهو إله الآلهة ورب الأرباب .

إذا عرفت ما ذكرناه بان لك أن لا معنى صحيحاً لقولنا : رب العالمين عند الوثنيين نظراً إلى أصولهم إذ لو أريد به بعض هذه الموجودات الشريفة الممكنة بأعيانهم فهو رب عالم من عوالم الخلقة وهو العالم الذي يباشر التصرف فيه كعالم السماء وعالم الأرض مثلاً ولو أريد به الله سبحانه فهو رب عالم الأرباب وإله عالم الآلهة فقط دون جميع العالمين ولو اريد غير الطائفتين من الرب الواجب الوجود والأرباب الممكنة الوجود فلا مصداق له معقولا .

فقوله : « قال فرعون وما رب العالمين » سؤال منه عن حقيقة رب العالمين بيانه أن فرعون كان وثنياً يعبد الأصنام وهو مع ذلك يدّعي الالوهية ، أما عبادته الأصنام فلقوله تعالى : « ويذرك وآلهتك » الأعراف : ١٢٧ ، وأما دعواه الالوهية فللآية المذكورة ولقوله تعالى : « فقال أنا ربكم الأعلى » النازعات : ٢٤ .

ولا منافاة عند الوثنية بين كون الشيء إلهاً رباً وبين كونه مربوباً لرب آخر لأن

الربوبية هو الاستقلال في تدبير شيء من العالم وهو لا ينافي الإمكان والمربوبية لشيء آخر وكل رب عندهم مربوب لآخر إلا الله سبحانه فهو رب الأرباب لا رب فوقه وإله الآلهة لا إله له .

وكان المُلك عند الوثنية ظهوراً من اللاهوت في بعض النفوس البشرية بالسلطة ونفوذ الحكم فكان يعبد الملوك كما يعبد أرباب الأصنام وكذلك رؤساء البيوت في بيوتهم، وكان فرعون وثنياً يعبد الآلهة وهو ملك القبط يعبده قومه كسائر الآلهة .

فلما سمع من موسى وهارون قولهما : « إنّا رسول رب العالمين » تعجّب منه إذ لم يعقل له معنى محصلاً إذ لو أريد به الواجب وهو الله سبحانه فهو عنده رب عالم الأرباب دون جميع العالمين ولو أريد به بعض الممكنات الشريفة من الآلهة كبعض الملائكة وغيرهم فهو أيضاً عنده رب عالم من عوالم الخلقة دون جميع العالمين فما معنى رب العالمين .

ولذلك قال : « وما رب العالمين » فسأل عن حقيقة الموصوف بهذه الصفة بما هو موصوف بهذه الصفة ولم يسأل عن حقيقة الله سبحانه فإنه لوثنيته كان معتقداً بوجوده مذعناً له وهو يرى كسائر الوثنيين أنه لا سبيل إلى إدراك حقيقته كيف ؟ وهو أساس مذهبهم الذي يبنون عليه عبادة سائر الآلهة والأرباب كما سمعت .

وقوله: « قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين » جواب موسى عليه السلام عن سؤاله : « وما رب العالمين » وهو خبر لمبتدأ محذوف ، ومحصل المعنى على ما يعطيه المطابقة بين السؤال والجواب: هو رب السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بوجود التدبير فيها وكونه تدبيراً واحداً متصلاً مرتبطاً على أن لها مدبّراً — رباً — واحداً على ما يراه الموقنون السالكون سبيل اليقين من البرهان والوجدان .

وبتعبير آخر مرادي بالعالمين السماوات والأرض وما بينهما التي تدل بالتدبير الواحد الذي فيها على أن لها رباً مدبراً واحداً ، ومرادي برب العالمين ذلك الرب الواحد الذي تدل عليه وهذه دلالة يقينية يجدها أهل اليقين الذين يتعاطون البرهان والوجدان .

فإن قلت: لم يطلب فرعون من موسى عليه السلام إلا أن يعرّفه ما هذا الذي يسميه

رب العالمين ؟ وما حقيقته ؟ لكونه غير معقول عنـده فلم يسأل إلا التصور فما معنى قوله : « إن كنتم موقنين » واليقين علم تصديقي لا توقف للتصور عليه أصلاً .

على أنه عليه‌السلام لم يأت في جواب فرعون بشيء غـير أنه وضع لفظ السماوات والأرض وما بينهما موضع لفظ العالمين فكان تفسيراً للفظ الجمع بأسماء آحاده كتفسير الرجال بزيد وعمرو وبكر فلم يفد بالاخرة إلا التصور الأول ولا تأثير لليقين في ذلك .

قلت : كون فرعون يسأله أن يصوّر له «رب العالمين» تصويراً مسلم لا شك فيه لكن موسى بدّل القول بوضع « السماوات والأرض وما بينهما » مكان العالمين وهو يدل على ارتباط بعض الأجزاء ببعض والاتصال بينها بحيث يؤدي إلى وحدة التدبير الواقع فيها والنظام الجاري عليها ثم قيّده بقوله : « إن كنتم موقنين » ليدلّ على أن أهـل اليقين يصدّقون من ذلك بوجود مدبر واحد لجميع العالمين .

فكأنه قيل له : ما تريد برب العالمين ؟ فقال : أريد به ما يريده أهل اليقين إذ يستدلون بارتباط التدبير واتصاله في عوالم السماوات والأرض ومـا بينهما على أن لجميع هذه العوالم مدبراً واحداً ورباً لا شريك له في ربوبيته لهـا وإذ كانوا يصدقون بوجود رب واحد للعالمين فهم يتصورونه بوجه تصوّراً إذ لا معنى للتصديق بلا تصوّر .

وبعبارة موجزة : رب العالمين هو الذي يوقن الموقنون بربوبيته لجميع السماوات والأرض وما بينهما إذا نظروا اليها وشاهدوا وحدة التدبير الذي فيها .

والاحتجاج بتحقق التصديق على تحقق التصور قبله أقوى ما يمكن أن يحتج به على أنه تعالى مدرك بوجه ومتصور تصوراً صحيحاً وإن استحال أن يدرك بكنهه ولا يحيطون به علماً .

وقد ظهر بذلك كله أولاً : أن الجواب إنما هو بإحالته في مسؤله إلى ما يتصوره منه الموقنون إذ يصدقون بوجوده .

وثانياً : أن الذي أشير اليه من الحجة في الآية هو البرهان على توحيـد الربوبية المأخوذ من وحدة التدبير إذ هو الذي يمسّه الحاجة قبـال الوثنية المدّعين للشركاء في الربوبية .

وبذلك يظهر فساد مـا ذكروا أن العلم بحقيقة الذات لما كان ممتنعاً عدل موسى

عليه السلام عن تعريف الحقيقة بالحد إلى تعريفه تعالى بصفاته فقال: رب السماوات والأرض وما بينهما وأشار بقوله : « إن كنتم موقنين » إلى دلالتها بحدوثها على أن محدثها ذات واحدة واجبة الوجود لا يشاركها في وجوب وجودها شيء غيرها .

وجه الفساد ما عرفت أن الوثنية قائلون باستحالة العلم بحقيقة الذات وكنهها ، وأن الموجد ذات واجبة الوجود لا يشاركها في وجوب وجودها غيره ، وأن الآلهة من دون الله موجودات ممكنة الوجود كل منها مدبر لجهة من جهات العالم وهي جميعاً مخلوقة لله فما قرّروه في معنى الآية لا يجدي في مقام المخاصمة معهم شيئاً .

وقوله : « قال لمن حوله ألا تستمعون » أي ألا تصغون إلى ما يقول موسى ؟ والاستفهام للتعجيب يريد أن يصغوا اليه فيتعجبوا من قوله حيث يدّعي رسالة رب العالمين وإذا سئل ما رب العالمين ؟ أعاد الكلمة ثانياً ولم يزد على ما بدأ به شيئاً .

وهذا تمويه منه عليهم يريد به الستر على الحق الذي لاح من كلام موسى عليه السلام فإنه إنما قال : إن جميع العالمين تدلّ بوحدة التدبير الذي يشاهده أهل اليقين فيها على أن لها رباً مدبراً واحداً هو الذي تسألني عنه ، وهو يفسر كلامه أنه يقول : أنا رسول رب العالمين ، فإذا سألته ما رب العالمين ؟ يجيبني بأنه رب العالمين .

وبما تقدم بان عدم سداد قولهم في تفسير هذا التعجيب إن مراده أني سألته عن الذات فأجاب بالصفة وذلك أن السؤال إنما هو عن الذات من حيث صفته على ما تقدم بيانه ، ولم يفسر موسى الذات بالوصف بل غيّر قوله : رب العالمين إلى قوله : « رب السماوات والأرض » فوضع ثانياً قوله : « السماوات والأرض » مكان قوله أولا : « العالمين » كأنه يومي إلى أن فرعون لم يفهم معنى العالمين .

وقوله : « قال ربكم ورب آبائكم الأولين » جواب موسى عليه السلام ثانياً فإنه لما رأى تمويه فرعون على من حوله وقد كان أجاب عن سؤاله « وما رب العالمين » بتفسير العالمين من العالم الكبير كالسماوات والأرض وما بينهما عدل ثانياً إلى ما يكون أصرح في المقصود فذكر ربوبيته تعالى لعالمي الإنسانية فإن العالم الجماعة من الناس أو الأشياء فعالمو الإنسان هو الجماعات من الحاضرين والماضين ولذلك قال : « ربكم ورب آبائكم الأولين » .

فإن فرعون ما كان يدافع في الحقيقة إلا عن نفسه لما كان يدّعي الالوهية فكان يحتال في أن يبطل تعلق ربوبية الرب به في ضمن تعلقه بالعالمين لاستلزام ذلك بطلان ربوبية الأرباب وهو من جملتهم وإن كان يرى أنه أعلام وأهمهم كما حكى الله تعالى عنه : « فقال أنا ربكم الأعلى » النازعات : ٢٤ . « وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري » القصص : ٣٨ .

فكأنه كان يقول : إن أردت برب العالمين الله تعالى فهو رب الأرباب لا غير وإن أردت غيره من الآلهة فكل منهم رب عالم خاص فما معنى رب العالمين ؟ فأجاب موسى بما حاصله أن ليس في الوجود إلا رب واحد فيكون رب العالمين فهو ربكم وقد أرسلني اليكم .

وكان محصّل تمويه فرعون أن موسى لم يجبه بشيء إذ كرّر اللفظ فأجابه موسى ثانياً بالتصريح على أن رب العالمين هو رب عالمي الإنسانية من الحاضرين والماضين وبذلك تنقطع حيلته .

وقوله : « قال إن رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون » قول فرعون ثانياً وقد سمى موسى رسولاً تهكماً واستهزاء وأضافه إلى من حوله ترفعاً من أن يكون رسولاً اليه ، وقد رماه بالجنون مستنداً إلى قوله ﷺ : « ربكم ورب آبائكم » الخ .

كأنه يقول : إنه لمجنون لما في كلامه من الاختلال الكاشف عن الاختلال في تعقله يدّعي رسالة رب العالمين فأسأله ما رب العالمين ؟ فيكرر اللفظ تقريباً أولاً ثم يفسره بأنه ربكم ورب آبائكم الأولين .

وقوله : « قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » ظاهر السياق أن المراد بالمشرق جهة شروق الشمس وسائر الأجرام النيّرة السماوية وطلوعها وبالمغرب الجهة التي تغرب فيها بحسب الحس ، وبما بينهما ما بين الجهتين فيشمل العالم المشهود ويساوي للسماوات والأرض وما بينهما .

فيكون إعادة لمعنى الجواب الأول بتقرير آخر وهو مشتمل على ما اشتمل عليه من نكتة اتصال التدبير واتحاده فإن للشروق ارتباطاً بالغروب والمشرق والمغرب يتحققان طرفين لوسط بينهما ، كما أن للسماء أرضاً ولهما أمر بينهما وهذا النوع من الاتحاد

لا يقبل إلا تدبيراً متصلا واحداً ، وكما أن كل أمة حاضرة لها ارتباط وجودي بالامم الماضية ارتباط الأخلاف بالأسلاف فالنوع واحد والتدبير واحد فالمدبر واحد .

وقد بدّل قوله في الجواب الأول : «إن كنتم موقنين» من قوله ههنا : « إن كنتم تعقلون » تعريضاً له حيث قال لمن حوله : « ألا تستمعون » استهزاء به وإهانة له ، ثم رماه ثانياً بالجنون واختلال الكلام فأشار عليه السلام بقوله : « إن كنتم تعقلون » إلى أنهم هم المحرومون من نعمة التعقل والتفقه ولو كانوا يعقلون لفهموا أن جوابه الأول ليس بتكرار غير مفيد ولكفاهم حجة على توحيد الرب وأن القائم بتدبير جميع العالمين من السماوات والأرض وما بينهما مدبّر واحد لا مدبّر سواه ولا رب غيره .

وقد تبين بما ذكر أن الآية أعني قوله : « رب المشرق » الخ ، تقرير آخر لقوله في الجواب الأول : « رب السماوات والأرض وما بينهما » وأنه برهان على وحدة المدبر من طريق وحدة التدبير وفي ذلك تعريف لرب العالمين بأنه المدبّر الواحد الذي يدل عليه التدبير الواحد في جميع العالمين ، نعم البيان الذي يشير اليه هـــذه الآية أوضح لاشتماله على معنى الشروق والغروب وكونهما من التدبير ظاهر .

وقد ذكروا أن الحجج المودعة في الآيات حجج على وحدانية ذات الواجب بالذات ونفي الشريك في وجوب الوجود وقد تقدم عدم استقامته البتة .

وقوله : « قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين » تهديد منه لموسى عليه السلام لو دام على ما يقول به من ربوبية رب العالمين مدّعياً أنه رسول منه وهذا دأب الجاهل المعاند إذا انقطع عن الحجة أخذ في التهديد وتشبّث بالوعيد .

واتخاذ إله غيره كناية عن القول بربوبية رب العالمين الذي يدعو اليه موسى وإنما لم يذكره صوناً للسانه عن التفوّه باسمه ، ولم يعبأ بسائر الآلهـــة التي كانوا يعبدونها استكباراً وعلوّاً ، وكأن السجن كان جزاء المعرضين عنه المنكرين لالوهيته .

والظاهر أن اللام في المسجونين للعهد ، والمعنى : لو دمت على ما تقول لأجعلنك في زمرة الذين في سجني على ما تعلم من سوء حالهم وشدة عذابهم ، ولهذا لم يعدل عن هذا التعبير إلى مثل قولنا : لأسجننك مع اختصاره .

قوله تعالى : « قال أو لو جئتك بشيء مبين » القـائل هو موسى عليه السلام والمراد

بشيء مبين شيء يبين ويظهر صحة دعواه وهو آية الرسالة التي تدل على صحة دعوى الرسالة من مدّعيه فإن الآية المعجزة إنما تدل على صدق الرسول في دعواه الرسالة وأما المعارف الإلهية التي يدعو اليها كالتوحيد والمعاد وما يتعلق بها فالسبيل إلى إثباته الحجة البرهانية وعلى ذلك كانت تجري سيرة الأنبياء في دعوتهم وقد تقدم كلام فيه في الجزء الأول من الكتاب .

والمعنى : قال موسى: أتجعلني من المسجونين ولو أتيتك بشيء يوضح صدقي فيما ادّعيت من الرسالة .

قوله تعالى : « قال فأت به إن كنت من الصادقين » القائل فرعون وقد فرّع أمره بإتيانه على استفهام موسى المشعر بأنه يدعي أن عنده شيئاً مبيناً ولذا قيّد الأمر بالإتيان بقوله :«إن كنت من الصادقين»أي إن كنت صادقاً في أن عندك شيئاً كذلك.

قوله تعالى : « فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين » هاتان الآيتان اللتان أوتيهما موسى ليلة الطور ، والثعبان : الحية العظيمة وكونه مبيناً ظهور واقعيته بحيث لا يرتاب فيه ، والمراد بنزع يده نزعه من جيبه بعد وضعها فيه كما في سورتي : النمل الآية ١٢ والقصص الآية ٣٢ .

قوله تعالى : « قال للملإ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون » القائل فرعون وقد قال لموسى : « فأت به إن كنت من الصادقين » رجاء أن يأتي بأمر فيه موضع معارضة ومناقشة فلما أتى بما لا مغمض فيه لم يجد بداً دون أن يبهته بأنه ساحر عليم .

ولذا أتبع رميه بالسحر بقوله : « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » إغراء لهم عليه وحثاً لهم على أن يتفقوا معه على دفعه بأي وسيلة ممكنة .

وقوله : « فماذا تأمرون » لعل المراد بالأمر الإشارة عليه لما أن المشير يشير على من يستشيره بلفظ الأمر فالمعنى إذا كان الشأن هذا فماذا تشيرون عليّ أن أعامله به حتى أعمل به وذلك أنه كان يرى نفسه ربهم الأعلى ويراهم عبيده ولا يناسب ذلك حمل الأمر على معناه المتعارف .

ويؤيد هذا المعنى أنه تعالى حكى في موضع آخر هذا الكلام عن الملإ أنفسهم إذ قال : « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون » الأعراف : ١١٠ . وظاهر أن المراد بأمرهم إشارتهم على فرعون أن افعل بها كذا .

وقيل : إن سلطان المعجزة بهره وأدهشه فضلّ عن عجبه وتكبره وغشيته المسكنة فلم يدر ماذا يقول ؟ ولا كيف يتكلم ؟

قوله تعالى : « قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم » القائلون هم الملأ حوله وهم أشراف قومه ، وقوله : « أرجه » بسكون الهاء على القراءة الدائرة وهو أمر من الإرجاء بمعنى التأخير أي أخر موسى وأخاه وأمهلها ولا تعجل اليهما بسياسة أو سجن ونحوه حتى تعارض سحرهما بسحر مثله .

وقرىء « أرجه » بكسر الهاء و « أرجئه » بالهمزة وضم الهاء وهما أفصح من القراءة الدائرة ، والمعنى واحد على أي حال .

وقوله : « وابعث في المدائن حاشرين » المدائن جمع مدينة وهي البلدة والحاشر من الحشر وهو إخراج إلى مكان بإزعاج أي ابعث في البلاد عدة من شرطائك وجنودك يحشرون كل سحّار عليم فيها ويأتوك بهم لتعارضها بسحرهم .

والتعبير بالسحارون الساحر للاشارة إلى أن هناك من هو أعلم منه بفنون السحر وأكثر عملاً .

قوله تعالى : « فجمع السحرة لميقات يوم معلوم » ، هو يوم الزينة الذي اتفق موسى وفرعون على جعله ميقاتاً للمعارضة كما في سورة طه ففي الكلام إيجاز وتلخيص.

قوله تعالى : « وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » الاستفهام لحث الناس وترغيبهم على الاجتماع .

قال في الكشاف ما حاصله أن المراد باتباع السحرة اتباعهم في دينهم - وكانوا متظاهرين بعبادة فرعون كما يظهر من سياق الآيات التالية – وليس مرادهم بذلك إلا أن لا يتبعوا موسى لا اتباع السحرة ، وإنما ساقوا كلامهم مساق الكناية ليحملوا به السحرة على الاهتمام والجد في المغالبة .

قوله تعالى : « فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئنّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقرّبين » الاستفهام في معنى الطلب، وقد قالوا : « إن كنا » ولم يقولوا : إذا كنا نحن الغالبين ليفيد القطع بالغلبة كما يفيده قولهم بعد : « بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون » بل ألقوه في صورة الشك ليكون أدعى لفرعون إلى جعل الأجر .

وقد أثّر ذلك أثره حيث جعل لهم أجراً وزاد عليه الوعد بجعلهم من المقرّبين.

قوله تعالى : « قال لهم موسى ألقوا – إلى قوله – تلقف ما يأفكون » الحبال جمع حبل ، والعصي جمع عصى ، واللقف الإبتلاع بسرعة ، وما يأفكون من الإفك بمعنى صرف الشيء عن وجهه سُمّي السحر إفكاً لأن فيه صرف الشيء عن صورته الواقعية إلى صورة خيالية ، ومعنى الآيات ظاهر .

قوله تعالى : « فالقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون » يريد أن السحرة لما رأوا ما رأوا من الآيات الباهرة بهرهم وأدهشهم ذلك فلم يتمالكوا أنفسهم دون أن خرّوا على الأرض ساجدين لله سبحانه فاستعير الإلقاء لخرورهم على الأرض للدلالة على عدم تمالك أنفسهم كأنهم قد طرحوا على الأرض طرحاً.

وقوله : « قالوا آمنا برب العالمين » فيه إيمان بالله سبحانه إيمان توحيد لما تقدّم أن الاعتراف بكونه تعالى رب العالمين لا يتم إلا مع التوحيد ونفي الآلهة من دونه .

وقوله : « رب موسى وهارون » فيه إشارة إلى الإيمان بالرسالة مضافاً إلى التوحيد .

قوله تعالى : « قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون » إلى آخر الآية ، القائل فرعون ، والمراد بقوله : « آمنتم له قبل أن آذن لكم » آمنتم من دون إذن مني كما في قوله تعالى : « لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي » وليس مفاده أن الإذن كان ممكناً أو متوقعاً منه كما قيل .

وقوله : « إنه لكبيركم الذي علمكم السحر » بهتان آخر يبهت به موسى عليه السلام ليصرف به قلوب قومه وخاصة ملأهم عنه .

وقوله : « فلسوف تعلمون » تهديد لهم في سياق الإبهام للدلالة على أنه في غنى عن ذكره وأما هم فسوف يعلمونه .

وقوله : « لاقطّعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلّبنكم أجمعين » القطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس والتصليب جعل المجرم على الصليب ، وقد تقدم نظير الآية في سورتي الأعراف وطه .

قوله تعالى : « قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون » الضير هو الضرر ، وقوله : « إنا إلى ربنا منقلبون » تعليل لقولهم : لا ضير أي إنا لا نستضر بهذا العذاب الذي توعدنا به لأنا نصبر ونرجع بذلك الى ربنا وما أكرمه من رجوع ! .

قوله تعالى : « إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين » تعليل لما يستفاد من كلامهم السابق أنهم لا يخافون الموت والقتل بل يشتاقون الى لقاء ربهم يقولون : لا نخاف من عذابك شيئاً لأنا نرجع به الى ربنا ولا نخاف الرجوع لأنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا بسبب كوننا أول المؤمنين بموسى وهارون رسولي ربنا .

وفتح الباب في كل خير له أثر من الخير لا يرتاب فيه العقل السليم فلو أن الله سبحانه أكرم مؤمناً لإيمانه بالمغفرة والرحمة لم تطفر مغفرته ورحمته أول الفاتحين لهذا الباب والواردين هذا المورد .

قوله تعالى : « وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متّبعون » شروع في سرد الشطر الثاني من القصة وهو وصف عذاب آل فرعون بسبب ردهم دعوة موسى وهارون عليهما السلام ، وقد كان الشطر الأول رسالة موسى وهارون اليهم ودعوتهم إلى التوحيد ، والإسراء والسري السير بالليل ، والمراد بعبادي بنو إسرائيل وفي هذا التعبير نوع إكرام لهم .

وقوله : « إنكم متّبعون » تعليل للأمر أي سر بهم ليلاً ليتبعكم آل فرعون وفيه دلالة على أن لله في اتباعهم أمراً وأنّ فيه فرج بني إسرائيل وقد صرّح بذلك في قوله : « فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون » ، الدخان : ٢٤ .

قوله تعالى : « فأرسل فرعون في المدائن حاشرين – إلى قوله – ثم أغرقنا

الآخرين ، قصة غرق آل فرعون وإنجاء بني إسرائيل في أربع عشرة آية وقد أوجز في الكلام بحذف بعض فصول القصة لظهوره من سياقها كخروج موسى وبني إسرائيل ليلاً من مصر لدلالة قوله : « أن أسر بعبادي » عليه وعلى هذا القياس .

فقال تعالى : «فأرسل فرعون» أي فأسرى موسى بعبادي فلما علم فرعون بذلك أرسل « في المدائن » التي تحت سلطانه رجالاً « حاشرين » يحشرون الناس ويجمعون الجموع قائلين للناس « إن هؤلاء » بني إسرائيل « لشرذمة قليلون » والشرذمة من كل شيء بقيته القليلة فتوصيفها بالقلة تأكيد « وإنهم لنا لغائظون » يأتون من الأعمال ما يغيظوننا به « وإنا لجميع » مجموع متفق فيما نعزم عليه « حاذرون » نحذر العدو أن يغتالنا أو يمكر بنا وإن كان ضعيفاً قليلا ، والمطلوب بقولهم هذا وهو لا محالة بلاغ من فرعون حثّ الناس عليهم .

« فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم » فيه قصورهم المشيدة وبيوتهم الرفيعة ،ولما كان خروجهم عن مكر إلهي بسبب داعية الاستعلاء والاستكبار التي فيهم نسب إلى نفسه أنه أخرجهم « كذلك » أي الأمر كذلك « وأورثناها » أي تلك الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم « بني إسرائيل » حيث أهلكنا فرعون وجنوده وأبقينا بني إسرائيل بعدهم فكانوا هم الوارثين .

« فأتبعوهم » أي لحقوا ببني إسرائيل « مشرقين » أي داخلين في وقت شروق الشمس وطلوعها « فلما تراءى الجمعان » أي دنا بعضهم من بعض فرأى كل من الجمعين جمع فرعون وجمع موسى الآخر ، « قال أصحاب موسى » من بني إسرائيل خائفين فزعين « إنا لمدركون » سيدركنا جنود فرعون .

« قال موسى كلاّ » لن يدركونا « إن معي ربي سيهدين » والمراد بهذه المعية معية الحفظ والنصرة وهي التي وعدها له ربه أول ما بعثه وأخاه إلى فرعون : « إنني معكما » ، وأما معية الإيجاد والتدبير فالله سبحانه مع موسى وفرعون على نسبة سواء ، وقوله : « سيهدين » أي سيدلني على طريق لا يدركني فرعون معها .

«فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق» والانفلاق انشقاق الشيء وبينونة بعضه من بعض « فكان كل فرق » أي قطعة منفصلة من الماء « كالطود » وهو

القطعة من الجبل « العظيم » فدخلها موسى ومن معه من بني إسرائيل .

« وأزلفنا ثمّ » أي وقربنا هناك « الآخرين » وهم فرعون وجنوده « وأنجينا موسى ومن معه أجمعين » بحفظ البحر على حاله وهيئته حتى قطعوه وخرجوا منه ، « ثم أغرقنا الآخرين » بإطباق البحر عليهم وهم في فلقه .

قوله تعالى : « إن في ذلك الآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ظاهر السياق – ويؤيده سياق القصص الآتية – أن المشار اليه بمجموع ما ذكر في قصة موسى من بعثه ودعوته فرعون وقومه وإنجاء بني إسرائيل وغرق فرعون وجنوده ، ففي ذلك كله آيـة تدل على توحّده تعالى بالربوبية وصدق الرسالة لمن تدبر فيها .

وقوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » أي وما كان أكثر هؤلاء الذين ذكرنا قصتهم مؤمنين مع ظهور ما دل عليه من الآية وعلى هـذا فقوله بعد كل من القصص الموردة في السورة : « وما كان أكثرهم مؤمنين » بمنزلة أخذ النتيجة وتطبيق الشاهد على المستشهد له كأنه يقال بعد إيراد كل واحدة من القصص : هذه قصتهم المتضمنة لآيته تعالى وما كان أكثرهم مؤمنين كما لم يؤمن أكثر قومك فلا تحزن عليهم فهذا دأب كل من الامم التي بعثنا اليهم رسولاً فدعاهم الى توحيد الربوبية .

وقيل : إن الضمير في « أكثرهم » راجع إلى قوم النبي ﷺ والمعنى : أن في هذه القصة آية وما كان أكثر قومك مؤمنين بها ولا يخلو من بعد .

وقوله : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » تقدم تفسيره في أول السورة .

* * *

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَـأَ إِبْرَاهِيمَ ــ ٦٩ . إِذْ قَـالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ــ ٧٠ . قَـالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ــ ٧١ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ــ ٧٢ . أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ــ ٧٣ .

قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ — ٧٤ . قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ — ٧٥ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ — ٧٦ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ — ٧٧ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ — ٧٨ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ — ٧٩ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ — ٨٠ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ — ٨١ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ — ٨٢ . رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ — ٨٣ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ — ٨٤ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ — ٨٥ . وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ — ٨٦ . وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ — ٨٧ . يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ — ٨٨ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ — ٨٩ . وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ — ٩٠ . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ — ٩١ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ — ٩٢ . مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ — ٩٣ . فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ — ٩٤ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ — ٩٥ . قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ — ٩٦ . تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ — ٩٧ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ — ٩٨ . وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ — ٩٩ . فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ — ١٠٠ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ — ١٠١ . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ — ١٠٢ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ — ١٠٣ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ — ١٠٤ .

(بيان)

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصة موسى إلى نبإ إبراهيم عليه‌السلام وهو خبره الخطير إذ انتهض لتوحيد الله سبحانه بفطرته الزاكية الطاهرة من بين قومه المطبقين على عبادة الأصنام فتبرّأ منهم ودافع عن الحق ثم كان من أمره ما قد كان ففي ذلك آية ولم يؤمن به أكثر قومه كما سيشير إلى ذلك في آخر الآيات .

قوله تعالى : « واتلُ عليهم نبأ إبراهيم » غيّر السياق عما كان عليه أول القصة « وإذ نادى ربك موسى » الخ ، لمكان قوله : « عليهم » فإن المطلوب تلاوته على مشركي العرب وعمدتهم قريش وإبراهيم هذا أبوهم وقد قام لنشر التوحيد وإقامة الدين الحق ولم يكن بينهم يومئذ من يقول : لا إله إلا الله ، فنصر الله ونصره حتى ثبتت كلمة التوحيد في الأرض المقدسة وفي الحجاز .

فلم يكن ذلك كله إلا عن دعوة من الفطرة وبعث من الله سبحانه ففي ذلك آية لله فليعتبروا به وليتبرّؤا من دين الوثنية كما تبرّأ منه ومن أبيه وقومه المنتحلين به أبوهم إبراهيم عليه‌السلام .

قوله تعالى : « إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون » مخاصمته ومناظرته عليه‌السلام مع أبيه غير مخاصمته مع قومه واحتجاجه عليهم كما حكاه الله تعالى في سورة الأنعام وغيرها لكن البناء ههنا على الإيجاز والاختصار ولذا جمع بين المحاجتين وسبكهما محاجة واحدة أورد فيها ما هو القدر المشترك بينهما .

وقوله : « ما تعبدون » سؤال عن الحقيقة بوضع نفسه موضع من لا يعرف شيئاً من حقيقتها وسائر شؤنها وهذا من طرق المناظرة سبيل من يريد أن يبين الخصم حقيقة مدّعاه وسائر شؤنه حتى يأخذه بما سمع من اعترافه .

على أن هذه المحاجة كانت من إبراهيم أول ما خرج من كهفه ودخل في مجتمع أبيه وقومه ولم يكن شهد شيئاً من ذلك قبل اليوم فحاجّهم عن فطرة ساذجة طاهرة كما تقدم تفصيل القول فيه في تفسير سورة الأنعام .

قوله تعالى : «قالوا نعبد أصناماً فنظلّ لها عاكفين» ظلّ بمعنى دام ، والعكوف

على الشيء ملازمته والإقامة عنده ، واللام في « لها » للتعليل أي ندوم عاكفين عليها لأجلها وهو تفريع على عبادة الأصنام .

والصنم جثة مأخوذة من فلزّ أو خشب أو غير ذلك على هيئة خاصة يمثل بها ما في المعبود من الصفات، وهؤلاء كانوا يعبدون الملائكة والجن وهم يرون أنها روحانيات خارجة عن عالم الأجسام منزّهة عن خواص المادة وآثارها، ولما كان من الصعب عليهم التوجه العبادي إلى هذه الروحانيات باستحضارها للإدراك توسلوا إلى ذلك باتخاذ صور وتماثيل جسمانية تمثل بأشكالها وهيئاتها ما هناك من المعنويات .

و كذلك الحال في عبادة عبّاد الكواكب لها فإن المعبود الأصلي هناك روحانيات الكواكب ثم اتخذ أجرام الكواكب أصناماً لروحانياتها ثم لما اختلفت أحوال الكواكب بالحضور والغيبة والطلوع والغروب اتخذوا لها أصناماً تمثل ما للكواكب من القوى الفعّالة فيما دونها من عالم العناصر كالقوة الفاعلة للطرب والسرور والنشاط في الزهرة فيصورونها في صورة فتاة ، ولسفك الدماء في المريخ ، وللعلم والمعرفة في عطارد وعلى هذا القياس الأمر في أصنام القدّيسين من الإنسان .

فالأصنام إنما اتخذت ليكون الواحد منها مرآةً لرب الصنم من ملك أو جنّ أو إنسان غير أنهم يعبدون الصنم نفسه بتوجيه العبادة اليه والتقرب منه ولو تعدّوا عن الصنم إلى ربه عبدوه دون الله سبحانه .

وهذا هو الذي يكذب قول القائل منهم: إن الصنم إنما هي قبلة لم تتخذ إلا جهة للتوجه العبادي لامقصودة بالذات كالكعبة عند المسلمين وذلك أن القبلة هي ما يستقبل في العبادة ولا يستقبل بالعبادة وهم يستقبلون الصنم في العبادة وبالعبادة، وبعبارة اخرى التوجه إلى القبلة والعبادة لرب القبلة وهو الله عزّ اسمه وأما الصنم فالتوجه اليه والعبادة له لا لربه ولو فرض أن العبادة لربه وهو شيء من الروحانيات كانت له لا لله فالله سبحانه غير معبود في ذلك على أي حال .

وبالجملة فجوابهم عن سؤال إبراهيم : « ما تعبدون » بقولهم : « نعبد أصناماً » إبانة أن هذه الأجسام المعبودة ممثلات مقصودة لغيرها لا لنفسها ، وقد أخذ إبراهيم قولهم : « نعبد » وخاصمهم به فإن استقلال الأصنام بالمعبودية لا يجامع كونها أصناماً

ممثلة للغير فإذ كانت مقصودة بالعبادة فمن الواجب أن يشتمل على ما هو الغرض المقصود منها من جلب نفع أو دفع ضر بالتوجه العبادي والدعاء والمسألة والأصنام بمعزل من أن تعلم بمسألة أو تجيب مضطراً بإيصال نفع أو صرف ضر ولذلك سألهم إبراهيم بقوله : « هل يسمعونكم » الخ .

قوله تعالى : « قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرّون» اعترض عليه‌السلام عليهم في عبادتهم الأصنام من جهتين :

إحداهما : أن العبادة تمثيل لذلة العابد وحاجته إلى المعبود فلا يخلو من دعاء من العابد للمعبود ، والدعاء يتوقف على علم المعبود بذلك وسمعه ما يدعوه به ، والأصنام أجسام جمادية لا سمع لها فلا معنى لعبادتها .

والثانية : أن الناس إنما يعبدون الإله إما طمعاً في خيره ونفعه وإما اتّقاء من شرّه وضرّه والأصنام جمادات لا قدرة لها على إيصال نفع أو دفع ضرر .

فكل من الآيتين يتضمن جهة من جهتي الاعتراض ، وقد أوردهما في صورة الاستفهام ليضطرهم على الاعتراف .

قوله تعالى : « قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » كان مقتضى المقام أن يجيبوا عن سؤاله عليه‌السلام بالنفي لكنه لما كان ينتج خلاف ما هم عليه من الانتحال بالوثنية أضربوا عنه إلى التشبث بذيل التقليد فذكروا أنهم لا مستند لهم في عبادتها إلا تقليد الآباء محضاً .

وقوله : « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » أي فعلنا كما كانوا يفعلون وعبدناهم كما كانوا يعبدون ، ولم يعدل عن قوله : « كذلك يفعلون » إلى مثل قولنا : يعبدونها ليكون أصرح في التقليد كأنهم لا يفهمون من هذه العبادات إلا أنها أفعال كأفعال آبائهم من غير أن يفقهوا منها شيئاً أزيد من أشكالها وصورها .

قوله تعالى : « قال أفرأيتم ما تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين » لما انتهت محاجته مع أبيه وقومه إلى أن لا حجة لهم في عبادتهم الأصنام إلا تقليد آباءهم محضاً تبرأ عليه‌السلام من آلهتهم ومن أنفسهم وآبائهم بقوله : «أفرأيتم » الخ.

فقوله : « أفرأيتم ما تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون » تفريع على ما ظهر مما

تقدم من عدم الدليل على عبادة الأصنام إلا التقليد بل بطلانها من أصلها أي فإذا كانت باطلة لا حجة لكم عليها إلا تقليد آبائكم فهذه الأصنام التي رأيتموها أي هذه بأعيانها التي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنها عدو لي لأن عبادتها ضارة لديني مهلكة لنفسي فليست إلا عدواً لي .

وذكر آبائهم الأقدمين للدلالة على أنه لا يأخذ بالتقليد كما أخذوا وأن لا وقع عنده ﷺ لتقدم العهد ، ولا أثر للسبق الزماني في إبطال حق أو إحقاق باطل ، وإرجاع ضمير أولي العقل إلى الأصنام لمكان نسبة العبادة اليها وهي تستلزم الشعور والعقل ، وهو كثير الوقوع في القرآن .

وقوله : « إلا رب العالمين » استثناء منقطع من قوله : « فإنهم عدو لي » أي لكن رب العالمين ليس كذلك .

قوله تعالى : « الذي خلقني فهو يهدين - إلى قوله - يوم الدين » لما استثنى رب العالمين جل اسمه وصفه بأوصاف تتم بها الحجة على أنه تعالى ليس عدواً له بل رب رحيم ذو عناية بحاله منعم عليه بكل خير دافع عنه كل شر فقال : « الذي خلقني » «الخ» وأما قول القائل : إن قوله : « الذي خلقني » الخ استيناف من الكلام لا يعبأ به .

فقوله : « الذي خلقني فهو يهدين » بدأ بالخلق لأن المطلوب بيان استناد تدبير أمره اليه تعالى بطريق إعطاء الحكم بالدليل ، والبرهان على قيام التدبير به تعالى قيام الخلق والإيجاد به لوضوح أن الخلق والتدبير لا ينفكان في هذه الموجودات الجسمانية التدريجية الوجود التي تستكمل الوجود على التدريج فليس من المعقول أن يقوم الخلق بشيء والتدبير بشيء وإذ كان الخلق والإيجاد لله سبحانه فالتدبير له أيضاً .

ولهذا عطف الهداية على الخلق بفاء التفريع فدل على أنه تعالى هو الهادي لأنه هو الخالق .

وظاهر قوله : « فهو يهديني » - وهو مطلق - أن المراد به مطلق الهداية إلى المنافع دنيوية كانت أو أخروية والتعبير بلفظ المضارع لإفادة الإستمرار فالمعنى أنه الذي خلقني ولا يزال يهديني إلى ما فيه سعادة حياتي منذ خلقني ولن يزال كذلك . فيكون الآية في معنى ما حكاه الله عن موسى إذ قال لفرعون : « ربنا الذي أعطى

كل شيء خلقه ثم هدى » طه : ٥٠ ، أي هداه إلى منافعه وهي الهداية العامة .

وهذا هو الذي أشير اليه في أول السورة بقوله : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم إن في ذلك لآية » وقد مر تقرير الحجة فيه .

وعلى هذا فما سيأتي في قوله : « والذي هو يطعمني » الخ من الصفات المعدودة من قبيل ذكر الخاص بعد العام فإنها جميعاً من مصاديق الهداية العامة بعضها هداية إلى منافع دنيوية وبعضها هداية إلى ما يرجع الى الآخرة .

ولو كان المراد بالهداية الهداية الخاصة الدينية فالصفات المعدودة على رسلها وذكر الهداية بعد الخلقة ، وتقديمها على سائر النعم والمواهب لكونها أفضل النعم بعد الوجود .

وقوله : « والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين » هو كالكناية عن جملة النعم المادية التي يرزقه الله إياها لتتميم النواقص ورفع الحوائج الدنيوية ، وقد خصّ بالذكر منها ما هو أهمها وهو الإطعام والسقي والشفاء إذا مرض .

ومن هنا يظهر أن قوله : « وإذا مرضت » توطئة وتمهيد لذكر الشفاء ، فالكلام في معنى يطعمني ويسقيني ويشفين ، ولذا نسب المرض إلى نفسه لئلا يختل المراد بذكر ما هو سلب النعمة بين النعم ، وأما قول القائل : إنه إنما نسب المرض إلى نفسه مع كونه من الله للتأدب فليس بذاك .

وإنما أعاد الموصول فقال : « الذي هو يطعمني » الخ ، ولم يعطف الصفات على ما في قوله : « الذي خلقني فهو يهدين » للدلالة على أن كلاً من الصفات المذكورة في هذه الجمل المترتبة كان في إثبات كونه تعالى هو الرب المدبّر لأمره والقائم على نفسه المجيب لدعوته .

وقوله : « والذي هو يميتني ثم يحيين » يريد الموت المقضي لكل نفس المدلول عليه بقوله : « كل نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ ، وليس بانعدام وفناء بل انتقال من دار الى دار من جملة التدبير العام الجاري ، والمراد بالإحياء إفاضة الحياة بعد الموت.

وقوله : « والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » أي يوم الجزاء وهو يوم القيامة ، ولم يقطع بالمغفرة كما قطع في الامور المذكورة قبلها لأن المغفرة ليست

بالاستحقاق بل هي فضل من الله فليس يستحق أحد على الله سبحانه شيئاً لكنه سبحانه قضى على نفسه الهداية والرزق والإماتة والإحياء لكل ذي نفس ولم يقض المغفرة لكل ذي خطيئة فقال : « فورب السماء والأرض إنه لحق » الذاريات : ٢٣ ، وقال : « كل نفس ذائقة الموت » الأنبياء : ٣٥ ، وقال : « إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً » يونس : ٤ ، وقال في المغفرة : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ .

ونسبة الخطيئة إلى نفسه وهو عليه‌السلام نبي معصوم من المعصية دليل على أن المراد بالخطيئة غير المعصية بمعنى مخالفة الأمر المولوي فإن للخطيئة والذنب مراتب تتقدر حسب حال العبد في عبوديته كما قيل : حسنات الأبرار سيئات المقرّبين ، وقد قال تعالى لنبيه صلى‌الله‌عليه‌وآله : « واستغفر لذنبك » .

فالخطيئة من مثل إبراهيم عليه‌السلام اشتغاله عن ذكر الله محضاً بما تقتضيه ضروريات الحياة كالنوم والأكل والشرب ونحوها وإن كانت بنظر آخر طاعة منه عليه‌السلام كيف ؟ وقد نص تعالى على كونه عليه‌السلام مخلصاً لله لا يشاركه تعالى فيه شيء إذ قال : « إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » ص : ٤٦ ، وقد قدمنا كلاماً له تعلق بهذا المقام في آخر الجزء السادس وفي قصص إبراهيم في الجزء السابع من الكتاب .

قوله تعالى : « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين » لما ذكر عليه‌السلام نعم ربه المستمرة المتوالية المتراكمة عليه منذ خلق إلى ما لا نهاية له من أمد البقاء وصوّر بذلك شمول اللطف والحنان الإلهي أخذته جاذبة الرحمة الملتئمة بالفقر العبودي فدعته إلى إظهار الحاجة وبثّ المسألة فالتفت من الغيبة الى الخطاب فسأل ما سأل .

فقوله : « ربّ » أضاف الرب إلى نفسه بعد ما كان يصفه بما أنه رب العالمين إثارة للرحمة الإلهية وتهييجاً للعناية الربانية لاستجابة دعائه ومسألته .

وقوله : « هب لي حكماً » يريد بالحكم ما تقدم في قول موسى عليه‌السلام : « فوهب لي ربي حكماً » الآية ٢١ من السورة وهو – كما تقدم – إصابة النظر والرأي في المعارف الاعتقادية والعملية الكلية وتطبيق العمل عليها كما يشير اليه قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ ، وهو

وحي المعارف الاعتقادية والعملية التي يجمعها التوحيد والتقوى ، وقوله تعالى : « وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ ، وهو وحي التسديد والهداية إلى الصلاح في مقام العمل ، وتنكير الحكم لتفخيم أمره .

وقوله : « وألحقني بالصالحين » الصلاح — على ما ذكره الراغب — يقابل الفساد الذي هو تغير الشيء عن مقتضى طبعه الأصلي فصلاحه كونه على مقتضى الطبع الأصلي فيترتب عليه من الخير والنفع ما من شأنه أن يترتب عليه من غير أن يفسد فيحرم من آثاره الحسنة .

وإذ كان « الصالحين » غير مقيد بالعمل ونحوه فالمراد به الصالحون ذاتاً لا عملاً فحسب وإن كان صلاح الذات لا ينفك عنه صلاح العمل ، قال تعالى : « البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » الأعراف : ٥٨ .

فصلاح الذات كونها تامة الاستعداد لقبول الرحمة الإلهية وإفاضة كل خير وسعادة من شأنها أن تتلبس به من غير أن يقارنها ما يفسدها من اعتقاد باطل أو عمل سيء وبذلك يتبين أن الصلاح الذاتي من لوازم موهبة الحكم بالمعنى الذي تقدم وإن كان الحكم أخص مورداً من الصلاح وهو ظاهر .

فمسألته الإلحاق بالصالحين من لوازم مسألة موهبة الحكم وفروعها المترتبة عليها فيعود معنى قوله: « رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين » إلى مثل قولنا : رب هب لي حكماً وتمّم أثره فيّ وهو الصلاح الذاتي .

وقد تقدم في تفسير قوله تعالى : « وإنه في الآخرة لمن الصالحين » البقرة : ١٣٠ في الجزء الأول من الكتاب كلام له تعلّق بهذا المقام .

قوله تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » إضافة اللسان إلى الصدق لامية تفيد اختصاصه بالصدق بحيث لا يتكلم إلا به ، وظاهر جعل هذا اللسان له أن يكون مختصاً به كلسانه لا يتكلم إلا بما في ضميره مما يتكلم هو به فيؤول المعنى إلى مسألة أن يبعث الله في الآخرين من يقوم بدعوته ويدعو الناس إلى ملّته وهي دين التوحيد .

فتكون الآية في معنى قوله في سورة الصافات بعد ذكر إبراهيم عليه‌السلام : « وتركنا

عليه في الآخرين » الصافات : ١٠٨ ، وقد ذكر هذه الجملة بعد ذكر عدة من الأنبياء غيره كنوح وموسى وهارون وإلياس، وكذا قال تعالى في سورة مريم بعد ذكر زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم وموسى وهارون: «وجعلنا لهم لسان صدق عليّا» مريم: ٥٠ فالمراد على أي حال إبقاء دعوتهم بعدهم ببعث رسل أمثالهم .

وقيل : المراد به بعث النبي ﷺ وقد روي عنه أنه قال : أنا دعوة أبي إبراهيم ، ويؤيده تسمية دينه في مواضع من القرآن ملّة إبراهيم، ويرجع معنى الآية حينئذ إلى معنى قوله حكاية عن إبراهيم وإسماعيل حين بناء الكعبة: « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرّيتنا أمة مسلمة لك – إلى أن قال – ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم » البقرة : ١٢٩ .

وقيل : المراد به أن يجعل الله له ذكراً جميلاً وثناء حسناً بعده إلى يوم القيامة وقد استجاب الله دعاءه فأهل الأديان يثنون عليه ويذكرونه بالجميل .

وفي صدق لسان الصدق على الذكر الجميل خفاء، وكذا كون هذا الدعاء والمحكي في سورة البقرة دعاء واحداً لا يخلو من خفاء .

قوله تعالى : «واجعلني من ورثة جنة النعيم» تقدم معنى وراثة الجنة في تفسير قوله تعالى : « أولئك هم الوارثون » المؤمنون : ١٠ .

قوله تعالى : « واغفر لأبي إنه كان من الضالّين» استغفار لأبيه حسب ما وعده في قوله : « سلام عليك سأستغفر لك ربي » مريم : ٤٧ ، وليس ببعيد أن يستفاد من قوله تعالى:«وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبيّن له أنه عدو لله تبرّأ منه » التوبة : ١١٤ ، أنه دعا لأبيه بهذا الدعاء وهو حيّ بعد، وعلى هذا فمعنى قوله : « إنه كان من الضالّين » أنه كان قبل الدعاء بزمان من أهل الضلال .

قوله تعالى : «ولا تخزني يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الخزي عدم النصر ممن يؤمّل منه النصر، والضمير في « يبعثون » للناس ولا يضرّه عدم سبق الذكر لكونه معلوماً من خارج .

ويعلم من سؤاله عدم الإخزاء يوم القيامة أن الإنسان في حاجة إلى النصر الإلهي

يومئذ فهذه البنية الضعيفة لا تقوم دون الأهوال التي تواجهها يوم القيامة إلا بنصر وتأييد منه تعالى .

وقوله : « يوم لا ينفع مال ولا بنون » الظرف بدل من قوله : « يوم يبعثون » وبه يندفع قول من قال : إن قول إبراهيم قد انقطع في « يبعثون » والآية إلى تمام خمسة عشر آية من كلام الله تعالى .

والآية تنفي نفع المال والبنين يوم القيامة وذلك أن رابطة المال والبنين التي هي المناط في التناصر والتعاضد في الدنيا هي رابطة وهمية اجتماعية لا تؤثر أثراً في الخارج من ظرف الاجتماع المدني ويوم القيامة يوم انكشاف الحقائق وتقطّع الأسباب فلا ينفع فيه مال بماليته ولا بنون بنسبة بنوّتهم وقرابتهم ، قال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم » الأنعام : ٩٤ ، وقال : « فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » المؤمنون : ١٠١ .

فالمراد بنفي نفع المال والبنين يوم القيامة نفي سببيتها الوضعية الاعتبارية في المجتمع الإنساني في الدنيا فإن المال نعم السبب والوسيلة في المجتمع للظفر بالمقاصد الحيوية ، وكذا البنون نعمت الوسيلة للقوة والعزة والغلبة والشوكة ، فالمال والبنون عمدة ما يركن اليها ويتعلق بها الإنسان في الحياة الدنيا فنفي نفعها يوم القيامة كالكناية عن نفي نفع كل سبب وضعي اعتباري في المجتمع الإنساني يتوسل به إلى جلب المنافع المادية كالعلم والصنعة والجمال وغيرها .

وبعبارة أخرى نفي نفعها في معنى الإخبار عن بطلان الاجتماع المدني بما يعمل فيه من الأسباب الوضعية الاعتبارية كما يشير اليه قوله تعالى : « ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون » .

وقوله : « إلا من أتى الله بقلب سليم » قال الراغب : السلم والسلامة التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة . انتهى . والسياق يعطي أنه عليه‌السلام في مقام ذكر معنى جامع يتميز به اليوم من غيره وقد سأل ربه أولاً أن ينصره ولا يخزيه يوم لا ينفعه ما كان ينفعه في الدنيا من المال والبنين ، ومقتضى هذه التوطئة أن يكون المطلوب بقوله : « إلا من أتى الله بقلب سليم » بيان ما هو النافع يومئذ وقد ذكر فيه الإتيان بالقلب السليم .

فالاستثناء منقطع، والمعنى: لكن من أتى الله بقلب سليم فإنه ينتفع به، والمحصّل أن مدار السعادة يومئذ على سلامة القلب سواء كان صاحبه ذا مال وبنين في الدنيا أو لم يكن.

وقيل: الاستثناء متصل والمستثنى منه مفعول ينفع المحذوف والتقدير يوم لا ينفع مال ولا بنون أحداً إلا من أتى الله بقلب سليم.

وقيل: الاستثناء متصل والكلام بتقدير مضاف، والتقدير لا ينفع مال ولا بنون إلا مال وبنوه من أتى « الخ ».

وقيل: المــال والبنون في معنى الغنى والاستثناء منه بحذف مضاف من نوعه والتقدير يوم لا ينفع غنى إلا غنى من أتى الله بقلب سليم، وسلامة القلب من الغنى فالاستثناء متصل ادّعاء لا حقيقة.

وقيل: الاستثناء منقطع وهناك مضاف محذوف، والتقدير لا ينفع مال ولا بنون إلا حال من أتى « الخ ».

والأقوال الثلاثة الاول توجب اختصاص تميُّز اليوم بمن له مال وبنون فقط فإن الكلام عليها في معنى قولنا: يوم لا ينفع المــال والبنون أصحابها إلا ذا القلب السليم منهم وأما من لا مال له ولا ولد فمسكوت عنه والسياق لا يساعده، وأما القول الرابع فمبني على تقدير لا حاجة اليه.

والآية قريبة المعنى من قوله تعالى: « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً » الكهف: ٤٦، غير أنهــا تسند النفع إلى القلب السليم وهو النفس السالمة من وصمة الظلم وهو الشرك والمعصية كما قــال تعالى في وصف اليوم: « وعنت الوجوه للحي القيّوم وقد خاب من حمل ظلماً » طه: ١١١.

قــال بعضهم: وفي الآيتين تأييد لكون استغفاره عليه‌السلام لأبيه طلباً لهدايته إلى الإيمان لاستحالة طلب مغفرته بعــــد موته كافراً مع علمه بعدم نفعه لأنه من باب الشفاعة انتهى.

وهذا على تقدير أخذ الاستثناء متصلاً كما ذهب اليه هذا القائل مبني على كون

إبراهيم عليه السلام ابن آزر لصلبه وقد تقدم في قصته عليه السلام من سورة الأنعام فساد القول به وأن الآيات ناصة على خلافه .

وأما إذا أخذ الاستثناء منقطعاً فقوله : « إلا من أتى الله بقلب سليم » بضميمة قوله تعالى : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى » الأنبياء : ٢٨ . دليل على كون الاستغفار قبل موته كما لا يخفى .

قوله تعالى : « وأزلفت الجنة للمتقين وبرّزت الجحيم للغاوين » الازلاف التقريب والتبريز الاظهار ،وفي المقابلة بين المتقين والغاوين واختيار هذين الوصفين لهاتين الطائفتين إشارة إلى ما قضى به الله سبحانه يوم رجم إبليس عند إبائه أن يسجد لآدم كما ذكر في سورة الحجر « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين – الى أن قال – إنّ المتقين في جنات وعيون » الحجر : ٤٥ .

قوله تعالى : « وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون » أي هل يدفعون الشقاء والعذاب عنكم او عن أنفسهم ،والمحصل أنه يتبين لهم أنهم ضلوا في عبادتهم غير الله .

قوله تعالى : « فكبكبوا فيها هم والغاون وجنود إبليس أجمعون » يقال : كبه فانكب أي ألقاه على وجهه وكبكبه أي ألقاه على وجهه مرة بعد اخرى فهو يفيد تكرار الكب كذب ودبدب وذب وذبذب وزل وزلزل ودك ودكدك .

وضمير الجمع في قوله :«فكبكبوا فيها هم » للأصنام كما يدل عليه قوله : «انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٨ وهؤلاء إحدى الطوائف الثلاث التي تذكر الآية أنها تكبكب في جهنم يوم القيامة ، والطائفة الثانية الغاون المقضي عليهم ذلك كما في آية الحجر المنقولة آنفاً ، والطائفة الثالثة جنود إبليس وهم قرناء الشياطين الذين يذكر القرآن أنهم لا يفارقون أهل الغواية حتى يدخلوا النار ، قال تعالى:«ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين – إلى أن قال – ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » الزخرف : ٣٩ .

قوله تعالى : « قالوا وهم فيها يختصمون – إلى قوله – إلا المجرمون » الظاهر أن القائلين هم الغاون ، والإختصام واقع بينهم يخاصمون أنفسهم والشياطين على ما

ذكره الله سبحانه في مواضع من كلامه .

وقوله : « تالله إن كنا لفي ضلال مبين » اعتراف منهم بالضلال ، والخطاب في قوله : « إذ نسويكم برب العالمين » للآلهة من الأصنام وهم معهم في النـــار ، أولهم وللشياطين أولها وللمتبوعين والرؤساء من الغاوين وخير الوجوه أولها .

وقوله : « وما أضلنا إلا المجرمون » الظاهر أن كلا من القائلين يريد بالمجرمين غيره من إمام ضلال اقتدى به في الدنيا وداع دعاه إلى الشرك فاتبعه وآباء مشركين قلدهم فيه وخليل تشبه به ، والمجرمون على ما يستفاد من آيات القيامة هم الذين ثبت فيهم الإجرام وقضي عليهم بدخول النار قال تعالى : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » يس : ٥٦ .

قوله تعالى : « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » الحميم على ما ذكره الراغب القريب المشفق .

وهـــذا الكلام تحسّر منهم على حرمانهم من شفاعة الشافعين وإغاثة الأصدقاء وفي التعبير بقوله :« فما لنا من شافعين » إشارة إلى وجود شافعين هناك يشفعون بعض المذنبين ، ولولا ذلك لكان من حق الكلام أن يقال : فما لنا من شافع إذ لا نكتة تقتضي الجمع ،وقد روي أنهم يقولون ذلك لما يرون الملائكة والأنبياء والمؤمنين يشفعون.

قوله تعالى : « فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » تمن منهم أن يرجعوا إلى الدنيا فيكونوا من المؤمنين حتى ينالوا ما ناله المؤمنون من السعادة .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية » إلى آخر الآيتين أي في قصة إبراهيم عليه السلام ولزومه عن فطرته الساذجة دين التوحيد وتوجيه وجهه نحو رب العالمين وتبرّيه من الأصنام واحتجاجه على الوثنيين وعبدة الأصنام آية لمن تدبّر فيهـا على أن في سائر قصصه من محنه وابتلاآته التي لم تذكر ههنا كإلقائه في النـــار ونزول الضيف من الملائكة عليه وقصة إسكانه إسماعيل وأمه بوادي مكة وبناء الكعبة وذبح إسماعيل آيات لاولي الألباب .

وقوله : « وما كان أكثرهم مؤمنين » أي وما كان أكثر قوم إبراهيم مؤمنين والباقي ظاهر مما تقدم .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » قال : هو أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : يحتمل التفسير والجري .

وفي الكافي بإسناده عن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : ولسان الصدق للمرء يجعله الله في الناس خير من المال يأكله ويورثه . الحديث.

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : « واغفر لأبي » أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : « ولا تخزني يوم يبعثون » قال : ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وآله قال : ليجيئن رجل يوم القيامة من المؤمنين آخذاً بيد أب له مشرك حتى يقطعه النار ويرجو أن يدخله الجنة فيناديه مناد إنه لا يدخل الجنة مشرك ، فيقول : ربي أبي ووعدت أن لا تخزيني .

قال : فما يزال متشبثاً به حتى يحوّله الله في صورة سيئة وريح منتنة في صورة ضبعان فإذا رآه كذلك تبرّأ منه وقال : لست بأبي . قال : فكنا نرى أنه يعني إبراهيم وما سمّى به يومئذ .

وفيه أخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة يقول له إبراهيم : ألم أقل لك: لا تعصني ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك .

فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله : إني حرّمت الجنة على الكافرين ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار .

أقول : الخبران من أخبار بنوّة إبراهيم لآزر لصلبه وقد مرّ في قصص إبراهيم من سورة الأنعام أنها مخالفة للكتاب وكلامه تعالى نص في خلافه .

وفي الكافي بإسناده عن سفيان بن عيينة قال : سألته عن قول الله عز وجل : « إلا من أتى الله بقلب سليم » قال : السليم الذي يلقى ربه وليس فيه أحد سواه .

قال : وكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط وإنمـــا أرادوا بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم إلى الآخرة .

وفي المجمع وروي عن الصادق عليه السلام أنه قـال : هو القلب الذي سلم من حبّ الدنيا . ويؤيده قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم : حب الدنيا رأس كل خطيئة .

وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث « وجنود إبليس أجمعون » جنود إبليس ذرّيته من الشياطين .

قال : وقولهم : « وما أضلّنا إلا المجرمون » إذ دعونا إلى سبيلهم ذلك قول الله عز وجل فيهم إذ جمعهم إلى النـار : وقالت أولاهم لاخراهم ربنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النـــار » وقوله : « كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً» برىء بعضهم من بعض ولعن بعضهم بعضاً يريد بعضهم أن يحج بعضاً رجاء الفلج فيفلتوا جميعاً من عظيم ما نزل بهم وليس بأوان بلوى ولا اختبار ولا قبول معذرة ولا حين نجاة .

وفي الكافي أيضاً بسندين عن أبي بصير عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام في قول الله عز وجل : « فكبكبوا فيها هم والغاوون » هم قوم وصفوا عدلاً بألسنتهم ثم خالفوه إلى غيره .

أقول : وروى هــذا المعنى القمي في تفسيره والبرقي في المحاسن عن أبي عبد الله عليه السلام ، والظاهر أن الرواية كانت واردة في ذيل قوله تعالى : « والشعراء يتّبعهم الغاوون » لما بعده من قوله تعالى : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » وقد وقع الخطأ في إيرادها في ذيل قوله : « وكبكبوا فيها » الخ ، وهو ظاهر للمتأمل .

وفي المجمع وفي الخبر المأثور عن جابر بن عبد الله قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي؟ وصديقه في الجحيم. فيقول الله : أخرجوا له صديقه إلى الجنة فيقول من بقي في النار : « فمالنا من شافعين ولا صديق حميم » .

وروي بالإسناد عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال : والله لنشفعنّ لشيعتنا ثلاث مرات حتى يقول النـاس : « فما لنا من شافعين ولا صديق حميم – إلى قوله – فنكون من المؤمنين » وفي رواية اخرى حتى يقول عدوّنا .

وفي تفسير القمي « فلو أن لنا كرّة فنكون من المؤمنين » قال : من المهتدين قال . لأن الإيمان قد لزمهم بالإقرار .

أقول : مراده أنهم يؤمنون يومئذ إيمان إيقان لكنهم يرون أن الإيمان يومئذ لا ينفعهم بل الإيمان النافع هو الإيمان في الدنيا فيتمنون أن يرجعوا إلى الدنيا ليكون ما عندهم من الإيمان من إيمان المهتدين وهم المؤمنون حقاً المهتدون بإيمانهم يوم القيامة وهذا معنى لطيف ، واليه يشير قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » : ١٣ ، فلم يقولوا فارجعنا نؤمن ونعمل صالحاً بل قالوا فارجعنا نعمل صالحاً فافهم ذلك .

* * *

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ـــ ١٠٥ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلاَ تَتَّقُونَ ـــ ١٠٦ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ـــ ١٠٧ . فَٱتَّقُوا ٱللهَ
وَأَطِيعُونِ ـــ ١٠٨ . وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ
رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ـــ ١٠٩ . فَٱتَّقُوا ٱللهَ وَأَطِيعُونِ ـــ ١١٠ . قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ
وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ـــ ١١١ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ـــ ١١٢ .
إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ـــ ١١٣ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ـــ ١١٤ . إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ ـــ ١١٥ . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ
يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ـــ ١١٦ . قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي
كَذَّبُونِ ـــ ١١٧ . فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ـــ ١١٨ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ـــ ١١٩ . ثُمَّ

أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ــ ١٢٠ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ١٢١ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ــ ١٢٢ .

(بيان)

تشير الآيات بعد الفراغ عن قصتي موسى وإبراهيم عليهما السلام وهما من أولي العزم إلى قصة نوح عليه السلام وهو أول أولي العزم سادة الأنبياء ، وإجمال ما جرى بينه وبين قومه فلم يؤمن به أكثرهم فأغرقهم الله وأنجى نوحاً ومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : « كذّبت قوم نوح المرسلين » قال في المفردات : القوم جماعة الرجال في الأصل دون النساء ، ولذلك قال : « لا يسخر قوم من قوم » الآية ، قال الشاعر : أقوم آل حصن أم نساء ، وفي عامّة القرآن أريدوا به والنساء جميعاً . انتهى.

ولفظ القوم قيل : مذكر وتأنيث الفعل المسند اليه بتأويل الجماعة وقيل : مؤنث وقال في المصباح : يذكر ويؤنث .

وعد القوم مكذبين للمرسلين مع أنهم لم يكذبوا إلا واحداً منهم وهو نوح عليه السلام إنما هو من جهة أن دعوتهم واحدة وكلمتهم متفقة على التوحيد فيكون المكذب للواحد منهم مكذباً للجميع ولذا عد الله سبحانه الإيمان ببعض رسله دون بعض كفراً بالجميع قال تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا اولئك هم الكافرون حقاً » النساء : ١٥١ .

وقيل : هو من قبيل قولهم : فلان يركب الدواب ويلبس البرود وليس له إلا دابة واحدة وبردة واحدة فيكون الجمع كناية عن الجنس ، والأول أوجه ونظير الوجهين جار في قوله الآتي : « كذبت عاد المرسلين » « كذبت ثمود المرسلين » وغيرهما.

قوله تعالى : « إذ قال لهم اخوهم نوح ألا تتقون » المراد بالأخ النسيب كقولهم : اخو تميم واخو كليب والإستفهام للتوبيخ .

قوله تعالى : « إني لكم رسول أمين » اي رسول من الله سبحانه أمين على ما حملته من الرسالة لا أبلغكم إلا ما أمرني ربي وأراده منكم ، ولذا فرع عليه قوله : « فاتقوا الله وأطيعون » فأمرهم بطاعته لأن طاعته طاعة الله .

قوله تعالى : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين» مسوق لنفي الطمع الدنيوي بنفي سؤال الأجر فيثبت بذلك انه ناصح لهم فيما يدعوهم اليه لا يخونهم ولا يغشهم فعليهم ان يطيعوه فيما يأمرهم، ولذا فرّع عليه ثانياً قوله : «فاتقوا الله وأطيعون » .

والعدول في قوله : « إن أجري إلا على رب العالمين » عن اسم الجلالة إلى « رب العالمين » للدلالة على صريح التوحيد فإنهم كانوا يرون انه تعالى إله عالم الالهة وكانوا يرون لكل عالم إلهاً آخر يعبدونه من دون الله فإثباته تعالى رباً للعالمين جميعاً تصريح بتوحيد العبادة ونفي الآلهة من دون الله مطلقاً .

قوله تعالى : « فاتقوا الله وأطيعون » قد تقدم وجه تكرار الآية فهو يفيد ان كلا من الأمانة وعدم سؤال الأجر سبب مستقل في إيجاب طاعته عليهم .

قوله تعالى : « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » الأرذلون جمع أرذل على الصحة وهو اسم تفضيل من الرذالة والرذالة الخسة والدناءة ، ومرادهم بكون متبعيه أراذل انهم ذوو أعمال رذيلة ومشاغل خسيسة ولذا أجاب عليه السلام عنه بمثل قوله : « وما علمي بما كانوا يعملون » .

والظاهر انهم كانوا يرون الشرف والكرامة في الأموال والجموع من البنين والاتباع كما يستفاد من دعاء نوح عليه السلام إذ يقول : « رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً » ، نوح : ٢١ . فمرادهم بالأرذلين من يعدّهم الأشراف والمترفون سفلة يتجنبون معاشرتهم من العبيد والفقراء وأرباب الحرف الدنية .

قوله تعالى : « قال وما علمي بما كانوا يعملون » الضمير لنوح عليه السلام ، و « ما » استفهامية وقيل : نافية وعليه فالخبر محذوف لدلالة السياق عليه ، والمراد على اي حال نفي علمه بأعمالهم قبل إيمانهم به لمكان قوله: « كانوا يعملون » .

قوله تعالى : « إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون » المراد بقوله : « ربي » رب

العالمين فإنه الذي كان يختص نوح بالدعوة اليـه من بينهم ، وقوله : « لو تشعرون » مقطوع عن العمل أي لو كان لكم شعور ، وقيل : المعنى لو تشعرون بشيء لعلمتم ذلك وهو كما ترى .

والمعنى : بالنظر إلى الحصر الذي في صدر الآية انـه لا علم لي بسابق أعمالهم وليس علي حسابهم حتى أتجسس وأبحث عن أعمالهم وإنما حسابهم على ربي«لو تشعرون» فيجازيهم حسب أعمالهم .

قوله تعالى : « ومـــا أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين » ، الآية الثانية بمنزلة التعليل للاولى والمجموع متمّم للبيان السابق والمعنى : لا شأن لي إلا الإنذار والدعوة فلست أطرد من أقبل عليّ وآمن بي ولست أتفحّص عن سابق أعمالهم لاحاسبهم عليها فحسابهم على ربي وهو رب العالمين لا عليّ .

قوله تعالى : « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » المراد بالإنتهـاء ترك الدعوة ، والرجم هو الرمي بالحجارة ، وقيل : المراد به الشتم وهو بعيد ، وهذا مما قالوه في آخر العهد من دعوتهم يهددونه عليه‌السلام بقول جازم كما يشهد به ما في الكلام من وجوه التأكيد .

قوله تعالى : « قال ربّ إن قومي كذّبون فافتح بيني وبينهم فتحاً » الخ ، هذا استفتاح منه عليه‌السلام وقد قدّم له قوله : « رب إن قومي كذّبون » على سبيل التوطئة أي تحقق منهم التكذيب المطلق الذي لا مطمع في تصديقهم بعده كما يستفاد من دعائه عليهم إذ يقول : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفّاراً » نوح : ٢٧ .

وقوله : « فافتح بيني وبينهم فتحاً » كناية عن القضاء بينه وبين قومه كما قـال تعالى : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » يونس : ٤٧ .

وأصله من الاستعارة بالكناية كأنه وأتباعه والكفار منقومه اختلطوا واجتمعوا من غير تميّز فسأل ربه أن يفتح بينهم بإيجـاد فسحة بينه وبين قومه يبتعد بذلك أحد القبيلين من الآخر وذلك كناية عن نزول العذاب وليس يُهلك إلا القوم الفاسقين والدليل عليه قوله بعد : « ونجّني ومن معي من المؤمنين » .

وقيل : الفتح بمعنى الحكم والقضاء من الفتاحة بمعنى الحكومة .

قوله تعالى : « فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون » أي المملوء منهم ومن كل زوجين اثنين كما ذكره في سوره هود .

قوله تعالى : « ثم أغرقنا بعد الباقين » أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية – إلى قوله – العزيز الرحيم » تقدم الكلام في معنى الآيتين .

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداً عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في حديث : فمكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً لم يشاركه في نبوته أحد ولكنه قدم على قوم مكذبين للأنبياء الذين كانوا بينه وبين آدم وذلك قوله عز وجل : « كذبت قوم نوح المرسلين » يعني من كان بينه وبين آدم إلى أن انتهى إلى قوله : « وإن ربك لهو العزيز الرحيم » .

وقال فيه أيضاً : فكان بينه وبين آدم عشرة آباء كلهم أنبياء ، وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « واتبعك الأرذلون » قال : الفقراء .

وفيه وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « الفلك المشحون » المجهز الذي قد فرغ منه ولم يبق إلا دفعه .

* * *

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ــ ١٢٣ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ــ ١٢٤ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ــ ١٢٥ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ــ ١٢٦ . وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ــ ١٢٧ .

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ـ ١٢٨ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ
تَخْلُدُونَ ـ ١٢٩ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ـ ١٣٠ . فَاتَّقُوا اللهَ
وَأَطِيعُونِ ـ ١٣١ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ـ ١٣٢ . أَمَدَّكُمْ
بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ـ ١٣٣ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ـ ١٣٤ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ـ ١٣٥ . قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ
مِنَ الْوَاعِظِينَ ـ ١٣٦ . إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ـ ١٣٧ . وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ـ ١٣٨ . فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ـ ١٣٩ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ـ ١٤٠ .

(بيان)

تشير الآيات إلى قصة هود عليه السلام وقومه وهو قوم عاد .

قوله تعالى : « كذبت عاد المرسلين » قوم عاد من العرب العاربة الاولى كانوا يسكنون الأحقاف من جزيرة العرب لهم مدنية راقية وأراض خصبة وديار معمورة فكذبوا الرسل وكفروا بأنعم الله وطغوا فأهلكهم الله بالريح العقيم وخرّب ديارهم وعفا آثارهم .

وعاد فيما يقال اسم أبيهم فتسميتهم بعاد من قبيل تسمية القوم باسم أبيهم كما يقال تميم وبكر وتغلب ويراد بنو تميم وبنو بكر وبنو تغلب .

وقد تقدم في نظير الآية من قصة نوح وجه عد القوم مكذّبين للمرسلين ولم يكذبوا ظاهراً إلا واحداً منهم .

قوله تعالى : « إني لكم رسول أمين – إلى قوله – رب العالمين » تقدم الكلام فيها في نظائرها من قصة نوح عليه السلام .

وذكر بعض المفسرين أن تصدير هذه القصص الخمس بذكر أمانة الرسل وعدم سؤالهم أجراً على رسالتهم وأمرهم الناس بالتقوى والطاعة للتنبيه على ان مبنى البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو من الثواب ويبعده من العقاب وان الأنبياء عليهم السلام مجتمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وانهم منزهون عن المطامع الدنيوية بالكلية انتهى.

ونظيره الكلام في ختم جميع القصص السبع الموردة في السورة بقوله : « إن في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ، ففيه دلالة على ان اكثر الامم والأقوام معرضون عن آيات الله ، وان الله سبحانه عزيز يجازيهم على تكذيبهم رحيم ينجي المؤمنين برحمته ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في الكلام على غرض السورة .

قوله تعالى : « اتبنون بكل ريع آية تعبثون » الريع هو المرتفع من الأرض والآية العلامة ، والعبث الفعل الذي لا غاية له ، وكأنهم كانوا يبنون على قلل الجبال وكل مرتفع من الأرض ابنية كالأعلام يتنزهون فيها ويفاخرون بها من غير ضرورة تدعوهم إلى ذلك بل لهواً واتباعاً للهوى فوبخهم عليه .

وقد ذكر للآية معان أخر لا دليل عليها من جهة اللفظ ولا ملاءمة للسياق اضربنا عنها .

قوله تعالى : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » ، المصانع على ما قيل : الحصون المنيعة والقصور المشيدة والأبنية العالية واحدها مصنع .

وقوله : « لعلكم تخلدون » في مقام التعليل لما قبله أي تتخذون هذه المصانع بسبب أنكم ترجون الخلود ولو لارجاء الخلود ما عملتم مثل هذه الأعمال التي من طبعها أن تدوم دهراً طويلاً لا يفي به أطول الأعمار الإنسانية ، وقيل في معنى الآية ومفرداتها وجوه أخرى أغمضنا عنها .

قوله تعالى : « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » قال في المجمع : البطش العسف قتلاً بالسيف وضرباً بالسوط ، والجبار العالي على غيره بعظيم سلطانه . وهو في صفة الله سبحانه مدح وفي صفة غيره ذمّ لأن معناه في العبد أنه يتكلف الجبرية . انتهى .

فالمعنى : وإذا أظهرتم شدة في العمل وبأساً بالفتم في ذلك كما يبالغ الجبابرة في الشدة .

ومحصّل الآيات الثلاث أنكم مسرفون في جانبي الشهوة والغضب متعدّون حد الاعتدال خارجون عن طور العبودية .

قوله تعالى : « فاتقوا الله وأطيعون » تفريع على إسرافهم في جانبي الشهوة والغضب وخروجهم عن طور العبودية فليتقوا الله وليطيعوه فيما يأمرهم به من ترك الإتراف والإستكبار .

قوله تعالى : « واتقوا الذي أمدّكم بما تعلمون ـ إلى قوله ـ وعيون » قال الراغب : أصل المد الجر ، قال : وأمددت الجيش بمدود والإنسان بطعام قال : وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه ، قال تعالى : « وأمددناهم بفاكهة » « ونمدّ له من العذاب مدّاً » انتهى ملخصاً .

وقوله : « واتقوا الذي أمدّكم » الخ ، في معنى تعليق الحكم بالوصف المشعر بالعليّة أي اتقوا الله الذي يمدّكم بنعمه لأنه يمدّكم بها فيجب عليكم أن تشكروه بوضع نعمه في موضعها من غير إتراف واستكبار فإن كفران النعمة يستعقب السخط والعذاب قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » إبراهيم : ٧ .

وقد ذكر النعم إجمالاً بقوله أولاً : « أمدّكم بما تعلمون » ثم فصّلها بقوله ثانياً : « أمدكم بأموال وبنين وجنات وعيون » .

وفي قوله : « أمدكم بما تعلمون » نكتة أخرى هي أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى وصنعه لا يشاركه في إيجادها والإمداد بها غيره فهو الذي يجب لكم أن تتقوه بالشكر والعبادة دون الأوثان والأصنام فالكلام متضمن للحجة .

قوله تعالى : « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » تعليل للأمر بالتقوى أي إني آمركم بالتقوى شكراً لأني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا ولم تشكروا ، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة وإن جوّز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال .

قوله تعالى : « قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين » نفي لأثر كلامه وإيآس له من إيمانهم بالكلية .

قيل : الكلام لا يخلو من مبالغة فقد كان مقتضى الترديد أن يقال : أوعظت أم لم تعظ ففي العدول عنه الى قوله : « أم لم تكن من الواعظين » النافي لأصل كونه واعظاً ما لا يخفى من المبالغة .

قوله تعالى : « إن هـذا إلا خلق الأولين » الخلق بضم الخاء واللام أو سكونها قال الراغب : الخلق والخلق - أي بفتح الخاء وضمها - في الأصل واحد كالشُّرب والشُّرب والصَّرم والصُرم لكن خصّ الخلق - بفتح الخاء - بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وخصّ الخلق - بضم الخاء - بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة ، قال تعالى : « إنك لعلى خُلق عظيم » وقرىء « إن هـذا إلا خلق الأولين » انتهى .

والإشارة بهذا إلى ما جاء به هود وقد سموه وعظاً والمعنى: ليس ما تلبّست به من الدعوة إلى التوحيد والموعظة إلا عادة البشر الأولين الماضين من أهل الأساطير والخرافات ، وهذا كقولهم : إن هذا إلا أساطير الأولين .

ويمكن أن تكون الإشارة بهـذا إلى ما هم فيه من الشرك وعبادة الآلهة من دون الله اقتداء بآبائهم الأولين كقولهم : « وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » .

واحتمل بعضهم أن يكون المراد ما خلقنا هذا إلا خلق الأولين نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب ولا عذاب . وهو بعيد من السياق .

قوله تعالى : « وما نحن بمعذبين » إنكار للمعاد بناء على كون المراد باليوم العظيم في كلام هود عليه السلام يوم القيامة .

قوله تعالى : « فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية - إلى قوله - الرحيم » معناه ظاهر مما تقدم .

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين وروضة الكافي مسنداً عن أبي حمزة الثمالي عن ابي جعفر محمد

ابن علي الباقر عليه السلام في حديث : وقال نوح إن الله تبارك وتعالى باعث نبياً يقال له هود وانه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه وان الله عز وجل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله تبارك وتعالى ينجيه من عذاب الريح .

وأمر نوح ابنه سام ان يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة ويكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه .

فلما بعث الله تبارك وتعالى هوداً نظروا فيما عندهم من العلم والإيمان وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة فوجدوا هوداً نبياً وقد بشرهم أبوهم نوح به فآمنوا به وصدّقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح ، وهو قول الله عز وجل : « وإلى عاد أخاهم هوداً » ، وقوله : « كذّبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون » .

وفي المجمع في قوله تعالى : « آية تعبثون » أي مـا لا تحتاجون اليه لسكناكم وإنما تريدون العبث بذلك واللعب واللهو كأنه جعل بناهم ما يستغنون عنه عبثاً منهم عن ابن عباس في رواية عطاء ، ويؤيده الخبر المأثور عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج فرأى قبة فقال : ما هذه ؟ فقالوا له أصحابه : هذا الرجل من الأنصار فمكث حتى إذا جاء صاحبها فسلم في الناس أعرض عنه وصنع ذلك مراراً حتى عرف الرجل الغضب به والإعراض عنه .

فشكى ذلك إلى أصحابه وقال: والله إني لانكر نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما أدري ما حدث فيّ وما صنعت ؟ قالوا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأى قبتك فقال : لمن هذه ؟ فأخبرناه فرجع إلى قبته فسواها بالأرض فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فلم يرَ القبة فقال : ما فعلت القبة التي كانت ههنا ؟ قالوا : شكى الينـا صاحبها إعراضك عنه فأخبرناه فهدمها .

فقال : إن كل ما يبنى وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما لا بد منه .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » قال : تقتلون بالغضب من غير استحقاق .

* * *

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ــ ١٤١ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاْ
تَتَّقُونَ ــ١٤٢. إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ــ١٤٣. فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ــ١٤٤.
وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ــ ١٤٥ .
أَتُتْرَكُونَ فِيمَا هٰهُنَا آمِنِينَ ــ ١٤٦ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ــ ١٤٧ . وَزُرُوعٍ
وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ــ ١٤٨ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ــ ١٤٩.
فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ــ ١٥٠ . وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ــ ١٥١ .
الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ــ ١٥٢ . قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ــ ١٥٣ . مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ــ ١٥٤ . قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ
مَعْلُومٍ ــ ١٥٥. وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ــ ١٥٦.
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ــ ١٥٧ . فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ١٥٨. وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ــ ١٥٩.

(بيان)

تشير الآيات إلى إجمال قصة صالح عليه السلام وقومه وهو من أنبياء العرب ويذكر في القرآن بعد هود عليه السلام .

قوله تعالى : « كذبت ثمود المرسلين – إلى قوله – على رب العالمين » قد اتضح معناها مما تقدم .

قوله تعالى : « أتتركون فيما ههنا آمنين » الظاهر أن الاستفهام للانكار و « ما » موصولة والمراد بها النعم التي يفصلها بعد قوله : « في جنات وعيون » الخ ، و « ههنا » إشارة إلى المكان الحاضر القريب وهو أرض ثمود و « آمنين » حال من نائب فاعل « تتركون » .

والمعنى : لا تتركون في هذه النعم التي أحاطت بكم في أرضكم هذه وأنتم مطلقو العنان لا تسألون عما تفعلون آمنون من أي مؤاخذة إلهية .

قوله تعالى : « في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم » بيان تفصيلي لقوله : « فيما ههنا » ، وقد خص النخل بالذكر مع دخوله في الجنات لاهتمامهم به ، والطلع في النخل كالنور في سائر الأشجار والهضيم – على ما قيل – المتداخل المنضم بعضه إلى بعض .

قوله تعالى : « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » قال الراغب : الفره – بالفتح فالكسر صفة مشبهة – الأشر ، وقوله تعالى : « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » أي حاذقين وقيل : معناه أشرين . انتهى ملخصاً ، وعلى ما اختاره تكون الآية من بيان النعمة ، وعلى المعنى الآخر تكون مسوقة لإنكار أشرهم وبطرهم . والآية على أي حال في حيز الاستفهام .

قوله تعالى : « فاتقوا الله وأطيعون » تفريع على ما تقدم من الإنكار الذي في معنى المنفي .

قوله تعالى : «ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون» الظاهر أن المراد بالأمر ما يقابل النهي بقرينة النهي عن طاعته وإن جوّز بعضهم كون الأمر بمعنى الشأن وعليه يكون المراد بطاعة أمرهم تقليد العامة واتباعهم لهم في أعمالهم وسلوكهم السبل التي يستحبون لهم سلوكها .

والمراد بالمسرفين على أي حال أشراف القوم وعظماؤهم المتبوعون والخطاب للعامة التابعين لهم وأما السادة الأشراف فقد كانوا مأيوساً من إيمانهم واتباعهم للحق .

ويمكن أن يكون الخطاب للجميع من جهة أن الأشراف منهم أيضاً كانوا يقلدون آباءهم ويطيعون أمرهم كما قالوا لصالح عليه السلام : « أتنهانا أن نعبد مـــا يعبد آباؤنا » هود : ٦٢ ، فقد كانوا جميعاً يطيعون أمر المسرفين فنهوا عنه .

وقد فسّر المسرفين وهم المتعدون عن الحق الخارجون عن حد الإعتدال بتوصيفهم بقوله : « الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » إشارة إلى علة الحكم الحقيقية فالمعنى اتقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين لأنهم مفسدون في الأرض غير مصلحين والإفساد لا يؤمن معه العذاب الالهي وهو عزيز ذو انتقام .

وذلك أن الكون على ما بين أجزائه من التضادّ والتزاحم مؤلف تأليفاً خاصاً يتلاءم معه أجزاؤه بعضها مع بعض في النتائج والآثار كالأمر في كفتي الميزان فإنهما على اضطرابهما واختلافهما الشديد بالارتفاع والانخفاض متوافقتان في تعيين وزن المتاع الموزون وهو الغاية والعالم الإنساني الذي هو جزء من الكون كذلك ثم الفرد من الإنسان بما له من القوى والأدوات المختلفة المتضادة مفطور على تعديل أفعاله وأعماله بحيث تنال كل قوة من قواه حظها المقدّر لها وقد جهز بعقل يميز بين الخير والشر ويعطي كل ذي حق حقه .

فالكون يسير بالنظام الجاري فيه إلى غايات صالحة مقصودة وهو بما بين أجزائه من الارتباط التام يخط لكل من أجزائه سبيلاً خاصاً يسير فيها بأعمال خاصة من غير أن يميل عن حاق وسطها إلى يمين او يسار او ينحرف بإفراط او تفريط فإن في الميل والإنحراف إفساداً للنظام المرسوم ، ويتبعه إفساد غاية وغاية الكل ، ومن الضروري أن خروج بعض الأجزاء عن خطه المخطوط له وإفساد النظم المفروض له ولغيره يستعقب منازعة بقية الأجزاء له فإن استطاعت أن تقيمه وترده إلى وسط الإعتدال فهو وإلا أفنته وعفت آثاره حفظاً لصلاح الكون واستبقاء لقوامه .

والإنسان الذي هو أحد أجزاء الكون غير مستثنى من هذه الكلية فإن جرى على ما يهديه اليه الفطرة فاز بالسعادة المقدّرة له وإن تعدى حدود فطرته وأفسد في الأرض أخذه الله سبحانه بالسنين والمثلات وأنواع النكال والنقمة لعله يرجع إلى الصلاح والسداد قال تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم

بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » الروم : ٤١ .

وإن أقاموا مع ذلك على الفساد لرسوخه في نفوسهم أخذهم الله بعذاب الاستئصال وطهّر الأرض من قذارة فسادهم قال تعالى : « ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » الأعراف : ٩٦ . وقال : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » هود : ١١٧ ، وقال : « إن الأرض يرثها عبادي الصالحون » الأنبياء : ١٠٥ ، وذلك أنهم إذا صلحوا صلحت أعمالهم وإذا صلحت أعمالهم وافقت النظام العام وصلحت بها الأرض لحياتهم الأرضية .

فقد تبين بما مر أولاً : أن حقيقة دعوة النبوة هي إصلاح الحياة الإنسانية الأرضية قال تعالى حكاية عن شعيب : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » هود : ٨٨ .

وثانياً : ان قوله : « ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون الخ » على سذاجة بيانه معتمد على حجة برهانية .

ولعل في قوله : « ولا يصلحون » بعد قوله : « الذين يفسدون في الأرض » إشارة إلى انه كان المتوقع منهم بما أنهم بشر ذوو فطرة إنسانية ان يصلحوا في الأرض لكنهم انحرفوا عن الفطرة وبدلوا الإصلاح إفساداً .

قوله تعالى : « قالوا إنما أنت من المسحرين » أي ممن سحر مرة بعد مرة حتى غلب على عقله ، وقيل : إن السحر أعلى البطن والمسحّر من له جوف فيكون كناية عن أنك بشر مثلنا تأكل وتشرب فيكون قوله بعده : « وما أنت إلا بشر مثلنا » تأكيداً له ، وقيل : المسحّر من له سحر أي رئة كأن مرادهم أنك متنفس بشر مثلنا.

قوله تعالى : « وما أنت إلا بشر مثلنا - إلى قوله - عذاب يوم عظيم » الشرب بكسر الشين النصيب من الماء ، والباقي ظاهر وقد تقدمت تفصيل القصة في سورة هود.

قوله تعالى : « فعقروها فأصبحوا نادمين » نسبة العقر إلى الجميع - ولم يعقرها إلا واحد منهم - لرضاهم بفعله ، وفي نهج البلاغة : أيها الناس إنما يجمع الناس الرضى والسخط وإنما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا فقال سبحانه : « فعقروها فأصبحوا نادمين » .

وقوله : « فأصبحوا نادمين » لعل ندمهم إنما كان عند مشاهدتهم ظهور آثار العذاب وإن قالوا له بعد العقر تعجيزاً واستهزاء : « يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين » الأعراف : ٧٧ .

قوله تعالى : « فأخذهم العذاب – إلى قوله – العزيز الرحيم » اللام للعهد أي أخذهم العذاب الموعود فإن صالحاً وعدهم نزول العذاب بعد ثلاثة أيام كما في سورة هود ، والباقي ظاهر .

* * *

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ــ ١٦٠ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ــ ١٦١ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ــ ١٦٢ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ــ ١٦٣ . وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ــ ١٦٤ . أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ــ ١٦٥ . وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ــ ١٦٦ . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ــ ١٦٧ . قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ ٱلْقَالِينَ ــ ١٦٨ . رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ــ ١٦٩ . فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ــ ١٧٠ . إِلاَّ عَجُوزاً فِي ٱلْغَابِرِينَ ــ ١٧١ . ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ــ ١٧٢. وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ ــ ١٧٣. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ــ ١٧٤ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ــ ١٧٥ .

(بيان)

تشير الآيات إلى قصة لوط النبي عليه السلام وهو بعد صالح عليه السلام .

قوله تعالى : « كذبت قوم لوط المرسلين – إلى قوله – رب العالمين » ، تقدم تفسيره .

قوله تعالى : « أتأتون الذكران من العالمين » الاستفهام للانكار والتوبيخ والذكران جمع ذكر مقابل الانثى وإتيانهم كناية عن اللواط وقد كان شاع فيما بينهم ، والعالمين جمع عالم وهو الجماعة من الناس .

وقوله : « من العالمين » يمكن ان يكون متصلاً بضمير الفاعل في « تأتون » والمراد أتأتون أنتم من بين العالمين هذا العمل الشنيع؟ فيكون في معنى قوله في موضع آخر : « ما سبقكم بها من أحد من العالمين » الإعراف : ٨٠ ، العنكبوت : ٢٨ .

ويمكن ان يكون متصلاً بقوله : « الذكران » والمعنى على هذا أتنكحون من بين العالمين – على كثرتهم واشتمالهم على النساء – الرجال فقط ؟ .

قوله تعالى : « وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم » الخ « تذرون » بمعنى تتركون ولا ماضي له من مادته .

والمتأمل في خلق الإنسان وانقسام أفراده إلى صنفي الذكر والانثى وما جهز به كل من الصنفين من الأعضاء والأدوات وما يختص به من الخلقة لا يرتاب في ان غرض الصنع والإيجاد من هذا التصوير المختلف وإلقاء غريزة الشهوة في القبيلين وتفريق أمرهما بالفعل والانفعال أن يجمع بينهما بالنكاح ليتوسل بذلك إلى التناسل الحافظ لبقاء النوع حتى حين .

فالرجل من الإنسان بما هو رجل مخلوق للمرأة منه لا لرجل مثله والمرأة من الإنسان بما هي امرأة مخلوقة للرجل منه لا لامرأة مثلها وما يختص به الرجل في خلقته للمرأة وما تختص به المرأة في خلقتها للرجل وهذه هي الزوجية الطبيعية التي عقدها الصنع والإيجاد بين الرجل والمرأة من الإنسان فجعلهما زوجين .

ثم الأغراض والغايات الاجتماعية أو الدينية سنّت بين النـــاس سنة النكاح الاجتماعي الاعتباري الذي فيه نوع من الاختصاص بين الزوجين وقسم من التحديد للزوجية الطبيعية المذكورة فالفطرة الإنسانية والخلقة الخاصة تهديه إلى ازدواج الرجال بالنساء دون الرجال وازدواج النساء بالرجال دون النساء ، وأن الازدواج مبني على أصل التوالد والتناسل دون الاشتراك في مطلق الحياة .

ومن هنا يظهر أن الأقرب ان يكون المراد بقوله : « ما خلق لكم ربكم » العضو المباح للرجال من النساء بالازدواج واللام للملك الطبيعي ، وان من في قوله : « من أزواجكم » للتبعيض والزوجية هي الزوجية الطبيعية وإن أمكن ان يراد بها الزوجية الاجتماعية الاعتبارية بوجه .

وأما تجويز بعضهم ان يراد بلفظة « ما » النساء ويكون قوله : « من أزواجكم» بياناً له فبعيد .

وقوله : « بل أنتم قوم عادون » اي متجاوزون خارجون عن الحـــد الذي خطته لكم الفطرة والخلقة فهو في معنى قوله : «إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل» العنكبوت : ٢٩ .

وقد ظهر من جميع ما مر أن كلامه ﷺ مبني على حجة برهانية أشير اليها .

قوله تعالى : « قالوا لئن لم تنتـــهِ يا لوط لتكونن من المخرجين » أي المبعدين المنفيين من قريتنا كما نقل عنهم في موضع آخر : « أخرجوا آل لوط من قريتكم » .

قوله تعالى : « قال إني لعملكم من القالين » المراد بعملهم -- على مـــا يعطيه السياق -- إتيان الذكران وترك الاناث . والقالي المبغض، ومقابلة تهديدهم بالنفي بمثل هذا الكلام من غير تعرّض للجواب عن تهديدهم يفيد من المعنى أني لا أخاف الخروج من قريتكم ولا أكترث به بل مبغض لعملكم راغب في النجاة من وباله النازل بكم لا محالة ، ولذا أتبعه بقوله : « رب نجني وأهلي مما يعملون » .

قوله تعالى : « رب نجني وأهلي مما يعملون » اي من أصل عملهم الذي يأتون به بمرئى ومسمع منه فهو منزجر منه او من وبال عملهم والعذاب الذي سيتبعه لا محالة.

وإنما لم يذكر إلا نفسه وأهله إذ لم يكن آمن به من أهل القرية أحد ، قال تعالى

في ذلك : « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » الذاريات : ٣٦ .

قوله تعالى : « فنجّيناه وأهله أجمعين - إلى قوله - الآخرين » الغابر كا قيل الباقي بعد ذهاب من كان معه ، والتدمير الإهلاك ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وأمطرنا عليهم مطراً » الخ ، وهو السجّيل كا قال تعالى : « وأمطرنا عليهم حجارة من سجّيل » الحجر : ٧٤ .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية - إلى قوله - العزيز الرحيم » تقدم تفسيره .

* * *

كَذَّبَ أَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ـــ ١٧٦ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ـــ ١٧٧ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ـــ ١٧٨ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ـــ ١٧٩ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ـــ ١٨٠ . أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ـــ ١٨١ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ـــ ١٨٢ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ـــ ١٨٣ . وَٱتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ـــ ١٨٤ . قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ـــ ١٨٥ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ـــ ١٨٦ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ـــ ١٨٧ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ـــ ١٨٨ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ـــ ١٨٩ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ـــ ١٩٠ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ـــ ١٩١ .

(بيان)

إجمال قصة شعيب عليه السلام وهو من أنبياء العرب ، وهي آخر القصص السبع الموردة في السورة .

قوله تعالى : « كذّب أصحاب الئيكة المرسلين – إلى قوله – رب العالمين » الأيكة الغيضة الملتف شجرها . قيل : إنها كانت غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بُعث اليهم شعيب عليه السلام ، وكان أجنبياً منهم ولذلك قيل : « إذ قال لهم شعيب » ولم يقل : أخوهم شعيب بخلاف هود وصالح فقد كانا نسيبين إلى قومهما وكذا لوط فقد كان نسيباً إلى قومه بالمصاهرة ولذا عبّر عنهم بقوله: « أخوهم هود » « أخوهم صالح » « أخوهم لوط » .

وقد تقدم تفسير باقي الآيات .

قوله تعالى : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزِنوا بالقسطاس المستقيم » الكيل ما يقدّر به المتاع من جهة حجمه وإيفاؤه أن لا ينقص الحجم ، والقسطاس الميزان الذي يقدّر به من جهة وزنه واستقامته أن يزن بالعدل ،والآيتان تأمران بالعدل في الأخذ والإعطاء بالكيل والوزن .

قوله تعالى : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين» البخس النقص في الوزن والتقدير كما أن الإخسار النقص في رأس المال .

وظاهر السياق أن قوله : « ولا تبخسوا الناس أشياءهم » أي سلعهم وأمتعتهم قيد متمم لقوله: « وزنوا بالقسطاس المستقيم » كما أن قوله : « ولا تكونوا من المخسرين» قيد متمم لقوله: « أوفوا الكيل » وقوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » تأكيد للنهيين جميعاً أعني قوله : « لا تخسروا » وقوله : « لا تبخسوا » وبيان لتبعة التطفيف السيئة المشومة .

وقوله : « ولا تعثوا في الأرض مفسدين » العثيّ والعَيث الإفساد ، فقوله : « مفسدين » حال مؤكد وقد تقدم في قصة شعيب من سورة هود وفي قوله : « وزِنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً » الآية ٣٥ من سورة الإسراء كلام في كيفية

إفساد التطفيف المجتمع الإنساني ، فراجع .

قوله تعالى : « واتقوا الذي خلقكم والجبلّة الأولين » قال في المجمع : الجبلّة الخليقة التي طبع عليها الشيء . انتهى . فالمراد بالجبلّة ذوو الجبلّة أي اتقوا الله الذي خلقكم وآباءكم الأولين الذين فطرهم وقرّر في جبلّتهم تقبيح الفساد والاعتراف بشؤمه.

ولعل هذا الذي أشرنا اليه من المعنى هو الموجب لتخصيص الجبلّة بالذكر ، وفي الآية على أي حال دعوة إلى توحيد العبادة فإنهم لم يكونوا يتقون الخالق الذي هو رب العالمين .

قوله تعالى : « قالوا إنما أنت من المسحّرين – إلى قوله – وإن نظنك لمن الكاذبين » تقدم تفسير الصدر ، و « إن » في قوله : « إن نظنك » مخففة من الثقيلة .

قوله تعالى : « فأسقط علينا كسفاً من السماء » الخ ، الكسف بالكسر فالفتح – على ما قيل – جمع كسفة وهي القطعة ، والأمر مبني على التعجيز والاستهزاء .

قوله تعالى : « قال ربي أعلم بما تعملون » جواب شعيب عن قولهم واقتراحهم منه إتيان العذاب ، وهو كناية عن أنه ليس له من الأمر شيء وإنما الأمر إلى الله لأنه أعلم بما يعملون وأن عملهم هل يستوجب عذاباً ؟ وما هو العذاب الذي يستوجبه إذا استوجب ؟ فهو كقول هود لقومه : « إنما العلم عند الله وأبلّغكم ما أرسلتُ به » الأحقاف : ٢٣ .

قوله تعالى : « فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظلّة » الخ ، يوم الظلّة يوم عُذّب فيه قوم شعيب بظلّة من الغمام ، وقد تقدم تفصيل قصتهم في سورة هود .

قوله تعالى : « إن في ذلك لآية – إلى قوله – العزيز الرحيم » تقدم تفسيره .

(بحث روائي)

في جوامع الجامع في قوله تعالى : « إذ قال لهم شعيب » وفي الحديث أن شعيباً أخا مدين أرسل اليهم وإلى أصحاب الأيكة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين » قال:

الخلق الأولين ، وقوله : « فكذبوه » قال : قوم شعيب « فأخذهم عذاب يوم الظلة » قال : يوم حرّ وسمائم .

* * *

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ـ ١٩٢ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ـ ١٩٣. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ ـ ١٩٤ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ـ ١٩٥. وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ـ ١٩٦ . أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمٰوُا بَنِي إِسْرَائِيلَ ـ ١٩٧ . وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ـ ١٩٨ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ـ ١٩٩ . كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ـ ٢٠٠ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ـ ٢٠١ . فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ـ ٢٠٢. فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ـ ٢٠٣ . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ـ ٢٠٤ . أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ـ ٢٠٥ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ـ ٢٠٦ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ـ ٢٠٧ . وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ـ ٢٠٨ . ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ـ ٢٠٩ . وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ـ ٢١٠ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ـ ٢١١. إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ـ ٢١٢. فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ـ ٢١٣ . وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ـ ٢١٤ . وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ــ ٢١٥ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ــ ٢١٦ .
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ــ ٢١٧ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ــ ٢١٨ .
وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ــ ٢١٩ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ــ ٢٢٠ . هَلْ
أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ــ ٢٢١ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ
أَثِيمٍ ــ ٢٢٢. يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ــ ٢٢٣ . وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ
ٱلْغَاوُونَ ــ ٢٢٤ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ــ ٢٢٥ . وَأَنَّهُمْ
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ــ ٢٢٦ . إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَٱنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ــ ٢٢٧ .

(بيان)

تشير الآيات إلى ما هو كالنتيجة المستخرجة من القصص السبع السابقة ويتضمن التوبيخ والتهديد لكفار الامة .

وفيها دفاع عن نبوّة النبي ﷺ بالاحتجاج عليه بذكره في زبر الأولين وعلم علماء بني إسرائيل به ، ودفاع عن كتابه بالاحتجاج على أنه ليس من إلقاءات الشياطين ولا من أقاويل الشعراء .

قوله تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين » الضمير للقرآن ، وفيه رجوع إلى ما في صدر السورة من قوله : « تلك آيات الكتاب المبين » وتعقيب لحديث كفرهم به كما في قوله بعد ذلك : « وما يأتيهم من ذكر من الرحمان مُحْدَث إلا كانوا عنه معرضين، فقد كذبوا به » الآية .

والتنزيل والإنزال بمعنى واحد ، غير أن الغالب على باب الإفعال الدفعة وعلى باب التفعيل التدريج ، وأصل النزول في الأجسام انتقال الجسم من مكان عالٍ إلى ما هو دونه وفي غير الأجسام بما يناسبه .

وتنزيله تعالى إخراجه الشيء من عنده إلى موطن الخلق والتقدير وقد سمى نفسه بالعلي العظيم والكبير المتعال ورفيع الدرجات والقاهر فوق عباده فيكون خروج الشيء بإيجاده من عنده إلى عالم الخلق والتقدير – وإن شئت فقل : إخراجه من عالم الغيب إلى عالم الشهادة – تنزيلاً منه تعالى له .

وقد استعمل الإنزال والتنزيل في كلامه تعالى في أشياء بهذه العناية كقوله تعالى : « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم » الأعراف : ٢٦ ، وقوله : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الزمر : ٦ ، وقوله : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » الحديد : ٢٥ ، وقوله : « ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » البقرة : ١٠٥ ، وقد أطلق القول في قوله : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

ومن الآيات الدالة على اعتبار هذا المعنى في خصوص القرآن قوله تعالى : « إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » الزخرف : ٤ .

وقد أضيف التنزيل إلى رب العالمين للدلالة على توحيد الرب تعالى لما تكرّر مراراً أن المشركين إنما كانوا يعترفون به تعالى بما أنه رب الأرباب ولا يرون أنه رب العالمين .

قوله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي بدليل قوله : « من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله » البقرة : ٩٧ ، وقد سماه في موضع آخر بروح القدس : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق » النحل : ١٠٢ ، وقد تقدم في تفسير سورتي النحل والإسراء ما يتعلق بمعنى الروح من الكلام .

وقد وصف الروح بالأمين للدلالة على أنه مأمون في رسالته منه تعالى إلى نبيّه ﷺ لا يغير شيئاً من كلامه تعالى بتبديل أو تحريف بعمد او سهو او نسيان كما أن

توصيفه في آية أخرى بالقدس يشير إلى ذلك .

وقوله : « نزل به الروح » الباء للتعدية أي نزله الروح الأمين ، وأما قول من قال : إن الباء للمصاحبة والمعنى نزل معه الروح فلا يلتفت اليه لأن العناية في المقام بنزول القرآن لا بنزول الروح مع القرآن .

والضمير في « نزل به » للقرآن بما أنه كلام مؤلف من ألفاظ لها معانيها الحقة فإن ألفاظ القرآن نازلة من عنده تعالى كما أن معانيها نازلة من عنده على ما هو ظاهر قوله : « فإذا قرأناه فاتبع قرآنه » القيامة : ١٨ ، وقوله : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » آل عمران : ١٠٨ ، الجاثية : ٦ ، إلى غير ذلك .

فلا يعبؤ بقول من قال : إن الذي نزل به الروح الأمين إنما هو معاني القرآن الكريم ثم النبي ﷺ كان يعبر عنها بما يطابقها ويحكيها من الألفاظ بلسان عربي .

وأسخف منه قول من قال : إن القرآن بلفظه ومعناه من منشآت النبي ﷺ ألقته مرتبة من نفسه الشريفة تسمى الروح الأمين إلى مرتبة منها تسمى القلب .

والمراد بالقلب المنسوب اليه الإدراك والشعور في كلامه تعالى هو النفس الإنسانية التي لها الإدراك واليها تنتهي أنواع الشعور والإرادة دون اللحم الصنوبري المعلق عن يسار الصدر الذي هو أحد الأعضاء الرئيسة كما يستفاد من مواضع في كلامه تعالى ، كقوله : « وبلغت القلوب الحناجر » الأحزاب : ١٠ ، أي الأرواح ، وقوله : « فإنه آثم قلبه » البقرة : ٢٨٣ ، أي نفسه إذ لا معنى لنسبة الإثم إلى العضو الخاص .

ولعل الوجه في قوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » دون أن يقول : عليك هو الإشارة إلى كيفية تلقيه ﷺ القرآن النازل عليه ، وأن الذي كان يتلقاه من الروح هو نفسه الشريفة من غير مشاركة الحواس الظاهرة التي هي الأدوات المستعملة في إدراك الامور الجزئية .

فكان ﷺ يرى ويسمع حينما كان يوحي اليه من غير أن يستعمل حاستي البصر والسمع كما روي أنه كان يأخذه شبه إغماء يسمى برحاء الوحي .

فكان ﷺ يرى الشخص ويسمع الصوت مثل ما نرى الشخص ونسمع الصوت غير أنه ما كان يستخدم حاستي بصره وسمعه الماديتين في ذلك كما نستخدمها .

ولو كان رؤيته وسمعه بالبصر والسمع الماديين لكان ما يجده مشتركاً بينه وبين غيره فكان سائر النــاس يرون ما يراه ويسمعون ما يسمعه ، والنقل القطعي يكذب ذلك فكثيراً مــا كان يأخذه برجاء الوحي وهو بين الناس فيوحى اليه ومن حوله لا يشعرون بشيء ولا يشاهدون شخصاً يكلمه ولا كلاماً يلقى اليه .

والقول بأن من الجائز أن يصرف الله تعالى حواسّ غيره ﷺ من الناس عن بعض ما كانت تناله حواسه وهي الامور الغيبية المستورة عنا .

هدم لبنيان التصديق العلمي إذ لو جاز مثل هذا الخطأ العظيم على الحواس وهي مفتاح العلوم الضرورية والتصديقات البديهية وغيرهـــا لم يبق وثوق على شيء من العلوم والتصديقات .

على أن هــذا الكلام مبني على أصالة الحس وأن لا وجود إلا لمحسوس وهو من أفحش الخطأ وقد تقدم في تفسير سورة مريم كلام في معنى تمثل الملك نافع في المقام .

وربما قيل في وجه تخصيص القلب بالإنزال أنه لكونه هو المدرك المكلف دون الجسد وإن كان يتلقى الوحي بتوسيط الأدوات البدنية من السمع والبصر ، وقــد عرفت ما فيه .

وربما قيل: لما كان للنبي ﷺ جهتان: جهة ملكية يستفيض بها ، وجهة بشرية يفيض بها ، جعل الإنزال على روحه لأنها المتصفة بالصفات الملكية التي يستفيض بهـا من الروح الأمين ، وللإشارة إلى ذلك قيل . « على قلبك » ولم يقل : عليك مع كونه أخصر . انتهى .

وهــذا أيضاً مبني على مشاركة الحواس والقوى البدنية في تلقّي الوحي فيرد عليه ما قدّمناه .

وذكر جمع من المفسرين أن المراد بالقلب هو العضو الخاص البدني وأن الإدراك كيفما كان من خواصه .

فمنهم من قال : إن جعل القلب متعلق الإنزال مبني على التوسع لأن الله تعــالى يُسمع القرآن جبريل بخلق الصوت فيحفظه وينزل به على الرسول ﷺ ويقرؤه عليه فيعيه ويحفظه بقلبه فكأنه نزل به على قلبه .

ومنهم من قال : إن تخصيص القلب بالإنزال لأن المعاني الروحانية تنزل أولاً على الروح ثم تنتقل منها إلى القلب لما بينهما من التعلق ثم تنتقل منه إلى الدماغ فينتقش بها لوح المتخيلة .

ومنهم من قال : إن تخصيصه به للإشارة إلى كمال تعقله ﷺ حيث لم يعتبر الوسائط من سمع وبصر وغيرهما .

ومنهم من قال : إن ذلك للإشارة إلى صلاح قلبه ﷺ وتقدّسه حيث كان منزلاً لكلامه تعالى ليعلم به صلاح سائر أجزائه وأعضائه فإن القلب رئيس سائر الأعضاء وملكها وإذا صلح الملك صلحت رعيته .

ومنهم من قال : إن ذلك لأن الله تعالى جعل لقلب رسوله ﷺ سمعاً وبصراً مخصوصين يسمع ويبصر بهما تمييزاً لشأنه من غيره كما يشعر به قوله تعالى : « ما كذب الفؤاد ما رأى » النجم : ١١ .

وهذه الوجوه مضافاً على اشتمال أكثرها على المجازفة مبنية على قياس هذه الامور الغيبية على ما عندنا من الحوادث المادية وإجراء حكمها فيها وقد بلغ من تعسّف بعضهم أن قال: إن معنى إنزال الملك القرآن أن الله ألهمه كلامه وهو في السماء وعلّمه قراءته ثم الملك أدّاه في الأرض وهو يهبط في المكان وفي ذلك طريقتان : إحداهما أن النبي ﷺ انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية فأخذه من الملك ، وثانيتهما أن الملك انخلع إلى صورة البشرية حتى يأخذه النبي ﷺ والاولى أصعب الحالين . انتهى .

وليت شعري ما الذي تصوّره من انخلاع الإنسان من صورته إلى صورة الملكية وصيرورته ملكاً ثم عوده إنساناً ومن انخلاع الملك إلى صورة الإنسانية وقد فرض لكل منهما هوية مغايرة للآخر لا رابطة بين أحدهما والآخر ذاتاً وأثراً وفي كلامه مواضع أخرى للنظر غير خفية على من تأمل فيه .

وللبحث تتمة لعل الله سبحانه يوفقنا لاستيفائها بإيراد كلام جامع في الملك وآخر في الوحي .

وقوله : « لتكون من المنذرين » أي من الداعين إلى الله سبحانه بالتخويف من عذابه وهو المراد بالإنذار في عرف القرآن دون النبي او الرسول بالخصوص ، قال

تعالى في مؤمني الجن : « وإذا صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولـّوا إلى قومهم منذرين » الأحقاف : ٢٩ ، وقال في المتفقهين من المؤمنين : « ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم » براءة : ١٢٢ .

وإنما ذكر إنذاره ﷺ غاية لإنزال القرآن دون نبوته أو رسالته لأن سياق آيات السورة سياق التخويف والتهديد .

وقوله « بلسان عربي مبين » أي ظاهر في عربيته او مبين للمقاصد تام البيان والجار والمجرور متعلق بنزل اي أنزله بلسان عربي مبين .

وجوز بعضهم ان يكون متعلقاً بقوله : « منذرين » والمعنى أنزله على قلبك لتدخل في زمرة الأنبياء من العرب وقد ذكر منهم في القرآن هود وصالح وإسماعيل وشعيب عليهم السلام وأول الوجهين أحسنها .

قوله تعالى : « وإنه لفي زبر الأولين » الضمير للقرآن أو نزوله على النبي ﷺ والزبر جمع زبور وهو الكتاب والمعنى وإن خبر القرآن او خبر نزوله عليك في كتب الماضين من الأنبياء .

وقيل: الضمير لما في القرآن من المعارف الكلية اي إن المعارف القرآنية موجودة مذكورة في كتب الأنبياء الماضين .

وفيه أولاً : ان المشركين ما كانوا يؤمنون بالأنبياء وكتبهم حتى يحتجّ عليهم بما فيها من التوحيد والمعاد وغيرهما ، وهذا بخلاف ذكر خبر القرآن ونزوله على النبي ﷺ في كتب الأولين فإنه حينئذ يكون ملحمة تضطر النفوس إلى قبولها .

وثانياً : أنه لا يلائم الآية التالية .

قوله تعالى : « أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني إسرائيل » ضمير « أن يعلمه » لخبر القرآن او خبر نزوله على النبي ﷺ اي أولم يكن علم علماء بني إسرائيل بخبر القرآن او نزوله عليك على سبيل البشارة في كتب الأنبياء الماضين آية للمشركين على صحة نبوتك وكانت اليهود تبشر بذلك وتستفتح على العرب به كما مر في قوله تعالى : « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » البقرة : ٨٩ .

وقد أسلم عدة من علماء اليهود في عهد النبي ﷺ واعترفوا بأنه مبشر به في

كتبهم ، والسورة من أوائل السور المكية النازلة قبل الهجرة ولم تبلغ عداوة اليهود للنبي ﷺ مبلغها بعد الهجرة وكان من المرجو أن ينطقوا ببعض ما عندهم من الحق ولو بوجه كلي .

قوله تعالى : « ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » قال في المفردات : العجمة خلاف الإبانة والاعجام الابهام – إلى أن قال – والعجم خلاف العرب والعجمي منسوب اليهم ، والأعجم من في لسانه عجمة عربياً كان أو غير عربي اعتباراً بقلة فهمهم عن العجم ، ومنه قيل للبهيمة عجماء والأعجمي منسوب اليه قوله تعالى : « ولو نزلناه على بعض الأعجمين » على حذف الياءات انتهى .

ومقتضى ما ذكره – كما ترى – ان أصل الأعجمين الأعجميين ثم حذفت ياء النسبة وبه صرح بعض آخر ، وذكر بعضهم ان الوجه ان أعجم مؤنثه عجماء وأفعل فعلاء لا يجمع جمع السلامة لكن الكوفيين من النحاة يجوزون ذلك وظاهر اللفظ يؤيد قولهم فلا موجب للقول بالحذف .

وكيف كان فظاهر السياق اتصال الآيتين بقوله : « بلسان عربي مبين » ، فتكونان في مقام التعليل له ويكون المعنى : نزّلناه عليك بلسان عربي ظاهر العربية واضح الدلالة ليؤمنوا به ولا يتعللوا بعدم فهمهم مقاصده ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلسان أعجمي ما كانوا به مؤمنين وردّوه بعدم فهم مقاصده .

فيكون المراد بنزوله على بعض الأعجمين نزوله أعجمياً وبلسانه ، والآيتان والتي بعدهما في معنى قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصّلت آياته ءأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى » حم السجدة : ٤٤ .

وقال بعضهم : إن المعنى ولو نزّلناه قرآناً عربياً كما هو بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية فقرأه عليهم قراءة صحيحة خارقة للعادات ما كانوا به مؤمنين مع انضمام إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة .

قال : وأما قول بعضهم : إن المعنى ولو نزّلناه على بعض الأعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين فليس بذاك فإنه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد . انتهى ملخصاً .

وفيه أن اتصال الآيتين بقوله : « بلسان عربي مبين » أقرب اليهما من اتصالهما بسياق تمادي الكفار في كفرهم وجحودهم وقد عرفت توضيحه .

ويمكن أن يورد على الوجه السابق أن الضمير في قوله : « ولو نزّلناه على بعض الأعجمين » راجع إلى هـذا القرآن الذي هو عربي فلو كان المراد تنزيله بلسان أعجمي لكان المعنى ولو نزلنا العربي غير عربي ولا محصل له .

ويردّه أنه من قبيل قوله تعـالى : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » الزخرف : ٣ ، ولا معنى لقولنا : إنا جعلنا العربي عربياً فالمراد بالقرآن على أي حال الكتاب المقروء .

قوله تعالى : « كذلك نسلكه في قلوب المجرمين » الإشارة بقوله : « كذلك » إلى الحال التي عليها القرآن عنـد المشركين وقد ذكرت في الآيات السابقة وهي أنهم معرضون عنه لا يؤمنون به وإن كان تنزيلاً من رب العالمين وكان عربياً مبيناً غير أعجمي وكان مذكوراً في زبر الأولين يعلمه علماء بني إسرائيل .

والسلوك الإدخال في الطريق والإمرار ، والمراد بالمجرمين هم الكفار والمشركون وذكرهم بوصف الإجرام للإشارة إلى علة الحكم وهو سلوكه في قلوبهم على هـذه الحال المبغوضة والمنفورة وأن ذلك مجازاة إلهية جازاهم بهـا عن إجرامهم وليعمّ الحكم بعموم العلة .

والمعنى على هذه الحال - وهي أن يكون بحيث يعرض عنه ولا يؤمن به - ندخل القرآن في قلوب هؤلاء المشركين ونمرّه في نفوسهم جزاء لإجرامهم وكذلك كل مجرم .

وقيل : الإشارة إلى ما ذكر من أوصاف القرآن الكريمة والمعنى : ندخل القرآن ونمرّه في قلوب المجرمين بمثل ما بيّنا له الأوصاف فيرون أنه كتاب سماوي ذو نظم معجز خارج عن طوق البشر وأنه مبشر به في زبر الأولين يعلمه علمـاء بني إسرائيل وتتم الحجة به عليهم . وهو بعيد من السياق .

وقيل : الضمير في « نسلكه » للتكذيب بالقرآن والكفر به المدلول عليه بقوله: « ما كانوا به مؤمنين » هـــذا وهو قريب من الوجه الأول لكن الوجه الأول ألطف وأدق ، وقد ذكره في الكشاف .

وقد تبين بما تقدم أن المراد بالمجرمين مشركو مكة غير أن عموم وصف الإجرام يعمم الحكم ، وقال بعضهم : إن المراد بالمجرمين غـير مشركي مكة من معاصريهم ومن يأتي بعـدهم ، والمعنى : كما سلكناه في قلوب مشركي مكة نسلكه في قلوب غيرهم من المجرمين .

ولعل الذي دعاه إلى اختيار هـــذا الوجه إشكال اتحاد المشبّه والمشبّه به على الوجه الأول مع لزوم المغايرة بينهما فاعتبر المشار اليه بقوله : « كذلك» السلوك في قلوب مشركي مكة وهو المشبّه به وجعـل المشبّه غيرهم من المجرمين وفيه أن تشبيه الكلي ببعض أفراده للدلالة على سراية حكمه في جميـع الأفراد طريقة شائعة .

ومن هنا يظهر أن هناك وجهاً آخر وهو ان يكون المراد بالمجرمين ما يعم مشركي مكة وغيرهم بحمل اللام فيه لغير العهد ولعل الوجه الأول أقرب من السياق .

قوله تعالى : « لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم – إلى قوله – منظرون » تفسير وبيان لقوله : « كذلك نسلكه » الخ هذا على الوجه الأول والثالث من الوجوه المذكورة في الآية السابقة وأما على الوجه الثاني فهو استئناف غير مرتبط بما قبله .

وقوله : « حتى يروا العذاب الأليم » أي حتى يشاهدوا العذاب الأليم فيلجئهم إلى الإيمان الاضطراري الذي لا ينفعهم ،والظاهر أن المراد بالعذاب الأليم ما يشاهدونه عند الموت واحتمل بعضهم ان يكون المراد به ما أصابهم يوم بدر من القتل ، لكن عموم الحكم في الآية السابقة لمشركي مكة وغيرهم لا يلائم ذلك .

وقوله : « فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » كالتفسير لقوله : « حتى يروا العذاب الأليم » إذ لو لم يأتهم بغتة وعلموا به قبل موعده لاستعدوا له وآمنوا باختيار منهم غير ملجئين اليه .

وقوله : « فيقولوا هل نحن منظرون » كلمة تحسّر منهم .

قوله تعالى : « أفبعذابنا يستعجلون » توبيخ وتهديد .

قوله تعالى : « أفرأيت إن متعناهم سنين – إلى قوله – يمتعون » متصل بقوله : « فيقولوا هل نحن منظرون » ومحصل المعنى أن تمني الإمهال والإنظار تمني أمر لا ينفعهم لو وقع على مـــا يتمنونه ولم يغن عنهم شيئاً لو أجيبوا إلى ما سألوه فإن تمتيعهم أمداً محدوداً طال أو قصر لا يرفع العذاب الخالد الذي قضي في حقهم .

وهو قوله : « أفرأيت إن متعناهم سنين » معدودة ستنقضي « ثم جاءهم ما كانوا يوعدون » من العذاب بعد انقضاء بقي الإنظار والإمهال « ما أغنى عنهم مـــا كانوا يمتعون » أي تمتيعهم أمداً محدوداً .

قوله تعالى : « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون ذكرى » الخ ، الأقرب ان يكون قوله : « لها منذرون » حالاً من « قرية » وقوله : « ذكرى » حالاً من ضمير الجمع في « منذرون » أو مفعولاً مطلقاً عامله « منذرون » لكونه في معنى مذكرون والمعنى ظاهر ، وقيل غير ذلك مما لا جدوى في ذكره وإطالة البحث عنه .

وقوله : « وما كنا ظالمين » ورود النفي على الكون دون ان يقال: وما ظلمناهم ونحو ذلك يفيد نفي الشأنية اي وما كان من شأننا ولا المترقب منا ان نظلمهم .

والجملة في مقام التعليل للحصر السابق والمعنى : ما أهلكنا من قرية إلا في حال لها منذرون مذكرون تتم بهم الحجة عليهم لأنا لو أهلكناهم في غير هذه الحال لكنا ظالمين لهم وليس من شأننا أن نظلم أحداً فالآية في معنى قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً » أسرى : ١٥ .

(كلام في معنى نفي الظلم عنه تعالى)

من لوازم معنى الظلم المتساوية له فعل الفاعل وتصرفه مـــا لا يملكه من الفعل والتصرّف ، ويقابله العدل ولازمه أنه فعل الفاعل وتصرفه ما يملكه .

ومن هنا يظهر ان أفعال الفواعل التكوينية من حيث هي مملوكة لها تكويناً لا يتحقق فيهـــا معنى الظلم لأن فرض صدور الفعل عن فاعله تكويناً مساوق لكونه مملوكاً له بمعنى قيام وجوده به قياماً لا يستقل دونه .

ولله سبحانه ملك مطلق منبسط على الأشياء من جميع جهات وجودها لقيامها به تعالى من غير غنى عنه واستقلال دونه فأي تصرف تصرف به فيها مما يسرها أو يسوؤها او ينفعها لو يضرها ليس من الظلم في شيء وإن شئت فقل: عدل بمعنى ما ليس بظلم فله ان يفعل ما يشاء وله ان يحكم ما يريد كل ذلك بحسب التكوين .

فله تعـالى ملك مطلق بذاته ، ولغيره من الفواعل التكوينية ملك تكويني بالنسبة إلى فعله حسب الإعطاء والموهبة الإلهية وهو ملك في طول ملكه تعالى وهو المالك لما ملكها والمهيمن على ما عليه سلطها .

ومن جمـلة هذه الفواعل النوع الإنساني بالنسبة إلى أفعاله وخاصة ما نسميها بالأفعال الاختيارية والاختيار الذي يتمين به هذه الأفعال ، فالواحد منا يجد من نفسه عياناً أنه يملك الاختيار بمعنى إمكان الفعل والترك معاً ، فإن شاء فعل وإن لم يشأ ترك فهو يرى نفسه حراً يملك الفعل والترك ، أي فعل وترك كانا ، بمعنى إمكان صدور كل منهما عنه .

ثم إن اضطرار الإنسان إلى الحياة الاجتماعية المدنية اضطرّ العقل أن يغمض عن بعض ما للانسان من حرية العمل ويرفع اليد عن بعض الأفعال التي كان يرى أنه يملكها وهي التي يختلّ بإتيانها أمر المجتمع فيختل نظم حياته نفسه وهـذه هي المحرمات والمعاصي التي تنهى عنها القوانين المدنيـة أو السنن القومية أو الأحكام الملوكية الدائرة في المجتمعات .

ومن الضروري لتحكيم هـذه القوانين والسنن أن يجعل نوع من الجزاء السيء على المتخلف عنها - بشرط العلم وتمـام الحجة لأنه شرط تحقق التكليف - من ذمّ أو عقاب ، ونوع من الأجر الجميل للمطيع الذي يحترمها من مدح أو ثواب .

ومن الضروري أن ينتصب على المجتمع والقوانين الجارية فيها من يُجريها على ما ما هي عليه وهو مسؤول عمـا نصب له وخاصة بالنسبة إلى أحكام الجزاء ، فلو لم يكن مسؤلاً وجاز له أن يجازي وأن لا يجازي ويأخـذ المحسن ويترك المسيء لغى وضع القوانين والسنن من رأس . هذه اصول عقلائية جارية في الجمـلة في المجتمعات الانسانية منذ استقر هذا النوع على الأرض منبعثة عن فطرتهم الانسانية .

وقد دلّت البراهين العقلية وأيّدها تواتر الأنبياء والرسل من قبله تعالى على أن القوانين الاجتماعية وسنن الحياة يجب أن تكون من عنده تعالى وهي أحكام ووظائف إنسانية تهدي اليها الفطرة الانسانية وتضمن سعادة حياته وتحفظ مصالح مجتمعه .

وهذه الشريعة السماوية الفطرية واضعها هو الله سبحانه ومجريها من حيث الثواب والعقاب – وموطنها موطن الرجوع اليه تعالى – هو الله سبحانه .

ومقتضى تشريعه تعالى هذه الشرائع السماوية واعتباره نفسه مجرياً لها أنه أوجب على نفسه إيجاباً تشريعياً – وليس بالتكويني – أن لا يناقض نفسه ولا يتخلف بإهمال أو إلغاء جزاء يستوجبه خلاف أو إعمال جزاء لا يستحقه عمل كتعذيب الغافل الجاهل بعذاب المتعمد المعاند ، وأخذ المظلوم بإثم الظالم وإلا كان ظلماً منه ، تعالى عن ذلك علوّاً كبيرا .

ولعل هذا معنى ما يقال : إن الظلم مقدور له تعالى لكنه ليس بواقع البتة لأنه نقص كال يتنزه تعالى عنه ففرض الظلم منه تعالى من فرض المحال وليس بفرض محال ، وهو المستفاد من ظاهر قوله تعالى: « وما كنا ظالمين » الآية ٢٠٩ من السورة، وقوله: « إن الله لا يظلم الناس شيئاً » يونس : ٤٤ ، وقوله : « وما ربك بظلاّم للعبيد » فصّلت: ٤٦ ، وقوله: « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » النساء: ١٦٥ ، فظاهرها أنها ليست من قبيل السالبة بانتفاء الموضوع كما يومي اليه تفسير من فسّرها بأن المعنى أن الله لا يفعل فعلاً لو فعله غيره لكان ظالماً .

فإن قلت: ما ذكر من وجوب إجراء الجزاء ثواباً أو عقاباً يخالف ما هو المسلّم عندهم أن ترك عقاب العاصي جائز لأنه من حق المعاقب ومن الجائز على صاحب الحق تركه وعدم المطالبة به بخلاف ثواب المطيع لأنه من حق الغير وهو المطيع فلا يجوز تركه وإبطاله .

على أنه قيل : إن الإثابة على الطاعات من الفضل دون الاستحقاق لأن العبد وعمله لمولاه فلا يملك شيئاً حتى يعاوضه بشيء .

قلت : ترك عقاب العاصي في الجملة مما لا كلام فيه لأنه من الفضل وأما بالجملة فلا لاستلزامه لغوية التشريع والتقنين وترتيب الجزاء على العمل.

وأما كون ثواب الأعمال من الفضل بالنظر إلى كون عمل العبد كنفسه لله فلا ينافي فضلاً آخر منه تعالى على عبده باعتبار عمله ملكاً له ، ثم جعل ما يثيبه عليه أجراً لعمله ، والقرآن مليء بحديث الأجر على الأعمال الصالحة ، وقد قال تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » براءة : ١١١ .

قوله تعالى : « وما تنزّلت به الشياطين – إلى قوله – لمعزولون » شروع في الجواب عن قول المشركين : إنّ لمحمد جناً يأتيه بهذا الكلام ، وقولهم : إنه شاعر ، وقدّم الجواب عن الأول وقد وجّه الكلام أولاً إلى النبي ﷺ فبيّن له أن القرآن ليس من تنزيل الشياطين وطيّب بذلك نفسه ثم وجّه القول إلى القوم فبيّنه لهم بما في وسعهم أن يفقهوه .

فقوله : « وما تنزّلت به الشياطين » أي ما نزّلته والآية متصلة بقوله : « وإنه لتنزيل رب العالمين » ووجّه الكلام كما سمعت إلى النبي ﷺ بدليل قوله تلواً : « فلا تدع مع الله إلهاً آخر » إلى آخر الخطابات المختصة به ﷺ المتفرعة على قوله : « وما تنزّلت به » الخ ، على ما سيجيء بيانه .

وإنما وجّه الكلام إلى النبي ﷺ دون القوم لأنه معلّل بما لا يقبلونه بكفرهم أعني قوله : « إنهم عن السمع لمعزولون » والشيطان الشرير وجمعه الشياطين والمراد بهم أشرار الجن .

وقوله : « وما ينبغي لهم » أي للشياطين . قال في مجمع البيان : ومعنى قول العرب : ينبغي لك أن تفعل كذا أنه يطلب منك فعله في مقتضى العقل من البغية التي هي الطلب . انتهى .

والوجه في أنه لا ينبغي لهم أن يتنزّلوا به أنهم خلق شرير لا همّ لهم إلا الشر والفساد والأخذ بالباطل وتصويره في صورة الحق ليضلوا به عن سبيل الله ، والقرآن كلام حق لا سبيل للباطل اليه فلا يناسب جبلتهم الشيطانية أن يلقوه إلى أحد .

وقوله : « وما يستطيعون » أي وما يقدرون على التنزّل به لأنه كلام سماوي تتلقاه الملائكة من رب العزة فينزّلونه بأمره في حفظ وحراسة منه تعالى كما قال : « فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط

بما لديهم » الجن : ٢٨ ، وإلى ذلك يشير قوله : « إنهم عن السمع » الخ .

وقوله : « إنهم عن السمع لمعزولون » أي إن الشياطين عن سمع الأخبار السماوية والاطلاع على ما يجري في الملأ الأعلى معزولون حيث يقذفون بالشهب الثاقبة لو تسمّعوا كما ذكره الله في مواضع من كلامه .

قوله تعالى : « فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين » خطاب للنبي ﷺ ينهاه عن الشرك بالله متفرع على قوله : « وما تنزّلت به الشياطين » الخ ، أي إذا كان هذا القرآن تنزيلاً من رب العالمين ولم تنزّل به الشياطين وهو ينهى عن الشرك ويوعد عليه العذاب فلا تشرك بالله فينالك العذاب الموعود عليه وتدخل في زمرة المعذّبين .

وكونه ﷺ معصوماً بعصمة إلهية يستحيل معها صدور المعصية منه لا ينافي نهيه عن الشرك فإن العصمة لا توجب بطلان تعلّق الأمر والنهي بالمعصوم وارتفاع التكليف عنه بما أنه بشر مختار في الفعل والترك متصور في حقه الطاعة والمعصية بالنظر إلى نفسه ، وقد تكاثرت الآيات في تكليف الأنبياء عليهم السلام في القرآن الكريم كقوله في الأنبياء عليهم السلام : « ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون » الأنعام : ٨٨ ، وقوله في النبي ﷺ : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك » الزمر : ٦٥ ، والآيتان في معنى النهي .

وقول بعضهم: إن التكليف للتكميل فيرتفع عند حصول الكمال وتحققه لاستحالة تحصيل الحاصل خطأ فإن الأعمال الصالحة التي يتعلق بها التكاليف من آثار الكمال المطلوب والكمال النفساني كما يجب أن يكتسب بالإتيان بآثاره ومزاولة الأعمال التي تناسبه والارتياض بها كذلك يجب أن يستبقى بذلك فما دام الإنسان بشراً له تعلق بالحياة الأرضية لا مناص له عن تحمل أعباء التكليف ، وقد تقدم كلام في هذا المعنى في بعض الأبحاث .

قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » في مجمع البيان : عشيرة الرجل قرابته سموا بذلك لأنه يعاشرهم وهم يعاشرونه انتهى. وخص عشيرته وقرابته الأقربين بالذكر بعد نهي نفسه عن الشرك وإنذاره تنبيهاً على أنه لا استثناء في الدعوة الدينية

ولا مداهنة ولا مساهلة كما هو معهود في السنن الملوكية فلا فرق في تعلق الإنذار بين النبي وامته ، ولا بين الأقارب والأجانب ، فالجميع عبيد والله مولاهم .

قوله تعالى : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » اي اشتغل بالمؤمنين بك واجمعهم وضمهم اليك بالرأفة والرحمة كما يجمع الطير أفراخه اليه بخفض جناحه لها ، وهذا من الاستعارة بالكناية تقدم نظيره في قوله : « واخفض جناحك للمؤمنين » الحجر : ٨٨ .

والمراد بالاتباع الطاعة بقرينة قوله في الآية التالية : فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون » فملخص معنى الآيتين : إن آمنوا بك واتبعوك فاجمعهم اليك بالرأفة واشتغل بهم بالتربية وإن عصوك فتبرّء من عملهم .

قوله تعالى : « وتوكل على العزيز الرحيم » أي ليس لك من أمر طاعتهم ومعصيتهم شيء وراء ما كلفناك فكل ما وراء ذلك إلى الله سبحانه فإنه لعزته سيعذب العاصين وبرحمته سينجي المؤمنين المتبعين .

وفي اختصاص اسمي العزيز والرحيم إلفات للذهن إلى ما تقدم من القصص ختمت واحدة بعد واحدة بالاسمين الكريمين .

فهو في معنى أن يقال : توكل في أمر المتبعين والعاصين جميعاً إلى الله فهو العزيز الرحيم الذي فعل بقوم نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وقوم فرعون ما فعل مما قصصناه فسنته أخذ العاصين وإنجاء المؤمنين .

قوله تعالى : «الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين» ظاهر الآيتين – على ما يسبق إلى الذهن – أن المراد بالساجدين الساجدون في الصلاة من المؤمنين وفيهم رسول الله ﷺ في صلاته بهم جماعة ، والمراد بقرينة المقابلة القيام في الصلاة فيكون المعنى : الذي يراك وأنت بعينه في حالتي قيامك وسجودك متقلباً في الساجدين وأنت تصلي مع المؤمنين .

وفي معنى الآية روايات من طرق الشيعة وأهل السنة سنتعرض لها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

قوله تعالى : « إنه هو السميع العليم » تعليل لقوله : «وتوكل على العزيز الرحيم»

وفي الآيات – على ما تقدم من معناها – تسلية للنبي ﷺ وبشرى للمؤمنين بالنجاة وإيعاد للكفار بالعذاب .

قوله تعالى : « هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين – إلى قوله – كاذبون » ، تعريف لمن تتنزل عليه الشياطين بما يخصه من الصفة ليعلم أن النبي ﷺ ليس منهم ولا أن القرآن من إلقاء الشياطين ، والخطاب متوجه إلى المشركين .

فقوله : « هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين » في معنى هل أعرفكم الذين تتنزل عليهم شياطين الجن بالأخبار ؟

وقوله : « تنزّل على كل أفاك أثيم » قال في مجمع البيان: الأفاك الكذاب وأصل الإفك القلب والأفاك الكثير القلب للخبر عن جهة الصدق إلى جهة الكذب ، والأثيم الفاعل للقبيح يقال : أثم يأثم إثماً إذا ارتكب القبيح وتأثم إذا ترك الإثم انتهى .

وذلك أن الشياطين لا شأن لهم إلا إظهار الباطل في صورة الحق وتزيين القبيح في زي الحسن فلا يتنزلون إلا على أفاك أثيم .

وقوله : « يلقون السمع وأكثرهم كاذبون » الظاهر أن ضميري الجمع في «يلقون» و « أكثرهم » معاً للشياطين ، والسمع مصدر بمعنى المسموع والمراد به ما سمعه الشياطين من أخبار السماء ولو ناقصاً فإنهم ممنوعون من الاستماع مرميون بالشهب فما استرقوه لا يكون إلا ناقصاً غير تام ولا كامل ولذا يتسرب اليه الكذب كثيراً .

وقوله : « وأكثرهم كاذبون » أي أكثر الشياطين كاذبون لا يخبرون بصدق أصلاً وهذا هو الكثرة بحسب الأفراد ويمكن أن يكون المراد الكثرة من حيث التنزل أي أكثر المتنزلين منهم كاذبون أي أكثر أخبارهم كاذبة .

ومحصل حجة الآيات الثلاث أن الشياطين لابتناء جبلّتهم على الشر لا يتنزلون إلا على كل كذاب فاجر وأكثرهم كاذبون في أخبارهم ، والنبي ﷺ ليس بأفّاك أثيم ولا ما يوحى اليه من الكلام كذباً مختلقاً فليس ممن تتنزل عليه الشياطين ولا الذي يتنزل عليه شيطاناً ، ولا القرآن النازل عليه من إلقاء الشياطين .

قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاون – إلى قوله – لا يفعلون » جواب عن رمي المشركين للنبي ﷺ بأنه شاعر ، نبّه عليه بعد الجواب عن قولهم إن له شيطاناً يوحي اليه القرآن .

وهذان أعني قولهم : إن من الجن من يأتيه ، وقولهم : إنه شاعر ، مما كانوا يكررونه في ألسنتهم بمكة قبل الهجرة يدفعون به الدعوة الحقة ، وهذا مما يؤيد نزول هذه الآيات بمكة خلافاً لما قيل إنها نزلت بالمدينة .

على أن الآيات مشتملة على ختام السورة أعني قوله : « وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » ولا معنى لبقاء سورة هي من أقدم السور المكية سنين على نعت النقص ثم تمامها بالمدينة ، ولا دلالة في الاستثناء على أن المستثنين هم شعراء المؤمنين بعد الهجرة .

وكيف كان فالغيّ خلاف الرشد الذي هو إصابة الواقع فالرشيد هو الذي لا يهتم إلا بما هو حق واقع ، والغويّ هو السالك سبيل الباطل والمخطىء طريق الحق ، والغواية مما يختص به صناعة الشعر المبنيـــة على التخييل وتصوير غير الواقع في صورة الواقع ولذلك لا يهتم به إلا الغويّ المشعوف بالتزيينات الخيالية والتصويرات الوهمية الملهية عن الحق الصارفة عن الرشد ، ولا يتبع الشعراء الذين يبتني صناعتهم على الغيّ والغواية إلا الغاوون وذلك قوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون » .

وقوله : « ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون » يقـال : هام يهيم هياماً إذا ذهب على وجهه والمراد بهيمانهم في كل واد استرسالهم في القول من غير أن يقفوا على حد فربما مدحوا الباطل المذموم كما يمدح الحق المحمود وربما هجوا الجميل كما يهجى القبيح الذميم وربما دعوا إلى الباطل وصرفوا عن الحق وفي ذلك انحراف عن سبيل الفطرة الانسانية المبنية على الرشد الداعية إلى الحق ، وكذا قولهم ما لا يفعلون من العدول عن صراط الفطرة .

وملخص حجة الآيات الثلاث أنه ﷺ ليس بشاعر لأن الشعراء يتبعهم الغاوون لابتناء صناعتهم على الغواية وخلاف الرشد لكن الذين يتبعونه إنما يتبعونه ابتغاء للرشد وإصابة الواقع وطلباً للحق لابتناء ما عنـده من الكلام المشتمل على الدعوة على الحق والرشد دون الباطل والغيّ .

قوله تعالى : « إلا الذين آمنوا وعمـــلوا الصالحات وذكروا الله كثيراً » الخ ، استثناء من الشعراء المذمومين ، والمستثنون هم شعراء المؤمنين فإن الإيمان وصالحات الأعمال تردع الانسان بالطبع عن ترك الحق واتباع الباطل ثم الذكر الكثير لله سبحانه

يحمل الانسان على ذكر منه تعالى مقبلاً إلى الحق الذي يرتضيه مدبراً عن الباطل الذي لا يحب الاشتغال به فلا يعرض لهؤلاء ما كان يعرض لاولئك .

وبهذا البيان يظهر وجه تقييد المستثنى بالإيمان وعمل الصالحات ثم عطف قوله: « وذكروا الله كثيراً » على ذلك .

وقوله : « وانتصروا من بعد ما ظلموا » الانتصار الانتقام، قيل : المراد به ردّ الشعراء من المؤمنين على المشركين أشعارهم التي هجوا بها النبي ﷺ أو طعنوا فيها في الدين وقدحوا في الاسلام والمسلمين ، وهو حسن يؤيده المقام .

وقوله : « وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون » المنقلب اسم مكان أو مصدر ميمي، والمعنى: وسيعلم الذين ظلموا – وهم المشركون على ما يعطيه السياق – إلى أي مرجع ومنصرف يرجعون وينصرفون وهو النار أو ينقلبون أي انقلاب .

وفيه تهديد للمشركين ورجوع مختتم السورة إلى مفتتحها وقد وقع في أولها قوله: « فقد كذّبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن » .

(بحث روائي)

في الكافي بإسناده عن الحجّال عمن ذكره عن أحدهما عليهما السلام قال : سألته عن قول الله عز وجل : « بلسان عربي مبين » قال : يبين الألسن ولا تبينه الألسن .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : « ولو نزّلناه على بعض الأعجمين » الخ ، قال الصادق عليه السلام : لو نزّلنا القرآن على العجم ما آمنت به العرب وقد نزّل على العرب فآمنت به العجم فهذه فضيلة العجم .

وفي الكافي بإسناده عن علي بن عيسى القمّاط عن عمه عن أبي عبد الله عليه السلام قال : أري رسول الله ﷺ في منامه بني أمية يصعدون على منبره من بعده ويضلون الناس عن الصراط القهقرى فأصبح كئيباً حزيناً .

قال : فهبط جبرائيل فقال : يا رسول الله مالي أراك كئيباً حزيناً ؟ قال :

يا جبرائيل إني رأيت بني أمية في ليلتي هذه يصعدون منبري من بعدي يضلون الناس عن الصراط القهقرى ، فقال : والذي بعثك بالحق نبياً إني ما اطلعت عليه فعرج إلى السماء فلم يلبث أن نزل عليه بآي من القرآن يؤنسه بها . قال : « أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون » وأنزل عليه : « إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر » جعل الله ليلة القدر لنبيه ﷺ خيراً من ألف شهر ملك بني أمية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جهضم قال : رؤي النبي ﷺ كأنه متحير فسألوه عن ذلك فقال : ولِمَ ورأيت عدوّي يلون أمر أمتي من بعدي فنزلت «أفرأيت إن متّعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون » فطابت نفسه .

أقول : وقوله : ولم ورأيت الخ ، فيه حذف والتقدير ولم لا أكون كذلك وقد رأيت « الخ » .

وفيه أخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمـــان وفي الدلائل عن أبي هريرة قال : لما نزلت هــذه الآية « وأنذر عشيرتك الأقربين » دعا رسول الله ﷺ قريشاً وعمّ وخصّ فقال : يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النـــار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً . يا معشر بني كعب بن لؤيّ أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً . يا معشر بني قصيّ أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً . يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النـــار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً . يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النـــار فإني لا أملك لكم ضراً ولا نفعاً . يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النـــار فإني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً . ألا إن لكم رحماً وسأبلّها ببلالها .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن مردويه عن ابن عباس قال : لمـا نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » جعل يدعوهم قبائل قبائل .

وفيه أخرج سعيد بن منصور والبخاري وابن مردويه وابن جرير وابن المنذر

وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لمــا نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين » خرج النبي ﷺ حتى صعد على الصفا فنادى يا صباحاه فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد ، فاجتمعوا اليه فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟

فجاء أبو لهب وقريش فقال ﷺ : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقيّ ؟ قالوا : نعم ما جرّبنا عليك إلا صدقاً . قــال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : « تبّت يدا أبي لهب وتبّ » .

وفيه أخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة قال : لمــا نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » جمع رسول الله بني هاشم فأجلسهم على البــاب وجمع نساءه وأهله فأجلسهم في البيت ثم اطّلع عليهم فقال : يا بني هاشم اشتروا أنفسكم من النار واسعوا في فكاك رقابكم وافتكوها بأنفسكم من الله فإني لا أملك لكم من الله شيئاً .

ثم أقبل على أهل بيته فقال : يا عائشة بنت أبي بكر ويا حفصة بنت عمر ويا أم سلمة ويا فاطمة بنت محمد ويا أم الزبير عمة رسول الله اشتروا[1] أنفسكم من الله واسعوا في فكاك رقابكم فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ولا أغني ، الحديث .

أقول : وفي معنى هذه الروايات بعض روايات أخر وفي بعضها أنه ﷺ خص بني عبد مناف بالإنذار فيشمل بني امية وبني هاشم جميعاً .

والروايات الثلاث الاول لا تنطبق عليها الآية فانها تعمم الإنذار قريشاً عامة والآية تصرح بالعشيرة الأقربين وهم إما بنو عبد المطلب أو بنو هاشم وأبعد ما يكون من الآية الرواية الثانية حيث تقول : جعل يدعوهم قبائل قبائل ؛

على أن ما تقدم من معنى الآية وهو نفي أن تكون قرابة النبي ﷺ تغنيهم من تقوى الله وفي الروايات إشارة إلى ذلك – حيث تقول : لا اغني عنكم من الله

---

(١) كذا .

شيئاً – لا يناسب عمومه لغير الخاصة من قرابته ﷺ .

وأما الرواية الرابعة فقوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » آية مكية في سورة مكية ولم يقل أحد بنزول الآية بالمدينة وأين كانت يوم نزولها عائشة وحفصة وأم سلمة ولم يتزوج النبي ﷺ بهن إلا في المدينة ؟ فالمعتمد من الروايات ما يدل على أنه ﷺ خصّ بالإنذار يوم نزول الآية بني هاشم أو بني عبد المطلب ، ومن عجيب الكلام قول الآلوسي بعد نقل الروايات : وإذا صح الكل فطريق الجمع أن يقال بتعدد الإنذار .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبي بإسناده عن براء بن عازب قال : لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلاً الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العس فأمر علياً برجل شاة فأدمها ثم قال : ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا . ثم دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعاً ثم قال لهم : اشربوا بسم الله فشربوا حتى رووا فبدرهم أبو لهب فقال : هذا ما سحركم به الرجل فسكت ﷺ يومئذ ولم يتكلم .

ثم دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثم أنذرهم رسول الله ﷺ فقال : يا بني عبد المطلب إني أنا النذير اليكم من الله عز وجل فأسلموا وأطيعوني تهتدوا .

ثم قال : من يواخيني ويوازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني ؟ فسكت القوم فأعادها ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي أنا فقال في المرة الثالثة : أنت فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب : أطع ابنك فقد أمّر عليك .

قال الطبرسي : وروي عن أبي رافع هذه القصة وأنه جمعهم في الشعب فصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتى تضلعوا وسقاهم عساً فشربوا كلهم حتى رووا . ثم قال : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي ورهطي ، وإن الله لم يبعث نبياً إلا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله فأيكم يقوم فيبايعني على أنه أخي ووارثي ووزيري ووصيي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ فقال علي : أنا فقال : ادن مني ففتح فاه ومجّ في فيه من ريقه وتفل بين كتفيه وثدييه فقال أبو لهب : بئس ما

حبوت به ابن عمك أن أجابك لملأت فاه ووجهه بزاقاً فقال ﷺ: ملأته حكمة وعلماً.

أقول : وروى السيوطي في الدر المنثور ما في معنى حديث البراء عن ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي رضي الله عنه وفيه : ثم تكلم النبي ﷺ فقال : يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أحـــداً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم اليه فأيكم يوازرني على أمري هــذا ؟ فقلت وأنا أحدثهم سناً : إنه أنا ، فقام القوم يضحكون .

وفي علل الشرائع بإسناده عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال : لما نزلت « وأنذر عشيرتك الأقربين » أي رهطك المخلصين دعـــا رسول الله ﷺ بني عبد المطلب وهم إذ ذاك أربعون رجلاً يزيدون رجلاً وينقصون رجلاً فقال : أيكم يكون أخي ووارثي ووزيري ووصيي وخليفتي فيكم بعدي ، فعرض عليهم ذلك رجلاً رجلاً كلهم يأبى ذلك حتى أتى عليّ فقلت : أنا يا رسول الله .

فقال : يا بني عبد المطلب هذا وارثي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لهذا الغلام.

أقول : ومن الممكن أن يستفاد من قوله عليه السلام : أي رهطك المخلصين أن ما نـسب إلى قراءة أهل البيت « وأنذر عشيرتك الأقربين رهطك منهم المخلصين » ونسب أيضاً إلى قرآن أبيّ بن كعب كان من قبيل التفسير .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وتقلبك في الساجدين » قيل : معناه وتقلبك في الساجدين الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً . عن ابن عباس في رواية عطاء وعكرمة وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالا : أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى أخرجه من صلب أبيه عن نكاح غير سفاح من لدن آدم .

أقول : ورواه غيره من رواة الشيعة ، ورواه في الدر المنثور عن ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم وغيرهم عن ابن عباس وغيرهم .

وفي المجمع روى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : قـــال رسول الله ﷺ : لا

ترفعوا قبلي ولا تضعوا قبلي فاني أراكم من خلفي كما أراكم من أمامي ثم تلى هذه الآية.

أقول : يريد ﷺ وضع الجبهة على الأرض ورفعها في السجدة، ورواه في الدر المنثور عن ابن عباس وغيره .

وفي الدر المنثور أخرج ابن ابي شيبة وأحمد عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ : لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً .

أقول : وهو مروي من طرق الشيعة أيضاً عن الصادق عليه‌السلام عنه ﷺ .

وفي تفسير القمي قال : يعظون الناس ولا يتعظون وينهون عن المنكر ولا ينتهون ويأمرون بالمعروف ولا يعملون وهم الذين قال الله فيهم: « ألم تر أنهم في كل واد يهيمون » أي في كل مذهب يذهبون « وأنهم يقولون مالا يفعلون » وهم الذين غصبوا آل محمد حقهم .

وفي اعتقادات الصدوق سئل الصادق عليه‌السلام عن قول الله عز وجل : « والشعراء يتبعهم الغاون » قال : هم القصّاص .

أقول : هم من المصاديق والمعنى الجامع ما تقدم في ذيل الآية .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : إن من الشعر حكماً وإن من البيان سحراً .

أقول : وروى الجملة الاولى أيضاً عنـه عن بريدة وابن عباس عن النبي ﷺ وأيضاً عن ابن مردويه عن أبي هريرة عنه ﷺ ولفظه إن من الشعر حكمة، والممدوح من الشعر ما فيه نصرة الحق ولا تشمله الآية .

وفي المجمع عن الزهري قال : حدثني عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن كعب ابن مالك قال : يا رسول الله ماذا تقول في الشعراء ؟ قال : إن المؤمن مجاهد بسيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل .

قال الطبرسي وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت : اهجهم أوهاجهم وروح

القدس معك رواه البخاري ومسلم في الصحيحين .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي الحسن سالم البرّاد قال : لما نزلت « والشعراء » الآية جاء عبد الله بن رواحة وكعب بن مالك وحسان بن ثابت وهم يبكون فقالوا : يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنا شعراء أهلكنا ؟ فأنزل الله « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » فدعاهم رسول الله فتلاها عليهم .

أقول : هذه الرواية وما في معناها هي التي دعا بعضهم إلى القول بكون الآيات الخمس من آخر السورة مدنيات وقد عرفت الكلام في ذلك عند تفسير الآيات .

وفي الكافي بإسناده عن أبي عبيدة عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : من أشد ما فرض الله على خلقه ذكر الله كثيراً . ثم قال : لا أعني سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وإن كان منه ولكن ذكر الله عندما أحل وحرّم فإن كان طاعة عمل بها وإن كان معصية تركها .

أقول : فيه تأييد لما تقدم في تفسير الآية .

(سورة النمل مكية ، وهي ثلاث وتسعون آية)

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ . طٰسٓ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ
مُبِينٍ — ١ . هُـدًى وَبُشْرٰى لِلْمُؤْمِنِينَ — ٢ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ
وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَهُمْ بِٱلآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ — ٣ . إِنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ
بِٱلآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ — ٤ . أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ
ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ هُمُ ٱلأَخْسَرُونَ — ٥ . وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْآنَ مِنْ
لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ — ٦ .

(بيان)

غرض السورة – على ما تدل عليه آيات صدرها والآيات الخمس الخاتمة لها – التبشير والإنذار وقد استشهد لذلك بطرف من قصص موسى وداود وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام ثم عقبها ببيان نبذة من أصول المعارف كوحدانيته تعالى في الربوبية والمعاد وغير ذلك .

قوله تعالى : « تلك آيات الكتاب وقرآن مبين » الإشارة بتلك – كما مر في أول سورة الشعراء – إلى آيات السورة مما ستنزل بعد وما نزلت قبل ، والتعبير باللفظ الخاص بالبعيد للدلالة على رفعة قدرها وبعد منالها .

والقرآن اسم للكتاب باعتبار كونه مقروءاً ، والمبين من الإبانة بمعنى الإظهار ، وتنكير « قرآن » للتفخيم أي تلك الآيات الرفيعة القدر التي ننزلها آيات الكتاب وآيات كتاب مقروّ عظيم الشأن مبين لمقاصده من غير إبهام ولا تعقيد .

قال في مجمع البيان : وصفه بالصفتين يعني الكتاب والقرآن ليفيد أنه مما يظهر بالقراءة ويظهر بالكتابة وهو بمنزلة الناطق بما فيه من الأمرين جميعاً، ووصفه بأنه مبين تشبيه له بالناطق بكذا . انتهى .

قوله تعالى : « هدىً وبشرى للمؤمنين » المصدران أعني « هدىً وبشرى » بمعنى اسم الفاعل أو المراد بهما المعنى المصدري للمبالغة .

قوله تعالى : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » الخ ، المراد إتيان الأعمال الصالحة وإنما اقتصر على الصلاة والزكاة لكون كل منهما ركناً في بابه فالصلاة فيما يرجع إلى الله تعالى والزكاة فيما يرجع إلى الناس وبنظر آخر الصلاة في الأعمال البدنية والزكاة في الأعمال المالية .

وقوله : « وهم بالآخرة هم يوقنون » وصف آخر للمؤمنين معطوف على ما قبله جيىء به للاشارة إلى أن هـذه الأعمال الصالحة إنما تقع موقعها وتصيب غرضها مع الإيقان بالآخرة فإن العمل يحبط مع تكذيب الآخرة ، قال تعالى : « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم » الأعراف : ١٤٧ .

وتكرار الضمير في قوله : « وهم بالآخرة هم » الخ للدلالة على أن هذا الإيقان من شأنهم وهم أهله المترقب منهم ذلك .

قوله تعالى : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » العمه التحير في الأمر ومعنى تزيين العمل جعله بحيث ينجذب اليه الإنسان والذين لا يؤمنون بالآخرة لما أنكروها وهي غاية مسيرهم بقوا في الدنيا وهي سبيل لا غاية فتعلقوا بأعمالهم فيها وكانوا متحيرين في الطريق لا غاية لهم يقصدونها .

قوله تعالى : « أولئك لهم سوء العذاب » الخ إيعاد بمطلق العذاب من دنيوي وأخروي بدليل ما في قوله : « وهم في الآخرة هم الأخسرون » ولعل وجه كونهم أخسر الناس أن سائر العصاة لهم صحائف أعمال مثبتة فيها سيئاتهم وحسناتهم يجازون بها وأما هؤلاء فسيئاتهم محفوظة عليهم يجازون بها وحسناتهم حابطة .

قوله تعالى : « وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم » التلقية قريبة المعنى من التلقين ، وتنكير « حكيم عليم » للتعظيم ، والتصريح بكون هذا القرآن من عنده

تعالى ليكون ذلك حجة على الرسالة وتأييداً لما تقدم من المعارف ولصحة ما سيذكره من قصص الأنبياء عليهم السلام .

وتخصيص الاسمين الكريمين للدلالة على نزوله من ينبوع الحكمة فلا ينقضه ناقض ولا يوهنه موهن ، ومنبع العلم فلا يكذب في خبره ولا يخطىء في قضائه .

* * *

إذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ــ ٧ . فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ــ ٨ . يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ــ ٩ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ــ ١٠ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ــ ١١ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ــ ١٢ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ــ ١٣ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ــ ١٤ .

(بيان)

أول القصص الخمس التي أشير اليها في السورة استشهاداً لما في صدرها من التبشير والإنذار والوعد والوعيد وتغلب في الثلاث الاول منها وهي قصص موسى وداود

وسليمان جهة الوعد على الوعيد وفي الأخيرتين بالعكس .

قوله تعالى : « إذ قال موسى لأهله » الخ المراد بأهله امرأته وهي بنت شعيب على ما ذكره الله تعالى في سورة القصص قال في المجمع : إن خطابها بقوله : « آتيكم » بصيغة الجمع لإقامتها مقام الجماعة في الانس بها في الأمكنة الموحشة . انتهى ومن المحتمل أنه كان معها غيرها من خادم أو مكار أو غيرهما .

وفي المجمع : الإيناس الإبصار ، وقيل : آنست أي أحسست بالشيء من جهة يؤنس بها وما آنست به فقد أحسست به مع سكون نفسك اليه . انتهى والشهاب على ما في المجمع نور كالعمود من النار وكل نور يمتد كالعمود يسمى شهاباً والمراد الشعلة من النار ، وفي المفردات : الشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن العارض في الجو وفي المفردات أيضاً : القبس المتناول من الشعلة ، والاصطلاء بالنار الاستدفاء بها .

وسياق الآية يشهد ويؤيده ما وقع من القصة في سور أخرى أنه كان حينذاك يسير بأهله وقد ضل الطريق وأصابه وأهله البرد في ليلة داجية فأبصر ناراً من بعيد فأراد أن يذهب اليها فإن وجد عندها إنساناً استخبره أو يأخذ قبساً يأتي به إلى أهله فيوقدوا ناراً يصطلون بها . فقال لأهله امكثوا إني أحسست وأبصرت ناراً فالزموا مكانكم سآتيكم منها أي من عندها بخبر نهتدي به أو آتيكم بشعلة متناولة من النار لعلكم توقدون بها ناراً تصطلون وتستدفؤن بها .

ويظهر من السياق أيضاً أن النار إنما ظهرت له عليه‌السلام ولم يشاهدها غيره وإلا عبر عنها بالإشارة دون التنكير .

ولعل اختلاف الإتيان بالخبر والإتيان بالنار نوعاً هو الموجب لتكرار لفظ الإتيان حيث قال : « سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس » .

قوله تعالى : « فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين » أي فلما أتى النار وحضر عندها نودي أن بورك « الخ » .

والمراد بالمباركة إعطاء الخير الكثير يقال : باركه وبارك عليه وبارك فيه أي ألبسه الخير الكثير وحباه به ، وقد وقع في سورة طه في هذا الموضع من القصة قوله : « فلما أتاه نودي يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا

اخترتك فاستمع لما يوحى » طه : ١٣ . ويستأنس منه أن المراد بمن حول النار موسى أو هو ممن حول النار ، ومباركته اختياره بعد تقديسه .

وأما المراد بمن في النار فقد قيل : إن معناه من ظهر سلطانه وقدرته في النار فإن التكليم كان من الشجرة – على ما في سورة القصص – وقد أحاطت بها النار، وعلى هذا فالمعنى : تبارك من تجلّى لك بكلامه من النار وبارك فيك ، ويكون قوله : « وسبحان الله رب العالمين » تنزيهاً له سبحانه من أن يكون جسماً أو جسمانياً يحيط به المكان أو يجاوره الحدثان لا لتّعجيب موسى كما قيل .

وقيل : المراد بمن في النار الملائكة الحاضرون فيها كما أن المراد بمن حولها موسى عليه‌السلام .

وقيل : المراد به موسى عليه‌السلام وبمن حولها الملائكة .

وقيل : في الكلام تقدير والأصل بورك من في المكان الذي فيه النار – وهو البقعة المباركة التي كانت فيها الشجرة كما في سورة القصص – ومن فيها هو موسى وحولها هي الأرض المقدسة التي هي الشامات ، ومن حولها هم الأنبياء القاطنون فيها من آل إبراهيم وبني إسرائيل .

وقيل : المراد بمن في النار نور الله تعالى وبمن حولها موسى .

وقيل : المراد بمن في النار الشجرة فإنها كانت محاطة بالنار بمن حولها الملائكة المسبّحون .

وأكثر هذه الوجوه لا يخلو من تحكّم ظاهر .

قوله تعالى : « يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم » تعرّف منه تعالى لموسى عليه‌السلام ليعلم أن الذي يشافهه بالكلام ربه تعالى فهذه الآية في هذه السورة تحاذي قوله من سورة طه « نودي أن يا موسى إني أنا ربك فاخلع » الخ ، فارجع إلى سورة طه وتدبّر في الآيات .

قوله تعالى : « وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولّى مدبراً ولم يعقّب » الخ ، الاهتزاز التحرك الشديد ، والجان الحية الصغيرة السريعة الحركة ، والإدبار خلاف الإقبال ، والتعقيب الكرّ بعد الفر من عقّب المقاتل إذا كرّ بعد فراره .

وفي الآية حذف وإيجاز تفصح عنه الفاء الفصيحة في قوله : « فلما رآها تهتز » والتقدير وألق عصاك فلما ألقاها إذا هي ثعبان مبين يهتز كأنه جان ولما رآها تهتز الخ.

ولا منافاة بين صيرورة العصا ثعباناً مبيناً كما وقع في قصته عليه‌السلام من سورتي الأعراف والشعراء - والثعبان الحية العظيمة الجثة وبين تشبيهها في هذه السورة بالجان فإن التشبيه إنما وقع في الاهتزاز وسرعة الحركة والاضطراب حيث شاهد العصا وقد تبدلت ثعباناً عظيم الجثة هائل المنظر يهتز ويتحرك بسرعة اهتزاز الجان وتحركه بسرعة وليس تشبيهاً لنفس العصا أو الثعبان بنفس الجان .

وقيل : إن آية العصا كانت مختلفة الظهور فقد ظهرت العصا لأول مرة في صورة الجان كما وقع في سورة طه : « فألقاها فإذا هي حية تسعى » آية ٢٠ من السورة ثم ظهرت لما ألقاها عند فرعون في صورة ثعبان مبين كما في سورتي الأعراف والشعراء .

وفيه أن هذا الوجه وإن كان لا يخلو بالنظر إلى سياق الآيات عن وجاهة لكنه لا يندفع بـه إشكال تشبيه الشيء بنفسه أو عدم تبدلها حية فالمعول في دفع الإشكال على ما تقدم .

قوله تعالى: «يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون» حكاية نفس الخطاب الصادر هناك وهو في معنى قال الله يا موسى لا تخف « الخ » .

وقوله : « لا تخف » نهي مطلق يؤمنه عن كل ما يسوء مما يخاف منه ما دام في حضرة القرب والمشافهة سواء كان المخوف منه عصا أو غيرها ولذا علل النهي بقوله : « إني لا يخاف لديّ المرسلون » فإن تقييد النفي بقوله : « لديّ » يفيد أن مقام القرب والحضور يلازم الأمن ولا يجامع مكروهاً يخاف منه ، ويؤيده تبديل هذه الجملة في القصة من سورة القصص من قوله : « إنك من الآمنين » فيتحصل المعنى : لا تخف من شيء إنك مرسل والمرسلون - وهم لديّ في مقام القرب - في مقام الأمن ولا خوف مع الأمن .

وأما فرار موسى عليه‌السلام من العصا وقد تصورت بتلك الصورة الهائلة وهي تهتز كأنها جان فقد كان جرياً منه على ما جبل الله الطبيعة الإنسانية عليه إذا فاجأه من المخاطر ما لا سبيل له إلى دفعه عن نفسه إلا الفرار وقد كان أعزل لا سلاح معه إلا

عصاه وهي التي يخافها على نفسه ولم يرد عليه من جانبه تعالى أمر سابق أن يلزم مكانه أو نهي عن الفرار مما يخافه على نفسه إلا قوله تعالى : « وألق عصاك » وقد امتثله ، وليس الفرار من المخاطر العظيمة التي لا دافع لها إلا الفرار ، من الجبن المذموم حتى يذمّ عليه .

وأما أن الأنبياء والمرسلين لا يخافون شيئاً وهم عند ربهم ـ على ما يدل عليه قوله: « إني لا يخاف لديّ المرسلون » ـ فهم لا يملكون هذه الكرامة من عند أنفسهم بل إنما ذلك بتعليم من الله وتأديب وإذ كان موقف ليلة الطور أول موقف من موسى قرّبه الله اليه فيه وخصّه بالتكليم وحباه بالرسالة والكرامة فقوله : « لا تخف إنك من الآمنين » وقوله: «لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون» تعليم وتأديب إلهي له عليه السلام.

فتبيّن بذلك أن قوله : « لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون » تأديب وتربية إلهية لموسى عليه السلام وليس من التوبيخ والتأنيب في شيء .

قوله تعالى : « إلا من ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء فإني غفور رحيم » الذي ينبغي أن يقال ـ والله أعلم ـ أن الآية السابقة لما أخبرت عن أن المرسلين آمنون لا يخافون فهم منه أن غيرهم من أهل الظلم غير آمنين لهم أن يخافوا استدرك في هذه الآية حال أهل التوبة من جملة أهل الظلم فبيّن أنهم لتوبتهم وتبديلهم ظلمهم ـ وهو السوء ـ حسناً بعد سوء مغفور لهم مرحومون فلا يخافون أيضاً .

فالاستثناء من المرسلين وهو استثناء منقطع والمراد بالظلم مطلق المعصية وبالحسن بعد السوء التوبة بعد المعصية أو العمل الصالح بعد السيء ، والمعنى : لكن من ظلم باقتراف المعصية ثم بدّل ذلك حسناً بعد سوء وتوبة بعد معصية أو عملاً صالحاً بعد سيء فإني غفور رحيم أغفر ظلمه وأرحمه فلا يخافن بعد ذلك شيئاً .

قوله تعالى : « وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء الخ ، فسّر السوء بالبرص وقد تقدم ، وقوله : « في تسع آيات إلى فرعون وقومه » يمكن أن يستظهر من السياق أولاً أن « في تسع » حال من الآيتين جميعاً ، والمعنى : آتينك هاتين الآيتين ـ العصا واليد ـ حال كونهما في تسع آيات .

وثانياً : أن الآيتين من جملة الآيات التسع ، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى :

«ولقد آتينا موسى تسع آيات بيّنات» أسرى : ١٠١ ، كلام في تفصيل الآيات التسع، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هـذا سحر مبين » المبصرة بمعنى الواضحة الجلية ، وفي قولهم : « هـذا سحر مبين » إزراء وإهانة بالآيات حيث أهملوا الدلالة على خصوصيات الآيات حتى العدد فلم يعبؤا بها إلا بمقدار أنها أمر ما .

قوله تعالى : «وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً» الخ، قال الراغب: الجحد نفي ما في القلب إثباته وإثبات ما في القلب نفيه . انتهى . والإستيقان والإيقان بمعنى .

* * *

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ــ ١٥ . وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ــ ١٦ . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ــ ١٧ . حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ــ ١٨ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ــ ١٩ . وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ــ ٢٠ . لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً

أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ــ ٢١ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ــ ٢٢ . إِنِّي وَجَدْتُ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ــ ٢٣ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ــ ٢٤ . أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ــ ٢٥ . أَللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ــ ٢٦ . قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ــ ٢٧ . إِذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ــ ٢٨ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ــ ٢٩ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ــ ٣٠ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ــ ٣١ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَؤُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ ــ ٣٢ . قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ــ ٣٣ . قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ــ ٣٤ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ــ ٣٥ . فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ــ ٣٦ .

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ـ ٣٧ . قَالَ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ـ ٣٨ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ ٱلْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ـ ٣٩ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ ٱلْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ـ ٤٠ . قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ ـ ٤١ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ـ ٤٢ . وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ـ ٤٣ . قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ـ ٤٤ .

(بيان)

نبذة من قصص داود وسليمان عليهما السلام وفيها شيء من عجائب أخبار سليمان بما آتاه الله من الملك .

قوله تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » الخ ، في تنكير العلم إشارة إلى تفخيم أمره ، ومما أشير فيه إلى علم داود من كلامه تعالى قوله: « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب » ص : ٢٠ . ومما أشير فيه إلى علم سليمان قوله: « ففهّمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً » الأنبياء : ٧٩ ، وذيل الآية يشملهما جميعاً .

وقوله: « وقالا الحمد لله الذي فضّلنا على كثير من عباده المؤمنين » المراد بالتفضيل إما التفضيل بالعلم على ما ربما يؤيده سياق الآية ، وإما التفضيل بمطلق ما خصّهما الله به من المواهب كتسخير الجبال والطير لداود وتليين الحديد له وإيتائه الملك ، وتسخير الجن والوحش والطير وكذا الريح لسليمان وتعليمه منطق الطير وإيتائه الملك على ما يستدعيه إطلاق التفضيل .

والآية أعني قوله : « وقالا الحمد لله » الخ ، على أي حال بمنزلة حكاية اعترافهما على التفضيل الإلهي فيكون كالشاهد على المدّعى الذي تشير اليه بشارة صدر السورة أن الله سبحانه سيخصّ المؤمنين بما تقرّ به عيونهم ومثلها ما سيأتي من اعترافات سليمان في مواضع من كلامه .

قوله تعالى : « وورث سليمان داود » الخ ، أي ورثه ماله وملكه ، وأما قول بعضهم : المراد به وراثة النبوة والعلم ففيه أن النبوة لا تقبل الوراثة لعدم قبولها الانتقال ، والعلم وإن قبل الانتقال بنوع من العناية غير أنه إنما يصحّ في العلم الفكري الاكتسابي والعلم الذي يختص به الأنبياء والرسل كرامة من الله لهم وهبيّ ليس مما يكتسب بالفكر فغير النبي يرث العلم من النبي لكن النبي لا يرث علمه من نبي آخر ولا من غير نبي .

وقوله : « وقال يا أيها الناس عُلّمنا منطق الطير » ظاهر السياق أنه عليه السلام يباهي عن نفسه وأبيه وهو منه عليه السلام تحديث بنعمة الله كما قال تعالى : « وأما بنعمة ربك فحدّث » الضحى : ١١ ، وأما إصرار بعض المفسرين على أن الضمير في قوله : « عُلّمنا » و« أوتينا » لنفسه لا له ولأبيه على ما هو عادة الملوك والعظماء في الإخبار عن أنفسهم – فإنهم يخبرون عنهم وعن خدمهم وأعوانهم رعاية لسياسة الملك – فالسياق السابق لا يساعد عليه كل المساعدة .

والمراد بالناس ظاهر معناه وهو عامة المجتمعين من غير تميّز لبعضهم من بعض وقول بعضهم إن المراد بهم عظماء أهل مملكته أو علماؤهم غير سديد .

والمنطق والنطق على ما نتعارفه هو الصوت أو الأصوات المؤلّفة الدالّة بالوضع على معان مقصودة للناطق المسماة كلاماً ولا يكاد يقال - على ما ذكره الراغب - إلا للانسان لكن القرآن الكريم يستعمله في معنى أوسع من ذلك وهو دلالة الشيء على معنى مقصود لنفسه ، قال تعالى : « وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » حم السجدة : ٢١ ، وهو إما من باب تحليل المعنى كما يستعمله القرآن في أغلب المعاني والمفاهيم المقصورة في الاستعمالات على المصاديق الجسمانية المادية كالرؤية والنظر والسمع واللوح والقلم والعرش والكرسي وغيرها ، وإما لأن للّفظ معنى أعمّ واختصاصه بالإنسان من باب الانصراف لكثرة الاستعمال .

وكيف كان فمنطق الطير هو ما تدل به الطير بعضها على مقاصدها ، والذي نجده عند التأمل في أحوالها الحيوية هو أن لكل صنف أو نوع منها أصواتاً ساذجة خاصة في حالاتها الخاصة الاجتماعية حسب تنوّع اجتماعاتها كحال الهياج للسفاد وحال المغالبة والغلبة وحال الوحشة والفزع وحال التضرع أو الاستغاثة إلى غير ذلك ونظير الطير في ذلك سائر الحيوان .

لكن لا ينبغي الإرتياب في أن المراد بمنطق الطير في الآية معنى أدقّ وأوسع من ذلك .

أما أولاً : فلشهادة سياق الآية على أنه عليه‌السلام يتحدث عن أمر اختصاصي ليس في وسع عامة الناس أن ينالوه وإنما ناله بعناية خاصة إلهية ، وهذا المقدار المذكور من منطق الطير مما يسع لكل أحد أن يطّلع عليه ويعرفه .

وأما ثانياً : فلأن ما حكاه الله تعالى في الآيات التالية من محاورة سليمان والهدهد يتضمن معارف عالية متنوعة لا يسع لما نجده عند الهدهد من الأصوات المعدودة أن تدل عليها بتميّز لبعضها من بعض ففي كلام الهدهد ذكر الله سبحانه ووحدانيته وقدرته وعلمه وربوبيته وعرشه العظيم وذكر الشيطان وتزيينه الأعمال والهدى والضلال وغير ذلك ، وفيه ذكر الملك والعرش والمرأة وقومها وسجدتهم للشمس ، وفي كلام

سليمان أمره بالذهاب بالكتاب وإلقائه اليهم ثم النظر فيما يرجعون ، وهذه كما لا يخفى على الباحث في أمر المعاني المتعمق فيها معارف جمّة لها أصول عريقة يتوقف الوقوف عليهـــا على ألوف وألوف من المعلومات ، وأنـّى تفي على إفادة تفصيلها أصوات ساذجة معدودة .

على أنه لا دليل على أن كل ما يأتي بها الحيوان في نطقه من الأصوات أو خصوصيات الصوت يفي حسناً بإدراكه أو تمييزه ، ويؤيده ما نقل من قول النملة في الآيات التالية وهو من منطق الحيوان قطعاً ولا صوت للنملة يناله سمعنا ويؤيده أيضاً مـا يراه علماء الطبيعة اليوم أن الذي يناله سمع الانسان من الصوت عدد خاص من الارتعاش المادي وهو ما بين ستة عشر ألفاً إلى اثنين وثلاثين ألفاً في الثانية ، وأن الخارج من ذلك في جانبي القلة والكثرة لا يقوى عليه سمع الانسان وربما ناله سائر الحيوان أو بعضها .

وقد عثر العلماء الباحثون عن الحيوان من عجيب الفهم ولطيف الادراك عند أنواع من الحيوان كالفرس والكلب والقرد والدب والزنبور والنملة وغيرها على أمور لا يكاد يعثر على نظائرها عند أكثر أفراد الانسان .

وقـد تبين بما مر أن ظاهر السياق أن للطير منطقاً علمه الله سليمان ، وظهر به فساد قول من قال إن نطق الطير كان معجزة لسليمان وأما هي في نفسها فليس لها نطق هـذا .

وقوله : « وأوتينا من كل شيء » أي أعطينا من كل شيء ،و « كل شيء » وإن كان شاملاً لجميع ما يفرض موجوداً – لأن مفهوم شيء من أعمّ المفاهيم وقـد دخل عليه كلمة الاستغراق – لكن لما كان المقام مقام التحديث بالنعمة ولا كل نعمة بل النعم التي يمكن أن يؤتاها الانسان فيتنعم بهـــا تقيد به معنى كل شيء وكان معنى الجملة : وأعطانا الله من كل نعمة يمكن أن يعطاها الانسان فيتنعم بها مقداراً معتداً به كالعلم والنبوة والملك والحكم وسائر النعم المعنوية والمادية .

وقوله : « ذلك هو الفضل المبين » شكر وتأكيد للتحديث بالنعمة من غير عجب ولا كبر واختيال لاسناده الجميع إلى الله بقوله : « علمنا » و « أوتينـــا » ،

واحتمل بعضهم أن تكون الجملة من كلام الله سبحانه لا من كلام سليمان والسياق يأباه.

قوله تعالى: «وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون» الحشر هو جمع الناس وإخراجهم لأمر بإزعاج والوزع المنع وقيل الحبس، والمعنى كما قيل: وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يمنعون من التفرّق واختلاط كل جمع بآخر برد أولهم إلى آخرهم وحبس كل في مكانه.

ويستفاد من الآية أنه كان له جنود من الجن والطير يسيرون معه كجنوده من الإنس.

وكلمة الحشر ووصف المحشورين بأنهم جنود، وسياق الآيات التالية كل ذلك دليل على أن جنوده كانوا طوائف خاصة من الجن والإنس والطير سواء كانت «من» في الآية للتبعيض او للبيان.

وقد أغرب في التفسير الكبير فزعم أن الآية تدل على أن جميع الجن والإنس والطير كانوا جنوده وقد ملك الأرض كلها وأن الله تعالى جعل الطير في زمانه عقلاء مكلّفين ثم عادت بعد زمانه على ما كانت عليه قبله وقال بمثله في النملة التي تكلمت، قال في تفسير الآية: والمعنى أنه جعل الله تعالى كل هذه الأصناف جنوده، ولا يكون كذلك إلا بأن يتصرّف على مراده، ولا يكون كذلك إلا مع العقل الذي يصحّ معه التكليف او يكون بمنزلة المراهق الذي قد قارب حد التكليف، فلذلك قلنا: إن الله تعالى جعل الطير في أيامه مما له عقل وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وإن كان فيها ما قد ألهمه الله تعالى الدقائق التي خصّت بالحاجة اليها او خصّها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره. انتهى.

ووجوه التحكم فيه غنيّة عن البيان.

وتقديم الجن في الذكر على الإنس والطير لكون تسخيرهم ودخولهم تحت الطاعة عجيباً، وذكر الإنس بعده دون الطير مع كون تسخيرها أيضاً عجيباً رعاية لأمر المقابلة بين الجنّ والإنس.

قوله تعالى: «حتى إذا أتوا على وادي النمل» الآية، «حتى» غاية لما يفهم من الآية السابقة، وضمير الجمع لسليمان وجنوده، وتعدية الإتيان بعلى قيل: لكون

الإتيان من فوق ، ووادي النمل وادٍ بالشام على ما قيل ، وقيل : في أرض الطائف ، وقيل : في أقصى اليمن ، والحطم الكسر .

والمعنى : فلما سار سليمان وجنوده حتى أتوا على وادي النمل قالت نملة مخاطبة لسائر النمل: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يكسرنكم سليمان وجنوده أي لا يطأنكم بأقدامهم وهم لا يشعرون . وفيه دليل على أنهم كانوا يسيرون على الأرض .

قوله تعالى : « فتبسّم ضاحكاً من قولها » إلى آخر الآية ، قيل : التبسّم دون الضحك ، وعلى هذا فالمراد بالضحك هو الإشراف عليه مجازاً .

ولا منافاة بين قوله عليه السلام : « عُلّمنا منطق الطير » وبين فهمه كلام النملة إذ لم ينف فهمه كلام سائر الحيوان او كلام بعضها كالنملة .

وقد تسلّم جمع منهم دلالة قوله : « علّمنا منطق الطير » على نفي ما عداه فتكلفوا في توجيه فهمه عليه السلام قول النملة تارة بأنه كانت قضية في واقعة ، وأخرى بتقدير أنها كانت نملة ذات جناحين وهي من الطير ، وثالثة بأن كلامها كان من معجزات سليمان عليه السلام ، ورابعة بأنه عليه السلام لم يسمع منها صوتاً قط وإنما فهم ما في نفس النملة إلهاماً من الله تعالى هذا .

وما تقدم من معنى منطق الحيوان يزاح به هذه الأوهام . على أن سياق الآيات وحده كافٍ في دفعها .

وقوله : « وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه » الإيزاع الإلهام . تبسّم عليه السلام مبتهجاً مسروراً بما أنعم الله عليه حتى أوقفه هذا الموقف وهي النبوّة والعلم بمنطق الحيوان والملك والجنود من الجنّ والإنس والطير فسأل الله أن يلهمه شكر نعمته وأن يعمل بما فيه رضاه سبحانه .

وقد جعل الشكر للنعمة التي أنعم الله تعالى بها على نفسه مختصة به ، وللنعمة التي أنعم بها على والديه فإن الإنعام على والديه إنعام عليه بوجه لكونه منهما وقد أنعم الله تعالى على أبيه داود بالنبوة والملك والحكمة وفصل الخطاب وغيرها وأنعم على أمه حيث زوّجها من داود النبي ورزقها سليمان النبي وجعلها من أهل بيت النبوة .

وفي كلامه هـذا دليل على أن والدته من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم [١] وهم احدى الطوائف الأربع المذكورين في قوله تعالى: « الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين » النساء : ٦٩ .

وقوله : « وأن أعمل صالحاً ترضاه » عطف على قوله : « أن أشكر نعمتك » ومسألته هذه: « أوزعني أن أعمل» الخ» أمر أرفع قدراً وأعلى منزلة من سؤال التوفيق للعمل الصالح فإن التوفيق يعمل في الأسباب الخارجيـة بترتيبها بحيث توافق سعادة الإنسان والإيزاع الذي سأله دعوة باطنية في الإنسان إلى السعادة ، وعلى هذا فليس من البعيد أن يكون المراد به الوحي الذي أكرم الله به إبراهيم وآله فيما يخبر عنه بقوله : « وأوحينا اليهم فعل الخيرات » الآية الأنبياء : ٧٣ ، وهو التأييد بروح القدس على ما مر في تفسير الآية .

وقوله : « وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » أي اجعلني منهم ، وهـذا الصلاح لما لم يتقيد بالعمل كان هو صلاح الذات وهو صلاح النفس في جوهرها الذي يستعد به لقبول أي كرامة إلهية .

ومن المعلوم أن صلاح الذات أرفع قدراً من صلاح العمل ففي قوله : « وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين » تدرّج في المسألة من الأدنى إلى الأعلى وقد كان صلاح العمل منسوباً إلى صنعه واختياره بوجه دون صلاح الذات ولذا سأل صلاح الذات من ربه ولم يسأل نفس صلاح العمل بل أن يوزعه أن يعمل .

وفي تبديله سؤال صلاح الذات من سؤال أن يدخله في عباده الصالحين إيذان بسؤاله ما خصهم الله به من المواهب وأغزرها العبودية وقد وصفه الله بها في قوله : « نعم العبد إنه أواب » ص : ٣٠ .

قوله تعالى : « وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين » قال الراغب: التفقد التعهد لكن حقيقة التفقد تعرف فقدان الشيء والتعهد تعرف العهد

---

(١) وفيه تبرئة ساحتها عما في التوراة الدائرة ففي التوراة أنها كانت امرأة اوريا فجر بها داود ثم كاد في قتل اوريا فقتل في بعض الحروب فأدخلها في أزواجه فولدت له سليمان .

المتقدم قال تعالى : « وتفقد الطير » . انتهى .

استفهم أولاً متعجباً من حال نفسه إذ لا يرى الهدهد بين الطير كأنه لم يكن من المظنون في حقه أن يغيب عن موكبه ويستنكف عن امتثال أمره ثم أضرب عن ذلك بالاستفهام عن غيبته .

والمعنى :ما بالي لا أرى الهدهد بين الطيور الملازمة لموكبي بل أكان من الغائبين.

قوله تعالى : « لاعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين » اللامات للقسم والسلطان المبين البرهان الواضح ، يقضي عليه السلام على الهدهد أحد ثلاث خصال : العذاب الشديد والذبح وفيها شقاؤه ، والإتيان بحجة واضحة وفيه خلاصه ونجاته .

قوله تعالى : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنبإ يقين » ضمير « فمكث » لسليمان ويحتمل أن يكون للهدهد ويؤيد الأول سابق السياق والثاني لاحقه ، والمراد بالإحاطة العلم الكامل، وقوله : « وجئتك » الخ ، بمنزلة عطف التفسير لقوله: « أحطت » الخ، وسبأ بلدة باليمن كانت عاصمته يومئذ والنبأ الخبر الذي له أهمية ، واليقين ما لا شك فيه .

والمعنى:فمكث سليمان – أو فمكث الهدهد – زماناً غير بعيد – ثم حضر فسأله سليمان عن غيبته وعاتبه – فقال أحطت من العلم بما لم تحط به وجئتك من سبإ بخبر مهم لا شك فيه .

ومنه يظهر أن في الآية حذفاً وإيجازاً، وقد قيل: إن في قول الهدهد: « أحطت بما لم تحط به » كسراً لسورة سليمان عليه السلام فيما شدد عليه .

قوله تعالى : « إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » الضمير في « تملكهم » لأهل سبإ وما يتبعها وقوله : « وأوتيت من كل شيء » وصف لسعة ملكها وعظمته وهو القرينة على أن المراد بكل شيء في الآية كل شيء هو من لوازم الملك العظيم من حزم وعزم وسطوة ومملكة عريضة وكنوز وجنود مجندة ورعيّة مطيعة ، وخصّ بالذكر من بينها عرشها العظيم .

قوله تعالى : « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » الخ ، أي إنهم

من عبَدة الشمس من الوثنيين .

وقوله : « وزيّن لهم الشيطان أعمالهم » بمنزلة عطف التفسير لما سبقه وهو مع ذلك توطئة لقوله بعد : « فصدّهم عن السبيل » لأن تزيين الشيطان لهم أعمالهم التي هي سجدتهم وسائر تقرّباتهم هو الذي صرفهم ومنعهم عن سبيل الله وهي عبادته وحده .

وفي إطلاق السبيل من غير إضافتها اليه تعالى إشارة إلى أنهـــا السبيل المتعينة للسبيلية بنفسها للانسان بالنظر إلى فطرته بل لكل شيء بالنظر إلى الخلقة العامة .

وقوله : « فهم لا يهتدون » تفريع على صدّهم عن السبيل إذ لا سبيل مع الصدّ عن السبيل فلا اهتداء ، فافهمه .

قوله تعالى : « ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون » القراءة الدائرة « ألا » – بتشديد اللام – مؤلف من « أن و لا » وهو عطف بيـان من « أعمالهم » ، والمعنى : زيّن لهم الشيطان أن لا يسجدوا لله ، وقيل : بتقدير لام التعليل ، والمعنى : زيّن لهم الشيطان ضلالتهم لئلا يسجدوا لله .

والخبء على ما في مجمع البيان المخبوء وهو ما أحاط به غيره حتى منع من إدراكه وهو مصدر وصف به يقال: خبأته أخبئه خبأ وما يوجده الله تعالى فيخرجه من العدم إلى الوجود يكون بهذه المنزلة . انتهى .

ففي قوله : « يخرج الخبء في السماوات والأرض » استعارة كأن الأشياء مخبوءة مستورة تحت أطباق العدم فيخرجها الله تعالى إلى الوجود واحداً بعـد آخر فيكون تسمية الإيجاد بعد العدم إخراجاً للخبء قريباً من تسميته بالفطر وتوصيفه تعالى بأنه فاطر السماوات والأرض والفطر هو الشق كأنه يشقّ العدم فيخرج الأشياء .

ويمكن حمل الجملة على الحقيقة من غير استعارة لكنه مفتقر إلى بيان موضعه غير هذا الموضع . وقيل : المراد بالخبء الغيب وإخراجه العلم به وهو كما ترى .

وقوله : « ويعلم ما تخفون وما تعلنون » بالتـــاء على الخطاب أي يعلم سرّكم وعلانيتكم ، وقرأ الأكثرون بالياء على الغيبة وهو أرجح .

وملخص الحجة : انهم إنما يسجدون للشمس دون الله تعظيماً لها على ما أودع الله سبحانه في طباعها من الآثار الحسنة والتدبير العـام للعالم الأرضي وغيره ، والله الذي

أخرج جميع الأشياء من العدم إلى الوجود ومن الغيب إلى الشهادة فترتب على ذلك نظام التدبير من أصله – ومن جملتها الشمس وتدبيرها – أولى بالتعظيم وأحق ان يسجد له، مع انه لا معنى لعبادة ما لا شعور له بها ولا شعور للشمس بسجدتهم والله سبحانه يعلم ما يخفون وما يعلنون فالله سبحانه هو المتعين للسجدة والتعظيم لا غير .

وبهذا البيان تبين وجه اتصال قوله تلواً : « الله لا إله إلا هو » الخ .

قوله تعالى : « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » من تمام كلام الهدهد وهو بمنزلة التصريح بنتيجة البيان الضمني السابق وإظهار الحق قبال باطلهم ولذا أتى أولاً بالتهليل الدالّ على توحيد العبادة ثم ضمّ اليه قوله : « رب العرش العظيم » الدال على انتهاء تدبير الأمر اليه فإن العرش الملكي هو المقام الذي تجتمع عنده ازمة الامور وتصدر منه الأحكام الجارية في الملك .

وفي قوله: « رب العرش العظيم » مناسبة محاذاة اخرى مع قوله في وصف ملكة سبأ : « ولها عرش عظيم » ولعل قول الهدهد هذا هو الذي دعا – او هو من جملة ما دعا – سليمان عليه السلام ان يأمر ان يأتوا بعرشها اليه ليخضع لعظمة ربه كل عظمة .

قوله تعالى : « قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » الضمير لسليمان عليه السلام . أحال القضاء في أمر الهدهد إلى المستقبل فلم يصدقه في قوله لعدم بيّنة عليه بعد ولم يكذبه لعدم الدليل على كذبه بل وعده ان يجرّب ويتأمل .

قوله تعالى: «اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون» حكاية قول سليمان خطاباً للهدهد كأنه قيل : فكتب سليمان كتاباً ثم قال للهدهد : اذهب بكتابي هذا إليهم أي إلى ملكة سبأ وملأها فألقه إليهم ثم تولّ عنهم أي تنحّ عنهم وقع في مكان تراهم فانظر ماذا يرجعون أي ماذا يرد بعضهم من الجواب على بعض إذا تكلموا فيه .

وقوله : « فألقه » بسكون الهاء وصلاً ووقفاً في جميع القراءات وهي هاء السكت ، ومما قيل في الآية : أن قوله « ثم تولّ عنهم فانظر » الخ ، من قبيل التقديم والتأخير والأصل فانظر ماذا يرجعون ثم تولّ عنهم . وهو كما ترى .

قوله تعالى : « قالت يا أيها الملؤ إني ألقي إليّ كتاب كريم إنه من سليمان وإنه

بسم الله الرحمن الرحيم » في الكلام حذف وإيجـاز والتقدير فأخذ الهدهد الكتاب وحمله إلى ملكة سبأ حتى إذا أتاها ألقاه إليها فأخذتها ولما قرأتها قالت لملإها وأشراف قومها يا أيها الملؤ « الخ » .

فقوله : « قالت يا أيهـا الملؤ إني ألقي إليّ كتاب كريم » حكاية ذكرها لملإها أمر الكتاب وكيفية وصوله إليها ومضمونه ، وقد عظـّمته إذ وصفته بالكرم .

وقوله : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » ظاهره أنه تعليل لكون الكتاب كريماً أي والسبب فيه أنه من سليمان ولم يكد يخفى عليها جبروت سليمان وما أوتيه من الملك العظيم والشوكة العجيبة كما اعترفت بذلك في قولها على ما حكاه الله بعد : « وأوتينا العلم من قبله وكنا مسلمين » .

وإنه بسم الله الرحمن الرحيم : أي الكتاب باسمه تعالى فهو كريم لذلك والوثنيون جميعاً قائلون بالله سبحانه يرونه رب الأرباب وإن لم يعبدوه ، وعبدة الشمس منهم وهم من شعب الصابئين يعظـّمونه ويعظـّمون صفاته وإن كانوا يفسّرون الصفات بنفي النقائص والأعدام فيفسرون العلم والقدرة والحيـاة والرحمة مثلاً بانتفاء الجهل والعجز والموت والقسوة فكون الكتاب باسم الله الرحمن الرحيم يستدعي كونه كريماً ، كما أن كونه من سليمان العظيم يستدعي كونه كريماً ، وعلى هـذا فالكتاب أي مضمونه هو قوله : « أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » وأن مفسّرة .

ومن العجيب ما عن جمع من المفسرين أن قوله : « إنه من سليمان » استئناف وقع جواباً لسؤال مقدّر كأنه قيل : ممن الكتاب وماذا فيه فقالت : إنـه من سليمان الخ ، وعلى هـذا يكون قوله : وإنه بسم الله بياناً للكتاب أي لمتنه وأن الكتاب هو « بسم الله الرحمن الرحيم أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين » .

ويتوجه عليهم أولاً : وقوع لفظة أن زائدة لا فايدة لها ولذا قال بعضهم : إنها مصدرية و « لا » نافية لا ناهية وهو وجه سخيف كما سيأتي .

وثانياً : بيان الوجه في كون الكتاب كريماً فقيل: وجه كرامته أنه كان مختوماً ففي الحديث : إكرام الكتاب ختمه حتى ادّعى بعضهم أن معنى كرامة الكتاب ختمه ، يقال : أكرمت الكتاب فهو كريم إذا ختمته ، وقيل : إنها سمته كريماً لجودة

خطه وحسن بيانه ، وقيل : لوصوله إليها على منهاج غير عادي ، وقيل : لظنها بسبب إلقاء الطير أنه كتاب سماوي إلى غير ذلك من الوجوه .

وأنت خبير بأنهـا تحكمات غير مقنعة ، والظاهر أن الذي أوقعهم فيما وقعوا حملهم قوله : « وإنه بسم الله – إلى قوله – مسلمين » على حكاية متن الكتاب وذلك ينافي حمل قوله : « وإنه من سليمان وإنـه بسم الله » الخ ، على تعليل كرامة الكتاب ويدفعه أن ظاهر أن المفسرة في قوله: «أن لا تعلوا عليّ» الخ ، أنه نقل لمعنى الكتاب ومضمونه لا حكاية متنه فمحصّل الآيتين أن الكتاب كان مبدوءاً بسم الله الرحمن الرحيم وأن مضمونه النهي عن العلو عليه والأمر بأن يأتوه مسلمين فلا محذور أصلاً .

قوله تعالى : «أن لا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين» أن مفسرة تفسر مضمون كتاب سليمان كما تقدمت الإشارة اليه .

وقول بعضهم: إنها مصدرية و « لا » نافية أي عدم علوكم علي ، سخيف لاستلزامه أولاً : تقدير مبتدأ او خبر محذوف من غير موجب ، وثانياً : عطف الإنشاء وهو قوله : « وأتوني » على الإخبار .

والمراد بعلوهم عليـه استكبارهم عليه ، وبقوله : « وأتوني مسلمين » إسلامهم بمعنى الإنقياد على ما يؤيده قوله : « أن لا تعلوا علي » دون الإسلام بالمعنى المصطلح وهو الإيمان بالله سبحانه وإن كان إتيانهم منقادين له يستلزم إيمانهم بالله على ما يستفاد من سياق قول الهدهد وسياق الآيات الآتية ، ولو كان المراد بالإيمان المعنى المصطلح كان المناسب له أن يقال : أن لا تعلوا على الله .

وكون سليمان عليه‌السلام نبياً شأنه الدعوة إلى الإسلام لا ينافي ذلك فإنه كان ملكاً رسولاً وكانت دعوته إلى الانقياد المطلق تستلزم ذلك كما تقدم وقد انتهت إلى إسلامها لله كما حكى الله تعالى عنها « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » .

قوله تعالى : « قالت يا أيهـا الملؤ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » الإفتاء إظهار الفتوى وهي الرأي ، وقطع الأمر القضاء به والعزم عليه والشهادة الحضور وهذا استشارة منها لهم تقول: أشيروا علي في هذا الأمر الذي واجهته – وهو الذي يشير اليه كتاب سليمان – وإنما أستشيركم فيه لأني لم أكن حتى اليوم

استبد برأيي في الامور بل أقضي وأعزم عن إشارة وحضور منكم .

فالآية تشير إلى فصل ثان من كلامها مع ملإها بعد الفصل الأول الذي أخبرتهم فيه بكتاب سليمان عليه‌السلام وكيفيه وصوله وما فيه .

قوله تعالى : « قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين» القوة ما يتقوى به على المطلوب وهي ههنا الجند الذي يتقوى به على دفع العدو وقتاله ، والبأس الشدة في العمل والمراد به النجدة والشجاعة .

والآية تتضمن جواب الملإ لها يسمعونها أولاً ما يطيب له نفسها ويسكن به قلقها ثم يرجعون اليها الأمر بقولون : طيبي نفساً ولا تحزني فإن لنا من القوة والشدة ما لا نهاب به عدواً وإن كان هو سليمان ثم الأمر اليك مري بما شئت فنحن مطيعوك .

قوله تعالى : « قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » إفساد القرى تخريبها وإحراقها وهدم أبنيتها ، وإذلال أعزة أهلها هو بالقتل والأسر والسبي والإجلاء والتحكم .

كان رأيها على ما يستفاد من هاتين الآيتين - زيادة التبصر في أمر سليمان عليه‌السلام بأن ترسل اليه من يختبر حاله ويشاهد مظاهر نبوته وملكه فيخبر الملكة بما رأى حتى تصمم هي العزم على أحد الأمرين : الحرب أو السلم وكان الظاهر من كلام الملاء حيث بدؤا في الكلام معها بقولهم نحن اولو قوة واولو بأس شديد ، أنهم يميلون إلى القتال لذلك أخذت أولاً تذم الحرب ثم نصت على ما هو رأيها فقالت : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » الخ ، اي إن الحرب لا تنتهي إلا إلى غلبة أحد المتحاربين وفيهـا فساد القرى وذلة أعزتها فليس من الحزم الإقدام عليها مع قوة العدو وشوكته مهما كانت إلى السلم والصلح سبيل إلا لضرورة ورأيي الذي أراه ان أرسل اليهم بهـدية ثم أنظر بماذا يرجع المرسلون من الخبر وعند ذلك أقطع بأحد الأمرين الحرب او السلم .

فقوله : « إن الملوك إذا دخلوا » الخ ، توطئة لقوله بعد : « وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة » الخ .

وقوله : « وجعلوا أعزة أهلها أذلة » أبلغ وآكد من قولنا مثلا : استذلوا أعزتها لأنه مع الدلالة على تحقق الذلة يدل على تلبسهم بصفة الذلة .

وقوله : « وكذلك يفعلون » مسوق للدلالة على الاستمرار بعد دلالة قوله : « أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة » على اصل الوقوع، وقيل : إن الجملة من كلام الله سبحانه لا من تمام كلام ملكة سبأ، وليس بسديد إذ لا اقتضاء في المقام لمثل هذا التصديق.

قوله تعالى : « وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بمَ يرجع المرسلون » اي مرسلة إلى سليمان وهذا نوع من التجبر والاعتزاز الملوكي تصون لسانها عن اسمه وتنسب الأمر اليه وإلى من معه جميعاً وايضاً تشير به إلى انه يفعل ما يفعل بأيدي اعضاده وجنوده وإمداد رعيته .

وقوله : « فناظرة بمَ يرجع المرسلون » اي حتى اعمل عند ذلك بما تقتضيه الحال وهذا - كما تقدم - هو رأي ملكة سبأ ، ويعلم من قوله : « المرسلون » أن الحامل للهدية كان جمعاً من قومها كما يستفاد من قول سليمان بعد : « ارجع اليهم » انه كان للقوم المرسلين رئيس يرأسهم .

قوله تعالى : « فلما جاء سليمان قال أتمدُّونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون » ضمير جاء للمال الذي أهدى اليه او للرسول الذي جاء بالهدية.

والاستفهام في قوله : « أتمدُّونن بمال » للتوبيخ والخطاب للرسول والمرسل بتغليب الحاضر على الغائب ، وتوبيخ القوم من غير تعيين الملكة من بينهم نظير قولها فيما تقدم : « وإني مرسلة اليهم بهدية » كما أشرنا اليه .

وجوّز ان يكون الخطاب للمرسلين وكانوا جماعة وهو خطأ فإن الإمداد لم يكن من المرسلين بل ممن أرسلهم فلا معنى لتوجيه التوبيخ اليهم خاصة ، وتنكير المال للتحقير ، والمراد بما آتاني الله الملك والنبوة .

والمعنى : أتمدُّونني بمال حقير لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله فما آتاني الله من النبوة والملك والثروة خير مما آتاكم .

وقوله : « بل انتم بهديتكم تفرحون » إضراب عن التوبيخ بإمداده بالمال إلى التوبيخ بفرحهم بهديتهم أي إن إمدادكم إياي بمال لا قدر له عندي في جنب ما آتاني الله قبيح وفرحكم بهديتكم لاستعظامكم لها وإعجابكم بها أقبح .

وقيل : المراد بهديتكم الهدية التي تهدى اليكم ، والمعنى : بل انتم تفرحون بما

يهدى اليكم من الهدية لحبكم زيادة المال وأما أنا فلا أعتد بمال الدنيا هذا. وبعده ظاهر.

قوله تعالى: «ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قِبَل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلّة وهم صاغرون» الخطاب لرئيس المرسلين، وضمائر الجمع راجعة إلى ملكة سبأ وقومها، والقبل الطاقة، وضمير «بها» لسبأ، وقوله: «وهم صاغرون» تأكيد لما قبله، واللام في «فلنأتينهم» و «لنخرجنهم» للقسَم.

لما كان ظاهر تبديلهم إمتثال أمره - وهو قوله: «وأتوني مسلمين» - من إرسال الهدية هو الاستنكاف عن الاسلام قدّر بحسب المقام انهم غير مسلمين له فهددهم بإرسال جنود لا قبل لهم بها ولذلك فرّع إتيانهم بالجنود على رجوع الرسول من غير أن يشترطه بعدم إتيانهم مسلمين فقال: «ارجع اليهم فلنأتينهم» الخ، ولم يقل: ارجع فإن لم يأتوني مسلمين فلنأتينهم الخ، وإن كان مرجع المعنى اليه فإن إرسال الجنود وإخراجهم من سبأ على حال الذلة كان مشروطاً به على أي حال.

والسياق يشهد أنه عليه السلام ردّ اليهم هديتهم ولم يقبلها منهم.

قوله تعالى: «قال يا أيها الملؤ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين» كلام تكلم به بعد رد الهدية وإرجاع الرسل، وفيه إخباره انهم سيأتونه مسلمين وإنما أراد الإتيان بعرشها قبل حضورها وقومها عنده ليكون دلالة ظاهرة على بلوغ قدرته الموهوبة من ربه ومعجزة باهرة لنبوته حتى يسلموا لله كما يسلمون له ويستفاد ذلك من الآيات التالية.

قوله تعالى: «قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقويّ أمين» العفريت - على ما قيل - المارد الخبيث، وقوله: «آتيك به» اسم فاعل او فعل مضارع من الإتيان، والأول أنسب للسياق لدلالته على التلبّس بالفعل وكونه أنسب لعطف قوله: «وإني عليه» الخ، وهو جملة اسمية عليه. كذا قيل.

وقوله: «وإني عليه لقويّ أمين» الضمير للإتيان أي أنا للإتيان بعرشها لقوي لا يثقل عليّ حمله ولا يجهدني نقله، أمين لا أخونك في هذا الأمر.

قوله تعالى: «قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك» مقابلته لمن قبله دليل

على انه كان من الإنس ، وقد وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام انه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيّه ، وقيل : هو الخضر ، وقيل : رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أجاب ، وقيل : جبريل ، وقيل : هو سليمان نفسه ، وهي وجوه لا دليل على شيء منها .

وأياً ما كان وأي من كان ففصل الكلام مما قبله من غير أن يعطف عليه للاعتناء بشأن هذا العالم الذي أتى بعرشها اليه في أقل من طرفة العين ، وقد اعتنى بشأن علمه أيضاً إذ نكّر فقيل : علم من الكتاب أي علم لا يحتمل اللفظ وصفه .

والمراد بالكتاب الذي هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماوية او اللوح المحفوظ ، والعلم الذي أخذه هذا العالم منه كان علماً يسهّل له الوصول إلى هذه البغية وقد ذكر المفسرون أنه كان يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب ، وربما ذكر بعضهم أن ذلك الإسم هو الحي القيّوم ، وقيل : ذو الجلال والإكرام ، وقيل : الله الرحمان ، وقيل : هو بالعبرانية آهياً شراهياً ، وقيل : إنه دعا بقوله : يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت إيتني بعرشها . إلى غير ذلك مما قيل .

وقد تقدم في البحث عن الأسماء الحسنى في الجزء الثامن من الكتاب أن من المحال أن يكون الاسم الأعظم الذي له التصرف في كل شيء من قبيل الألفاظ ولا المفاهيم التي تدل عليها وتكشف عنها الألفاظ بل إن كان هناك اسم له هذا الشأن او بعض هذا الشأن فهو حقيقة الاسم الخارجية التي ينطبق عليها مفهوم اللفظ نوعاً من الانطباق وهي الاسم حقيقة واللفظ الدال عليها اسم الاسم .

ولم يرد في لفظ الآية نبأ من هذا الاسم الذي ذكروه بل الذي تتضمنه الآية أنه كان عنده علم من الكتاب ، وأنه قال : أنا آتيك به ، ومن المعلوم مع ذلك أن الفعل فعل الله حقيقة ، وبذلك كله يتحصل أنه كان له من العلم بالله والارتباط به ما إذا سأل ربه شيئاً بالتوجه اليه لم يتخلف عن الاستجابة وإن شئت فقل: إذا شاءه الله سبحانه.

ويتبين مما تقدم أيضاً أن هذا العلم لم يكن من سنخ العلوم الفكرية التي تقبل الاكتساب والتعلم .

وقوله : « أنا آتيك به قبل أن يرتدّ اليك طرفك » الطرف – على ما قيل –

اللحظ والنظر وارتداد الطرف وصول المنظور اليه إلى النفس وعلم الإنسان به ، فالمراد أنا آتيك به في أقل من الفاصلة الزمانية بين النظر إلى الشيء والعلم به .

وقيل : الطرف تحريك الأجفان وفتحها للنظر ، وارتداده هو انضمامها ولكونه أمراً طبيعياً غير منوط بالقصد أوثر الارتداد على الرد فقيل : قبل أن يرتدّ إليك طرفك ولم يقل : قبل أن يرد . هذا .

وقد أخطأ فالطرف كالتنفس من أفعال الإنسان الاختيارية غير أن الذي يبعث اليه هو الطبيعة كما في التنفس ولذلك لا يحتاج في صدوره إلى تروّ سابق كما يحتاج اليه في أمثال الأكل والشرب ، فالفعل الاختياري ما يرتبط إلى إرادة الإنسان وهو أعمّ مما يسبقه التروي ، والذي اوقع هـذا القائل فيما وقع ظنه التساوي بين الفعل الصادر عن اختيار والصادر عن تروٍّ ، ولعل النكتة في إيثار الإرتداد على الرد هي أن الفعل لعدم توقفه على التروي كأنه يقع بنفسه لا عن مشيّة من اللاحظ .

والخطاب في قوله : « أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » لسليمان عليه السلام فهو الذي يريد الإتيان به إليه وهو الذي يراد الإتيان به إليه .

وقيل : الخطاب للعفريت القائل : أنا آتيك به قبل ان تقوم من مقامك والمراد بالذي عنده علم من الكتاب عند هـذا القائل هو سليمان ، وإنما قاله له إظهاراً لفضل النبوة وأن الذي أقدره الله عليه بتعليمه علماً من الكتاب أعظم مما يتبجح به العفريت من القدرة ، فالمعنى : قال سليمان للعفريت لمـا قال ما قال : أنا آتيك بالعرش قبل ارتداد طرفك .

وقد أصر في التفسير الكبير على هذا القول وأورد لتأييده وجوهاً وهي وجوه ردية وأصل القول لا يلائم السياق كما أومأنا اليه .

قوله تعالى : « فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي » إلى آخر الآية ، أي لما رأى سليمان العرش مستقراً عنده قال هذا ، أي حضور العرش واستقراره عندي في أقل من طرفة العين من فضل ربي من غير استحقاق مني ليبلوني أي يمتحنني أأشكر نعمته أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه أي يعود نفعه إليه لا إلى ربي ومن كفر فلم يشكر فإن ربي غني كريم ـ وفي ذيل الكلام تأكيد لما في صدره من حديث الفضل ـ

وقيل : المشار إليه بقوله « هذا » هو التمكن من إحضاره بالواسطة او بالذات.

وفيه أن ظاهر قوله : « فلما رآه مستقراً عنده قال » الخ، أن هذا الثناء مرتبط بحال الرؤية والذي في حال الرؤية هو حضور العرش عنده دون التمكن من الإحضار الذي كان متحققاً منذ زمان .

وفي الكلام حذف وإيجاز ، والتقدير فأذن له سليمان في الإتيان به كذلك فأتى به كما قال : « فلما رآه مستقراً عنده » وفي حذف ما حذف دلالة بالغة على سرعة العمل كأنه لم يكن بين دعواه الإتيان به كذلك وبين رؤيته مستقراً عنده فصل أصلاً .

قوله تعالى : « قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون » ، قال في المفردات : تنكير الشيء من حيث المعنى جعله بحيث لا يعرف ، قال تعالى : « قال نكّروا لها عرشها » وتعريفه جعله بحيث يعرف . انتهى .

والسياق يدل على أن سليمان عليه السلام إنما قاله حينما قصدته ملكة سبأ وملأها لما دخلوا عليه ، وإنما أراد بذلك اختبار عقلها كما أنه أراد بأصل الإتيان به إظهار آية باهرة من آيات نبوته لها ، ولذا امر بتنكير العرش ثم رتّب عليه قوله : « ننظر أتهتدي » الخ ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » أي فلما جاءت الملكة سليمان عليه السلام قيل له من جانب سليمان : « أهكذا عرشك » وهو كلمة اختبار .

ولم يقل : أهذا عرشك بل زيد في التنكير فقيل : أهكذا عرشك ؟ فاستفهم عن مشابهة عرشها لهذا العرش المشار اليه في هيئته وصفاته ، وفي نفس هذه الجملة نوع من التنكير .

وقوله : « قالت كأنه هو » المراد به أنه هو وإنما عبّرت بلفظ التشبيه تحرزاً من الطيش والمبادرة إلى التصديق من غير تثبت ، ويكنى عن الاعتقادات الابتدائية التي لم يتثبت عليها غالباً بالتشبيه .

وقوله : « وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » ضمير « قبلها » لهذه الآية أي الإتيان بالعرش او لهذه الحالة اي رؤيتها له بعدما جاءت ، وظاهر السياق أنها تتمة

كلام الملكة فهي لما رأت العرش وسئلت عن امره احست أن ذلك منهم تلويح إلى ما آتى الله سليمان من القدرة الخارقة للعادة فأجابت بقولها : « وأوتينا العلم من قبلها » الخ ، أي لا حاجة إلى هذا التلويح والتذكير فقد علمنا بقدرته قبل هذه الآية او هذه الحالة وكنا مسلمين لسليمان طائعين له .

وقيل : قوله : « وأوتينا العلم » الخ ، من كلام سليمان ، وقيل : من كلام قوم سليمان ، وقيل من كلام الملكة ، لكن المعنى وأوتينا العلم بإتيان العرش قبل هـــذه الحال — وهي جميعاً وجوه ردية — .

قوله تعالى : « وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين » الصد: المنع والصرف،ومتعلق الصد الإسلام لله وهو الذي ستشهد به حين تؤمر بدخول الصرح فتقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين،وأما قولها في الآية السابقة : « وكنا مسلمين » فهو إسلامها وانقيادها لسليمان عليه السلام .

هذا ما يعطيه سياق الآيات وللقوم وجوه أخر في معنى الآية أضربنا عنها .

وقوله : « إنها كانت من قوم كافرين » في مقام التعليل للصد، والمعنى : ومنعها عن الإسلام لله ما كانت تعبد من دون الله وهي الشمس على ما تقدم في نبأ الهدهد والسبب فيه أنها كانت من قوم كافرين فاتبعتهم في كفرهم .

قوله تعالى : « قيل لها ادخلي الصرح » إلى آخر الآية ، الصرح هو القصر وكل بناء مشرف والصرح الموضع المنبسط المنكشف من غير سقف ، واللجة المعظم من الماء والممرد اسم مفعول من التمريد وهو التمليس ، والقوارير الزجاج .

وقوله : « قيل لها ادخلي الصرح » كأن القائل بعض خدم سليمان مع حضور من سليمان ممن كان يهديها إلى الدخول عليه على ما هو الدأب في وفود الملوك والعظماء على أمثالهم .

وقوله : « فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها » اي لما رأت الصرح ظنت انه لجة لما كان عليه الزجاج من الصفاء كالماء وكشفت عن ساقيها بجمع ثيابها لئلا تبتل بالماء أذيالها .

وقوله :« قال إنه صرح ممرد من قوارير » القائل هو سليمان نبهها انه ليس بلجة

بل صرح ممرد من زجاج فلما رأت ما رأت من عظمة ملك سليمان وقد كانت رأت سابقاً ما رأت من أمر هدهد ورد الهدية والإتيان بعرشها لم تشك ان ذلك من آيات نبوته من غير ان يؤتى بحزم او تدبير وقالت عند ذلك : رب إني ظلمت نفسي الخ .

وقوله : « وقالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » ، استغاثت أولاً بربها بالاعتراف بالظلم إذ لم تعبد الله من بدء او من حين رأت هذه الآيات ثم شهدت بالإسلام لله مع سليمان .

وفي قوله : « وأسلمت مع سليمان لله » التفات بالنسبة اليه تعالى من الخطاب إلى الغيبة ووجهه الانتقال من إجمال الإيمان بالله إذ قالت: رب إني ظلمت نفسي إلى التوحيد الصريح فإنها تشهد ان إسلامها لله مع سليمان فهو على نهج إسلام سليمان وهو التوحيد ثم تؤكد التصريح بتوصيفه تعالى برب العالمين فلا رب غيره تعالى لشيء من العالمين وهو توحيد الربوبية المستلزم لتوحيد العبادة الذى لا يقول به مشرك .

(كلام في قصة سليمان عليه السلام)

١ – **ما ورد من قصصه في القرآن** : لم يرد من قصصه عليه السلام في القرآن الكريم إلا نبذة يسيرة غير ان التدبر فيها يهدي إلى عامة قصصه ومظاهر شخصيته الشريفة .

منها : وراثته لأبيه داود قال تعالى : « ووهبنا لداود سليمان » ص : ٣٠، وقال « وورث سليمان داود » النمل : ١٦ .

ومنها: إيتاؤه الملك العظيم وتسخير الجن والطير والريح له وتعليمه منطق الطير وقد تكرر ذكر هذه النعم في كلامه تعالى كما في سورة البقرة الآية ١٠٢ والأنبياء الآية ٨١ ، والنمل الآية ١٦ – ١٨ ، وسبأ الآية ١٢ – ١٣ و ص الآية ٣٥ – ٣٩ .

ومنها : الإشارة إلى قصة إلقاء جسد على كرسيه كما في سورة ص الآية ٣٣ .

ومنها : الإشارة إلى عرض الصافنات الجياد عليه كما في سورة ص الآية ٣١ – ٣٣.

ومنها : الإشارة إلى تفهيمه الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث كما في سورة الأنبياء الآية ٧٨ – ٧٩ .

ومنها : الاشارة الى حديث النملة كما في سورة النمل الآية ١٨ – ١٩ .

ومنها : قصة الهدهد وما يتبعها من قصته عليه السلام مع ملكة سبأ سورة النمل الآية ٢٠ – ٤٤ .

ومنها : الاشارة الى كيفية موته عليه السلام كما في سورة سبأ الآية ١٤ .

وقد أوردنا ما يخص بكل من هذه القصص من الكلام في ذيل الآيات المشيرة اليها الموضوعة في هذا الكتاب .

٢ – **الثناء عليه في القرآن** : ورد اسمه عليه السلام في بضعة عشر موضعاً من كلامه تعالى وقد أكثر الثناء عليه فسماه عبداً او أباً قال تعالى : « نعم العبد انه أواب » ص: ٣٠ ، ووصفه بالعلم والحكم قال تعالى : « ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً » الأنبياء : ٧٩ وقال « ولقد آتينا داود وسليمان علماً » النمل: ١٥ وقال : « وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير » النمل : ١٦ ، وعده من النبيين المهديين قال تعالى : « وايوب ويونس وهارون وسليمان » النساء : ١٦٣ وقال: « ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان » الأنعام : ٨٤ .

٣ – **ذكره عليه السلام في العهد العتيق** : وقعت قصته في كتاب الملوك الأول وقد أطيل فيه في حشمته وجلالة أمره وسعة ملكه ووفور ثروته وبلوغ حكمته غير انه لم يذكر فيه شيء من قصصه المشار اليها في القرآن إلا ما ذكر أن ملكة سباء لما سمعت خبر سليمان وبناءه بيت الرب باورشليم وما اوتيه من الحكمة أتت اليه ومعها هدايا كثيرة فلاقتها وسألتها عن مسائل تمتحنه بها فأجاب عنها ثم رجعت [1] .

وقد أساء العهد العتيق القول فيه عليه السلام فذكر [2] انه عليه السلام انحرف في آخر عمره عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام فسجد لأوثان كانت تعبدها بعض أزواجه .

وذكر ان والدته كانت زوج أوريّا الحتي فعشقها داود عليه السلام ففجر بها فحبلت منه فاحتال في قتل زوجها أوريّا حتى قتل في بعض الحروب فضمّها إلى ازواجه فحبلت منه ثانياً وولدت له سليمان .

---

(١) الاصحاح العاشر من الملوك الاول .

(٢) الاصحاح الحادي عشر والثاني عشر من كتاب صموئيل الثاني .

والقرآن الكريم ينزّه ساحته عليه السلام عن اول الرميتين بما ينزه به ساحة جميع الأنبياء بالنص على هدايتهم وعصمتهم وقال فيه خاصة: «وما كفر سليمان» البقرة: ١٠٢.

وعن الثانية بما يحكيه من دعائه عليه السلام لما سمع قول النملة: «رب أوزعني ان أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ» النمل: ١٩، فقد بيّنا في تفسيره ان فيه دلالة على ان والدته كانت من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

٤ – **الروايات الواردة في قصصه عليه السلام**: الأخبار المرويّة في قصصه وخاصة في قصة الهدهد وما يتبعها من اخباره مع ملكة سبأ يتضمن أكثرها اموراً غريبة قلّما يوجد نظائرها في الأساطير الخرافية يأباها العقل السليم ويكذبها التاريخ القطعي وأكثرها مبالغة ما روي عن امثال كعب ووهب.

وقد بلغوا من المبالغة ان ما رووا انه عليه السلام ملك جميع الأرض، وكان ملكه سبعمائة سنة، وأن جميع الإنس والجن والوحش والطير كانوا جنوده، وأنه كان يوضع في مجلسه حول عرشه ستمائة ألف كرسي يجلس عليها ألوف من النبيين ومئات الالوف من أمراء الإنس والجن.

وأن ملكة سبأ كانت أمها من الجن، وكانت قدمها كحافر الحمارة وكانت تستر قدميها عن أعين النظّار حتى كشفت عن ساقيها حينما أرادت دخول الصرح فبان أمرها، وقد بلغ من شوكتها انه كان تحت يدها اربعمائة ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك اربعمائة ألف مقاتل ولها ثلاثمائة وزير يدبّرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل إلى غير ذلك من أعاجيب الأخبار التي لا يسعنا إلا ان نعدّها من الإسرائيليات ونصفح عنها [1].

---

(١) ولعل من يريد الوقوف عليها أن يراجع جوامع الأخبار كالدر المنثور والعرائس والبحار ومطولات التفاسير.

(بحث روائي)

في الاحتجاج روى عبد الله بن الحسن بإسناده عن آبائه عليهم السلام انه لما أجمع أبو بكر على منع فاطمة عليها السلام فدك وبلغها ذلك جاءت اليه وقالت له : يا ابن أبي قحافة أفي كتاب الله ان ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فريّاً أفعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم إذ يقول : وورث سليمان داود . الحديث .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : « فهم يوزعون » قال : يحبس أولهم على آخرهم .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: والناظرة في بعض اللغة هي المنتظرة ألم تسمع إلى قوله : « فناظرة بم يرجع المرسلون » .

وفي البصائر بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن اسم الله الأعظم على ثلاث وسبعين حرفاً وإنما كان عند آصف منهـا حرف واحد فتكلم به فخسف بالأرض ما بينه وبين سرير بلقيس ثم تناول السرير بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين ، وعندنا نحن من الاسم اثنان وسبعون حرفاً ، وحرف عند الله استأثر به في علم الغيب عنده ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أقول : ورُوي هذا المعنى أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام ، ورواه في الكافي عن جابر عن أبي جعفر وعن النوفلي عن أبي الحسن صاحب العسكر عليهما السلام .

وقوله: « إن الاسم الأعظم كذا حرفاً وكان عند آصف حرف تكلم به » لا ينافي ما قدمنا ان هذا الاسم ليس من قبيل الألفاظ فإن نفس هذا السياق يدل على ان المراد بالحرف غير الحرف اللفظي والتعبير به من جهة ان المعهود عند الناس من الاسم الاسم اللفظي المؤلف من الحروف الملفوظة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « قبل ان يرتد اليك طرفك » ذكر في ذلك وجوه – إلى ان قال – والخامس ان الأرض طويت له وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام .

أقول : وما رواه من الطي لا يغاير ما تقدمت روايته من الخسف .

والذي نقله من الوجوه الاخر خمسة أحدها : ان الملائكة حملته اليه . الثاني : ان الريح حملته . الثالث : ان الله خلق فيه حركات متوالية . الرابع : انه انخرق مكانه حيث هو هناك ثم نبع بين يدي سليمان . الخامس : ان الله أعدمه في موضعه وأعاده في مجلس سليمان .

وهناك وجه آخر ذكره بعضهم وهو ان الوجود بتجدد الأمثال بإيجاده وقد أفاض الله الوجود لعرشها في سبإ ثم في الآن التالي عند سليمان . وهذه الوجوه بين ممتنع كالخامس وبين ما لا دليل عليه كالباقي .

وفيه وروى العياشي في تفسيره بالإسناد قال : التقى موسى بن محمد بن علي بن موسى ويحيى بن أكثم فسأله . قال : فدخلت على أخي علي بن محمد عليه‌السلام إذ دار بيني وبينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له : جعلت فداك إن ابن أكثم سألني عن مسائل أفتيه فيها فضحك ثم قال : هل أفتيته فيها قلت : لا . قال : ولم ؟ قلت : لم أعرفها قال : ما هي ؟ قلت : قال : أخبرني عن سليمان أكان محتاجاً إلى علم آصف ابن برخيا ؟ ثم ذكرت المسائل الاخر :

قال : اكتب يا أخي بسم الله الرحمن الرحيم سألت عن قول الله تعالى في كتابه : « قال الذي عنده علم من الكتاب » فهو آصف بن برخيا ولم يعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف لكنه أحب ان تعرف أمته من الجن والإنس أنه الحجة من بعده وذلك من علم سليمان أودعه آصف بأمر الله ففهمه الله ذلك لئلا يختلف في إمامته ودلالته كما فهم سليمان في حياة داود ليعرف إمامته ونبوته من بعده لتأكيد الحجة على الخلق .

أقول : وأورد الرواية في روح المعاني عن المجمع ثم قال : وهو كما ترى انتهى ولا نرى لاعتراضه هذا وجهاً غير أنه رأى حديث الإمامة فيها فلم يعجبه .

وفي نور الثقلين عن الكافي عن أمير المؤمنين عليه‌السلام قال : كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو – إلى ان قال – وخرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان عليه‌السلام .

* * *

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ـــ ٤٥ . قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ـــ ٤٦ . قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ـــ ٤٧ . وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ـــ ٤٨ . قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ـــ ٤٩ . وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ـــ ٥٠ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ـــ ٥١ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ـــ ٥٢ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ـــ ٥٣ .

(بيان)

إجمال من قصة صالح النبي عليه‌السلام وقومه ، وجانب الإنذار في الآيات يغلب على جانب التبشير كما تقدمت الإشارة اليه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً ــ إلى قوله ــ يختصمون » الاختصام والتخاصم التنازع وتوصيف التثنية بالجمع أعني قوله : « فريقان » بقوله : « يختصمون » لكون المراد بالفريقين مجموع الامة و « إذا » فجائية .

والمعنى : وأقسم لقد أرسلنا إلى قوم ثمود أخاهم ونسيبهم صالحاً وكان المرجو ان يجتمعوا على الإيمان لكن فاجأهم أن تفرقوا فريقين مؤمن وكافر يختصمون ويتنازعون في الحق كل يقول : الحق معي ، ولعل المراد باختصامهم ما حكاه الله عنهم في موضع آخر بقوله : « قال الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون

ان صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، الأعراف : ٧٦ .

ومن هنا يظهر ان أحد الفريقين جمع من المستضعفين آمنوا به والآخر المستكبرون وباقي المستضعفين ممن اتبعوا كبارهم .

قوله تعالى : « قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة » الخ الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة المبادرة إلى سؤال العذاب قبل الرحمة التي سببها الإيمان والاستغفار.

وبه يظهر أن صالحاً عليه السلام إنما وبخهم بقوله هذا بعد ما عقروا الناقة وقالوا له : يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين فيكون قوله : « لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون » تحضيضاً إلى الإيمان والتوبة لعل الله يرحمهم فيرفع عنهم ما وعدهم من العذاب وعداً غير مكذوب .

قوله تعالى : « قالوا أطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله » الخ التطيّر هو التشأم ، وكانوا يتشأمون كثيراً بالطير ولذا سموا التشأم تطيراً ونصيب الإنسان من الشر طائراً كما قيل .

فقولهم خطاباً لصالح : « أطيرنا بك وبمن معك » اي تشأمنا بك وبمن معك ممن آمن بك ولزمك لما ان قيامك بالدعوة وإيمانهم بك قارن ما ابتلينا به من المحن والبلايا فلسنا نؤمن بك .

وقوله خطاباً للقوم: «طائركم عند الله » اي نصيبكم من الشر وهو الذي تستوجبه أعمالكم من العذاب عند الله سبحانه .

ولذا أضرب عن قوله : « طائركم عند الله » بقوله : « بل أنتم قوم تفتنون » أي تختبرون بالخير والشر ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم .

ومعنى الآية : قال القوم : تطيرنا بك يا صالح وبمن معك فلن نؤمن ولن نستغفر قال صالح : طائركم الذي فيه نصيبكم من الشر عند الله وهو كتاب أعمالكم ولست أنا ومن معي ذوي أثر فيكم حتى نسوق اليكم هذه الابتلاءات بل أنتم قوم تختبرون وتمتحنون بهذه الامور ليمتاز مؤمنكم من كافركم ومطيعكم من عاصيكم .

وربما قيل : إن الطائر هو السبب الذي منه يصيب الانسان ما يصيبه من الخير

والشر ، فإنهم كما كانوا يتشأمون بالطير كانوا أيضاً يتيمنون به والطائر عندهم الأمر الذي يستقبل الانسان بالخير والشر كما في قوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً » أسرى : ١٣ ، وإذ كان ما يستقبل الانسان من خير أو شر هو بقضاء من الله سبحانه مكتوب في كتاب فالطائر هو الكتاب المحفوظ فيه ما قدر للانسان .

وفيه ان ظاهر ذيل آية الاسراء أن المراد بالطائر هو كتاب الأعمال دون كتاب القضاء كما يدل عليه قوله : « اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً » .

وقيل : معنى « بل أنتم قوم تفتنون » اي تعذبون ، وما ذكرناه أولاً أنسب .

قوله تعالى : « وكان في المدينة تسعة رهط » الخ قال الراغب : الرهط العصابة دون العشرة وقيل إلى الأربعين انتهى ، وقيل : الفرق بين الرهط والنفر ان الرهط من الثلاثة او السبعة إلى العشرة والنفر من الثلاثة إلى التسعة انتهى .

قيل : المراد بالرهط الأشخاص ولذا وقع تمييزاً للتسعة لكونه في معنى الجمع فقد كان المتقاسمون تسعة رجال .

قوله تعالى : « قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون » التقاسم المشاركة في القسم ، والتبييت القصد بالسوء ليلاً ، وأهل الرجل من يجمعه وإياهم بيت او نسب او دين ، ولعل المراد بأهله زوجه وولده بقرينة قوله بعد : « ثم نقول لوليه ما شهدنا » ، وقوله : « وإنا لصادقون » معطوف على قوله : « ما شهدنا » فيكون من مقول القول .

والمعنى : قال الرهط المفسدون وقد تقاسموا بالله : لنقتلنه وأهله بالليل ثم نقول لوليه إذا عقبنا وطلب الثار : ما شهدنا هلاك أهله وإنا لصادقون في هذا القول ، ونفي مشاهدة مهلك أهله نفي لمشاهدة مهلك نفسه بالملازمة او الأولوية ، على ما قيل .

وربما قيل : إن قوله : « وإنا لصادقون » حال من فاعل نقول اي نقول لوليه كذا والحال أنا صادقون في هذا القول لأنا شهدنا مهلكه وأهله جميعاً لا مهلك أهله فقط .

ولا يخفى ما فيه من التكلف وقد وجه بوجوه أخر أشد تكلفاً منه ولا ملزم لأصل الحالية .

قوله تعالى : « ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون » أما مكرهم فهو التواطي على تبييته وأهله والتقاسم بشهادة السياق السابق وأما مكره تعالى فهو تقديره هلاكهم جميعاً بشهادة السياق اللاحق .

قوله تعالى : « فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » التدمير الاهلاك ، وضمائر الجمع للرهط ، وكون عاقبة مكرهم هو إهلاكهم وقومهم من جهة أن مكرهم استدعى المكر الالهي على سبيل المجـازاة ، واستوجب ذلك إهلاكهم وقومهم .

قوله تعالى : « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » الخ ، الخاوية الخالية من الخواء بمعنى الخلاء ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون » فيه تبشير للمؤمنين بالانجاء ، وقد أردفه بقوله : « وكانوا يتقون » إذ التقوى كالجن للايمان وقـد قال تعالى : « والعاقبة للمتقين » الأعراف : ١٢٨ ، وقال : « والعاقبة للتقوى » طه : ١٣٢ .

* * *

وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ـــ ٥٤ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ـــ ٥٥ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ـــ ٥٦ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ـــ ٥٧ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ ـــ ٥٨ .

(بيان)

إجمال قصة لوط عليه السلام وهي كسابقتها في غلبة جانب الانذار على جانب التبشير .

قوله تعالى : « ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون » معطوف على موضع « أرسلنا » في القصة السابقة بفعل مضمر والتقدير ولقد أرسلنا لوطاً . كذا قيل ، ويمكن ان يكون معطوفاً على أصل القصة بتقدير اذكر والفاحشة هي الخصلة البالغة في الشناعة والمراد بها اللواط .

وقوله : « وأنتم تبصرون » اي وأنتم في حال يرى بعضكم بعضاً وينظر بعضكم إلى بعض بعين الفحشاء فهو على حد قوله في موضع آخر : « وتأتون في ناديكم المنكر العنكبوت : ٢٩ ، وقيل : المراد ابصار القلب ومحصله العلم بالشناعة وهو بعيد .

قوله تعالى : « أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون » الاستفهام للإنكار ، ودخول أداتي التأكيد – إن واللام – على الجملة الاستفهامية للدلالة على ان مضمون الجملة من الاستبعاد بحيث لا يصدقه أحد والجملة على اي حال في محل التفسير للفحشاء .

وقوله : « بل أنتم قوم تجهلون » أي مستمرون على الجهل لا فائدة في توبيخكم والإنكار عليكم فلستم بمرتدعين ، ووضع « تجهلون » بصيغة الخطاب موضع « يجهلون » من وضع المسبب موضع السبب كأنه قيل : « بل أنتم قوم يجهلون فأنتم تجهلون » .

قوله تعالى : « فما كان جواب قومه إلا ان قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » اي يتنزهون عن هذا العمل وهو وارد مورد الاستهزاء .

قوله تعالى : « فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين » المراد بأهله أهل بيته لقوله تعالى : « فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » الذاريات : ٣٦ ، وقوله : « قدرناها من الغابرين » اي جعلناها من الباقين في العذاب .

قوله تعالى : « وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين » المراد بالمطر الحجارة من سجيل لقوله تعالى : « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » الحجر : ٧٤ ، فقوله : « مطراً » يدل بتنكيره على النوعية اي أنزلنا عليهم مطراً له نبأ عظيم .

* * *

قُلِ ٱلحَمْدُ لِلهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ ٱصْطَفَى ءآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ – ٥٩ . أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ءإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ – ٦٠ . أَمَّنْ جَعَلَ ٱلأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ – ٦١ . أَمَّنْ يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلأَرْضِ ءإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ – ٦٢ . أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ – ٦٣ . أَمَّنْ يَبْدَؤُا ٱلخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَٱلأَرْضِ ءإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ – ٦٤ . قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ – ٦٥. بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ – ٦٦. وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ – ٦٧ . لَقَدْ وُعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ ٱلأَوَّلِينَ – ٦٨ . قُلْ سِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

ٱلْمُجْرِمِينَ ــ ٦٩. وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ــ ٧٠.
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ــ ٧١. قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ
رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ــ ٧٢. وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى
النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ ــ ٧٣. وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ــ ٧٤. وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ
إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ــ ٧٥. إِنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ــ ٧٦. وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ــ ٧٧.
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ــ ٧٨. فَتَوَكَّلْ عَلَى
اللهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ــ ٧٩. إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ
الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ــ ٨٠. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي ٱلْعُمْيِ عَنْ
ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ــ ٨١.

(بيان)

انتقال من القصص التي قصتها سبحانه وهي نماذج من سننه الجـارية في النوع الإنساني من حيث هدايته وإراءته لهم طريق سعادتهم في الحياة وإكرامه من اهتدى منهم إلى الصراط المستقيم بالاصطفاء وعظيم الآلاء وأخذه من أشرك به وأعرض عن ذكره ومكر به بعذاب الاستئصال وأليم النكال.

إلى حمده والسلام على عباده المصطفين وتقرير انه هو المستحق للعبودية دون غيره مما يشركون ثم سرد الحديث في التوحيد وإثبات المعاد ومـا يناسب ذلك من

متفرقات المعارف الحقة فسياق آيات السورة شبيه بما في سورة مريم من السياق على ما مر.

قوله تعالى : « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أم مـا يشركون » لما قص من قصص الأنبياء وأبهم ما قص وفيها بيان سنته الجارية في الامم الماضين وما فعل بالمؤمنين منهم من الاصطفاء ومزيد الإحسان كما في الأنبياء منهم وما فعل بالكافرين من العذاب والتدمير – ولم يفعل إلا الخير الجميل ولا جرت سنته إلا على الحكمة البالغة – انتقل منها إلى أمر نبيه بأن يحمده ويثني عليه وان يسلم على المصطفين من عباده وقرر انه تعالى هو المتعين للعبادة .

فهو انتقال من القصص إلى التحميد والتسليم والتوحيد وليس باستنتاج وإن كان في حكمه وإلا قيل : فقل الحمد لله « الخ » او فالله خير « الخ » .

فقوله : « قل الحمد لله » أمر بتحميده وفيه إرجاع كل حمد اليه تعالى لما تقرر بالآيات السابقة ان مرجع كل خلق وتدبير اليه وهو المفيض كل خير بحكمته والفاعل لكل جميل بقدرته .

وقوله : « وسلام على عباده الذين اصطفى» معطوف على ما قبله من مقول القول وفي التسليم لاولئك العباد المصطفين نفي كل ما في نفس المسلم من جهات التمانع والتضاد لما عندهم من الهداية الإلهية وآثارها الجميلة – على ما يقتضيه معنى السلام – ففي الأمر بالسلام أمر ضمني بالتهيؤ لقبول ما عندهم من الهدي وآثاره فهو بوجه في معنى قوله تعالى : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » الأنعام : ٩٠ ، فافهمه .

وقوله : « ءآلله خير أمـا يشركون » من تمام الخطاب للنبي ﷺ والاستفهام للتقرير ومحصل المراد انه إذا كان الثناء كله لله وهو المصطفى لعباده المصطفين فهو خير من آلهتهم الذين يعبدونهم ولا خلق ولا تدبير لهم يحمدون عليـه ولا خير بأيديهم يفيضونه على عبادهم .

قوله تعالى : « أمّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء » إلى آخر الآية ، الحدائق جمع حديقة وهي البستان المحدود المحوّط بالحيطان وذات بهجة صفة حدائق ، قال في مجمع البيان : ذات بهجة أي ذات منظر حسن يبتهج به من رآه ولم يقل : ذوات بهجة لأنه أراد تأنيث الجمـاعة ولو أراد تأنيث الأعيان لقال :

ذوات . انتهى .

وأم في الآية منقطعة تفيد معنى الاضراب ، و « من » مبتدأ خبره محذوف وكذا الشق الآخر من الترديد والاستفهام للتقرير وحملهم على الإقرار بالحق والتقدير على ما يدل عليه السياق بل أمن خلق السماوات والأرض «الخ» خير أم ما يشركون . والأمر على هذا القياس في الآيات الأربع التالية .

ومعنى الآية : بل أمن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم اي لنفعكم من السماء وهي جهة العلو ماء وهو المطر فأنبتنا به اي بذلك الماء بساتين ذات بهجة ونضارة ما كان لكم اي لا تملكون وليس في قدرتكم ان تنبتوا شجرها «إله آخر مع الله سبحانه – وهو إنكار وتوبيخ .

وفي الآية التفات من الغيبة إلى الخطاب بالنسبة إلى المشركين والنكتة فيه تشديد التوبيخ بتبديل الغيبة حضوراً فإن مقام الآيات السابقه على هذه الآية مقام التكلم ممن يخاطب أحد خواصه بحضرة من عبيده المتمردين المعرضين عن عبوديته يبث اليه الشكوى وهو يسمعهم حتى إذا تمت الحجة وقامت البينة كما في قوله : « ءآلله خير أما يشركون » هاج به الوجد والأسف فتوجه اليهم بعد الإعراض فأخذ في حملهم على الإقرار بالحق بذكر آية بعد آية وإنكار شركهم وتوبيخهم عليه بعدولهم عنه إلى غيره وعدم علم أكثرهم وقلة تذكرهم مع تعاليه عن شركهم وعدم برهان منهم على ما يدّعون .

وقوله : « بل هم قوم يعدلون » اي عن الحق إلى الباطل وعن الله سبحانه إلى غيره وقيل : اي يعدلون بالله غيره ويساوون بينهما .

وفي الجملة التفات من الخطاب إلى الغيبة بالنسبة إلى المشركين ورجوع إلى خطاب النبي ﷺ والإضراب فيه لبيان ان لا جدوى للسير في حملهم على الحق فإنهم عادلون عنه .

قوله تعالى : « أمّن جعل الأرض قراراً » إلى آخر الآية ، القرار مصدر بمعنى اسم الفاعل أي القارّ المستقر ، والخلال جمع خلل بفتحتين وهو الفرجة بين الشيئين ، والرواسي جمع راسية وهي الثابتة والمراد بها الجبال الثابتات ، والحاجز هو المانع

المتخلل بين الشيئين .

والمعنى : بل أمّن جعل الأرض مستقرة لا تميـــد بكم وجعل في فرجها التي في جوفها أنهاراً وجعل لها جبالاً ثابتة وجعل بين البحرين مانعاً من اختلاطهما وامتزاجهما هو خير أم ما يشركون ؟ والكلام في قوله : « ءإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » كالكلام في نظيره من الآية السابقة .

قوله تعالى : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفـــاء الأرض ءإله مع الله قليلاً ما تذكّرون » المراد بإجابة المضطر إذا دعاه استجابة دعاء الداعين وقضاء حوائجهم وإنما أُخذ وصف الاضطرار ليتحقق بذلك من الداعي حقيقة الدعاء والمسألة إذ ما لم يقع الإنسان في مضيقة الاضطرار وكان في مندوحة من المطلوب لم يتمحض منه الطلب وهو ظاهر .

ثم قيّـــده بقوله : « إذا دعاه » للدلالة على أن المدعو يجب أن يكون هو الله سبحانه وإنما يكون ذلك عندما ينقطع الداعي عن عامة الأسباب الظاهرية ويتعلق قلبه بربه وحده وأما من تعلق قلبه بالأسباب الظاهرية فقط او بالمجموع من ربه ومنها فليس يدعو ربه وإنما يدعو غيره .

فإذا صدق في الدعاء وكان مدعوّه ربه وحده فإنه تعالى يجيبه ويكشف السوء الذي اضطره إلى المسألة كما قال تعـــالى : « ادعوني أستجب لكم » المؤمن : ٦٠ ، فلم يشترط للاستجابة إلا أن يكون هناك دعاء حقيقة وأن يكون ذلك الدعاء متعلقاً به وحده ، وقال أيضاً : « وإذا سألك عبـــادي عني فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة : ١٨٦ ، وقد فصّلنا القول في معنى الدعاء في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل الآية .

وبما مر من البيـــان يظهر فساد قول بعضهم : إن اللام في « المضطر » للجنس دون الاستغراق فكم من مضطر يدعو فلا يُجاب فالمراد إجابة دعاء المضطر في الجمـلة لا بالجملة .

وجه الفســاد أن مثل قوله: « ادعوني أستجب لكم » وقوله: « فإني قريب أُجيب دعوة الداع إذا دعان » يأبى تخلف الدعاء عن الاستجابة ، وقوله : كم من مضطر يدعو

فلا يجاب ، غير مسلّم إذا كان دعاء حقيقة لله سبحانه وحده كما تقدم بيانه .

على أن هناك آيات كثيرة تدلّ على أن الانسان يتوجه عند الاضطرار كركوب السفينة نحو ربه فيدعوه بالإخلاص فيستجاب له كقوله تعالى : « وإذا مسّ الإنسان الضرُّ دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً » الآية ، يونس : ١٢ ، وقوله : « حتى إذا كنتم في الفلك – إلى قوله – وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين » يونس : ٢٢ ، وكيف يتصور تعلق النفس بتوجهها الغريزي الفطري بأمر لا اطمئنان لها به فما قضاء الفطرة في ذلك إلا كقضائها عند إدراك حاجتها الوجودية إلى من يوجدها ويدبّر أمرها أن هناك أمراً يرفع حاجتها وهو الله سبحانه .

فإن قلت : نحن كثيراً ما نتوسل في حوائجنا من الأسباب الظاهرية بما لا نقطع بفعلية تأثيره في رفع حاجتنا وإنما نتعلق به رجاء أن ينفعنا إن نفع .

قلت : هـــذا توسل فكري مبدؤه الطمع والرجاء وهو غير التوسل الغريزي الفطري نعم في ضمنه نوع من التوجه الغريزي الفطري وهو التسبب بمطلق السبب ومطلق السبب لا يتخلف ، فافهم .

وظهر أيضاً فساد قول من قال : المراد بالمضطر إذا دعـاه المذنب إذا استغفره فإن الله يغفر له وهو إجابته .

وفيه أن إشكال الاستغراق بحاله فما كل استغفار يستتبع المغفرة ولا كل مستغفر يغفر له . على أنه لا دليل على تقييد إطلاق المضطر بالمذنب العاصي .

وذكر بعضهم : ان الاستغراق بحاله لكن ينبغي تقييد الإجابة بالمشيّة كما وقع ذلك في قوله تعالى : « فيكشف ما تدعون اليه إن شاء » الأنعام : ٤١ .

وفيه أن الآية واقعة في سياق لا تصلح معه لتقييد الإجابة في آية المضطر وهو قوله تعالى : « قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله او أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف مـا تدعون اليه إن شاء » فالساعة من القضاء المحتوم لا يتعلق بكشفها طلب حقيقي ، وأمـا العذاب الإلهي فإن طلب كشفه بتوبة وإيمان حقيقي فإن الله يكشفه كما كشف عن قوم يونس وإن لم يكن كذلك بل احتيالاً للنجاة منه فلا لعدم كونه طلباً حقيقياً بل مكراً في صورة الطلب كما حكاه الله عن فرعون لما

أدركه الغرق « قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » يونس : ٩١ ، وحكى عن أقوام آخرين أخذهم بالعذاب : « قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين » الأنبياء : ١٥ .

وبالجملة فمورد قوله : « فيكشف ما تدعون اليه إن شاء » لما كان مما يمكن ان يكون الطلب فيه حقيقياً او غير حقيقي كان من اللازم تقييد الكشف والإجابة فيه بالمشيّة فيكشف الله عنهم إن شاء وذلك في مورد حقيقة الطلب والإيمان ولا يكشف إن لم يشأ وهذا غير مورد آية المضطر وسائر آيات إجابة الدعوة الذي يتضمن حقيقة الدعاء من الله سبحانه وحده .

وقوله: « ويجعلكم خلفاء الأرض » الذي يعطيه السياق أن يكون المراد بالخلافة الخلافة الأرضية التي جعلها الله للانسان يتصرف بها في الأرض وما فيها من الخليقة كيف يشاء كما قال تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة : ٣٠ .

وذلك أن تصرفاته التي يتصرف بها في الأرض وما فيها بخلافته امور مرتبطة بحياته متعلقة بمعاشه فالسوء الذي يوقعه موقع الاضطرار ويسأل الله كشفه لا محالة شيء من الأشياء التي تمنعه التصرف او بعض التصرف فيها وتغلق عليه باب الحياة والبقاء وما يتعلق بذلك او بعض أبوابها ففي كشف السوء عنه تتميم لخلافته .

ويتضح هذا المعنى مزيد اتضاح لو حمل الدعاء والمسألة في قوله : « إذا دعاه » على الأعم من الدعاء اللساني كما هو الظاهر من قوله تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » إبراهيم : ٣٤ ، وقوله : « يسأله من في السماوات والأرض» الرحمن:٢٩ ، إذ يكون على هذا جميع ما أوتي الانسان ورزقه من التصرفات من مصاديق كشف السوء عن المضطر المحتاج إثر دعائه فجعله خليفة يتبع إجابة دعائه وكشف السوء الذي اضطره عنه .

وقيل: المعنى ويجعلكم خلفاء من قبلكم من الامم في الأرض تسكنون مساكنهم وتتصرفون فيها بعدهم هذا . وما قدمناه من المعنى أنسب منه للسياق .

وقيل : المعنى : ويجعلكم خلفاء من الكفار بنزول بلادهم وطاعة الله تعالى بعد شركهم وعنادهم . وفيه أن الخطاب في الآية كسائر الآيات الخمس التي قبلها للكفار لا للمؤمنين كما عليه بناء الوجه .

وقوله : « قليلاً ما تذكّرون » خطاب توبيخي للكفار ، وقرىء «يذّكّرون» بالياء للغيبة وهو أرجح لموافقته مـا في ذيل سائر الآيات الخمس كقوله : « بل هم قوم يعدلون » ، « بل أكثرهم لا يعلمون » وغيرهمـا ، فإن الخطاب فيها جميعاً للنبي ﷺ بطريق الالتفات كما مر بيانه .

قوله تعالى : « أمّن يهديكم في ظلمـات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته » الخ ، والمراد بظلمات البر والبحر ظلمات الليالي في البر والبحر ففيه مجاز عقلي ، والمراد بإرسال الرياح بشراً إرسالها مبشرات بالمطر قبيل نزوله ، والرحمة المطر ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « أمّن يبدء الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض » الخ ، بدء الخلق إيجاده ابتـداء لأول مرة وإعادته إرجاعه اليه بالبعث وتبكيت المشركين بالبدء والإعادة مع إنكارهم البعث كما سيذكره بقوله : « وقال الذين كفروا » الخ ، بناء على ثبوت المعـاد بالأدلة القاطعة في كلامه فاخذ كالمسلّم ثم استدرك إنكارهم له أو شكهم فيه في الآيات التالية .

وقيل : المراد ببدء الخلق ثم إعادته إيجاد الواحد من نوعه ثم إهلاكه وإيجاد نظيره بعده وبالجملة إيجاد المثل بعد المثل فلا يرد ان المشركين منكرون للمعاد فكيف يحتج به عليهم . هذا وهو بعيد من ظاهر الآية .

ومـا يتضمنه الآية من لطائف الحقائق القرآنية يفيد ان لا بطلان في الوجود مطلقاً بل ما أوجده الله تعالى بالبدء سيرجع اليه بالإعادة وما نشاهده من الهلاك فيها فقدان منا له بعد وجدانه .

وأما ما أجمع عليه المتكلمون من امتناع إعادة المعدوم في بعض الموجودات كالأعراض واختلفوا في جواز إعادة بعض آخر كالجواهر ، لا ارتباط له بمسألة البعث على ما تقرره الآية ، فإن البعث ليس من باب إعادة المعدوم حتى يمتنع بامتناع إعادته

لو امتنعت بل البعث عود الخلق ورجوعه وهو خلق من غير بطلان إلى ربه المبدیء له.

وقوله : « ومن يرزقكم من السماء والأرض » إشارة الى ما وقع من تدبيره لأمرهم بين البدء والعود وهو رزقهم بأسباب سماوية كالأمطار وأسبابها والأرضية كعامة ما يتغذى به الإنسان من الأرضيات .

وقوله : « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » لما ذكر سبحانه فصولاً مشتملة على عامة الخلق والتدبير مع الإشارة الى ارتباط التدبير بعضه ببعض وارتباط الجميع الى الخلق وعاد الخلق والتدبير بذلك أمراً واحداً منتسباً اليه قائماً به تعالى وثبت بذلك انه تعالى هو رب كل شيء وحده لا شريك له وكان لازم ذلك إبطال ألوهية الآلهة التي يدعونها من دون الله – .

– وذلك ان الالوهية وهي استحقاق العبادة تتبع الربوبية التي هي تدبير عن ملك فالعبادة على ما يتداولونها إما لتكون شكراً للنعمة او اتقاء للنقمة وعلى أي حال ترتبط بالتدبير الذي هو من شؤون الربوبية – .

– وكان إبطال ألوهية الآلهة من دون الله هو الغرض من الفصول الموردة في هذه الآيات كما يدل على ذلك قوله بعد إيراد كل واحد من الفصول : « ءإله مع الله ».

أمر نبيه ﷺ بقوله : « قل هاتوا برهانكم » أن يطالبهم بالبرهان على ما يدّعونه من ألوهية آلهتهم ليظهر بانقطاعهم أنهم مجازفون في دعواهم إذ لو استدلوا على ألوهيتها بشيء كان من الواجب أن ينسبوا اليها شيئاً من تدبير العالم والحال أن جميع الخلق والتدبير له تعالى وحده .

قوله تعالى : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيّان يبعثون » لما أمره ﷺ بعد إبطال ألوهية آلهتهم بانتساب الخلق والتدبير اليه تعالى وحده أن يطالبهم بالبرهان على ما يدعونه أمره ثانياً أن يواجههم ببرهان آخر على بطلان الوهية آلهتهم وهو عدم علمهم بالغيب وعدم شعورهم بالساعة وأنهم أيّان يبعثون مع أنه لا يعلم أحد ممن في السماوات والأرض – ومنهم آلهتهم الذين هم الملائكة

والجن وقديسوا البشر – الغيب وما يشعرون أيان يبعثون ، ولو كانوا آلهة لهم تدبير أمر الخلق – ومن التدبير الجزاء يوم البعث – لعلموا بالساعة .

وقد ظهر بهذا البيان أن قوله : « لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله » برهان مستقل على بطلان الوهية آلهتهم واختصاص الالوهية به تعالى وحده وأن قوله : « وما يشعرون أيان يبعثون » من عطف أوضح أفراد الغيب عليه وأهمها علماً بالنسبة إلى أمر التدبير .

وظهر أيضاً ان ضميري الجمع في « وما يشعرون أيان يبعثون » لمن في السماوات لعدم تمام البيان بدونه .

فقول بعضهم : إن الضمير للمشركين وان كان عدم الشعور بما ذكر عاماً لئلا يلزم التفكيك بينه وبين الضمائر الآتية الراجعة اليهم قطعاً .

فيه أنه ينافي مـا سيقت له الآية الكريمة من البيان كما قدمنا الإشارة اليه والتفكيك بين الضمائر مع وجود القرينة لا بأس به .

قوله تعالى : «بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون» ادّارك في الأصل تدارك والتدارك تتابع أجزاء الشيء بعضها بعد بعض حتى تنقطع ولا يبقى منها شيء ، ومعنى تدارك علمهم في الآخرة أنهم صرفوا ما عندهم من العلم في غيرها حتى نفد علمهم فلم يبق منه شيء يدركون به أمر الآخرة على حد قوله تعالى: « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » النجم: ٣٠ و « عمون » جمع عمي .

لما انتهى احتجاجه تعالى إلى ذكر عدم شعور أحد غيره تعـــالى بوقت البعث وتبكيت المشركين بذلك رجع إلى نبيه ﷺ وذكّره انهم في معزل عن الخطاب بذلك إذ لا خبر لهم عن شيء من امور الآخرة فضلاً عن وقت قيام الساعة وذلك انهم صرفوا ما عندهم من العلم في جهات الحياة الدنيا فهم في جهل مطلق بالنسبة إلى امور الآخرة بل هم في شك من الآخرة يرتابون في أمرها كما يظهر من احتجاجاتهم على نفيها المبنية على الاستبعاد بل هم منهـا عمون والله أعمى قلوبهم عن التصديق بهـــا والاعتقاد بوجودها .

وقد ظهر بهذا البيان أن تكرّر كلمة الإضراب لبيان مراتب الحرمان من العلم بالآخرة وأنهم في أعلاها ، فقوله : « بل ادّارك علمهم في الآخرة » أي لا علم لهم بها كأنها لم تقرع سمعهم ، وقوله : « بل هم في شك منها » أي انه قرع سمعهم خبرها وورد قلوبهم لكنهم ارتابوا ولم يصدّقوا بها ، وقوله : « بل هم منهـــا عمون » أي إنهم لم ينقطعوا عن الاعتقاد بها من عند أنفسهم وباختيار منهم بل الله سبحانه أعمى أبصار قلوبهم فصاروا عمين فهيهات أن يدركوا من أمرها شيئاً .

وقيل : المراد بتدارك علمهم تكامله وبلوغه حد اليقين لتكامل الحجج الدالة على حقّيّة البعث والجملة مسوقة للتهكم ، وفيه أنه لا يلائم ما يتبعه من الإضراب بالشك والعمى .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا ءإذا متنا وكنا تراباً وآباؤنا أئنا لمخرجون ـ إلى قوله ـ الأولين » حكاية حجة منهم لنفي البعث مبنية على الاستبعاد أي كيف يمكن أن نخرج من الأرض بشراً تامّين كما نحن اليوم وقـــد متنا وكنا تراباً نحن وآباؤنا كذلك ؟

وقوله : « لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل » حجة أخرى منهم مبنيـة على الاستبعاد أي لقد وعدنا هذا وهو البعث بعد الموت نحن وآباؤنا وُعِدوه قبل أن يعدنا هذا النبي والذين وعدوا قبلاً هم الأنبياء الماضون فهو وعد قديم لم نزل نوعد به ولو كان خبراً صادقاً ووعداً حقاً لوقع إلى هــذا اليوم وإذ لم يقع فهو من الخرافات التي اختلقها الأولون وكانوا مولعين باختلاق الأوهام والخرافات والإصغاء اليها .

قوله تعالى : « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » إنذار وتخويف لهم على إنكارهم وعد الأنبياء بالبعث بأمرهم أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة المجرمين المكذبين للأنبياء المنذرين لهم بالبعث فإن في النظر إلى عاقبة أمرهم على مـــا تدل عليه مساكنهم الخربة وديارهم الخالية كفاية للمعتبرين من أولي الأبصار ، وفي التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين في ترك الجرائم . كذا قيل .

ويمكن أن تقرر الآية حجة تدل على المعاد وتقريبها أن انتهاء عاقبة أمر المجرمين

إلىعذاب الاستئصال دليل على أن الإجرام والظلم من شأنه أن يؤاخذ عليه وأن العمل إحساناً كان او إجراماً محفوظ على عامله سيحاسب عليه وإذ لم تقع عامة هذا الحساب والجزاء - وخاصة على الأعمال الصالحة - في الدنيا فذلك لا محالة في نشأة اخرى وهي الدار الآخرة .

فتكون الآية في معنى قوله تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ ، ويؤيد هذا التقرير قوله : « عاقبة المجرمين » ولو كان المراد تهديد مكذبي الرسل وتخويفهم كان الأنسب أن يقال : عاقبة المكذبين ، كما تقدمت الإشارة اليه .

قوله تعالى : « ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون » أي لا يحزنك إصرارهم على الكفر والجحود ولا يضق صدرك من مكرهم لإبطال دعوتك وصدّهم الناس عن سبيل الله فإنهم بعين الله وليسوا بمعجزيه وسيجزيهم بأعمالهم .

فالآية مسوقة لتطييب نفس النبي ﷺ ، وقوله : « ولا تكن في ضيق » الخ ، معطوف على ما قبله عطف التفسير .

قوله تعالى : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » الظاهر أن المراد بالوعد الوعد بعذاب المجازاة أعم من الدنيا والآخرة ، والسياق يؤيد ذلك والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون » قالوا : إن اللام في « ردف لكم » مزيدة للتأكيد ، كالباء في قوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » البقرة : ١٩٨ ، والمعنى تبعكم ولحق بكم ، وقيل : إن ردف مضمن معنى فعل يعدى باللام .

والمراد ببعض الذي يستعجلونه هو عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة فإنهم كانوا يستعجلون إنجاز ما وعدهم الله من الحكم الفصل ، وهو ملازم لعذابهم ، وعذابهم في الدنيا بعض العذاب الذي يستعجلونه باستنجاز الوعد ، ولعل مراد الآية به عذاب يوم بدر كما قيل .

قالوا : إن « عسى ولعل » من الله تعالى واجب لأن حقيقة الترجي مبنية على

الجهل ولا يجوز عليه تعالى ذلك فمعنى قوله : « عسى أن يكون ردف لكم » سيردفكم ويأتيكم العذاب محققاً .

وفيه أن معنى الترجي والتمني ونحوهما كما جاز أن يقوم بنفس المتكلم يجوز أن يقوم بالمقام أو بالسامع او غيرهما وهو في كلامه تعالى قائم بغير المتكلم من المقام وغيره وما في الآية من الجواب لما أرجع إلى النبي ﷺ كان الرجاء المدلول عليه بكلمة عسى قائماً بنفسه الشريفة والمعنى : قل أرجو ان يكون ردف لكم العذاب .

وفي تفسير أبي السعود : وعسى ولعل وسوف في مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها، وإنما يطلقونها إظهاراً للوقار ، وإشعاراً بأن الرمز من أمثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده انتهى وهو وجه وجيه .

ومعنى الآية : قل لهؤلاء السائلين عن وقت الوعد : أرجو ان يكون تبعكم بعض الوعد الذي تستعجلونه وهو عذاب الدنيا الذي يقربكم من عذاب الآخرة ويؤديكم اليه ، وفي التعبير بقوله : « ردف لكم » إيماء إلى قربه .

قوله تعالى : « وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون » معنى الآية في نفسها ظاهر ووقوعها في سياق التهديد والتخويف يفيد ان تأخيره تعالى العذاب عنهم مع استحقاقهم ذلك إنما هو فضل منه عليهم يجب عليهم شكره عليه لكنهم لا يشكرونه ويسألون تعجيله .

قوله تعالى : « وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » أي إن تأخير العذاب ليس عن جهل منه تعالى بحالهم وما يستحقونه بالكفر والجحود فإنه يعلم ما تستره وتخفيه صدورهم وما يظهرونه .

ثم أكد ذلك بأن كل غائبة - وهي ما من شأنه ان يغيب ويخفي في أي جهة من جهات العالم كان — مكتوب محفوظ عنده تعالى وهو قوله : « وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين » .

قوله تعالى : «إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل — إلى قوله — العزيز العليم» تطييب لنفس النبي ﷺ وتمهيد لما سيذكره من حقية دعوته وتقوية لإيمان المؤمنين به ، وبهذا الوجه يتصل بقوله قبلاً : « فلا تحزن عليهم » الخ المشعر بحقية دعوته .

فقوله : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » يشير إلى ما يقصه القرآن من قصص الأنبياء ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من أمرهم ومنه أمر المسيح عليه‌السلام ويبين الحق فيما اختلفوا فيه من المعارف والأحكام .

وقوله : « وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين » يشير إلى أنه يهدي المؤمنين بما قصّه على بني إسرائيل إلى الحق وأنه رحمة لهم تطمئن به قلوبهم ويثبت الإيمان بذلك في نفوسهم.

وقوله : « إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم » إشارة إلى أن القضاء بينهم إلى الله فهو ربه العزيز الذي لا يغلب في أمره العليم لا يجهل ولا يخطىء في حكمه فهو القاضي بينهم بحكمه فلترض نفس النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بربه العزيز العليم قاضياً حكماً ولترجع الأمر اليه كما ينبغي أن تفعل مثل ذلك في حق المشركين ولا تحزن عليهم ولا تكون في ضيق مما يمكرون .

قوله تعالى : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين » تفريع على مجموع ما أمر به قبال كفر المشركين واختلاف بني إسرائيل أي إن أمرهم جميعاً إلى الله لا اليك فاتخذه وكيلاً فهو كافيك ولا تخافن شيئاً إنك في أمن من الحق .

قوله تعالى : « إنك لا تسمع الموتى — إلى قوله — فهم مسلمون » تعليل للأمر بالتوكل أي إنما أمرناك بالتوكل على الله في أمر إيمانهم وكفرهم لأنهم موتى وليس في وسعك أن تسمع الموتى دعوتك وإنهم صمّ لا يسمعون وعمي ضالون لا تقدر على إسماع الصم إذا ولّوا مدبرين — ولعله قيّد عدم إسماع الصم بقوله : « إذا ولّوا مدبرين » لأنهم لو لم يكونوا مدبرين لأمكن تفهيمهم بنوع من الاشارة — ولا على هداية العمي عن ضلالتهم ، وإنما الذي تقدر عليه هو أن تسمع من يؤمن بآياتنا الدالة علينا وتهديهم فإنهم لإذعانهم بتلك الحجج الحقة مسلمون لنا مصدّقون بما تدلّ عليه .

وقد تبيّن بهذا البيان أولاً : أن المراد بالإسماع الهداية .

وثانياً : أن المراد بالآيات الحجج الدالة على التوحيد وما يتبعه من المعارف الحقة.

وثالثاً : أن من تعقّل الحجج الحقة من آيات الآفاق والأنفس بسلامة من العقل ثم استسلم لها بالإيمان والانقياد ليس هو من الموتى ولا ممن ختم الله على سمعه وبصره .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : « وسلام على عباده الذين اصطفى » قال : هم آل محمد عليهم السلام .

أقول : ورواه أيضاً في جمع الجوامع عنهم عليهم السلام مرسلا مضمراً ، وقد عرفت فيما تقدم من البيان في ذيل الآية أن الذي يعطيه السياق أن المراد بهم بحسب مورد الآية الأنبياء المنعّمون بنعمة الاصطفاء وقد قصّ الله قصص جمع منهم فقوله عليه‌السلام - لو صحّت الرواية - هم آل محمد عليهم السلام من قبيل الجري والانطباق .

ونظيرها ما رواه في الدر المنثور عن عدّة من أصحاب الكتب عن ابن عباس في الآية قال : هم أصحاب محمد فهو - لو صحّت الرواية - إجراء منه وتطبيق .

ومنه يظهر ما فيما رواه أيضاً عن عبد بن حميد وابن جرير عن سفيان الثوري في الآية قال : نزلت في أصحاب محمد خاصة ، فلا نزول ولا اختصاص .

وفي تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى : « بل هم قوم يعدلون » قال : عن الحق .

وفيه في قوله تعالى : « أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه » الآية ، حدثني أبي عن الحسن بن علي بن فضّال عن صالح بن عقبة عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال: نزلت في القائم من آل محمد عليهم السلام هو والله المضطر إذا صلى في المقام ركعتين ودعا إلى الله عز وجل فأجابه ويكشف السوء ويجعله خليفة في الأرض .

أقول : والرواية أيضاً من الجري والآية عامة .

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : من فارق الجماعة فهو في النار على وجهه لأن الله تعالى يقول : « أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض » فالخلافة من الله عز وجل فإن كان خيراً فهو يذهب به وإن كان شرّاً فهو يؤخذ به ، عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به .

أقول : الرواية لا تخلو من شيء فقد تقدم أن المراد بالخلافة في الآية - على ما يشهد به السياق - الخلافة الأرضية المقدرة لكل إنسان وهو السلطة على ما في الأرض بأنواع التصرف دون الخلافة بمعنى الحكومة على الامة بإدارة رحى مجتمعهم .

ومع الغض عن ذلك فمتن الرواية لا يخلو عن تدافع فإن كان المراد بكون الخلافة من الله تعالى أن سلطانه على الناس بتقدير من الله وبعبارة أخرى انتسابها التكويني الى الله سبحانه كما ورد في ملك نمرود من قوله تعالى : « أن آتاه الله الملك » البقرة : ٢٥٨ ، وقوله حكاية عن فرعون : « أليس لي ملك مصر » الزخرف : ٥١ ، فمن البين أن الخلافة بهذا المعنى لا تستتبع وجوب الطاعة وحرمة المخالفة وإلا كان نقضاً لأصل الدعوة الدينية وإيجاباً لطاعة أمثال نمرود وفرعون وكم لها من نظير ، وإن كان المراد به الجعل الوضعي الديني وبعبارة أخرى انتسابها التشريعي إلى الله تعالى ثم وجبت طاعته فيما يأمر به وإن كان معصية كان ذلك نقضاً صريحاً للأحكام، وإن كان الواجب طاعته في غير معصية الله لقوله ﷺ : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » جازت مفارقة الجماعة في الجملة وهو يناقض صدر الرواية .

ونظير الإشكال يجري في قوله ذيلاً : « عليك أنت بالطاعة فيما أمر الله به » فلو كان المراد مما أمر الله به طاعته مقام الخلافة وإن كان في معصية كان نقضاً صريحاً لتشريع الأحكام وإن كان المراد به طاعة الله وإن استلزم معصية مقام الخلافة كان ناقضاً لصدر الرواية .

وقد اتضح اليوم بالأبحاث الاجتماعية أن إمضاء حكومة من لا يحترم القوانين المقدسة الجارية لا يرضى به مجتمع عاقل رشيد فمن الواجب تنزيه ساحة مشرّع الدين عن ذلك ، والقول بأن مصلحة حفظ وحدة الكلمة واتفاق الامة أهم من حفظ بعض الأحكام بالمفارقة معناه جواز هدم حقيقة الدين لحفظ اسمه .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت عائشة : ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية . قلت : وما هن ؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية قال: وكنت متكئاً فجلست وقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجلي عليّ ألم يقل الله : « ولقد رآه في الافق المبين » « ولقد رآه نزلة أخرى » ؟

فقالت : أنا أول هذه الامة سأل هذا رسول الله ﷺ فقال : جبريل . لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطاً من السماء سادّاً عظم خلقه ما بين السماء إلى الأرض . قالت : ألم تسمع الله عز وجل يقول : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ؟ أو لم تسمع الله يقول : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ـ الى قوله ـ عليّ حكيم » .

ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله جل ذكره يقول : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس » .

قالت : ومن زعم أنه يخبر الناس بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله » .

أقول : وفي متن الرواية شيء أما آيات الرؤية فإنما تنفي رؤية الحس دون رؤية القلب وهي من الرؤية وراء الإيمان الذي هو الاعتقاد وقد أشبعنا الكلام فيها في الموارد المناسبة له .

وأما قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ » الآية فقد أوضحنا في تفسير الآية أنها خاصة غير عامة ولو فرضت عامة فإنما تدل على أن كل ما انزل اليه مما فيه رسالة وجب عليه تبليغه ومن الجائز أن ينزل اليه ما يختص علمه به ﷺ فيكتمه عن غيره .

وأما قوله : « قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله » فلا يدل إلا على اختصاص علم الغيب بالذات به تعالى كسائر آيات اختصاص الغيب به، ولا ينفي علم الغير به بتعليم منه تعالى كما يشير اليه قوله : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » الجن: ٢٧ ، وقد حكى الله سبحانه نحواً من هذا الإخبار عن المسيح عليه السلام إذ قال : « وأنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون » آل عمران : ٤٩ ، ومن المعلوم أن القائل أن النبي ﷺ كان يخبر الناس بما يكون في غد لا ينفي كون ذلك بتعليم من الله له .

وقد تواترت الأخبار على تفرّقها وتنوّعها من طرق الفريقين على إخباره ﷺ بكثير من الحوادث المستقبلة .

* * *

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لاَ يُوقِنُونَ ــ ٨٢ . وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ــ ٨٣ . حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ٨٤ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لاَ يَنْطِقُونَ ــ ٨٥ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ــ ٨٦ . وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ــ ٨٧ . وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ــ ٨٨ . مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ــ ٨٩ . وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ــ ٩٠ . إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ــ ٩١ . وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ــ ٩٢ . وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ــ ٩٣ .

(بيان)

هي من تمام الفصل السابق من الآيات تشير إلى البعث وبعض ما يلحق به من الامور الواقعة فيه وبعض أشراطه وتختم السورة بما يرجع إلى مفتتحها من الإنذار والتبشير .

قوله تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » مقتضى السياق – بما أن الآية متصلة بما قبلها من الآيات الباحثة عن أمر المشركين المعاصرين للنبي ﷺ او خصوص أهل مكة منقريش وقد كانوا أشدّ الناس عداوة للنبي ﷺ ودعوته – أن ضمائر « عليهم » و « لهم » و « تكلمهم » للمشركين المحدّث عنهم لكن لا لخصوصهم بل بما أنهم ناس معنيّون بالدعوة فالمراد بالحقيقة عامة الناس من هذه الامة منحيث وحدتهم فيلحق بأولهم من الحكم ما يلحق بآخرهم وهذا النوع من العناية كثير الورود في كلامه تعالى .

والمراد بوقوع القول عليهم تحقق مصداق القول فيهم وتعيّنهم لصدقه عليهم كما في الآية التالية : « ووقع القول عليهم بما ظلموا » أي حقّ عليهم العذاب ، فالجملة في معنى « حقّ عليهم القول » وقد كثر وروده في كلامه تعالى، والفرق بين التعبيرين أن العناية في « وقع القول عليهم » بتعيّنهم مصداقاً للقول وفي « حقّ عليهم القول » باستقرار القول وثبوته فيهم بحيث لا يزول .

وأما ما هو هذا القول الواقع عليهم فالذي يصلح من كلامه تعالى لأن يفسر به قوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » حمٓ السجدة: ٥٣ ، فإن المراد بهذه الآيات التي سيريهم غير الآيات السماوية والأرضية التي هي بمرآهم ومسمعهم دائماً قطعاً بل بعض آيات خارقة للعادة تخضع لها وتضطر للإيمان بها أنفسهم فيحين لا يوقنون بشيء من آيات السماء والأرض التيهي تجاه أعينهم وتحت مشاهدتهم.

وبهذا يظهر أن قوله : (أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) تعليل لوقوع القول عليهم والتقدير لأن الناس، وقوله : (كانوا) لإفادة استقرار عدم الإيقان فيهم والمراد بالآيات الآيات المشهودة من السماء والأرض غير الآيات الخارقة، وقرىء (إن) بكسر

الهمزة وهي أرجح من قراءة الفتح فيؤيد مـا ذكرناه وتكون الجملة بلفظها تعليلاً من دون تقدير اللام .

وقوله : (أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم) بيان لآية خارقة من الآيات الموعودة في قوله : (سنريهم آياتنـا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) وفي كونه وصفاً لأمر خارق للعادة دلالة على أن المراد بالإخراج من الأرض إما الإحياء والبعث بعد الموت وإما أمر يقرب منه ، وأما كونها دابة تكلمهم فالدابة ما يدبّ في الأرض من ذوات الحياة إنساناً كان او حيواناً غيره فإن كان إنساناً كان تكليمه الناس على العادة وإن كان حيواناً أعجم كان تكليمه كخروجه من الأرض خرقاً للعادة .

ولا نجد في كلامه تعالى ما يصلح لتفسير هذه الآية وأن هذه الدابة التي سيخرجها لهم من الأرض فتكلمهم ما هي ؟ وما صفتها ؟ وكيف تخرج ؟ وماذا تتكلم به ؟ بل سياق الآية نعم الدليل على أن القصد إلى الإبهام فهو كلام مرموز فيه .

ومحصل المعنى: أنه إذا آل أمر الناس - وسوف يؤل - إلى أن كانوا لا يوقنون بآياتنا المشهودة لهم وبطل استعدادهم للإيمان بنا بالتعقل والاعتبار آن وقت أن نريهم ما وعدنا إراءته لهم من الآيات الخارقة للعـادة المبيّنة لهم الحق بحيث يضطرون إلى الاعتراف بالحق فأخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم .

هذا ما يعطيه السياق ويهدي اليه التدبر في الآية من معناها ، وقد أغرب المفسرون حيث أمعنوا في الاختلاف في معاني مفردات الآية وجملها والمحصل منها وفي حقيقة هذه الدابة وصفتها ومعنى تكليمها وكيفية خروجها وزمان خروجها وعـدد خروجها والمكان الذي تخرج منه في أقوال كثيرة لا معوّل فيهـا إلا على التحكم ، ولذا أضربنا عن نقلها والبحث عنها ، ومن أراد الوقوف عليها فعليه بالمطوّلات .

قوله تعالى : (ويوم نحشر من كل امة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون) الفوج - كما ذكره الراغب - الجماعة المارة المسرعة ، والإيزاع إيقاف القوم وحبسهم بحيث يرد أولهم على آخرهم .

وقوله : (ويوم نحشر) منصوب على الظرفية لمقدر والتقدير واذكر يوم نحشر والمراد بالحشر هو الجمع بعد الموت لأن المحشورين فوج من كل امة ولا اجتماع لجميع

الامم في زمان واحد وهم أحياء ، و (من) في قوله : (من كل امة) للتبعيض ، وفي قوله : (ممن يكذّب) للتبيين أو للتبعيض .

والمراد بالآيات في قوله : (يكذب بآياتنا) مطلق الآيات الدالة على المبدء والمعاد ومنها الأنبياء والأئمة والكتب السماوية دون الساعة وما يقع فيها وعند قيامها ودون الآيات القرآنية فقط لأن الحشر ليس مقصوراً على الامة الإسلامية بل أفواج من امم شتى .

ومن العجيب إصرار بعضهم على أن الكلام نص في أن المراد بالآيات ههنا وفي الآية التالية هي الآيات القرآنية قال : لأنها هي المنطوية على دلائل الصدق التي لم يحيطوا بها مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لا مثل الساعة وما فيها انتهى .

وفساده ظاهر لأن عدم كون أمثال الساعة ومـا فيها مرادة لا يستلزم إرادة الآيات القرآنية مع ظهور أن المحشورين أفواج من جميع الامم وليس القرآن الا كتاباً لفوج واحد منهم .

وظاهر الآية أن هذا الحشر في غير يوم القيامة لأنه حشر للبعض من كل امة لا لجميعهم وقـد قال الله تعالى في صفة الحشر يوم القيامة : (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) الكهف : ٤٧ .

وقيل : المراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعـد الحشر الكلي الشامل لجميع الخلق فهو حشر بعد حشر .

وفيه أنه لو كان المراد الحشر الى العذاب لزم ذكر هذه الغاية دفعاً للابهام كما في قوله تعالى : (ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها) حم السجدة : ٢٠ ، مع أنه لم يذكر فيما بعد هذه الآية إلا العتاب والحكم الفصل دون العذاب والآية كما ترى مطلقة لم يشر فيها إلى شيء يلوح الى هذا الحشر الخاص المذكور ويزيدها إطلاقاً قوله بعدها : (حتى اذا جاؤا) فلم يقل : حتى اذا جاؤا العذاب أو النار أو غيرها .

ويؤيد ذلك أيضاً وقوع الآية والآيتين بعدها بعـد نبأ دابة الأرض وهي من أشراط الساعة وقبل قوله : (ونفخ في الصور) إلى آخر الآيات الواصفة لوقائع يوم القيامة ، ولا معنى لتقديم ذكر واقعة من وقائع يوم القيامة على ذكر شروعه ووقوع عامة ما يقع فيه فإن الترتيب الوقوعي يقتضي ذكر حشر فوج من كل امة لو كان من وقائع يوم القيامة بعد ذكر نفخ الصور وإتيانهم اليه داخرين .

وقد تنبه لهذا الإشكال بعض من حمل الآية على الحشر يوم القيامة فقال : لعل تقديم ذكر هذه الواقعة على نفخ الصور ووقوع الواقعة للايذان بأن كلا مما تضمنه هذا وذاك من الأحوال طامة كبرى وداهية دهياء حقيقة بالتذكير على حيالها ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن الكل داهية واحدة .

وأنت خبير بأنه وجه مختلق غير مقنع ، ولو كان كما ذكر لكان دفع توهم كون الحشر المذكور في الآية في غير يوم القيامة بوضع الآية بعد آية نفخ الصور مع ذكر ما يرتفع به الإبهام المذكور أولى بالرعاية من دفع هذا التوهم الذي توهمه .

فقد بان أن الآية ظاهرة في كون هذا الحشر المذكور فيها قبل يوم القيامة وإن لم تكن نصاً لا يقبل التأويل .

قوله تعالى : (حتى إذا جاؤا قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون) المراد بالمجيء – بإعانة من السياق – هو الحضور في موطن الخطاب المدلول عليه بقوله : (قال أكذبتم) الخ والمراد بالآيات – كما تقدم في الآية السابقة – مطلق الآيات الدالة على الحق ، وقوله : (ولم تحيطوا بها علماً) جملة حالية أي كذبتم بها حال كونكم لا علم لكم بها لإعراضكم عنها فكيف كذبتم بما لا تعلمون أي رميتموها بالكذب وعدم الدلالة من غير علم ، وقوله : (أم ماذا كنتم تعملون) أي غير التكذيب .

والمعنى : حتى إذا حضروا في موطن الخطاب قال الله سبحانه لهم : أكذّبتم بآياتي حال كونكم لم تحيطوا بها علماً أم أي شيء كنتم تعملون غير التكذيب ، وفي ذلك عتابهم بأنهم لم يشتغلوا بشيء غير تكذيبهم بآيات الله من غير أن يشغلهم عنه شاغل معذّر .

قوله تعالى : (فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون) الباء في (بما ظلموا) للسببية و (ما) مصدرية أي وقع القول عليهم بسبب كونهم ظالمين ، وقوله : (فهم لا ينطقون) تفريع على وقوع القول عليهم .

وبذلك يتأيد أن المراد بالقول الذي يقع عليهم قوله تعالى : (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) الأنعام : ١٤٤ ، والمعنى : ولكونهم ظالمين في تكذيبهم بالآيات لم يهتدوا إلى ما يعتذرون به فانقطعوا عن الكلام فهم لا ينطقون .

وربما فسّر وقوع القول عليهم بوجوب العذاب عليهم والأنسب على هذا أن يكون المراد بالقول الواقع عليهم قضاؤه تعالى بالعذاب في حق الظالمين في مثل قوله :

(ألا إن الظالمين في عذاب مقيم) الشورى : ٤٥ ، والمعنى : ولكونهم ظالمين قضي فيهم بالعذاب فلم يكن عندهم ما ينطقون به ، والوجه السابق أوجه .

وأما تفسير وقوع القول بحلول العذاب ودخول النـــار فبعيد من السياق لعدم ملاءمته التفريع في قوله : (فهم لا ينطقون) .

قوله تعالى : (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) لما وصف في الآيات السابقة أن كثيراً من الناس في صمم وعمى من استماع كلمة الحق والنظر في آيات الله والاعتبار بها ، ثم ذكر دابة الأرض وأنـــه سيخرجها آية خارقة للعادة تكلمهم ، ثم ذكر أنه سيحشر فوجاً من كل أمة من المكذبين فيما تبهم فتتم عليهم الحجة بقولهم بغير علم بالآيات لإعراضهم عنها وبخهم في هـــذه الآية ولامهم على تكذيبها بالآيات مع الجهل أنهم كانوا يرون الليل الذي يسكنون فيه بالطبع وأن هناك نهاراً مبصراً يظهر لهم بها آيات السماء والأرض فلم لم يتبصّروا ؟.

وقوله : (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أي في جعل الليل سكناً يسكنون فيه والنهار مبصراً يبصرون فيه آيات السماء والأرض آيات لقوم فيهم خاصة الإذعان والتصديق للحق اللائح لهم .

والمراد بالآيات العلامات والجهات الدّالة فيها على التوحيد وما يتبعه من حقائق المعارف ، ومن جملة ذلك دلالتها على أن الإنسان عليه أن يسكن فيما من شأنه أن يسكن فيه ، وهو الليل الذي يضرب بحجاب ظلمته على الأبصار ، ويتحرك فيما من شأنه أن يتحرك فيه وهو النهار المبصر الذي يظهر به الأشياء التي تتضمن منافع الحياة للأبصار.

فعلى الإنسان أن يسكت عما حجبته عنه ظلمة الجهل ولا يقول بغير علم ولا يكذب بما لا يحيط به علماً وأن يقول ويؤمن بما تجلّيه له بيّنات الآيات التي هي كالنهر المبصرة.

قوله تعالى : (ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات والأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين) النفخ في الصور كناية عن إعلام الجماعة الكثيرين كالعسكر بما يجب عليهم أن يعملوا به جمعاً كالحضور والارتحال وغير ذلك ، والفزع كما قال الراغب انقباض ونفار يعتري الانسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع ، والدخور الذلة والصغار .

قيل : المراد بهذا النفخ النفخة الثانية للصور التي بها تنفخ الحيـــاة في الأجساد فيبعثون لفصل القضاء ، ويؤيده قوله في ذيل الآية : (وكل أتوه داخرين) والمراد بـه حضورهم عند الله سبحانه ، ويؤيده أيضاً استثناؤه (من شاء الله) من حكم الفزع ثم قوله فيمن جاء بالحسنة : (وهم من فزع يومئذ آمنون) حيث يدل على أن الفزع المذكور هو الفزع في النفخة الثانية .

وقيل : المراد به النفخة الاولى التي يموت بهـا الأحياء بدليل قوله : (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) الزمر : ٦٨ ، فإن الصعقة من الفزع وقد رتّبت على النفخة الاولى وعلى هذا يكون المراد بقوله : (وكل أتوه داخرين) رجوعهم إلى الله سبحانه بالموت.

ولا يبعد أن يكون المراد بالنفخ في الصور يومئذ مطلق النفخ أعم مما يميت أو يحيي فإن النفخ كيفما كان من مختصات الساعة ، ويكون ما ذكر من فزع بعضهم وأمن بعضهم من الفزع وسير الجبال من خواص النفخة الاولى وما ذكر من إتيانهم داخرين من خواص النفخة الثانية ويندفع بذلك ما يورد على كل واحد من الوجهين السابقين .

وقد استثنى سبحانه جمعاً من عباده من حكم الفزع العام الشامل لمن في السماوات والأرض ، وسيجيء كلام في معنى هذا الاستثناء في الكلام على قوله الآتي : (وهم من فزع يومئذ آمنون) .

والظاهر أن المراد بقوله : (وكل أتوه داخرين) رجوع جميع من في السماوات والأرض حتى المستثنين من حكم الفزع وحضورهم عنده تعالى، وأما قوله : (فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين) الصافات : ١٢٧ ، فالظاهر أن المراد نفي إحضارهم في الجمع للحساب والسؤال لا نفي بعثهم ورجوعهم إلى الله وحضورهم عنده فآيات القيامة ناصة على عموم البعث لجميع الخلائق بحيث لا يشذّ منهم شاذ .

ونسبة الدخور والذلة إلى أوليائه تعالى لا تنافي ما لهم من العزة عنـد الله فإن عزة العبد عند الله ذلته عنده وغناه بالله فقره اليه نعم ذلة أعدائه بما يرون لأنفسهم من العزة الكاذبة ذلة هوان .

قوله تعالى: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرّ السحاب صنع الله الذي

أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون) الآية بما أنها واقعة في سياق آيات القيامة محفوفة بها تصف بعض ما يقع يومئذ من الآيات وهو سير الجبال وقد قال تعالى في هذا المعنى أيضاً : (وسيّرت الجبال فكانت سراباً) النبأ : ٢٠ ، إلى غير ذلك .

فقوله : (وترى الجبال) الخطاب للنبي ﷺ والمراد به تمثيل الواقعة ، كما في قوله : (وترى الناس سكارى) الحج : ٢ ، أي هذا حالها المشهودة في هذا اليوم تشاهدها لو كنت مشاهداً ، وقوله : (تحسبها جامدة) أي تظنها الآن ولم تقم القيامة بعد جامدة غير متحركة ، والجملة معترضة أو حالية .

وقوله : (وهي تمر مرّ السحاب) حال من الجبال وعاملها (ترى) أي تراها إذا نفخ في الصور حال كونها تسير سير السحاب في السماء .

وقوله : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) مفعول مطلق لمقدّر أي صنعه صنعاً وفي الجملة تلويح إلى أن هذا الصنع والفعل منه تعالى تخريب للدنيا وهدم للعالم ، لكنه في الحقيقة تكميل لها وإتقان لنظامها لما يترتب عليه من إنهاء كل شيء إلى غايته وإيصاله إلى وجهته التي هو موليها من سعادة أو شقاوة لأن ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء فهو سبحانه لا يسلب الإتقان عما أتقنه ولا يسلّط الفساد على ما أصلحه ففي تخريب الدنيا تعمير الآخرة .

وقوله : (إنه خبير بما تفعلون) قيل : إنه تعليل لكون ما ذكر من النفخ في الصور وما بعده صنعاً محكماً له تعالى فإن علمه بظواهر أفعال المكلفين وبواطنها مما يستدعي إظهارها وبيان كيفياتها على ما هي عليه من الحسن والسوء وترتيب آثارها من الثواب والعقاب عليها بعد البعث والحشر وتسيير الجبال .

وأنت ترى ما فيه من التكلف وأن السياق بعد ذلك كله لا يقبله .

وقيل : إن قوله : (إنه خبير بما تفعلون) استئناف في حكم الجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فماذا يكون بعد هذه القوارع ؟ فقيل : إن الله خبير بعمل العاملين فيجازيهم على أعمالهم وفصّل بقوله : (من جاء بالحسنة فله خير منها) إلى آخر الآيتين.

وههنا وجه آخر مستفاد من الإمعان في سياق الآيات السابقة فإن الله سبحانه أمر فيها نبيه ﷺ أن يتوكل عليه ويرجع أمر المشركين وبني إسرائيل اليه فإنه إنما

يستطيع هداية المؤمنين بآياته المستسلمين للحق وأمـا المشركون في جحودهم وبنو إسرائيل في اختلافهم فإنهم موتى لا يسمعون وصمٌ عمي لا يسمعون ولا يهتـدون إلى الحق بالنظر في آيات السماء والأرض والاعتبار بها باختيار منهم .

ثم ذكر ما سيواجههم به – وحالهم هـذه الحال لا يؤثر فيهم الآيات – وأنه سيخرج لهم دابـة من الأرض تكلمهم وهي آية خارقة تضطرهم إلى قبول الحق وأنه يحشر من كل أمـة فوجاً من المكذبين فيتم عليهم الحجة ، وبالآخرة هو خبير بأفعالهم سيجزي من جاء بحسنة او سيئة بعمله يوم ينفخ في الصور ففزعوا وأتوه داخرين .

وبالتأمل في هذا السياق يظهر أن الأنسب كون (يوم ينفخ) ظرفاً لقوله: (إنه خبير بما يفعلون) وقراءة (يفعلون) بياء الغيبة أرجح من القراءة المتداولة على الخطاب.

والمعنى : وإنه تعـالى خبير بما يفعله أهل السماوات والأرض يوم ينفخ في الصور ويأتونه داخرين يجزي من جاء بالحسنة بخير منهـا ومن جاء بالسيئة بكبّ وجوههم في النار كلّ يجزي بعمله ، وعلى هذا تكون الآية في معنى قوله تعالى : (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصّل ما في الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير) العاديات : ١١ ، وقوله : (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء) المؤمن : ١٦ ، ويكون قوله : (من جاء بالحسنة) الخ ، تفصيلاً لقوله : (إنه خبير بمـا يفعلون) من حيث لازم الخبرة وهو الجزاء بها فعل وعمل كما أشار اليه ذيلا بقوله : (هل تجزون إلا مـا كنتم تعملون) والالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : (هل تجزون) الخ ، لتشديد التقريع والتأنيب.

وفي الآية أعني قوله : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب) الخ ، قولان آخران :

أحدهما : حملها على الحركة الجوهرية وأن الأشياء كالجبال تتحرك بجوهرها إلى غاية وجودها وهي حشرها ورجوعها إلى الله سبحانه .

وهذا المعنى أنسب بالنظر إلى ما في قوله : (تحسبها جامدة) من التلويح إلى أنها اليوم متحركة ولما تقم القيامة ، وأما جعل يوم القيامة ظرفاً لحسبان الجمود وللمرور كالسحاب جميعاً فمما لا يلتفت اليه .

وثانيهما : حملها على حركة الأرض الانتقالية وهو بالنظر إلى الآية في نفسها معنى

جيد إلا أنه أولاً : يوجب انقطاع الآية عما قبلها وما بعدها من آيات القيامة وثانياً : ينقطع بذلك اتصال قوله : (إنه خبير بما يفعلون) بما قبله .

قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون) هذه الآية وما بعدها - كما تقدمت الإشارة اليه - تفصيل لقوله : (إنه خبير بما يفعلون) من حيث أثره الذي هو الجزاء ، والمراد بقوله : (من جاء بالحسنة فله خير منها) أن له جزاء هو خير مما جاء به من الحسنة وذلك لأن العمل أياً ما كان مقدمة للجزاء مقصود لأجله والغرض والغاية على أي حال أفضل من المقدمة .

وقوله : (وهم من فزع يومئذ آمنون) ظاهر السياق أن هذا الفزع هو للفزع بعد نفخ الصور الثاني دون الأول فيكون في معنى قوله : (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) الأنبياء : ١٠٣ .

قوله تعالى : (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) يقال : كبّه على وجهه فانكبّ أي ألقاه على وجهه فوقع عليه فنسبة الكب إلى وجوههم من المجاز العقلي والأصل فكبّوا على وجوههم .

وقوله : (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) الاستفهام للانكار ، والمعنى: ليس جزاؤكم هذا إلا نفس العمل الذي عملتموه ظهر لكم فلزمكم فلا ظلم في الجزاء ولا جور في الحكم.

والآيتان في مقام بيان ما في طبع الحسنة والسيئة من الجزاء ففيها حكم من جاء بالحسنة فقط ومن أحاطت به الخطيئة واستغرقته السيئة وأما من حمل حسنة وسيئة فيعلم بذلك حكمه إجمالاً وأما التفصيل ففي غير هذا الموضع .

قوله تعالى : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء) الآيات الثلاث - من هنا إلى آخر السورة - ختام السورة يبين فيها أن هذه الدعوة الحقة تبشير وإنذار فيه إتمام للحجة من غير أن يرجع اليه ﷺ من أمرهم شيء وإنما الأمر إلى الله وسيريهم آياته فيعرفونها ليس بغافل عن أعمالهم .

وفي قوله : (إنما أمرت) الخ ، تكلم عن لسان النبي ﷺ فهو في معنى : قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ، والمشار اليها بهذه الإشارة مكة المشرّفة ، وفي الكلام تشريفها من وجهين : إضافة الرب اليها ، وتوصيفها بالحرمة حيث قال :

رب هذه البلدة الذي حرّمها . وفيه تعريض لهم حيث كفروا بهذه النعمة نعمة حرمة بلدتهم ولم يشكروا الله بعبادته بل عدلوا إلى عبادة الأصنام .

وقوله : (وله كل شيء) إشارة إلى سعة ملكه تعالى دفعاً لما يمكن أن يتوهم أنه إنما يملك مكة التي هو ربها فيكون حاله حال سائر الأصنام يملك الواحد منها على عقيدتهم جزءاً من أجزاء العالم كالسماء والأرض وبلدة كذا وقوم كذا وأسرة كذا، فيكون تعالى معبوداً كأحد الآلهة واقعاً في صفهم وفي عرضهم .

وقوله : (وأمرت أن أكون من المسلمين) أي من الذين أسلموا له فيما أراد ولا يريد إلا ما يهدي اليه الخلقة ويهتف بــه الفطرة وهو الدين الحنيف الفطري الذي هو ملة إبراهيم .

قوله تعالى : (وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين) معطوف على قوله : (أن أعبد) أي أمرت أن أقرأ القرآن والمراد تلاوته عليهم بدليل تفريع قوله : (فمن اهتدى) الخ ، عليه .

وقوله : (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه) أي فمن اهتدى بهذا القرآن فالذي ينتفع به هو نفسه ولا يعود نفعه إليّ .

وقوله : (ومن ضلّ فقل إنما أنا من المنذرين) أي ومن لم يهتد به بالإعراض عن ذكر ربه وهو الضلال فعليه ضلاله ووبال كفره لا عليّ لأني لست إلا منذراً مأموراً بذلك ولست عليه وكيلاً والله هو الوكيل عليه .

فالعدول عن مثل قولنا : ومن ضل فإنما أنا من المنذرين وهو الذي كان يقتضيه الظاهر إلى قوله : (فقل إنما أنا من المنذرين) لتذكيره ﷺ بما تقدم من العهد اليه أنه ليس إلا منذراً وليس اليه من أمرهم شيء فعليه أن يتوكل على ربه ويرجع أمرهم اليه كما قال : (فتوكل على الله إنك على الحق المبين إنك لا تسمع الموتى) الخ ، فكأنه قيل : ومن ضل فقل له قد سمعت أن ربي لم يجعل عليّ إلا الإنذار فلست بمسؤول عن ضلال من ضل .

قوله تعالى : (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) معطوف على قوله : (فقل إنما أنا من المنذرين) وفيه انعطاف إلى ما ذكره بعد أمر نبيه ﷺ بالتوكل عليه في أمرهم من أنــه سيجعل للمشركين عاقبة سوء

ويقضي بين بني إسرائيل فيما اختلفوا فيه ويريهم من آياته ما يضطرون إلى تصديقه ثم يجزيهم بأعمالهم .

ومحصّل المعنى : وقل الثنـــاء الجميل لله تعالى فيما يجريه في ملكه حيث دعى الناس إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم وهدى الذين آمنوا بآياته وأسلموا له وأما المكذبون فأمات قلوبهم وأصمّ آذانهم وأعمى أبصارهم فضلوا وكذّبوا بآياته .

وقوله : (سيريكم آياته فتعرفونها) إشارة الى ما تقدم من قوله : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض) وما بعـده ، وظهور قوله : (آياته) في العموم دليل على شموله لجميع الآيات التي تضطرهم إلى قبول الحق ممـا يظهر لهم قبل قيام الساعة وبعده .

وقوله : (وما ربك بغافل عمـــا تعملون) الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بمنزلة التعليل لما تقدمه أي إن أعمالكم معاشر العباد بعين ربك فلا يفوته شيء ممـا تقتضيه الحكمة قبال أعمالكم من الدعوة والهداية والإضلال وإراءة الآيات ثم جزاء المحسنين منكم والمسيئين يوم القيامة .

وقرىء (عما يعملون) بياء الغيبة ولعلها أرجح ومفادها تهديد المكذبين وفي قوله : (ربك) بإضافة الرب إلى الكاف تطييب لنفس النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتقوية لجانبه .

(بحث روائي)

في تفسير القمي في قوله تعالى : (وإذا وقع القول عليهم) الآية حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : : انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو نائم في المسجد قد جمع رملاً ووضع رأسه عليه فحركه برجله ثم قال : قم يا دابة الأرض فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله أيسمي بعضنا بعضاً بهذا الاسم ؟ فقال : لا والله ما هو إلا له خاصة وهو الدابة الذي ذكره الله في كتابه فقال : (وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) .

ثم قال : يا علي إذا كان آخر الزمان أخرجك الله في أحسن صورة ومعك ميسم تسم به أعداءك .

فقال رجل لأبي عبد الله عليه السلام : إن العامة يقولون: إن هذه الآية إنما (تكلمهم) فقال أبو عبد الله عليه السلام : كلمهم الله في نار جهنم إنما هو تكلمهم من الكلام .

أقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة من طرق الشيعة .

وفي المجمع وروى محمد بن كعب القرظي قال : سئل علي عن الدابة فقال : أمــا والله ما لها ذنب وإن لها للحية .

أقول : وهناك روايات كثيرة تصف خلقتهــا تتضمن عجائب وهي مع ذلك متعارضة متدافعة من أرادهــا فليراجع جوامع الحديث كالدر المنثور أو مطولات التفاسير كروح المعاني .

وفي تفسير القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن حماد عن أبي عبد الله عليه السلام قال : ما يقول الناس في هذه الآية (يوم نحشر من كل امة فوجاً) ؟ قلت :يقولون إنه في القيامة . قال : ليس كما يقولون إنها في الرجعة أيحشر الله في القيامة من كل امة فوجاً ويدع الباقين ؟ انما آية القيامة (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً) .

أقول : وأخبار الرجعة من طرق الشيعة كثيرة جداً .

وفي المجمع في قوله تعالى :(ونفخ في الصور) : واختلف في معنى الصور – الى أن قال – وقيل : هو قرن ينفخ فيه شبه البوق وقد ورد ذلك في الحديث .

وفيه في قوله تعالى:(إلا من شاء الله) قيل : يعني الشهداء فإنهم لا يفزعون في ذلك اليوم وروي ذلك في خبر مرفوع .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : (صنع الله الذي أتقن كل شيء) قال : فعل الله الذي أحكم كل شيء .

وفيه في قوله تعالى : (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) قال : الحسنة والله ولاية أمير المؤمنين عليه السلام والسيئة والله عداوته .

أقول : وهو من الجري وليس بتفسير وهناك روايات كثيرة في هذا المضمون ربما أمكن حملها على ما سيأتي .

وفي الخصال عن يونس بن ظبيان قال : قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام : إن الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه فتلك عبادة الحرصاء

وهو الطمع، وآخرون يعبدونه فرقاً من النار فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة، ولكني أعبده حباً لـه فتلك عبادة الكرام وهو الأمن لقوله تعالى : (وهم من فزع يومئذ آمنون) ، ولقوله : (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) فمن أحب الله أحبه الله ومن أحبه الله كان من الآمنين .

أقول : لازم ما فيه من الاستدلال تفسير الحسنة في الآية بالولاية التي هي عبادته تعالى من طريق المحبة الموجبة لفناء إرادة العبد في ارادته وتوليه تعالى بنفسه أمر عبده وتصرفه فيه وهذا أحد معنيي ولاية علي عليه‌السلام فهو عليه‌السلام صاحب الولاية وأول فاتح لهذا الباب من الامة وبه يمكن أن يفسر أكثر الروايات الواردة في أن المراد بالحسنة في الآية ولاية علي عليه‌السلام .

وفي الدر المنثور أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن كعب بن عجرة عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم في قول الله : (من جاء بالحسنة فله خير منها) يعني بها شهادة أن لا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة يعني بها الشرك يقال : هذه تنجي وهذه تردي .

أقول : وهذا المعنى مروي عنه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بألفاظ مختلفة من طرق شتى وينبغي تقييد تفسير الحسنة بلا إله إلا الله بسائر الأحكام الشرعية التي هي من لوازم التوحيد والا لغى تشريعها وهو ظاهر .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : (انما امرت أن أعبد رب هـذه البلدة الذي حرّمها) قال : مكة .

وفيه عن أبيه عن حماد بن عيسى عن حريز عن أبي عبد الله عليه‌السلام قال : لما قدم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم مكة يوم افتتحها فتح باب الكعبة فأمر بصور في الكعبة فطمست فأخذ بعضادتي الباب فقال : ألا ان الله قـد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله الى يوم القيامة لا ينفر صيدها ولا يعضد شجرها ولا يختلي خلاها ولا تحل لقطتها الا لمنشد .

فقال العباس: يا رسول الله الا الأذخر فإنه للقبر والبيوت فقال رسول الله إلا الأذخر .

أقول ، وهو مروي من طرق أهل السنة أيضاً .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود عن النبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم قال: ما كان في القرآن (وما الله بغافل عما تعملون) بالتاء، وما كان (وما ربك بغافل عما يعملون) بالياء.

تمّ والحمد لله

بعض المواضيع المبحوث عنها في هذا الجزء

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	رقم الصحيفة
سورة المؤمنون ١ — ١١	كلام في معنى تأثير الإيمان	اجتماعي	٧
»	بحث حقوقي اجتماعي	حقوقي اجتماعي	١٧
سورة النور ٣٥ — ٤٦	في معنى عليّته تعالى للأشياء	فلسفي	١٣٨
سورة الشعراء ١ — ٩	في ارتباط الأشياء بعلمه تعالى	فلسفي	٢٥٢
١٩٢—٢٢٧	في معنى نفي الظلم عنه تعالى	عقلي	٣٢٤
سورة النمل ١٥ — ٤٤	كلام في قصة سليمان عليه‌السلام	قرآني تاريخي	
»	١ — ما ورد من قصصه في القرآن	»	٣٦٧
»	٢ — الثناء عليه في القرآن	»	٣٦٨
»	٣ — ذكره في العهد العتيق	»	٣٦٨
»	٤ — الروايات الواردة في قصصه	»	٣٦٩